البداية والنهاية

للإمام الحافظ أبي الفداء
إسماعيل بن كثير الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤هـ

حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه
علي شيري

الجزء الأول

دار إحياء التراث العربي

طبعة جديدة محققة
الطبعة الاولى
١٤٠٨هـ ١٩٨٨م

دار احياء التراث العربي

فرع أول : بيروت ـ لبنان ـ بناية كليوباترا ـ شارع دكاش
هاتف : المكتب ٨٣٦٦٩٦ ـ ٣٩٥٩٥٦ ـ ٨٣٦٧٦٦ .
هاتف مؤقت : ٣٠٧٥٦٥ . المنزل: ٨٣٠٧١١ .
ص . ب: ١١/ ٧٩٥٧
برقياً :التراث
تلكس LE/ ٢٣٦٤٤ تراث .
فرع ثاني : قبرص ـ ليماسول .

Branch 1: Beyrouth- Liban- Imm K'leopatra Rue Dukkache.
Tel: Off: 836696- 395956- 836766. 307565.
Domicile: 830711.
B.P: 11- 7957 télé:r : ALTOURAS.
Telex: 23644.024 LE TORATH-
Branch 2. Cyprus- Limassoul.

البداية والنهاية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الأول والآخر ، الباطن الظاهر ، الذي هو بكل شيء عليم ، الأول فليس قبله شيء ، الآخر فليس بعده شيء ، الظاهر فليس فوقه شيء،الباطن، فليس دونه شيء ، الأزلي القديم الذي لم يزل موجوداً بصفات الكمال ، ولا يزال دائماً مستمراً باقياً سرمدياً بلا انقضاء ولا انفصال ولا زوال . يعلم دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء ، وعدد الرمال . وهو العلي الكبير المتعال ، العلي العظيم الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً .

ورفع السموات بغير عمد ، وزينها بالكواكب الزاهرات ، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً وسوى فوقهن سريراً ، شرجعاً عالياً منيفاً متسعاً مقبياً مستديراً . وهو العرش العظيم ـ له قوائم عظام ، تحمله الملائكة الكرام ، وتحفه الكروبيون عليهم الصلاة والسلام ، ولهم زجل بالتقديس والتعظيم . وكذا أرجاء السموات مشحونة بالملائكة ، ويفد منهم في كل يوم سبعون ألفاً الى البيت المعمور بالسماء الرابعة لا يعودون اليه ، آخر ما عليهم في تهليل وتحميد وتكبير وصلاة وتسليم .

ووضع الأرض للأنام على تيار الماء . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام قبل خلق السماء ، وأنبت فيها من كل زوجين اثنين ، دلالة للألباء من جميع ما يحتاج العباد اليه في شتائهم وصيفهم ، ولكل ما يحتاجون إليه ويملكونه من حيوان بهيم .

وبدأ خلق الانسان من طين ، وجعل نسله من سلالة من ماء مهين ، في قرار مكين . فجعله سميعاً بصيراً ، بعد ان لم يكن شيئاً مذكوراً . وشرفه بالعلم والتعليم . خلق بيده الكريمة آدم أبا البشر ، وصور جنته ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، وخلق منه زوجه حواء أم البشر فآنس بها وحدته ، وأسكنهما جنته ، وأسبغ عليهما نعمته . ثم أهبطهما إلى الأرض لما سبق في ذلك من حكمة الحكيم . وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، وقسمهم بقدرة العظيم ملوكاً ورعاة ، وفقراء وأغنياء ، وأحراراً وعبيداً ، وحرائر وإماء . وأسكنهم أرجاء الأرض ، طولها والعرض ، وجعلهم

خلائف فيها يخلف البعض منهم البعض ، إلى يوم الحساب والعرض على العليم الحكيم . وسخر لهم الأنهار من سائر الأقطار ، تشق الأقاليم إلى الأمصار ، ما بين صغار وكبار ، على مقدار الحاجات والأوطار ، وأنبع لهم العيون والآبار . وأرسل عليهم السحائب بالأمطار ، فأنبت لهم سائر صنوف الزرع والثمار . وآتاهم من كل ما سألوه بلسان حالهم وقالهم : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾ : فسبحان الكريم العظيم الحليم * وكان من أعظم نعمه عليهم . وإحسانه إليهم ، بعد أن خلقهم ورزقهم ويسر لهم السبيل وأنطقهم ، أن أرسل رسله إليهم ، وأنزل كتبه عليهم : مبينة حلاله وحرامه ، وأخباره وأحكامه ، وتفصيل كل شيء في المبدإ والمعاد إلى يوم القيامة .

فالسعيد من قابل الاخبار بالتصديق والتسليم ، والأوامر بالإنقياد والنواهي بالتعظيم . ففاز بالنعيم المقيم ، وزحزح عن مقام المكذبين في الجحيم ذات الزقوم والحميم ، والعذاب الأليم *

أحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه يملأ أرجاء السموات والأرضين ، دائماً أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، إلى يوم الدين ، في كل ساعة وآن ووقت وحين ، كما ينبغي لجلاله العظيم ، وسلطانه القديم ووجهه الكريم * وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ولا ولد له ولا والد له ، ولا صاحبة له ، ولا نظير ولا وزير له ولا مشير له ، ولا عديد ولا نديد ولا قسيم .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وحبيبه وخليله ، المصطفى من خلاصة العرب العرباء من الصميم ، خاتم الأنبياء ، وصاحب الحوض الأكبر الرواء ، صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة، وحامل اللواء الذي يبعثه الله المقام المحمود الذي يرغب إليه فيه الخلق كلهم حتى الخليل إبراهيم ﷺ وعلى سائر اخوانه من النبيين والمرسلين ، وسلم وشرف وكرم أزكى صلاة وتسليم ، وأعلى تشريف وتكريم . ورضي الله عن جميع أصحابه الغرّ الكرام ، السادة النجباء الأعلام ، خلاصة العالم بعد الأنبياء . ما اختلط الظلام بالضياء ، وأعلن الداعي بالنداء وما نسخ النهار ظلام الليل البهيم .

(أما بعد) فهذا كتاب أذكر فيه بعون الله وحسن توفيقه ما يسره الله تعالى بحوله وقوته من ذكر مبدإ المخلوقات : من خلق العرش والكرسي والسموات ، والأرضين وما فيهن وما بينهن من الملائكة والجان والشياطين ، وكيفية خلق آدم عليه السلام ، وقصص النبيين ، وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه . فنذكر سيرته كما ينبغي فتشفي الصدور والغليل ، وتزيح الداء عن العليل .

ثم نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا ،ونذكر الفتن والملاحم وأشراط الساعة . ثم البعث والنشور وأهوال القيامة ، ثم صفة ذلك وما في ذلك اليوم ، وما يقع فيه من الأمور الهائلة . ثم صفة النار ، ثم صفة الجنان وما فيها من الخيرات الحسان ، وغير ذلك وما يتعلق به ، وما ورد في

ذلك من الكتاب والسنة والآثار والأخبار المنقولة المقبولة عند العلماء وورثة الأنبياء ، الآخذين من مشكاة النبوة المصطفوية المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام .

ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب ، مما فيه بسط لمختصر عندنا ، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا فنذكره على سبيل التحلي به لا على سبيل الإحتياج إليه والإعتماد عليه . وإنما الإعتماد والإستناد على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، ما صح نقله أو حسن وما كان فيه ضعف نبينه . وبالله المستعان وعليه التكلان . ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم العلي العظيم .

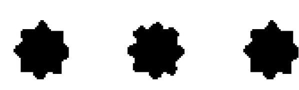
فقد قال الله تعالى في كتابه ﴿ **كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً** ﴾ وقد قص الله على نبيه ﷺ خبر ما مضى من خلق المخلوقات ، وذكر الأمم الماضين ، وكيف فعل بأوليائه ، وماذا أحل بأعدائه . وبين ذلك رسول الله ﷺ لأمته بياناً شافياً ، سنورد عند كل فصل ما وصل إلينا عنه ، صلوات الله وسلامه عليه . من ذلك تلو الآيات الواردات[1] في ذلك فأخبرنا بما نحتاج إليه من ذلك ، وترك ما لا فائدة فيه مما قد يتزاحم على علمه ويتراجم في فهمه طوائف من علماء أهل الكتاب مما لا فائدة فيه لكثير من الناس اليه . وقد يستوعب نقله طائفة من علمائنا ولسنا نحذو حذوهم ولا ننحو نحوهم ولا نذكر منها إلا القليل على سبيل الاختصار. ونبين ما فيه حق مما وافق ما عندنا ، وما خالفه فوقع فيه الإنكار .

فأما الحديث الذي رواه البخاري رحمه الله في صحيحه عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، وحدثوا عني ولا تكذبوا عليّ ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » فهو محمول على الإسرائيليات المسكوت عنها عندنا . فليس عندنا ما يصدقها ولا ما يكذبها ، فيجوز روايتها للإعتبار . وهذا هو الذي نستعمله في كتابنا هذا * فأما ما شهد له شرعنا بالصدق فلا حاجة بنا إليه استغناء بما عندنا . وما شهد له شرعنا منها بالبطلان فذاك مردود لا يجوز حكايته ، إلا على سبيل الإنكار والإبطال .

فإذا كان الله ، سبحانه وله الحمد ، قد أغنانا برسولنا محمد ، ﷺ، عن سائر الشرائع ، وبكتابه عن سائر الكتب ، فلسنا نترامى على ما بأيديهم مما وقع فيه خبط وخلط ، وكذب ووضع ، وتحريف وتبديل ، وبعد ذلك كله نسخ وتغيير .

فالمحتاج إليه قد بينه لنا رسولنا ، وشرحه وأوضحه . عرفه من عرفه ، وجهله من جهله . كما قال علي بن أبي طالب « كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله » وقال أبو ذر ، رضي الله عنه : « لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه إلا أذكرنا منه علماً »

وقال البخاري في كتاب بدء الخلق ، وروى عن عيسى بن موسى غنجار عن رقية عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال « سمعت عمر بن الخطاب يقول قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم . وأهل النار منازلهم » حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه » قال أبو مسعود الدمشقي في أطرافه هكذا قال البخاري ، وإنما رواه عيسى غنجار عن أبي حمزة عن رقية ، وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في مسنده : حدثنا أبو عاصم حدثنا عزرة بن ثابت ، حدثنا علباء بن أحمر اليشكري : حدثنا أبو زيد الأنصاري ، قال قال : صلى بنا رسول الله ﷺ « صلاة الصبح ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت الظهر ، ثم نزل فصلى الظهر . ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت العصر ، ثم نزل فصلى العصر ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غابت الشمس فحدثنا بما كان ، وما هو كائن فأعلمنا أحفظنا » انفرد باخراجه مسلم فرواه في كتاب الفتن من صحيحه عن يعقوب بن ابراهيم الدورقي وحجاج بن الشاعر ، جميعاً عن أبي عاصم الضحاك بن مخلد النبيل عن عزرة عن علباء عن أبي زيد عمرو بن أخطب بن رفاعة الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ بنحوه .



فصل

قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾ [الزمر : ٦٢] فكل ما سواه تعالى فهو مخلوق له ، مربوب ومدبَّر ، مكوَّن بعد أن لم يكن محدث بعد عدمه . فالعرش الذي هو سقف المخلوقات إلى ما تحت الثرى ، وما بين ذلك من جامد وناطق الجميع خلقه ، وملكه وعبيده وتحت قهره وقدرته ، وتحت تصريفه ومشيئته ﴿ خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام . ثم استوى على العرش . يعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير ﴾ [الحديد : ٤] .

وقد أجمع العلماء قاطبة لا يشك في ذلك مسلم أن الله خلق السموات والأرض ، وما بينهما في ستة أيام كما دل عليه القرآن الكريم . فاختلفوا في هذه الأيام أهي كأيامنا هذه أو كل يوم كألف سنة مما تعدون ؟ على قولين كما بينا ذلك في التفسير ، وسنتعرض لإيرادة في موضعه . واختلفوا هل كان قبل خلق السموات والأرض شيء مخلوق قبلهما . فذهب طوائف من المتكلمين إلى أنه لم يكن قبلهما شيء وأنهما خلقتا من العدم المحض . وقال آخرون بل كان قبل السموات والأرض مخلوقات أخر لقوله [تعالى] ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ﴾ [يونس : ٣] الآية . وفي حديث عمران بن حصين كما سيأتي « كان الله ولم يكن قبله شيء وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض » وقال الإمام أحمد بن

حنبل حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة حدثنا أبو يعلى[١] بن عطاء عن وكيع بن حُدس عن عمه أبي رزين لقيط بن عامر العقيلي أنه قال « يا رسول الله أين كان[٢] ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض ؟ قال : كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء[٣] ثم خلق عرشه على الماء » ورواه عن يزيد بن هرون عن حماد بن سلمة به . ولفظه أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ وباقيه سواء وأخرجه الترمذي عن أحمد بن منيع وابن ماجة عن أبي بكر بن أبي شيبة ومحمد بن الصباح ثلاثتهم عن يزيد بن هرون ، وقال الترمذي حسن . واختلف هؤلاء في أيها خلق أولاً ؟ فقال قائلون خلق القلم قبل هذه الأشياء كلها ، وهذا هو اختيار ابن جرير ، وابن الجوزي ، وغيرهما قال ابن جرير ، وبعد القلم السحاب الرقيق . واحتجوا بالحديث الذي رواه الإمام أحمد ، وأبو داود والترمذي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه : قال قال رسول الله ﷺ « إن أول ما خلق الله القلم . ثم قال له أكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » لفظ أحمد[٤]. وقال الترمذي حسن صحيح غريب . والذي عليه الجمهور فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره (أن العرش مخلوق قبل ذلك) وهذا هو الذي رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس كما دل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه[٥]. حيث قال : حدثني أبو الطاهر أحمد بن عمرو [بن عبد الله بن عمرو] بن السرح حدثنا ابن وهب أخبرني أبو هانىء الخولاني عن أبي عبد الرحمن الجيلي[٦] عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « كتب الله مقادير الخلائق[٧] قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال وعرشه على الماء قالوا فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير . وقد دل هذا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش فثبت تقديم العرش على القلم الذي كتب به المقادير . وقد دل هذا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش فثبت تقديم العرش على القلم الذي كتب به المقادير كما ذهب إلى ذلك الجماهير . ويحمل حديث

---

(١) مسند أحمد ج ٤ / ١١ و ١٢ وفي الروايتين عن يعلى بن عطاء وليس أبو يعلى .

(٢) قوله أين كان : للسؤال عن المكانة دون المكان كما نص عليه ابن العربي في شرح الترمذي . وفي عماء أي في حجاب معنوي يحول دون العلم به فيتفق الممدود والمقصور في المعنى . قال يزيد بن هارون : عماء أي ليس معه شيء . وهو أجود ما ذكره . وحمل (في) على معنى (على) هنا لا يجدي ولا يبعد الأمر عن التمكن .

(٣) ما تحته هواء : قال البيهقي في الأسماء : أي ما تحت السماء هواء ، والمراد بالسحاب ليس السحاب المعهود الذي فوقه هواء وتحته هواء بل المراد السحاب المعنوي والحجاب الذي يحجب عن العلم به سبحانه (قاله ابن العربي) .

(٤) مسند أحمد ج ٥ / ٣١٧ .

(٥) ٤٦ كتاب القدر (٢) باب حجاج آدم (ص) - ١٦ - ٢٦٥٣ ص ٢٠٤٤ .

(٦) عند مسلم : الحبلي .

(٧) كتب الله مقادير الخلائق : قال العلماء : المراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره ، لا أصل التقدير . فإن ذلك أزلي لا أول له .

القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم . ويؤيد هذا ما رواه البخاري عن عمران بن حصين : قال قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ « جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر فقال كان الله ولم يكن شيء قبله » وفي رواية معه ، وفي رواية غيره « وكان عرشه على الماء . وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض » وفي لفظ : ثم خلق السموات والأرض . فسألوه عن ابتداء خلق السموات والأرض . ولهذا قالوا جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فأجابهم عما سألوا فقط . ولهذا لم يخبرهم بخلق العرش كما أخبر به في حديث أبي رزين المتقدم . قال ابن جرير وقال آخرون « بل خلق الله عز وجل الماء قبل العرش » رواه السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ : قالوا « ان الله كان عرشه على الماء[1]، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء » وحكى ابن جرير عن محمد بن اسحاق أنه قال « أول ما خلق الله عز وجل النور والظلمة ثم ميز بينهما فجعل الظلمة ليلاً أسود مظلماً ، وجعل النور نهاراً مضيئاً مبصراً » قال ابن جرير وقد قيل « إن الذي خلق ربنا بعد القلم الكرسي . ثم خلق بعد الكرسي العرش . ثم خلق بعد ذلك الهواء والظلمة . ثم خلق الماء فوضع عرشه على الماء » والله سبحانه وتعالى أعلم .

فصل

فيما ورد في صفة خلق العرش والكرسي . قال الله تعالى ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش ﴾ [غافر : ١٥] وقال تعالى ﴿ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ [المؤمنون : ١١٦] وقال الله ﴿ لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ [المؤمنون : ٨٦] وقال ﴿ وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد ﴾ [البروج : ١٤] . وقال تعالى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ [طه : ٥] وقال ﴿ استوى على العرش ﴾ [الرعد : ٢] في غير ما آية من القرآن ، وقال تعالى ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ [غافر : ٧] وقال تعالى ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ [الحاقة : ١٧] وقال تعالى ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ [الزمر : ٧٥] وفي الدعاء المروي في الصحيح في دعاء الكرب « لا إله إلا الله العظيم الحليم . لا إله إلا الله رب العرش الكريم . لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم » . وقال الإمام أحمد[2] حدثنا عبد الرزاق حدثنا يحيى بن العلاء عن عمه شعيب بن

---

(١) قال ابن العربي : « وكان عرشه على الماء » والذي عندي أنه أراد بالعرش الخلق كله ـ وهو بهذا المعنى وعلى الماء بمعنى يمسكه بقدرته لا بعمد ترافده وأساس يعاضده .

(٢) مسند أحمد ج ١ / ٢٠٦ وسقط فيه الأحنف بن قيس .

خالد حدثني سماك بن حرب عن عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن عباس بن عبد المطلب قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ بالبطحاء فمرت سحابة فقال رسول الله ﷺ « أتدرون ما هذا قال قلنا السحاب قال والمزن قال قلنا والمزن قال والعنان قال فسكتنا فقال هل تدرون كم بين السماء والأرض قال قلنا الله ورسوله أعلم . قال بينهما مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وكشف كل سماء[1] مسيرة خمسمائة سنة وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض . ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن واظلافهن كما بين السماء والأرض ثم على ظهورهم[2] العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض والله فوق ذلك وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء » . هذا لفظ الإمام أحمد . ورواه أبو داود وابن ماجة والترمذي من حديث سماك باسناده نحوه . وقال الترمذي هذا حديث حسن ، وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك ووقفه ولفظ أبي داود « وهل تدرون بعد ما بين السماء والأرض ؟ قالوا لا ندري » قال « بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتين أو ثلاثة وسبعون سنة » والباقي نحوه . وقال أبو داود حدثنا عبد الأعلى بن حماد ومحمد بن المثنى ومحمد بن بشار ، وأحمد بن سعيد الرباطي قالوا حدثنا وهب بن جرير . قال أحمد كتبناه من نسخته وهذا لفظه . قال حدثنا أبي قال سمعت محمد بن اسحاق يحدث عن يعقوب بن عقبة عن جبير بن محمد بن جبير ابن مطعم عن أبيه عن جده قال أتى رسول الله ﷺ اعرابي فقال يا رسول الله جهدت الأنفس وجاعت العيال[3] ونهكت الأموال وهلكت الأنعام . فاستسق الله لنا فانا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك » قال رسول الله ﷺ « ويحك أتدري ما تقول » وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه . ثم قال « ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك ويحك أتدري ما الله إن عرشه على سمواته لهكذا » وقال بأصابعه مثل القبة عليه وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب . قال ابن بشار في حديثه « ان الله فوق عرشه وعرشه فوق سمواته » وساق الحديث . وقال عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار عن يعقوب بن عقبة وجبير بن محمد بن جبير عن أبيه عن جده ، قال أبو داود والحديث بإسناد أحمد بن سعيد وهو الصحيح . وافقه عليه جماعة منهم يحيى بن معين وعلي بن المديني ورواه جماعة منهم عن ابن اسحاق كما قال أحمد أيضاً ، وكان سماع عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار في نسخة واحدة فيما بلغني . تفرد بإخراجها أبو داود ، وقد صنف الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقي جزءاً في الرد على هذا الحديث . سماه (ببيان الوهم والتخليط الواقع في حديث الأطيط) واستفرغ وسعه في الطعن على محمد بن إسحاق بن بشار راويه . وذكر كلام الناس فيه ، ولكن قد روى هذا اللفظ من طريق أخرى عن غير محمد بن

---

(١) كذا في الأصل ، وفي المسند وكيف بالياء ، ولعل الصواب كثف .

(٢) في المسند : ثم فوق ذلك .

(٣) كذا في الأصل ، وفي سنن أبي داود : وضاعت العيال .

إسحاق ، فرواه عبد بن حميد وابن جرير في تفسيريهما ، وابن أبي عاصم والطبراني في كتابي السنة لهما ، والبزار في مسنده والحافظ الضياء المقدسي في مختارته من طريق أبي إسحاق السبيعي عن عبد الله بن خليفة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال « أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت ادع الله أن يدخلني الجنة قال فعظم الرب تبارك وتعالى وقال « إن كرسيه وسع السموات والأرض وإن له أطيطاً كأطيط الزحل الجديد من ثقله . عبد الله بن خليفة هذا ليس بذاك المشهور . وفي سماعه من عمر نظر . ثم منهم من يرويه موقوفاً ومرسلاً ، ومنهم من يزيد فيه زيادة غريبة والله أعلم *

وثبت في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال « إذا سألتم الله الجنة فسلوه الفردوس فانه أعلى الجنة وأوسط الجنة وفوقه عرش الرحمن ». يروى وفوقه بالفتح على الظرفية ، وبالضم . قال شيخنا الحافظ المزي وهو أحسن ، أي وأعلاها عرش الرحمن . وقد جاء في بعض الآثار (أن أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش وهو تسبيحه وتعظيمه) وما ذاك إلا لقربهم منه . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال «لقد اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ[1] . وذكر الحافظ ابن الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتاب صفة العرش عن بعض السلف « أن العرش مخلوق من ياقوتة حمراء بعدما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة » وذكرنا عند قوله تعالى ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ [المعارج : ٤] أنه بعدما بين العرش إلى الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة واتساعه خمسون ألف سنة . وقد ذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة ولذا سموه الفلك التاسع والفلك الأطلس والأثير . وهذا ليس بجيد لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة ، والفلك لا يكون له قوائم ولا يحمل ، وأيضاً فانه فوق الجنة والجنة فوق السموات وفيها مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فالبعد الذي بينه وبين الكرسي ليس هو نسبة فلك إلى فلك . وأيضاً فإن العرش في اللغة عبارة عن السرير الذي للملك كما قال تعالى ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ [النمل : ٢٣]. وليس هو فلكاً ولا تفهم منه العرب ذلك . والقرآن إنما نزل بلغة العرب فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة ، وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات . قال الله تعالى ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ [غافر : ٧] وقد تقدم في حديث الأوعال أنهم ثمانية ، وفوق ظهورهن العرش ، وقال تعالى : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ [الحاقة : ١٧] وقال شهر بن حوشب « حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد

---

(١) قال أبو علي بن محمد بن مهدي الطبري : الصحيح من التأويل في هذا أن يقال الاهتزاء هو الاستبشار والسرور (الاسماء والصفات ص ٥٠٣).

علمك » وأربعة يقولون « سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك » فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن محمد هو أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن اسحاق عن يعقوب بن عقبة[1]عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ صدق أمية يعني ابن أبي الصلت في بيتين من شعره فقال :

رَجُلٌ وثورٌ تحتَ رِجلِ يمينه　　　والنسْرُ للأخرى وليثٌ مرصد[2]

فقال رسول الله ﷺ صدق . فقال :

والشمسُ تطلع كل آخر ليلةٍ　　　حمراءَ مطلعُ لونها متوردُ[3]
تأبَى فلا تبدو لنا في رسلها　　　إلا معذبةً وإلا تجلد

فقال رسول الله ﷺ « صدق » فانه حديث صحيح الإسناد رجاله ثقات . وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة ، فيعارضه حديث الأوعال . اللهم إلا أن يقال إن اثبات هؤلاء الأربعة على هذه الصفات لا ينفي ما عداهم . والله أعلم . ومن شعر أمية بن أبي الصلت في العرش قوله :

مجّدوا الله فهو للمجدِ أهلُ　　　ربنا في السماءِ أمسى كبيرا
بالبناء العالي الذي بَهَرَ النا　　　سَ وسوّى فوقَ السماء سريرا
شَرْجعاً لا يناله بَصَرُ العيـ　　　ـن ترى حوله الملائكَ صورا

صور جمع أصور وهو المائل العنق لنظره الى العلو[4]والشرجع هو العالي المنيف . والسرير هو العرش في اللغة . ومن شعر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه الذي عرض به عن القراءة لأمرأته حين اتهمته بجاريته .

شهدتُ بأن وعدَ الله حقٌ　　　وأن النارَ مثوى الكافرينا
وأن العرشَ فوق الماء طافٍ　　　وفوق العرش ربُّ العالمينا
وتحمله ملائكةٌ كرامٌ　　　ملائكةُ الآلهِ مسوَّمينا

---

(١) مسند أحمد ج ٢٥٦/١ وفيه يعقوب بن عتبة ؛ وفي التقريب ابن عُتْبة وفي الكاشف ابن عتبة الثقفي ثقة من العلماء مات سنة ١٢٨ هـ . وقال إبراهيم بن سعد : كان ورعاً مسلماً يستعمل على الصدقات ويستعين به الولاة . وكذلك هو ابن عتبة في الطبري والأغاني .

(٢) قال الجاحظ في الحيوان ٦٨/٦ طبع مصر : وقد جاء في الخبر أن من الملائكة من هو في صورة الرجال ومنهم من هو في صورة الثيران، ومنهم من هو في صورة النسور ويدل على ذلك تصديق النبي ﷺ لأمية . . » وأورد البيت .

(٣) في المسند : حمراء يصبح لونها بتورد .

(٤) صور جمع أصور وهو المائل العنق لثقل حمله . (اللسان) .

ذكره ابن عبد البر وغير واحد من الأئمة * وقال أبو داود حدثنا أحمد بن حفص بن عبد الله حدثني أبي حدثنا إبراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال « أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام . ورواه ابن أبي عاصم ولفظه محقق الطير[1] مسيرة سبعمائة عام .

وأما الكرسيّ

فروى ابن جرير من طريق جويبر[2] وهو ضعيف ـ عن الحسن البصري أنه كان يقول لكرسي هو العرش وهذا لا يصح عن الحسن بل الصحيح عنه وعن غيره من الصحابة والتابعين أنه غيره وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنهما قالا في قوله تعالى ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾[3] أي علمه والمحفوظ عن ابن عباس كما رواه الحاكم في مستدركه . وقال إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه من طريق سفيان الثوري عن عمار الدهني عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل . وقد رواه شجاع بن مخلد الفلاس في تفسيره عن أبي عاصم النبيل عن الثوري فجعله مرفوعاً والصواب أنه موقوف على ابن عباس وحكاه ابن جرير عن أبي موسى الأشعري والضحاك بن مزاحم واسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير ومسلم البطين وقال السدي عن أبي مالك « الكرسي تحت العرش . وقال السدي السموات والأرض في جوف الكرسي والكرسي بين يدي العرش » وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال : « لو أن السموات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ما كن في سعة الكرسي إلاّ بمنزلة الحلقة في المفازة » وقال ابن جرير حدثني يونس حدثنا ابن وهب قال : قال ابن زيد حدثني أبي قال : قال رسول الله ﷺ : « ما السموات السبع في الكرسي إلاّ كدراهم سبعة ألقيت في ترس » قال وقال أبو ذر سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض » أول الحديث مرسل . وعن أبي ذر منقطع . وقد روي عنه من طريق أخرى موصولاً فقال الحافظ أبو بكر بن مردوية في تفسيره أخبرنا سليمان بن أحمد الطبراني أنبأنا عبد الله بن وهيب المغربي أنبأنا محمد بن أبي سري العسقلاني أنبأنا محمد بن عبد الله التميمي عن القاسم بن محمد الثقفي عن أبي ادريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري أنه سأل رسول الله ﷺ عن

---

(١) قوله محقق الطير ، كذا بالأصول ولم نعثر له على معنى . . .

(٢) يقال اسمه جابر وجويبر لقب ، ابن سعيد الأزدي أبو قاسم البلخي نزيل الكوفة . تركوه . قال ابن حجر : ضعيف جداً مات بعد المائة والأربعين (التقريب ١/١٣٦) (الكاشف ١/١٣٣) .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٥٥ .

الكرسي فقال رسول الله ﷺ « والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة » وقال ابن جرير في تاريخه حدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبي عن سفيان عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير قال : سئل ابن عباس عن قوله عز وجل وكان عرشه على الماء على أي شيء كان الماء ؟ قال : على متن الريح قال : والسموات والأرضون وكل ما فيهن من شيء تحيط بها البحار ويحيط بذلك كله الهيكل ويحيط بالهيكل فيما قيل الكرسي . وروى[1]عن وهب ابن منبه نحوه . وفسر وهب الهيكل فقال شيء من أطراف السموات يحدق بالأرضين والبحار كأطناب الفسطاط * وقد زعم بعض من ينتسب إلى علم الهيئة أن الكرسي عبارة عن الفلك الثامن الذي يسمونه فلك الكواكب الثوابت . وفيما زعموه نظر لأنه قد ثبت أنه أعظم من السموات السبع بشيء كثير ورد الحديث المتقدم بأن نسبتها إليه كنسبة حلقة ملقاة بأرض فلاة وهذا ليس نسبة فلك إلى فلك . فإن قال قائلهم فنحن نعترف بذلك ونسميه مع ذلك فلكاً فنقول الكرسي ليس في اللغة عبارة عن الفلك وإنما هو كما قال غير واحد من السلف بين يدي العرش كالمرقاة إليه . ومثل هذا لا يكون فلكاً . وزعم أن الكواكب الثوابت مرصعة فيه لا دليل لهم عليه . هذا مع اختلافهم في ذلك أيضاً كما هو مقرر في كتبهم والله أعلم .

ذكر اللوح المحفوظ

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا منجاب بن الحارث حدثنا إبراهيم بن يوسف حدثنا زياد بن عبد الله عن ليث عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس أن نبي الله ﷺ قال « ان الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء صفحاتها من ياقوتة حمراء ، قلمه نور وكتابه نور لله فيه في كل يوم ستون وثلثمائة لحظة يخلق ويرزق ويميت ويحيى ويعز ويذل ويفعل ما يشاء » وقال اسحاق بن بشر أخبرني مقاتل وابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال « إن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله . فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة » قال « واللوح المحفوظ لوح من درة بيضاء . طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب . وحافتاه الدر والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وقلمه نور ، وكلامه معقود بالعرش ، وأصله في حجر ملك » وقال أنس بن مالك ، وغيره من السلف « اللوح المحفوظ في جبهة إسرافيل » وقال مقاتل هو عن يمين العرش .

ما وَرَدَ في خلق السموات والأرض وما بينهما

قال الله تعالى ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ثم

---

(١) أي ابن جرير .

الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ [الأنعام : ١] وقال تعالى ﴿ خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴾ [هود : ٧] في غير ما آية من القرآن وقد اختلف المفسرون في مقدار هذه الستة الأيام على قولين . فالجمهور على أنها كأيامنا هذه . وعن ابن عباس ، ومجاهد والضحاك ، وكعب الأحبار : أن كل يوم منها كألف سنة مما تعدون . رواهن ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، واختار هذا القول الإمام أحمد بن حنبل في كتابه الذي رد فيه على الجهمية ، وابن جرير وطائفة من المتأخرين والله أعلم . وسيأتي ما يدل على هذا القول . وروى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم ، وغيره أن أسماء الأيام الستة « أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت » وحكى ابن جرير في أول الأيام ثلاثة أقوال ، فروى عن محمد بن اسحاق أنه قال « يقول أهل التوراة ابتدأ الله الخلق يوم الأحد ، ويقول أهل الإنجيل : ابتدأ الله الخلق يوم الاثنين ، ونقول نحن المسلمون فيما انتهى إلينا عن رسول الله ﷺ ابتدأ الله الخلق يوم السبت » وهذا القول الذي حكاه ابن اسحاق عن المسلمين مال اليه طائفة من الفقهاء من الشافعية ، وغيرهم . وسيأتي فيه حديث أبي هريرة (خلق الله التربة يوم السبت) والقول بأنه الأحد رواه ابن جرير عن السدي عن أبي مالك ، وأبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن جماعة من الصحابة ورواه أيضاً عن عبد الله بن سلام ، واختاره ابن جرير . وهو نص التوراة ، ومال إليه طائفة آخرون من الفقهاء . وهو أشبه بلفظ الأحد ولهذا كمل الخلق في ستة أيام فكان آخرهن الجمعة فاتخذه المسلمون عيدهم في الأسبوع وهو اليوم الذي أضل الله عنه أهل الكتاب قبلنا كما سيأتي بيانه ان شاء الله . وقال تعالى ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم ﴾ [البقرة : ٢٩] وقال تعالى : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح ، وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم﴾ [فصلت : ٩] فهذا يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء لأنها كالأساس للبناء كما قال تعالى : ﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ [غافر : ٦٤] قال تعالى ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً إلى أن قال وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً ﴾ [المرسلات : ٢٥] وقال [تعالى] ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾ [الأنبياء : ٣٠] أي فصلنا ما بين السماء والأرض حتى هبت الرياح ونزلت الأمطار وجرت العيون ، والأنهار وانتعش الحيوان . ثم قال ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون ﴾ [الأنبياء : ٣٢] أي عما خلق فيها من الكواكب الثوابت ، والسيارات والنجوم

الزاهرات والأجرام النيرات ، وما في ذلك من الدلالات على حكمة خالق الأرض والسموات كما قال تعالى ﴿ **وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ [يوسف : ١٠٥] فأما قوله تعالى ﴿ **أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم** ﴾ [النازعات : ٢٨] فقد تمسك بعض الناس بهذه الآية على تقدم خلق السماء على خلق الأرض . فخالفوا صريح الآيتين المتقدمتين ولم يفهموا هذه الآية الكريمة فان مقتضى هذه الآية أن دحي الأرض وإخراج الماء والمرعى منها بالفعل بعد خلق السماء . وقد كان ذلك مقدراً فيها بالقوة كما قال تعالى ﴿ **وبارك فيها وقدر فيها أقواتها** ﴾ [فصلت : ١٠] أي هيأ أماكن الزرع ومواضع العيون والأنهار ثم لما أكمل خلق صورة العالم السفلي والعلوي دحى الأرض فأخرج منها ما كان مودعاً فيها فخرجت العيون وجرت الأنهار ، ونبت الزرع والثمار ولهذا فسر الدحي بإخراج الماء والمرعى منها وإرساء الجبال فقال ﴿ **والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها** ﴾ وقوله ﴿ **والجبال أرساها** ﴾ [المرسلات : ٣٠ - ٣٢] أي قررها في أماكنها التي وضعها فيها وثبتها وأكدها وأطدها وقوله ﴿ **والسماء بنيناها بايد وإنا لموسعون ، والأرض فرشناها فنعم الماهدون ، ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾ [الذاريات : ٣٧] بأيد أي بقوة . وأنا لموسعون ، وذلك أن كل ما علا اتسع فكل سماء أعلى من التي تحتها فهي أوسع منها . ولهذا كان الكرسي أعلى من السموات . وهو أوسع منهن كلهن . والعرش أعظم من ذلك كله بكثير . وقوله بعد هذا ﴿ **والأرض فرشناها** ﴾ أي بسطناها وجعلناها مهداً أي قارة ساكنة غير مضطربة ولا مائدة بكم . ولهذا قال ﴿ **فنعم الماهدون** ﴾ والواو لا تقتضي الترتيب في الوقوع . وإنما يقتضي الإخبار المطلق في اللغة والله أعلم *

وقال البخاري حدثنا عمر بن جعفر بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثنا جامع بن شداد عن صفوان بن محرز أنه حدثه عن عمران بن حصين قال « دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال اقبلوا البشرى يا بني تميم » قالوا قد بشرتنا فاعطنا مرتين ثم دخل عليه ناس من اليمن فقال « اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إن لم يقبلها بنو تميم » قالوا قد قبلنا يا رسول الله قالوا جئناك نسألك عن هذا الأمر . قال « كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض » فنادى مناد ذهبت ناقتك يا ابن الحصين فانطلقت فاذا هي تقطع دونها السراب فوالله لوددت اني كنت تركتها » هكذا رواه ها هنا وقد رواه في كتاب المغازي وكتاب التوحيد وفى بعض ألفاظه ﴿ **ثم خلق السموات والأرض** ﴾ وهو لفظ النسائي أيضاً . وقال الإمام أحمد بن حنبل[1] حدثنا حجاج حدثني ابن جريج أخبرني إسماعيل بن

(١) مسند أحمد ج ٢/٣٢٧.

مية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال « أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال [فيها] يوم الأحد وخلق الشجر [فيها] يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاث[1]وخلق النور يوم الأربعاء وبث [فيها] الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر خلق خلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » وهكذا رواه مسلم عن سريج بن يونس وهرون بن عبد الله والنسائي عن هرون ويوسف بن سعيد ثلاثتهم عن حجاج بن محمد المصيصي الأعور عن ابن جريج به مثله سواء . وقد رواه النسائي في التفسير عن إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني عن محمد ابن الصباح عن أبي عبيدة الجداد عن الأخضر بن عجلان عن ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة « إن رسول الله ﷺ أخذ بيدي فقال يا أبا هريرة « إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش يوم السابع ، وخلق التربة يوم السبت » وذكر تمامه بنحوه فقد اختلف فيه على ابن جريج وقد تكلم في هذا الحديث على ابن المديني والبخاري والبيهقي وغيرهم من الحفاظ قال البخاري في التأريخ ، وقال بعضهم عن كعب وهو أصح يعني أن هذا الحديث مما سمعه أبو هريرة وتلقاه من كعب الأحبار فإنهما كانا يصطحبان ويتجالسان للحديث ، فهذا يحدثه عن صحفه ، وهذا يحدثه بما يصدقه عن النبي ﷺ، فكان هذا الحديث مما تلقاه أبو هريرة عن كعب عن صحفه ، فوهم بعض الرواة فجعله مرفوعاً إلى النبي ﷺ ، وأكد رفعه بقوله « أخذ رسول الله ﷺ بيدي » ثم في متنه غرابة شديدة . فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السموات ، وفيه ذكر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام . وهذا خلاف القرآن لأن الأرض خلقت في أربعة أيام ثم خلقت السموات في يومين من دخان . وهو بخار الماء الذي ارتفع حين اضطرب الماء العظيم الذي خلق من ربذة الأرض بالقدرة العظيمة البالغة كما قال إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في خبر ذكره عن أبي مالك ، وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى[2]السماء فسواهن سبع سموات» قال إن الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء * ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعل سبع أرضين في يومين (الأحد والاثنين) وخلق الأرض على حوت وهو النون الذي قال الله تعالى ﴿ نون والقلم وما يسطرون ﴾[3]والحوت

---

(١) في المسند : الثلاثاء وما بين معكوفين في الحديث زيادة من المسند .

(٢) قال البيهقي في الأسماء ص ٥٢٠ : قال يحيى بن زياد الفراء : الإستواء في كلام العرب على جهتين : احداهما : ان يستوي الرجل وينتهي شبابه وقوته ؛ أو يستوي من اعوجاج ، ووجه ثالث : أن تقول كان مقبلاً عليّ فلان يشاتمني والي سواء على معنى أقبل إليّ وعليّ . وعن ابن عباس قال : استوى : صعد .

(٣) سورة القلم الآية ١ .

في الماء والماء على صفات والصفات على ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة في الريح . وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء ولا في الأرض فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض فأرسى عليها الجبال فقرت . وخلق الله يوم الثلاثاء الجبال وما فيهن من المنافع ، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب وفتق السماء وكانت رتقاً فجعلها سبع سموات في يومين الخميس والجمعة . وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض وأوحى في كل سماء أمرها . ثم قال خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والبحار وجبال البرد وما لا يعلمه غيره . ثم زين السماء بالكواكب فجعلها زينة وحفظاً يحفظ من الشياطين ، فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش . هذا الإسناد يذكر به السدي أشياء كثيرة فيها غرابة وكان كثير منها متلقى من الإسرائيليات . فإن كعب الأحبار لما أسلم في زمن عمر كان يتحدث بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأشياء من علوم أهل الكتاب فيستمع له عمر تأليفاً له ، وتعجباً مما عنده مما يوافق كثير منه الحق الذي ورد به الشرع المطهر فاستجاز كثير من الناس نقل ما يورده كعب الأحبار لهذا ، ولما جاء من الأذن في التحديث عن بني إسرائيل لكن كثيراً ما يقع مما يرويه غلط كبير وخطأ كثير ❋

وقد روى البخاري في صحيحه[(١)] عن معاوية أنه كان يقول في كعب الأحبار ﴿ وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب ﴾ أي فيما ينقله لا أنه يتعمد ذلك والله أعلم ❋

ونحن نورد ما نورده من الذي يسوقه كثير من كبار الأئمة المتقدمين عنهم . ثم نتبع ذلك من الأحاديث بما يشهد له بالصحة أو يكذبه ويبقى الباقي مما لا يصدق ولا يكذب وبه المستعان وعليه التكلان .

قال البخاري حدثنا قتيبة حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشي عن أبي زناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي » وكذا رواه مسلم[(٢)] والنسائي عن قتيبة به . ثم قال البخاري :[(٣)]

---

(١) صحيح البخاري ـ من حديث الزهري عن حميد بن عبد الرحمن انه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة . وذكر كعب الأحبار فقال : انه كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا لنبلو مع ذلك عليه الكذب .

(٢) البخاري ـ كتاب بدء الخلق ـ ج ٤ / ٧٣ . عند مسلم في ٤٩ كتاب التوبة ج ١٤ (٢٧٥١) عن قتيبة بن سعد وفيه : لما خلق الله .

وقوله عنده : قال العيني في شرح البخاري : والعندية ليست مكانية بل إشارة إلى كمال كونه مكنوناً عن الخلق ، مرفوعاً عن حيز إدراكهم .

(٣) في كتاب بدء الخلق . باب ما جاء في سبع أرضين .

ما جاء في سبع أرضين

وقوله تعالى ﴿ والله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ؛ وان الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾(١) ثم قال حدثنا علي بن عبد الله أخبرنا ابن علية عن علي بن المبارك حدثنا يحيى بن أبي كثير عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وكانت بينه وبين ناس خصومة في أرض فدخل على عائشة فذكر لها ذلك . فقالت : يا أبا سلمة اجتنب الأرض فان رسول الله ﷺ قال « من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين » ورواه أيضاً في كتاب المظالم ومسلم من طرق عن يحيى بن كثير به * ورواه أحمد من حديث محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة به ، ورواه أيضاً عن يونس عن إبان عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عائشة بمثله . ثم قال البخاري حدثنا بشر بن محمد قال أخبرنا عبد الله عن موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه قال قال النبي ﷺ « من أخذ شيئاً من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين » ورواه في المظالم أيضاً عن مسلم بن إبراهيم عن عبد الله هو ابن المبارك عن موسى بن عقبة به وهو من أفراده . وذكر البخاري ها هنا حديث محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه ، قال قال رسول الله ﷺ « الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثني عشر شهراً » الحديث ومراده والله أعلم تقرير قوله تعالى ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ﴾ أي في العدد كما أن عدة الشهور الآن اثني عشر مطابقة لعدة الشهور عند الله في كتابه الأول فهذه مطابقة في الزمن كما أن تلك مطابقة في المكان . ثم قال البخاري حدثنا عبيد بن إسماعيل حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أنه خاصمته أروى(٢) في حق زعمت أنه انتقصه لها إلى مروان فقال سعيد رضي الله عنه أنا انتقص من حقها شيئاً ؟ أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول « من أخذ شبراً من الأرض ظلماً فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين » ورواه(٣).

وقال الإمام أحمد حدثنا حسن وأبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا عبد الله ابن لهيعة حدثنا عبد الله(٤) بن أبي جعفر عن أبي عبد الرحمن عن ابن مسعود قال « قلت يا رسول الله أي الظلم أعظم ؟ قال : ذراع من الأرض ينتقصه المرء المسلم من حق أخيه فليس حصاة من الأرض يأخذها

---

(١) سورة الطلاق الآية ١٢ .

(٢) أروى بفتح الهمزة وسكون الراء وهي أروى بنت أبي أوس .

(٣) قوله ورواه هكذا بالأصل : وفي البخاري : قال ابن أبي الزناد عن هشام عن أبيه (عروة) قال قال لي سعيد بن زيد : دخلت على النبي ﷺ.

(٤) مسند أحمد ج ١ /٣٩٧ وفيه : عبيد الله بدل عبد الله .

أحد إلا طوقها يوم القيامة إلى قعر الأرض ، ولا يعلم قعرها إلا الذي خلقها » تفرد به أحمد . وهذا إسناد لا بأس به . وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا سهيل عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه طوقه من سبع أرضين » تفرد به من هذا الوجه وهو على شرط مسلم . وقال أحمد حدثنا يحيى عن ابن عجلان حدثني أبي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « من اقتطع شبراً من الأرض بغير حقه طوقه إلى سبع أرضين » تفرد به أيضاً وهو على شرط مسلم . وقال أحمد أيضاً حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال « من أخذ من الأرض شبراً بغير حقه طوقه من سبع أرضين » تفرد به أيضاً وقد رواه الطبراني من حديث معاوية بن قرة عن ابن عباس مرفوعاً مثله *

فهذه الأحاديث كالمتواترة في إثبات سبع أرضين والمراد بذلك أن كل واحدة فوق الأخرى والتي تحتها في وسطها عند أهل الهيئة حتى ينتهي الأمر إلى السابعة وهي صماء لا جوف لها ، وفي وسطها المركز وهي نقطة مقدرة متوهمة . وهو محط الأثقال ، إليه ينتهي ما يهبط من كل جانب إذا لم يعاوقه مانع . واختلفوا هل هن متراكمات بلا تفاصل أو بين كل واحدة والتي تليها خلاء على قولين وهذا الخلاف جار في الأفلاك أيضاً . والظاهر أن بين كل واحدة والتي تليها خلاء على قولين . وهذا الخلاف جار في الأفلاك أيضاً . والظاهر أن بين كل واحدة منهن وبين الأخرى مسافة لظاهر قوله تعالى ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن ﴾الآية وقال الإمام أحمد حدثنا شريح حدثنا الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة قال « بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ مرت سحابة فقال « أتدرون ما هذه قلنا الله ورسوله أعلم قال العنان وزوايا الأرض تسوقه إلى من لا يشكرونه من عباده ولا يدعونه أتدرون ما هذه فوقكم : قلنا الله ورسوله أعلم قال الرفيع موج مكفوف وسقف محفوظ أتدرون كم بينكم وبينها قلنا الله ورسوله أعلم . قال مسيرة خمسمائة سنة . ثم قال أتدرون ما الذي فوقها قلنا الله ورسوله أعلم قال مسيرة خمسمائة عام حتى عد سبع سموات * ثم قال أتدرون ما فوق ذلك قلنا الله ورسوله أعلم قال العرش أتدرون كم بينه وبين السماء السابعة قلنا الله ورسوله أعلم قال مسيرة خمسمائة عام . ثم قال أتدرون ما هذه تحتكم قلنا الله وروسله أعلم قال أرض أتدرون ما تحتها قلنا الله ورسوله أعلم قال أرض أخرى أتدرون كم بينها قلنا الله ورسوله أعلم . قال مسيرة سبعمائة عام حتى عد سبع أرضين ثم قال وأيم الله لو دليتم أحدكم إلى الأرض السفلى السابعة لهبط . ثم قرأ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم وورواه الترمذي عن عبد بن حميد ، وغير واحد عن يونس بن محمد المؤدب عن شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة ، قال حدث الحسن عن أبي هريرة وذكره إلا أنه ذكر أن بعدما بين كل أرضين خمسمائة عام وذكر في آخره كلمة[1]ذكرناها عند تفسير هذه الآية من

---

(١) في المسند : والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم رجلاً بحبل الى الأرض السفلى لهبط على الله . قال ابن

سورة الحديد ثم قال الترمذي هذا حديث غريب من هذا الوجه قال ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد أنهم قالوا لم يسمع الحسن من أبي هريرة * ورواه أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره من حديث أبي جعفر الرازي عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة فذكر مثل لفظ الترمذي سواء بدون زيادة في آخره ورواه ابن جرير في تفسيره عن بشر عن يزيد عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلاً وقد يكون هذا أشبه والله أعلم . ورواه الحافظ أبو بكر البزار والبيهقي من حديث أبي ذر الغفاري عن النبي ﷺ ولكن لا يصح إسناده والله أعلم[1] *

وقد تقدم عند صفة العرش من حديث الأوعال ما يخالف هذا في ارتفاع العرش عن السماء السابعة وما يشهد له . وفيه وبعد ما بين كل سماءين خمسمائة عام ،وكثفها أي سمكها خمسمائة عام * وأما ما ذهب إليه بعض المتكلمين على حديث (طوقه من سبع أرضين) أنها سبعة أقاليم . فهو قول يخالف ظاهر الآية والحديث الصحيح وصريح كثير من ألفاظه مما يعتمد من الحديث الذي أوردناه من طريق الحسن عن أبي هريرة . ثم إنه حمل الحديث والآية على خلاف ظاهرهما بلا مستند ولا دليل والله أعلم . وهكذا ما يذكره كثير من أهل الكتاب وتلقاه عنهم طائفة من علمائنا من أن هذه الأرض من تراب والتي تحتها من حديد والأخرى من حجارة من كبريت والأخرى من كذا فكل هذا إذا لم يخبر به ويصح سنده إلى معصوم فهو مردود على قائله . وهكذا الأثر المروي عن ابن عباس أنه قال : في كل أرض من الخلق مثل ما في هذه حتى آدم كآدمكم وإبراهيم كإبراهيمكم فهذا ذكره ابن جرير مختصراً واستقصاه البيهقي في الأسماء والصفات وهو محمول إن صح نقله عنه على أنه أخذه ابن عباس رضي الله عنه عن الإسرائيليات والله أعلم *

وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا العوام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال قال نعم الحديد . قالت يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد قال نعم النار . قالت يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار قال نعم الريح . قالت يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح قال نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها من شماله تفرد به أحمد *

وقد ذكر أصحاب الهيئة إعداد جبال الأرض في سائر بقاعها شرقاً وغرباً ، وذكروا طولها وبعد إمتدادها وإرتفاعها وأوسعوا القول في ذلك بما يطول شرحه هنا . وقد قال الله تعالى ﴿ ومن

= العربي : والمقصود من الخبر ان نسبة الباري من الجهات الى فوق كنسبته إلى تحت ، إذ لا ينسب إلى الكون في واحدة منهما بذاته .

(١) قال البيهقي في الأسماء ص ٥٠٦ : هذه الرواية اشتهرت فيما بين الناس . . . والذي روي في آخر الحديث إشارة الى نفي المكان عن الله تعالى وان العبد أينما كان فهو في القرب والبعد من الله تعالى سواء ؛ وانه الظاهر .

الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴾[1] قال ابن عباس وغير واحد الجدد الطرائق وقال عكرمة وغيره الغرابيب الجبال الطوال السود . وهذا هو الشاهد من الجبال في سائر الأرض تختلف باختلاف بقاعها وألوانها . وقد ذكر الله تعالى في كتابه الجودي على التعيين وهو جبل عظيم شرقي جزيرة ابن عمر إلى دجلة . عند الموصل إمتداده من الجنوب إلى الشمال مسيرة ثلاثة أيام وإرتفاعه مسيرة نصف يوم وهو أخضر لأن فيه شجراً من البلوط وإلى جانبه قرية يقال لها قرية الثمانين لسكنى الذين نجوا في السفينة مع نوح عليه السلام في موضعها فيما ذكره غير واحد من المفسرين والله أعلم .

فصل في البحارَ والأنهَار

قال الله تعالى ﴿ وهو الذي سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾ [النحل : ١٤ - ١٥] وقال تعالى ﴿ وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ [فاطر : ١٢] وقال تعالى ﴿ وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ﴾ [الفرقان : ٥٣] وقال تعالى : ﴿ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ [الرحمن : ١٩ - ٢٠] فالمراد بالبحرين البحر الملح المر وهو الأجاج والبحر العذب هو هذه الأنهار السارحة بين أقطار الأمصار لمصالح العباد قاله ابن جريج وغير واحد من الأئمة . وقال تعالى : ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا ويعفو عن كثير ﴾ [الشورى : ٣٣] وقال تعالى ﴿ ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختال كفور ﴾ [لقمان : ٣١] وقال تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ [الحج : ٦٥] فامتن تعالى

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٧ .

الجدد جمع جُدة . قال الزهري : الطرائق أو الخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض . . .

على عباده بما خلق لهم من البحار والأنهار فالبحر المحيط بسائر أرجاء الأرض وما ينبت منه في جوانبها الجميع مالح الطعم مر وفي هذا حكمة عظيمة لصحة الهواء إذ لو كان حلواً لأنتن الجو وفسد الهواء بسبب ما يموت فيه من الحيوانات فكان يؤدي إلى تفاني بني آدم ولكن اقتضت الحكمة البالغة أن يكون على هذه الصفة لهذه المصلحة . ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن البحر قال : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته »[1].

وأما الأنهار فماؤها حلوٌ عذب فرات سائغ شرابها لمن أراد ذلك . وجعلها جارية سارحة ينبعها تعالى في أرضٍ ويسوقها إلى أخرى رزقاً للعباد . ومنها كبار ومنها صغار بحسب الحاجة والمصلحة . وقد تكلم أصحاب علم الهيئة والتفسير على تعداد البحار والأنهار الكبار وأصول منابعها وإلى أين ينتهي سيرها بكلام فيه حكم ودلالات على قدرة الخالق تعالى ، وأنه فاعل بالإختيار والحكمة ـ قوله تعالى ﴿ والبحر المسجور ﴾ [الطور : ٦] فيه قولان أحدهما أن المراد به البحر الذي تحت العرش المذكور في حديث الأوعال . وأنه فوق السموات السبع بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء ، وهو الذي ينزل منه المطر قبل البعث فتحيا منه الأجساد من قبورها . وهذا القول هو اختيار الربيع بن أنس . والثاني أن البحر اسم جنس يعم سائر البحار التي في الأرض وهو قول الجمهور *

واختلفوا في معنى البحر المسجور فقيل المملوء وقيل يصير يوم القيامة ناراً تؤجج فيحيط بأهل الموقف كما ذكرناه في التفسير عن علي وابن عباس وسعيد بن جبير وابن مجاهد وغيرهم . وقيل المراد به الممنوع المكفوف المحروس عن أن يطغى فيغمر الأرض ومن عليها فيغرقوا . رواه الوالبي عن ابن عباس وهو قول السدي وغيره ويؤيده الحديث الذي رواه الإمام أحمد[1]حدثنا يزيد حدثنا العوام حدثني شيخ كان مرابطاً بالساحل قال « لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب فقال حدثنا عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ قال « ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات [على الأرض] يستأذن الله عز وجل أن يتفصح عليهم فيكفه الله عز وجل » ورواه اسحاق بن راهوية

---

(١) اخرجه أحمد في مسنده ٢/ ٢٢٧ ، ٢٦١ ، ٢٧٨، ٢٩٢؛ ٣ /٢٧٣ ؛ ٥ /٢٦٥ . وأبو داود في الطهارة والترمذي في الطهارة والنسائي في الطهارة والمياه والصيد . وأخرجه ابن ماجة في الطهارة . وفي موطأ مالك والدارمي في الوضوء والصيد .

(٢) سورة الطور الآية ٦ .

في معنى المسجور قال مجاهد : الموقد ؛ وافقه الضحاك وشمر بن عطية ومحمد بن كعب ، والأخفش : انه بمنزلة التنور المسجور ـ الموقد المحمى ـ .

وعن ابن عباس قال : المسجور الذي ذهب ماؤه . وقيل المسجور أي المفجور .

وعند المهايمي : أورده بعد السقف المرفوع للاشارة إلى أنه إذا ارتفع العمل إلى السماء فاض منها على العبد من العلوم ما يجعله بحراً من المحبة ما يسجر بنار الشوق إلى ربه .

عن يزيد بن هـرون عن العوام بن حوشب حدثني شيخ مرابط قال « خرجت ليلة المحرس لم يخرج أحد من المحرس غيري فأتيت الميناء فصعدت فجعل يخيل إليّ أن البحر يشرف يحاذي برءوس الجبال فعل ذلك مراراً وأنا مستيقظ فلقيت أبا صالح فقال حدثنا عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال « ما من ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات يستأذن الله أن يتفصح عليهم فيكفه الله عز وجل في إسناده رجل مبهم والله أعلم .

وهذا من نعمه تعالى على عباده أن كف شر البحر عن أن يطغى عليهم وسخره لهم يحمل مراكبهم ليبلغوا عليها إلى الأقاليم النائية بالتجارات وغيرها وهداهم فيه بما خلقه في السماء والأرض من النجوم والجبال التي جعلها لهم علامات يهتدون بها في سيرهم وبما خلق لهم فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة العزيزة الحسنة الثمينة التي لا توجد إلا فيه وبما خلق فيه من الدواب الغريبة وأحلها لهم حتى ميتتها كما قال تعالى ﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه ﴾ وقال النبي ﷺ « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » وفي الحديث الأخر « أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال » رواه أحمد وابن ماجة وفي إسناده نظر *

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده « وجدت في كتاب عن محمد بن معاوية البغدادي حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رفعه قال « كلم الله هذا البحر الغربي وكلم البحر الشرقي فقال للغربي إني حامل فيك عباداً من عبادي فكيف أنت صانع بهم قال أغرقهم . قال بأسك في نواحيك وحرمه الحلية والصيد ، وكلم هذا البحر الشرقي فقال إني حامل فيك عباداً من عبادي فما أنت صانع بهم قال أحملهم على يدي ، وأكون لهم كالوالدة لولدها فأثابه الحلية والصيد * ثم قال لا تعلم أحداً . ما رواه عن سهيل إلا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر وهو منكر الحديث . قال وقد رواه سهيل عن عبد الرحمن بن أبي عياش عن عبد الله بن عمرو موقوفاً . قلت الموقوف على عبد الله بن عمرو بن العاص أشبه فإنه قد كان وجد يوم اليرموك ذاملتين مملوءتين كتباً من علوم أهل الكتاب فكان يحدث منهما بأشياء كثيرة من الإسرائيليات منها المعروف والمشهور والمنكور والمردود . فأما المعروف فترد به عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أبو القاسم المدني قاضيها . قال فيه الإمام أحمد ليس بشيء وقد سمعته منه * ثم مزقت حديثه كان كذاباً وأحاديثه مناكير * وكذا ضعفه بن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والجوزجاني والبخاري وأبو داود والنسائي وقال ابن عدي عامة أحاديثه مناكير وأفظعها حديث البحر *

قال علماء التفسير المتكلمون على العروض والأطوال والبحار والأنهار والجبال والمساحات وما في الأرض من المدن والخراب والعمارات والأقاليم السبعة الحقيقية في إصطلاحهم والأقاليم المتعددة العرفية وما في البلدان والأقاليم من الخواص والنباتات وما يوجد في كل قطر من صنوف

المعادن والتجارات قالوا الأرض مغمورة بالماء العظيم إلاّ مقدار الربع منها وهو تسعون درجة والعناية الإلهية اقتضت إنحسار الماء عن هذا القدر منها لتعيش الحيوانات عليها وتنبت الزرع والثمار منها كما قال تعالى ﴿ والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف والريحان فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ [الرحمن : ١٠ - ١٣] قالوا المعمور من هذا البادي منها قريب الثلثين منه أو أكثر قليلاً . وهو خمس وتسعون درجة . قالوا فالبحر المحيط الغربي ويقال له أوقيانوس وهو الذي يتاخم بلاد المغرب وفيه الجزائر الخالدات وبينها وبين ساحله عشر درج مسافة شهر تقريباً وهو بحر لا يمكن سلوكه ولا ركوبه لكثرة موجه وإختلاف ما فيه من الرياح والأمواج وليس فيه صيد ولا يستخرج منه شيء ولا يسافر فيه لمتجر ولا لغيره وهو آخذ في ناحية الجنوب حتى يسامت الجبال القَمَر ويقال جبال القمر التي منها أصل منبع نيل مصر ويتجاوز خط الاستواء * ثم يمتد شرقاً ويصير جنوبي الأرض . وفيه هناك جزائر الزابج وعلى سواحله خراب كثير * ثم يمتد شرقاً وشمالاً حتى يتصل ببحر الصين والهند * ثم يمتد شرقاً حتى يسامت[1] نهاية الأرض الشرقية المكشوفة . وهناك بلاد الصين . ثم ينعطف في شرق الصين إلى جهة الشمال حتى يجاوز بلاد الصين ويسامت سد يأجوج ومأجوج . ثم ينعطف ويستدير على أراضي غير معلومة الأحوال * ثم يمتد مغرباً في شمال الأرض ويسامت بلاد الروس ويتجاوزها ويعطف مغرباً وجنوباً ويستدير على الأرض ويعود إلى جهة الغرب وينبثق من الغربي إلى متن الأرض الزقاق الذي ينتهي أقصاه إلى أطراف الشام من الغرب * ثم يأخذ في بلاد الروم حتى يتصل بالقسطنطينية وغيرها من بلادهم .

وينبعث من المحيط الشرقي بحار أخر فيها جزائر كثيرة ، حتى إنه يقال : إن في بحر الهند ألف جزيرة وسبعمائة جزيرة فيها مدن وعمارات سوى الجزائر العاطلة ويقال لها البحر الأخضر فشرقيه بحر الصين وغربيه بحر اليمن وشماله بحر الهند وجنوبيه غير معلوم *

وذكروا أن بين بحر الهند وبحر الصين جبالاً فاصلة بينهما وفيها فجاج يسلك المراكب بينها يسيرها لهم الذي خلقها كما جعل مثلها في البر أيضاً قال الله تعالى ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بكم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلكم تهتدون ﴾ * وقد ذكر بطليموس أحد ملوك الهند في كتابه المسمى بالمجسطي الذي عرب في زمان المأمون ، وهو أصل هذه العلوم أن البحار المتفجرة من المحيط الغربي والشرقي والجنوبي والشمالي كثيرة جداً . فمنها ما هو واحد ، ولكن يسمى بحسب البلاد المتاخمة له . فمن ذلك بحر القلزم . والقلزم قرية على ساحله قريب من أيلة . وبحر فارس وبحر الخزر وبحر ورنك وبحر الروم وبحر بنطش وبحر الأزرق ، مدينة على ساحله وهو بحر القرم أيضاً ويتضايق حتى يصب في بحر الروم عند جنوبي القسطنطينية وهو خليج القسطنطينية ،

---

(١) يسامت : يسير .

ولهذا تسرع المراكب في سيرها من القرم إلى بحر الروم وتبطىء إذا جاءت من الاسكندرية إلى القرم لإستقبالها جريان الماء . وهذا من العجائب في الدنيا فإن كل ماء جار فهو حلو إلا هذا وكل بحر راكدٍ فهو ملح أجاج إلّا ما يذكر عن بحر الخزر وهو بحر جرجان وبحر طبرستان أن فيه قطعة كبيرة ماء حلواً فراتاً على ما أخبر به المسافرون عنه .

قال أهل الهيئة وهو بحر مستدير الشكل إلى الطول ما هو * وقيل إنه مثلث كالقلع وليس هو متصلاً بشيء من البحر المحيط بل منفرد وحده ، وطوله ثمانمائة ميل وعرضه ستمائة وقيل أكثر من ذلك والله أعلم .

ومن ذلك البحر الذي يخرج منه المد والجزر عند البصرة وفي بلاد المغرب نظيره أيضاً يتزايد الماء من أول الشهر ولا يزال في زيادة إلى تمام الليلة الرابعة عشر منه وهو المد * ثم يشرع في النقص وهو الجزر إلى آخر الشهر * وقد ذكروا تحديد هذه البحار ومبتداها ومنتهاها وذكروا ما في الأرض من البحيرات المجتمعة من الأنهار وغيرها من السيول وهي البطائح *

وذكروا ما في الأرض من الأنهار المشهورة الكبار ، وذكروا ابتداءها وإنتهاءها ولسنا بصدد بسط ذلك والتطويل فيه وإنما نتكلم على ما يتعلق بالأنهار الوارد ذكرها في الحديث . وقد قال الله تعالى : ﴿ **الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾ ففي الصحيحين من طريق قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ لما ذكر سدرة المنتهى قال فإذا يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران . فأما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات * وفي لفظ في البخاري وعنصرهما أي مادتهما أو شكلهما وعلى صفتهما ونعتهما وليس في الدنيا مما في الجنة الاسماوية وفي صحيح مسلم من حديث عبيد الله بن عمر عن خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة » .

وقال الإمام أحمد حدثنا ابن نمير ويزيد أنبأنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ « فجرت أربعة أنهار من الجنة الفرات والنيل وسيحان وجيحان » وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم . وكأن المراد والله أعلم من هذا أن هذه الأنهار تشبه أنهار الجنة في صفائها وعذوبتها وجريانها ومن جنس تلك في هذه الصفات ونحوها كما قال في الحديث الآخر الذي رواه الترمذي وصححه من طريق سعيد بن عامر عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « العجوة من الجنة وفيها شفاء من السمّ » أي تشبه ثمر الجنة لا أنها مجتناة من الجنة ، فان الحس يشهد بخلاف ذلك فتعين أن المراد غيره وكذا قوله ﷺ « الحمى من فيح جهنم

فابردوها بالماء » وكذا قوله « إذا اشتد الحمى فأبردوها بالماء فإن شدة الحر من فيح جهنم » * وهكذا هذه الأنهار أصل منبعها مشاهد من الأرض *

أما النيل . وهو النهر الذي ليس في أنهار الدنيا له نظير في خفته ولطافته وبعد مسراه فيما بين مبتداه إلى منتهاه فمبتداه من الجبال القمر أي البيض ومنهم من يقول جبال القمر بالإضافة إلى الكوكب وهي في غربي الأرض وراء خط الإستواء إلى الجانب الجنوبي . ويقال إنها حمر ينبع من بينها عيون * ثم يجتمع من عشر مسيلات متباعدة . ثم يجتمع كل خمسة منها في بحر . ثم يخرج منها أنهار ستة . ثم يجتمع كلها في بحيرة أخرى . ثم يخرج منها نهر واحد هو النيل فيمر على بلاد السودان الحبشة ثم على النوبة ومدينتها العظمى دمقلة ثم على أسوان ثم يفد على ديار مصر[1]. وقد تحمل إليها من بلاد الحبشة زيادات أمطارها واجترف من ترابها وهي محتاجة إليهما معاً لأن مطرها قليل لا يكفي زروعها وأشجارها . وتربتها رمال لا تنبت شيئاً حتى يجيء النيل بزيادته وطينه فينبت فيه ما يحتاجون إليه وهي من أحق الأراضي بدخولها في قوله تعالى ﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ ثم يجاوز النيل مصر قليلاً فيفترق شطرين عند قرية على شاطئه يقال لها شطنوف فيمر الغربي على رشيد ويصب في البحر المالح * وأما الشرق فتفترق أيضاً عند جوجر فرقتين تمر الغربية منها على دمياط من غربيها ويصب في البحر والشرقية منها تمر على أشمون طناح فيصب هناك في بحيرة شرقي دمياط . يقال لها بحيرة تنيس وبحيرة دمياط . وهذا بعد عظيم فيما بين مبتداه إلى منتهاه . ولهذا كان الطف المياه * قال ابن سينا له خصوصيات دون مياه سائر الأرض * فمنها انه أبعدها مسافة من مجراه إلى أقصاه . ومنها أنه يجري على صخور ورمال[1] ليس فيه خز ولا طحلب ولا أوحال ومنها أنه لا يخضر فيه حجر ولا حصاة وما ذاك إلا لصحة مزاجه وحلاوته ولطافته . ومنها إن زيادته في أيام نقصان سائر الأنهار . ونقصانه في أيام زيادتها وكثرتها وأما ما يذكره بعضهم من أن أصل منبع النيل من مكان مرتفع أطلع عليه بعض الناس فرأى هناك هولاً عظيماً وجواري حساناً وأشياء غريبة وأن الذي أطلع على ذلك لا يمكنه الكلام بعد هذا فهو من خرافات المؤرخين وهذيانات الأفاكين *

وقد قال عبد الله بن لهيعة عن قيس بن الحجاج عمن حدثه قال « لما فتح عمرو بن عاص مصر أتى أهلها إليه حين دخل شهر بؤنة من أشهر العجم (القبطية) فقالوا : (أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلاّ بها فقال لهم وما ذاك قالوا إذا كان لثنتي عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في هذا النيل ، فقال لهم عمرو إن هذا لا يكون في الإسلام وأن الإسلام يهدم ما قبله فأقاموا بؤنة والنيل لا يجرى لا قليلاً ولا كثيراً * وفي رواية فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى وهو لا يجري حتى هموا بالجلاء . فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك فكتب إليه عمر إنك قد أصبت بالذي فعلت وإني قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابي هذا فألقها في النيل فلما قدم كتابه أخذ عمرو

البطاقةففتحها فإذا فيها « من عند الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر (أما بعد) فان كنت تجري من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يُجريك فنسأل الله أن يجريك فألقى عمرو البطاقة في النيل فأصبح يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة وقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم *

وأما الفرات فأصلها من شمالي أررن الروم فتمر إلى قرب ملطيه ثم تمر على شميشاط . ثم على البيرة قبليها ثم تشرق إلى بالس وقلعة جعبر ثم الرقة ثم إلى الرحبة شماليها ثم إلى عانة ، ثم إلى هيت ثم إلى الكوفة ثم تخرج إلى فضاء العراق ويصب في بطائح كبار أي بحيرات وترد إليها ويخرج منها أنهار كبار معروفة .

وأما سيحان ويقال له سيحون أيضاً فأوله من بلاد الروم ويجري من الشمال والغرب إلى الجنوب والشرق وهو غربي مجرى جيحان ودونه في القدر وهو ببلاد الأرض التي تعرف اليوم ببلاد سيس وقد كانت في أول الدولة الإسلامية في أيدي المسلمين * فلما تغلب الفاطميون على الديار المصرية وملكوا الشام وأعمالها عجزوا عن صونها عن الأعداء فتغلب تقفور الأرمني على هذه البلاد أعني بلاد سيس في حدود الثلاثمائة وإلى يومنا هذا . والله المسؤل عودها إلينا بحوله وقوته . ثم يجتمع سيحان وجيحان عند اذنه فيصيران نهراً واحداً . ثم يصبان في بحر الروم بين أياس وطرسوس *

وأما جيحان ويقال له جيحون أيضاً وتسميه العامة جاهان . وأصله في بلاد الروم ويسير في بلاد سيس من الشمال إلى الجنوب وهو يقارب الفرات في القدر * ثم يجتمع هو وسيحان عند اذنة فيصيران نهراً واحداً * ثم يصبان في البحر عند إياس وطرسوس والله أعلم *

فصل

قال الله تعالى ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون * وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ وقال تعالى ﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه

تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ [النحل ۔ ١٠].

فذكر تعالى ما خلق في الأرض من الجبال والأشجار والثمار والسهول والأوعار وما خلق من صنوف المخلوقات من الجمادات والحيوانات في البراري والقفار والبر والبحار ما يدل على عظمته وقدرته وحكمته ورحمته بخلقه وما سهل لكل دابة من الرزق الذي هي محتاجة إليه في ليلها ونهارها وصيفها وشتائها وصباحها ومسائها كما قال تعالى ﴿ وما من دابة في الأرض إلاّ على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ [هود : ٦] وقد روى الحافظ أبو يعلى عن محمد بن المثنى عن عبيد بن واقد عن محمد بن عيسى بن كيسان عن محمد بن المنكدر عن جابر عن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول خلق الله ألف أمة منها ستمائة في البحر وأربعمائة في البر . وأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد فإذا هلك تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه .

(عبيد بن واقد) أبو عباد البصري ضعفه أبو حاتم وقال بن عدي عامة ما يرويه لا يتابع عليه وشيخه أضعف منه . قال الفلاس والبخاري منكر الحديث ، وقال أبو زرعة لا ينبغي أن يحدث عنه . وضعفه ابن حبان والدارقطني وأنكر عليه ابن عدي هذا الحديث بعينه وغيره والله أعلم *

وقال تعالى ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾[الأنعام : ٣٨].

ذكر ما يتعلق بخلق السّموات وما فيهنّ من الآيات

قد قدمنا أن خلق الأرض قبل خلق السماء كما قال تعالى ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم ﴾ [البقرة : ٢٩] وقال تعالى ﴿ قل ائنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ [فصلت : ٩] وقال تعالى ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها ﴾[1]فان الدحي غير الخلق ، وهو بعد

(١) سورة النازعات الآيات ٢٧ ـ

خلق السماء وقال تعالى ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور * الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير * ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ [الملك : ٥] وقال تعالى ﴿ وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً ﴾ [النبأ : ١٢] وقال تعالى ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ [نوح : ١٥] وقال تعالى ﴿ الله الذي خلق سبع سموات والأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ [الطلاق : ١٢] وقال تعالى ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً . وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾ [الفرقان : ٦١] وقال تعالى ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ [الصافات : ٦] وقال تعالى ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ [الحجر : ١٦] وقال تعالى ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ [الأنبياء : ٣٢] وقال تعالى ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ﴾ [يس : ٣٧] وقال تعالى : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ [الأنعام : ٩٦] وقال تعالى ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ [الأعراف : ٥٤] وقال تعالى ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ [الذاريات : ٧] والآيات في هذا كثيرة جداً وقد تكلمنا على كل منها في التفسير *

والمقصود أنه تعالى يخبر عن خلق السموات وعظمة إتساعها وإرتفاعها وأنها في غاية الحسن والبهاء والكمال والسناء كما قال تعالى ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ أي الخلق الحسن وقال تعالى

---

* دحاها أي بسطها ، وهذا يشير إلى كون الأرض بعد السماء ؛ والعرب تقول : دحوت الشيء أدحوه دحواً : بسطته . وقيل : دحاها سواها وقيل دحاها : حرثها وشقها ومهدها الأقوات .

﴿فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾[الملك : ٣][1]أي خاسئاً عن أن يرى فيها نقصاً أو خللاً وهو حسير أي كليل ضعيف ولو نظر حتى يعي ويكل ويضعف لما اطلع على نقص فيها ولا عيب لأنه تعالى قد أحكم خلقها وزين بالكواكب أفقها كما قال ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ [البروج : ١][2]أي النجوم * وقيل محال الحرس التي يرمي منها بالشهب لمسترق السمع ولا منافاة بين القولين وقال تعالى ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ [الحجر : ١٦] فذكر أنه زين منظرها بالكواكب الثوابت والسيارات ﴿ الشمس والقمر والنجوم الزاهرات ﴾ وأنه صان حوزتها عن حلول الشياطين بها وهذا زينة معنى * فقال وحفظناها من كل شيطان رجيم كما قال ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ﴾ [الصافات : ٦].

قال البخاري في كتاب بدء الخلق وقال قتادة ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ [فصلت : ١٢] خلق هذه النجوم الثلاث جعلها زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها فمن تأول بغير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به * وهذا الذي قاله قتادة مصرح به في قوله تعالى ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ وقال تعالى ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾ [الأنعام : ٩٧] فمن تكلف غير هذه الثلاث أي من علم أحكام ما تدل عليه حركاتها ومقارناتها في سيرها وأن ذلك يدل على حوادث أرضية فقد أخطأ . وذلك أن أكثر كلامهم في هذا الباب ليس فيه إلاّ حدس وظنون كاذبة ودعاوى باطلة . وذكر تعالى أنه خلق سبع سموات طباقاً أي واحدة فوق واحدة * واختلف أصحاب الهيئة هل هن متراكمات أو متفاصلات بينهن خلاء على قولين . والصحيح الثاني لما قدمنا من حديث عبد الله بن عميرة عن الأحنف عن العباس في حديث الأوعال أن رسول الله ﷺ قال أتدرون كم بين السماء والأرض قلنا الله ورسوله أعلم . قال بينهما مسيرة خمسمائة عام . ومن كل سماء إلى سماء خمسمائة سنة وكثف كل سماء خمسمائة سنة * الحديث بتمامه رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة والترمذي وحسنه * وفي الصحيحين من حديث أنس في حديث الإسراء قال فيه (ووجد في السماء الدنيا آدم فقال له جبريل هذا أبوك آدم فسلم عليه فرد عليه السلام . وقال

---

(١) سورة الملك الآية ٣ .

قال القرطبي ١٧ / ٣١ في الحبك سبعة أقوال : الخلق الحسن المستوي ـ ذات الزينة ـ ذات النجوم ـ ذات الطرائق ـ ذات الشدة ـ ذات الصفاقة ـ المجرة التي في السماء .

(٢) سورة البروج الآية ١ .

قال القرطبي : ج ١٩ /٢٨٣ قسم أقسم به الله جل وعز وفي البروج أربعة أقوال : النجوم ـ القصور ـ البروج فيها الحرس ـ البروج هي ذات الخلق الحسن ـ المنازل .

مرحباً وأهلاً بابني نعم الابن أنت ـ إلى أن قال ـ ثم عرج إلى السماء الثانية * وكذا ذكر في الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) فدل على التفاصل بينها لقوله ثم عرج بنا حتى أتينا السماء الثانية فاستفتح فقيل من هذا (الحديث) * وهذا يدل على ما قلناه والله أعلم .

وقد حكى ابن حزم وابن المنير وأبو الفرج ابن الجوزى وغير واحد من العلماء الإجماع على أن السموات كرة مستديرة * واستدل على ذلك بقوله كلٌ في فلك يسبحون . قال الحسن يدورون ، وقال ابن عباس في فلكة مثل فلكة المغزل . قالوا ويدل على ذلك أن الشمس تغرب كل ليلة من المغرب ثم تطلع في آخرها من المشرق كما قال أمية ابن أبي الصلت .

والشمس تطلع كل آخر ليلة * حمراء مطلع لونها متورد *

تأبى فلا تبدو لنا في رسلها * إلاّ معذبة وإلا تجلد فأما الحديث الذي رواه البخاري حيث قال حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس تدري أين تذهب قلت الله ورسوله أعلم قال فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها . يقال لها إرجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى : ﴿ **والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ [يس : ٣٨] .

هذا لفظه في بدء الخلق ورواه في التفسير * وفي التوحيد من حديث الأعمش أيضاً ورواه مسلم في الإيمان من طريق الأعمش ومن طريق يونس بن عبيد وأبو داود من طريق الحكم بن عتبة كلهم عن إبراهيم بن يزيد بن شريك عن أبيه عن أبي ذر به نحوه . وقال الترمذي حسن صحيح * إذا علم هذا فإنه حديث لا يعارض ما ذكرناه من إستدارة الأفلاك التي هي السموات على أشهر القولين ولا يدل على كرية العرش كما زعمه زاعمون . قد أبطلنا قولهم فيما سلف ولا يدل على أنها تصعد إلى فوق السموات من جهتنا حتى تسجد تحت العرش بل هي تغرب عن أعيننا وهي مستمرة في فلكها الذي هي فيه وهو الرابع فيما قاله غير واحد من علماء التفسير . وليس في الشرع ما ينفيه بل في الحس وهو الكسوفات ما يدل عليه ويقتضيه فإذا ذهبت فيه حتى تتوسطه وهو وقت نصف الليل مثلاً في إعتدال الزمان بحيث يكون بين القطبين الجنوبي والشمالي فإنها تكون أبعد ما يكون من العرش لأنه مقبب من جهة وجه العالم وهذا محل سجودها كما يناسبها كما أنها أقرب ما تكون من العرش وقت الزوال من جهتنا فإذا كانت في محل سجودها استأذنت الرب جل جلاله في طلوعها من الشرق فيؤذن لها فتبدو من جهة الشرق وهي مع ذلك كارهة لعصاة بني آدم أن تطلع عليهم ولهذا قال أمية .

تأبى فلا تبدو لنا في رسلها إلاّ معذبة وإلا تجلد

فإذا كان الوقت الذي يريد الله طلوعها من جهة مغربها تسجد على عادتها وتستأذن في

الطلوع من عادتها فلا يؤذن لها فجاء أنها تسجد أيضاً ثم تستأذن فلا يؤذن لها ثم تسجد فلا يؤذن لها وتطول تلك الليلة كما ذكرنا في التفسير ، فتقول يا رب إن الفجر قد اقترب وأن المدى بعيد فيقال لها إرجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فإذا رآها الناس آمنوا جميعاً . وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، وفسروا بذلك قوله تعالى: ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ قيل لوقتها الذي تؤمر فيه تطلع من مغربها * وقيل مستقرها موضعها الذي تسجد فيه تحت العرش * وقيل منتهى سيرها وهو آخر الدنيا . وعن ابن عباس أنه قرأ والشمس تجري لا مستقر لها أي ليست تستقر فعلى هذا تسجد وهي سائرة . ولهذا قال تعالى ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ أي لا تدرك الشمس القمر فتطلع في سلطانه ودولته ولا هو أيضاً ولا الليل سابق النهار أي ليس سابقه بمسافة يتأخر ذاك عنه فيها بل إذا ذهب النهار جاء الليل في أثره متعقباً له كما قال في الآية الأخرى ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾

وقال تعالى ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾ [الفرقان : ٦٢] أي يخلف هذا لهذا وهذا لهذا كما قال رسول الله ﷺ « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم » فالزمان المحقق ينقسم إلى ليل ونهار وليس بينهما غيرهما * ولهذا قال تعالى ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ [لقمان : ٢٩] فيولج من هذا في هذا ، أي يأخذ من طول هذا في قصر هذا فيعتدلان كما في أول فصل الربيع يكون الليل قبل ذلك طويلاً والنهار قصيراً فلا يزال الليل ينقص والنهار يتزايد حتى يعتدلا وهو أول الربيع * ثم يشرع النهار يطول ويتزايد والليل يتناقص حتى يعتدلا أيضاً في أول فصل الخريف * ثم يشرع الليل يطول ويقصر النهار إلى آخر فصل الخريف * ثم يترجح النهار قليلاً قليلاً ويتناقص الليل شيئاً فشيئاً حتى يعتدلا في أول فصل الربيع كما قدمنا ، وهكذا في كل عام . ولهذا قال تعالى ﴿ وله اختلاف الليل والنهار ﴾ [المؤمنون : ٨٠] أي هو المتصرف في ذلك كله الحاكم الذي لا يخالف ولا يمانع ولهذا يقول في ثلاث آيات[1] عند ذكر السموات والنجوم والليل والنهار ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ أي العزيز الذي قد قهر كل شيء ودان له كل شيء فلا يمانع ولا يغالب العليم بكل شيء فقدر كل شيء تقديراً على نظام لا يختلف ولا يضطرب . وقد ثبت في الصحيحين[2] من حديث سفيان بن عيينة عن

---

(١) يقول تعالى: ﴿ والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ الأنعام ٩٦ .
﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ يس ٣٨ .
﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ فصلت ١٢ .

(٢) رواه مسلم في ٤٠ كتاب الألفاظ من الأدب - ١ - باب النهي عن سب الدهر ح ٢٢٤٦ ص ١٧٦٢ والبخاري ح

الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « قـال الله يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار » وفي رواية فأنا الدهر أقلب ليله ونهاره *

قال العلماء كالشافعي وأبي عبيد القاسم بن سلام وغيرهما يسب الدهر أي يقـول فعل بنـا الدهر كذا يا خيبة الدهر ، أيتم الأولاد ، أرمل النساء . قال الله تعالى (وأنا الدهر) أي أنا الدهر الذي يعنيه فإنه فاعل ذلك الذي أسنده إلى الدهر والدهر مخلوق ، وإنما فعـل هذا هـو الله فهو يسب فاعل ذلك ويعتقده الدهر . والله هو الفاعل لذلك الخالق لكل شيء المتصرف في كل شيء كما قال وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب ليله ونهاره وكما قال تعالى ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير * تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ [آل عمران : ٢٧] وقال تعالى ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق . يفصل الآيات لقوم يعلمون إن في إختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيـات لقوم يتقـون ﴾ [يونس : ٥ . ٦] أي فاوت بين الشمس والقمر في نـورهما وفي شكلهـا وفي وقتهما وفي سيـرهما فجعل هذا ضياء وهو شعاع الشمس برهان ساطع وضوء باهر والقمر نوراً أي أضعـف من برهان الشمس وجعله مستفاداً من ضوئها وقدره منازل أي يطلع أول ليلة من الشهر صغيراً ضئيلاً قليل النور لقربه من الشمس وقلة مقابلته لها فبقدر مقابلته لها يكون نوره ولهذا في الليلة الثانيـة يكون أبعد منها بضعف ما كان في الليلة الأولى فيكون نوره بضعف النور أول ليلة * ثم كلما بعد إزداد نوره حتى يتكامل إبداره ليلة مقابلته إياها من المشرق وذلك ليلة أربع عشرة من الشهر* ثم يشرع في النقص لإقترابه إليها من الجهة الأخرى إلى آخر الشهر فيستتر حتى يعود كما بدأ في أول الشهر الثاني . فبه تعرف الشهور وبالشمس تعرف الليالي والأيام وبذلك تعرف السنين والأعوام ولهذا قال تعالى ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ وقال تعالى ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ [الإسراء : ١٢] وقـال تعالى ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ [البقرة : ١٨٩] .

وقد بسطنا القول على هذا كله في التفسير . فالكـواكب التي في السماء منهـا سيارات وهي المتخيرة في إصطلاح علماء التفسير وهو علم غالبه صحيح بخلاف علم الأحكام فإن غالبه بـاطل

= رقم ٢٠٤٢ . وعند مسلم بيدي الليل والنهار بدل بيدي الأمر

أنا الدهر : قال العلماء هو مجاز وسببه أن العرب كان من شأنها أن تسب الدهر عند النوازل والحوادث والمصائب النازلة بها . وأما الدهر بمعنى الزمان فلا فعل له بل مخلوق من جملة خلق الله .

ودعوى ما لا دليل عليه وهي سبعة . القمر في سماء الدنيا وعطارد في الثانية والزهرة في الثالثة والشمس في الرابعة والمريخ في الخامسة والمشتري في السادسة وزحل في السابعة . وبقية الكواكب يسمونها الثوابت وهي عندهم في الفلك الثامن وهو الكرسي في إصطلاح كثير من المتأخرين . وقال آخرون بل الكواكب كلها في السماء الدنيا ولا مانع من كون بعضها فوق بعض * وقد يستدل على هذا بقوله تعالى ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾[1] ويقوله [تعالى]: ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ [فصلت : ١٢] فخص سماء الدنيا من بينهن بزينة الكواكب فإن دل هذا على كونها مرصعة فيها فذاك وإلا فلا مانع مما قاله الآخرون والله أعلم .

وعندهم أن الأفلاك السبعة بل الثمانية تدور بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات تدور على خلاف فلكه من المغرب إلى المشرق . فالقمر يقطع فلكه في شهر والشمس تقطع فلكها وهو الرابع في سنة . فإذا كان السيران ليس بينهما تفاوت وحركاتها متقاربة كان قدر السماء الرابعة بقدر السماء الدنيا ثنتي عشرة مرة وزحل يقطع فلكه وهو السابع في ثلاثين سنة فعلى هذا يكون بقدر السماء الدنيا ثلثمائة وستين مرة *

وقد تكلموا على مقادير أجرام هذه الكواكب وسيرها وحركاتها وتوسعوا في هذه الأشياء حتى تعدوا إلى علم الأحكام وما يترتب على ذلك من الحوادث الأرضية ومما لا علم لكثير منهم به . وقد كان اليونانيون الذين كانوا يسكنون الشام قبل زمن المسيح عليه السلام بدهور لهم في هذا كلام كثير يطول بسطه ، وهم الذين بنوا مدينة دمشق وجعلوا لها أبواباً سبعة وجعلوا على رأس كل باب هيكلاً على صفة الكواكب السبعة ، يعبدون كل واحد في هيكله ، ويدعونه بدعاء يأثره عنهم غير واحد من أهل التواريخ وغيرهم . وذكره صاحب السر المكتوم في مخاطبة الشمس والقمر والنجوم وغيره من علماء الحرنانيين[2](فلاسفة حران في قديم الزمان) . وقد كانوا مشركين يعبدون الكواكب السبعة وهم طائفة من الصابئين * ولهذا قال الله تعالى ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ [فصلت : ٣٧] وقال تعالى إخباراً عن الهدهد أنه قال لسليمان عليه السلام مخبراً عن بلقيس وجنودها ملكة سبأ في اليمن وما والاها ﴿ إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . أن لا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ [النمل : ٢٣] وقال تعالى

---

(١) سورة الملك الآية ٥ .

(٢) الحرنانيين : علماء حران ، حران بتشديد الراء وآخره نون اسم بلد وهو فعّال ، ويجوز أن يكون فعلان والنسبة إليه حرناني ، وحراني على ما عليه العامة وهو القياس (معجم البلدان ـ لسان العرب مادة حرن) .

﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾ [الحج : ١٨] وقال تعالى ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون * ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [النحل : ٤٨] وقال تعالى ﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ [الرعد : ١٥] وقال تعالى ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾ [الإسراء : ٤٤] والآيات في هذا كثيرة جداً .

ولما كان أشرف الأجرام المشاهدة في السموات والأرض هي الكواكب وأشرفهن منظراً وأشرفهن معتبراً الشمس والقمر استدل الخليل على بطلان آلهية شيء منهن . وذلك في قوله تعالى ﴿ فلما جن الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ [الأنعام : ٧٦] أي الغائبين﴿ فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ [الأنعام : ٧٧] فبين بطريق البرهان القطعي أن هذه الأجرام المشاهدات من الكواكب والقمر والشمس لا يصلح شيء منها للإلهية لأنها كلها مخلوقة مربوبة مدبرة مسخرة في سيرها لا تحيد عما خلقت له ولا تزيغ عنه إلّا بتقدير متقن محرر لا تضطرب ولا تختلف * وذلك دليل على كونها مربوبة مصنوعة مسخرة مقهورة ولهذا قال تعالى ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾[1] وثبت في الصحيحين في صلاة الكسوف من حديث ابن عمر وابن عباس وعائشة وغيرهم من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته »[2].

وقال البخاري في بدء الخلق حدثنا مسدد حدثنا عبد العزيز بن المختار حدثنا عبد الله الداناج

---

١) سورة فصلت الآية ٣٧ .

٢) صحيح مسلم ١٠ كتاب الكسوف ـ ١ ـ باب صلاة الكسوف ح ٩٠١ ص ٦١٨ وما بعدها وصحيح البخاري ح رقم : ٥٨٤ .

يقال كسفت الشمس والقمر ، وكسفا ، وانكسفا وخسفا وخُسِفا وانخسفا بمعنى وجمهور أهل اللغة وغيرهم على أن الخسوف والكسوف يكون لذهاب ضوئهما كله أو بعضه .

حدثني أبو سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الشمس والقمر مكوران يوم القيامة » انفرد به البخاري * وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار بأبسط من هذا السياق. فقال : حدثنا إبراهيم بن زياد البغدادي حدثنا يونس بن محمد حدثنا عبد العزيز بن المختار عن عبد الله الداناج سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن زمن خالد بن عبد الله القسري في هذا المسجد مسجد الكوفة وجاء الحسن فجلس إليه فحدث قال حدثنا أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إن الشمس والقمر ثوران في النار يوم القيامة فقال الحسن وما دينهما فقال أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول وما دينهما ثم قال البزار لا يروى عن أبي هريرة إلاّ من هذا الوجه ولم يرو عبد الله الداناج عن أبي سلمة سوى هذا الحديث * وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي من طريق يزيد الرقاشي وهو ضعيف عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : « الشمس والقمر ثوران عقيران في النار » . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج وعمر بن عبد الله الأزدي حدثنا أبو أسامة عن مجالد عن شيخ من بجيلة عن ابن عباس ﴿ اذا الشمس كورت ﴾. قال يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ويبعث الله ريحاً دبوراً فتضرمها ناراً . فدلت هذه الآثار على أن الشمس والقمر من مخلوقات الله خلقها الله لما أراد * ثم يفعل فيها ما يشاء ، وله الحجة الدافعة والحكمة البالغة فلا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته وقدرته ومشيئته النافذة وحكمه الذي لا يرد ولا يمانع ولا يغالب * وما أحسن ما أورده الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في أول كتاب السيرة من الشعر لزيد بن عمرو بن نفيل في خلق السماء والأرض والشمس والقمر وغير ذلك * قال ابن هشام هي لأمية ابن أبي الصلت .

إلى الله أهدي مِدحتي وثنائيا … وقولاً رضيا لا يني الدهرَ باقيا[1]
إلى الملِكِ الأعلى الذي ليس فوقَه … إلهٌ ولا ربٌّ يكونُ مُدانيا
ألا أيها الانسانُ إياكَ والردَى … فإنك لا تُخفي من الله خافيا[2]
وإياكَ لا تجعلْ معَ اللهِ غيرَه … فإن سبيلَ الرشد أصبحَ باديا
حَنانيكَ إن الجنَّ كانت رجاءَهم … وأنتَ إلهي ربنا ورجائيا[3]
رضيتُ بكَ اللّهم رباً فلن أرَى … أدينُ إلهاً غيرَكَ اللهُ ثانيا[4]
وأنتَ الذي من فضلٍ منٍّ ورحمةٍ … بعثتَ إلى موسى رسولاً مناديا
فقلتَ له إذهب وهرونَ فادعوَا … إلى الله فرعونَ الذي كان طاغيا

---

(١) في ابن هشام : رصينا بدل رضياً ، والرصين : الثابت .

(٢) الردى : الهلاك والموت ، والمراد هنا تحذير الانسان مما يأتي به الموت وما يكشفه من جزاء الأعمال .

(٣) حنانيك : أي حناناً بعد حنان ، يريد التكرار وليس الاقتصار على اثنين فقط ، ويقال : حناناً في الدنيا وآخر في الأخرة .

(٤) بعده في الأغاني :

أدين لرب يستجاب ولا أرى … أدين لمن لم يسمع الدهر داعيا

وقـولا لـه آأنت سـوّيتَ هـذه | بلا وتدٍ حتى اطمأنت كما هيا[١]
وقـولا لــه آأنت رفعتَ هــذه | بلا عمد ارفق اذاً بـك بانيـا[٢]
وقـولا له آأنت سوّيت وسْطها | منيـراً إذا ماجنّـه الليـل هـاديـا
وقولا له من يرسلُ الشمس غدوة | فيصبح مامسّت من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبتُ الحبّ في الثرى | فيصبح منـه البَقـلُ يهـتز رابيـا
ويخـرج منــهُ حبّــه في رؤسـه | وفي ذاك آيـاتٌ لمن كـان واعيـا
وأنتَ بفضلٍ منك نجيّتَ يُونُساً | وقد باتَ في أضعافِ حوتٍ لياليا
وإنيَ [و] لو سبّحت باسمِك ربنا | لأكـثر إلا ما غفرت خطائيـا[٣]
فـربُ العبـادِ ألقِ سَيْبـاً ورحمةً | عـليّ وبـارِكْ في بنيّ ومـاليـا

فإذا علم هذا فالكواكب التي في السماء من الثوابت والسيارات الجميع مخلوقة خلقها الله تعالى كما قال [تعالى] : ﴿ وأوحي في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[٤]وأما ما يذكره كثير من المفسرين في قصة هاروت وماروت من أن الزهرة كانت امرأة فراوداها على نفسها فأبت إلاّ أن يعلماها الاسم الأعظم فعلماها فقالته فرفعت كوكباً إلى السماء فهذا أظنه من وضع الإسرائيليين وإن كان قد أخرجه كعب الأحبار وتلقاه عنه طائفة من السلف فذكروه على سبيل الحكاية والتحديث عن بني إسرائيل . وقد روى الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه في ذلك حديثاً رواه أحمد عن يحيى بـن بكير عن زهير بن محمد عن موسى بن جبير عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ وذكر القصة بطولها * وفيه : « فمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر فجاءتهما فسألاها نفسها » وذكر القصة . وقد رواه عبـد الرزاق في تفسيـره عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن كعب الأحبار به . وهذا أصح وأثبت . وقد روى الحاكم في مستدركه وابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس فذكره وقال فيه وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النسـاء كحسن الزهرة في سائر الكواكب وذكر تمامه * وهذا أحسن لفظ روي في هذه القصة والله أعلم .

وهكذا الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عبدالملك الواسطي حدثنا يزيد بـن هرون حدثنـا مبشر بن عبيد عن يـزيد بن أسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ . وحدثنـا عمرو بن عيسى حدثنا عبد الأعلى حدثنا إبرهيـم بن يـزيد عن عمـرو بن دينار عن ابن عمـر أن رسول الله ﷺ ذكر سهيلاً فقال : « كـان عشاراً ظلومـاً فمسخه الله شهـاباً » ثم قـال لم يروه عن

---

(١) هذه : يريد الأرض .
(٢) هذه : المراد السماء .
(٣) المراد : إني لأكثر من الدعاء : باسمك ربنا إلا ما غفرت . . . وما « زائدة . والتسبيح هنا : الصلاة أي : أنا لا اعتمد في صلاتي إلا على دعائك واستغفارك .
(٤) سورة فصلت الآية ١٢ .

زيد بن أسلم إلّا مبشر بن عبيد وهو ضعيف الحديث ولا عن عمرو بن دينار إلّا إبراهيم بن يزيد وهو لين الحديث * وإنما ذكرناه على ما فيه من علة لأنا لم نحفظه إلّا من هذين الوجهين (قلت) أما مبشر بن عبيد القرشي فهو أبو حفص الحمصي وأصله من الكوفة . فقد ضعفه الجميع وقال فيه الإمام أحمد والدارقطني كان يضع الحديث ويكذب وأما إبرهيم بن يزيد فهو الخوزي[1] وهو ضعيف باتفاقهم * قال فيه أحمد والنسائي متروك . وقال ابن معين ليس بثقة وليس بشيء * وقال البخاري سكتوا عنه . وقال أبو حاتم وأبو زرعة منكر الحديث ضعيف الحديث . ومثل هذا الإسناد لا يثبت به شيء بالكلية . وإذا أحسنا الظن قلنا هذا من أخبار بني إسرائيل كما تقدم من رواية ابن عمر عن كعب الأحبار . ويكون من خرافاتهم التي لا يعول عليها والله أعلم .

المجرّة وقوس قُزَح

قال أبو القاسم الطبراني : حدثنا علي بن عبدالعزيز حدثنا عارم أبو النعمان[2] حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن هرقل كتب إلى معاوية وقال إن كان بقي فيهم شيء من النبوة فسيخبرني عما أسألهم عنه . قال فكتب إليه يسأله عن المجرة وعن القوس وعن بقعة لم تصبها الشمس إلّا ساعة واحدة * قال فلما أتى معاوية الكتاب والرسول قال إن هذا الشيء ما كنت آبه له أن أسأل عنه إلى يومي هذا من لهذا ؟ قيل ابن عباس فطوى معاوية كتاب هرقل فبعث به إلى ابن عباس فكتب إليه « أن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق . والمجرة باب السماء الذي تنشق منه الأرض . وأما البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة من النهار فالبحر الذي أفرج عن بني إسرائيل وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنه * فأما الحديث الذي رواه الطبراني حدثنا أبو الزنباع روح بن الفرج حدثنا إبراهيم بن مخلد حدثنا الفضل بن المختار عن محمد بن مسلم الطائفي عن ابن أبي يحيى عن مجاهد عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ « يا معاذ إني مرسلك إلى قوم أهل كتاب فإذا سئلت عن المجرة التي في السماء فقل هي لعاب حية تحت العرش » فإنه حديث منكر جداً بل الأشبه أنه موضوع وراويه الفضل بن المختار هذا أبو سهل البصري * ثم انتقل إلى مصر قال فيه أبو حاتم الرازي هو مجهول حدث بالأباطيل . وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي منكر الحديث جداً . وقال ابن عدي لا يتابع على أحاديثه لا متناً ولا إسناداً

---

(١) الخوزي بضم الخاء ، أبو اسماعيل المكي مولى بني أمية متروك الحديث مات سنة ١٥١ هـ . والخوزي ينسب إلى الخوز : شعب بمكة يسمى شعب الخوز ـ وليس منسوباً إلى خوزستان قال البخاري : سكتوا عنه وقال أحمد : متروك ، تقريب التهذيب ج ١ /٤٦ . وقال الذهبي : مكي واهٍ الكاشف ج ٥١/١ .

(٢) هو محمد بن الفضل السدوسي لقبه عارم ، أبو الفضل البصري ثقة ثبت تغير في آخر عمره (تقريب التهذيب ٢ / ٢٠٠) وفي الصحيحين : أبو النعمان . (والعجلي) في ثقات العجلي : ليس يعرف إلا بعارم متفق على توثيقه (ص ٤١١) .

وقال الله تعالى ﴿ هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشيء السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ﴾ [الرعد : ١٢] وقال تعالى ﴿ إن في خلق السموات والأرض وإختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ [البقرة : ١٦٤] وروى الإمام أحمد عن يزيد بن هرون عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن شيخ من بني غفار قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله ينشيء السحاب فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك » وروى موسى بن عبيدة بن سعد بن إبرهيم أنه قال إن نطقه الرعد وضحكه البرق . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام عن عبيد الله الرازي عن محمد بن مسلم قال بلغنا أن البرق ملك له أربعة وجوه وجه إنسان ووجه ثور ووجه نسر ووجه أسد فإذا مصع بذنبه فذاك البرق * وقد روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي والبخاري في كتاب الأدب والحاكم في مستدركه من حديث الحجاج بن أرطأة حدثني ابن مطر عن سالم عن أبيه قال كان رسول الله إذا سمع الرعد والصواعق قال (اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك * وروى ابن جرير من حديث ليث عن رجل عن أبي هريرة رفعه كان إذا سمع الرعد قال : « سبحان من يسبح الرعد بحمده » وعن علي أنه كان يقول (سبحان من سبحت له) وكذا عن ابن عباس والأسود بن يزيد وطاوس وغيرهم * وروى مالك عن عبد الله بن عمر أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويقول (إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض * وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « قال ربكم لو أن عبيدي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولما أسمعتهم صوت الرعد فاذكروا الله فإنه لا يصيب ذاكراً »* وكل هذا مبسوط في التفسير ولله الحمد والمنة *

باب ذكر خلق الملائكة وصفاتهم

قال الله تعالى ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إني إلـه من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ [الأنبياء : ٢٦] وقال تعالى ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ [الشورى : ٥] وقال تعالى ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ وقال تعالى ﴿ فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون ﴾

[غافر : ٧] وقال ﴿ ومن عنده لا يستكبرون . عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ [الأنبياء : ١٩] وقال تعالى : ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم . وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون ﴾ [الصافات : ١٦٥] وقال تعالى : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ﴾ [مريم : ٦٤] وقال تعالى ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾ [الإنفطار: ١٢] وقال تعالى ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ [المدثر: ٣١] وقال تعالى ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ [الرعد : ٢٣] وقال تعالى ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ [فاطر : ١] وقال تعالى ﴿ يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً * الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيرا ﴾ [الفرقان : ٢٥] وقال تعالى ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجورا ﴾ [الفرقان : ٢١] وقال تعالى ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين ﴾ [البقرة : ٩٨] وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [التحريم : ٦] والآيات في ذكر الملائكة كثيرة جداً يصفهم تعالى بالقوة في العبادة وفي الخلق وحسن المنظر وعظمة الأشكال وقوة الشكل في الصور المتعددة كما قال تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب * وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ [هود : ٧٦] الآيات فذكرنا في التفسير ما ذكره غير واحد من العلماء من أن الملائكة تبدّوا لهم في صورة شباب حسان إمتحاناً واختباراً حتى قامت على قوم لوط الحجة وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر * وكذلك كان جبريل يأتي إلى النبي ﷺ في صفات متعددة فتارة يأتي في صورة دحية بن خليفة الكلبي[1] وتارة في صورة أعرابي وتارة في صورته التي خلق عليها . له ستمائة جناح ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب كما رآه على هذه الصفة مرتين . مرة منهبطاً من السماء إلى الأرض . وتارة عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى . وهو قوله تعالى ﴿ علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى ﴾[2] أي جبريل[3] كما ذكرناه عن غير واحد من الصحابة * منهم ابن مسعود وأبو هريرة وأبو ذر وعائشة ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما

---

(١) دحية بن خليفة الكلبي : صاحب رسول الله ﷺ ، شهد أحداً وما بعدها وكان جبريل يأتي رسول الله ﷺ في صورته أحياناً وبعثه رسول الله ﷺ إلى قيصر رسولاً سنة ست في المدنة .

(٢) سورة النجم الآيات ٥ ـ ٨ .

(٣) أما الحسن فيقول هو الله عز وجل . القرطبي ١٧ / ٨٥ قال : هو جبريل في قول سائر المفسرين .

أوحى ﴾(1) أي إلى عبد الله محمد ﷺ ثم قال [تعالى]: ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى ﴾(2) وقد ذكرنا في أحاديث الإسراء في سورة سبحان أن سدرة المنتهى في السماء السابعة * وفي رواية في السادسة أي أصلها وفروعها في السابعة فلما غشيها من أمر الله ما غشيها * قيل غشيها نور الرب جل جلاله * وقيل غشيها فراش(3) من ذهب * وقيل غشيها ألوان متعددة كثيرة غير منحصرة * وقيل غشيها الملائكة مثل الغربان * وقيل غشيها من نور الله تعالى فلا يستطيع أحد أن ينعتها * أي من حسنها وبهائها . ولا منافاة بين هذه الأقوال إذ الجميع ممكن حصوله في حال واحدة * وذكرنا أن رسول الله ﷺ قال : « ثم رفعت لي سدرة المنتهى فاذا نبقها كالقلال * » وفي رواية « كقلال هجر وإذا ورقها كآذان الفيلة » وإذا يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران . فأما الباطنان ففي الجنة . وأما الظاهران فالنيل والفرات * وتقدم الكلام على هذا في ذكر خلق الأرض وما فيها من البحار والأنهار * وفيه « ثم رفع لي البيت المعمور وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم » * وذكر أنه وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مستنداً ظهره إلى البيت المعمور . وذكرنا وجه المناسبة في هذا أن البيت المعمور هو في السماء السابعة بمنزلة الكعبة في الأرض * وقد روى سفيان الثوري وشعبة وأبو الأحوص عن سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة أن ابن الكوا سأل علي بن أبي طالب عن البيت المعمور فقال هو مسجد في السماء يقال له الضُراح ، وهو بحيال الكعبة من فوقها . حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون إليه أبداً * وهكذا روى علي بن ربيعة وأبو الطفيل عن علي مثله * وقال الطبراني أنبأنا الحسن بن علوية القطان حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار حدثنا إسحاق بن بشر أبو حذيفة حدثنا ابن جريج عن صفوان بن سليم عن كريب عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : « البيت المعمور في السماء يقال له الضراح وهو على مثل البيت الحرام بحياله لو سقط لسقط عليه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يرونه قط فإن له في السماء حرمة على قدر حرمة مكة » . يعني في الأرض وهكذا قال العوفي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع بن أنس والسدي وغير واحد * وقال قتادة ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه : هل تدرون ما البيت المعمور قالوا الله ورسوله أعلم * قال قال مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خر لخر عليها يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم * وزعم الضحاك أنه تعمره طائفة من الملائكة يقال لهم الجن من قبيلة إبليس لعنه الله كان يقول سدنته وخدامه منهم والله أعلم *

وقال آخرون : في كل سماء بيت يعمره ملائكته بالعبادة فيه ويفدون إليه بالنوبة والبدل كما

---

(1) سورة النجم الآيتان ٩ ـ ١٠ .

(2) سورة النجم الآيات ١٣ ـ ١٧ .

(3) وقيل جراد عن أنس بن مالك ، القرطبي / ـ الفخر الرازي .

يعمر أهل الأرض البيت العتيق بالحج في كل عام والإعتمار في كل وقت والطواف والصلاة في كل آن * قال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في أوائل كتابه المغازي * حدثنا أبو عبيد في حديث مجاهد « أن الحرم حرم مناه (يعني قدره) من السموات السبع والأرضين السبع وأنه رابع أربعة عشر بيتاً في كل سماء بيت وفي كل أرض بيت لو سقطت سقط بعضها على بعض » ثم روى مجاهد قال مناه أي مقابله وهو حرف مقصور . ثم قال حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي سليمان مؤذن الحجاج سمعت عبد الله بن عمرو يقول « إن الحرم محرم في السموات السبع مقداره من الأرض ـ وإن بيت المقدس مقدس في السموات السبع مقداره من الأرض كما قال بعض الشعراء .

إنَّ الـذي سَمَكَ السَّـماءَ بَنَى لها   بَيْتـاً دَعـائمـهُ أشـدُّ وأطْـوَلُ

واسم البيت الـذي فـي السماء بيت العـزة * واسم الملك الذي هـو مقدم الملائكـة فيها إسماعيل * فعلى هذا يكون السبعون ألفاً من الملائكة الذين يدخلون في كل يوم إلى البيت المعمور ثم لا يعودون إليه . آخر ما عليهم (أي لا يحصل لهم نوبة فيه إلى آخر الدهر) يكونون من سكان السماء السابعة وحدها. ولهذا قال تعالى ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾[1]وقال الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن مورق[2]عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ « إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطّت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد لو علمتم ما اعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل»[3] فقال أبو ذر (والله لوددت أني شجرة تعضد) ورواه الترمذي وابن ماجة من حديث إسرائيل فقال الترمذي حسن غريب ويروى عن أبي ذر موقوفاً * وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا حسين بن عرفة المصري حدثنا عروة بن عمران الرقي حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم بن مالك عن عطاء بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : « ما في السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لا نشرك بك شيئاً » . فدل هذان الحديثان على أنه ما من موضع في السموات السبع إلا وهو مشغول بالملائكة وهم في صنوف من العبادة . منهم من هو قائم أبداً . ومنهم من هو راكع أبداً ومنهم من هو ساجد أبداً ومنهم من هو في صنوف أخر والله أعلم بها . وهم دائمون في عبادتهم وتسبيحهم وأذكارهم وأعمالهم التي أمرهم الله بها ، ولهم منازل عند ربهم كما قال تعالى ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم * وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن

---

(١) سورة المدثر الآية ٣١ .

(٢) مورق بتشديد الراء ، بن مشمرخ بن عبد الله العجلي ، أبو المعتمر البصري ثقة عابد مات بعد المائة / تقريب التهذيب ٢ / ٢٨٠ .

(٣) مسند أحمد ج ١٧٣/٥ .

المسبحون ﴾[1] وقال ﷺ : « ألا تصفّون كما تصف الملائكة عند ربها * قالوا وكيف يصفـون عند ربهم قال يكملون الصف الأول ويتراصون في الصف »[2]. * وقال ﷺ : (فضلنـا على النـاس بثلاث * جعلت لنا الأرض مسجداً وتربتها لنا طهوراً وجعلت صفوفنـا كصفوف المـلائكة)[3]. وكذلك يأتون يوم القيامة بين يدي الرب جل جلاله صفوفاً كما قـال تعالى ﴿ وجـاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾[4] ويقفون صفوفاً بين يدي ربهم عز وجل يوم القيامة كما قال تعالى ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾[5] * والمراد بالروح ههنا بنو آدم قاله ابن عباس والحسن وقتادة * وقيل ضرب من الملائكة يشبهون بني آدم في الشكل * قاله ابن عباس ومجاهد وأبو صالح والأعمش * وقيل جبريل * قاله الشعبي وسعيد بن جبير والضحاك * وقيل ملك يقال له الروح بقدر جميع المخلوقات * قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قولـه : ﴿ يوم يقوم الروح ﴾ قال هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً[6] * وقال ابن جرير حدثني محمد بن خلف العسقلاني حدثنا داود ابن الجراح عن أبي حمزة عن الشعبي عن علقمة عن ابن مسعود قال الروح في السماء الرابعة هو أعظم السموات والجبال ومن الملائكة يسبّح كل يـوم اثني عشر ألف تسبيحة يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يجيء يوم القيامة صفاً وحـده * وهذا غـريب جداً * وقال الطبراني حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكيم المصري حدثنا ابن وهب بن رزق أبو هبيرة حدثنا بشر بن بكـر حدثنـا الاوزاعي حدثني عـطاء عن عبد الله بن عبـاس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن لله ملكـاً لو قيـل له التقم السمـوات والأرضين بلقمـة واحدة لفعـل . تسبيحه سبحانك حيث كنت » وهذا أيضاً حديث غريب جداً * وقد يكون موقوفـاً * وذكرنـا في صفـة حملة العرش عن جـابر بن عبـد الله قال رسـول الله ﷺ « أذن لي أن أحـدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عـام » رواه أبو داود

---

(١) سورة الصافات الآية ١٦٥ .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ح ١١٩ ـ وأبو داود في الصلاة ٩٣ ـ ٩٦ ـ ٦٥ ، والنسائي في الامامة ٢٨ ـ وابن ماجة في الاقامة ح ٥٠ والإمام أحمد في مسنده ٢ /٩٨ و١٠١/٥ .

(٣) أخرجه مسلم عن حذيفة بن اليمـان ـ ٥ ـ كتـاب المسـاجـد ح ٤/ ص (١/ ٣٧١) والبيهقي في الـدلائـل ج ٥/ ٤٧٥ عن حذيفة . وفيه : فضلت على الناس .

(٤) سورة الفجر الآية ٢٢ .

(٥) سورة النبأ الآية ٣٨ .

(٦) قال القرطبي ج ١٩ /١٨٧ : اختلف في الروح على أقوال ثمانية : . . . وذكر منها :

عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة لهم رؤوس وايد وأرجل » . فهم خلق على صورة بني آدم كالناس وليسوا بناس .

وقيل الروح : أرواح بني آدم . قاله عطية .

وقيل القرآن عن زيد بن أسلم .

وابن أبي حاتم ولفظه يخفق الطير سبعمائة عام .

وقد ورد في صفة جبريل عليه السلام أمر عظيم قال الله تعالى ﴿ علّمه شديد القوى ﴾ قالوا كان من شدة قوته أنه رفع مدائن قوم لوط وكن سبعاً بمن فيها من الأمم وكانوا قريباً من أربعمائة ألف وما معهم من الدواب والحيوانات وما لتلك المدن من الأراضي والمعتملات والعمارات وغير ذلك * رفع ذلك كله على طرف جناحه حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب وصياح ديكتهم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها فهذا هو شديد القوى . وقوله ﴿ ذو مرة ﴾ أي خلق حسن وبهاء وسناء كما قال في الآية الأخرى ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ [الحاقة : ٤٠] أي جبريل رسول من الله كريم أي حسن المنظر ﴿ ذي قوة ﴾ أي له قوة وبأس شديد ﴿ عند ذي العرش مكين ﴾ أي له مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند الله ﴿ ذي العرش المجيد ﴾ مطاع ثم أي مطاع في الملأ الأعلى أمين، أي ذي أمانة عظيمة ولهذا كان هو السفير بين الله وبين أنبيائه عليهم السلام الذي ينزل عليهم بالوحي . فيه الأخبار الصادقة والشرائع العادلة * وقد كان يأتي إلى رسول الله ﷺ وينزل عليه في صفات متعددة كما قدمنا . وقد رآه على صفته التي خلقه الله عليها مرتين * له ستمائة جناح كما روى البخاري عن طلق بن غنام عن زائدة الشيباني قال سألت زرّاً عن قوله ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ قال حدثنا عبد الله يعني ابن مسعود أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح .

وقال الإمام أحمد[1]حدثنا يحيى بن آدم حدثنا شريك عن جامع بن راشد عن أبي وائل عن عبد الله قال رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه التهاويل من الدر والياقوت ما الله به عليم . وقال أحمد أيضاً حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود في هذه الآية ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ﴾[2]قال قال رسول الله ﷺ : « رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينتشر من ريشه التهاويل الدر والياقوت » . وقال أحمد[3]حدثنا زيد بن الحباب حدثنا الحسين حدثني عاصم بن بهدلة سمعت شقيق بن سلمة يقول سمعت ابن مسعود يقول قال رسول الله ﷺ رأيت جبريل على السدرة المنتهى وله ستمائة جناح فسألت عاصماً عن الأجنحة فأبى أن يخبرني قال فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب * وهذه أسانيد جيدة قوية انفرد بها أحمد *

---

(١) مسند أحمد ج ١ /٤٦٠ .

(٢) سورة النجم الآية ١٣ .

(٣) مسند أحمد ج ١ /٤٠٧، والحسين هو بن واقد المروزي أبو عبد الله القاضي ثقة له أوهام . قاضي مرو، قال ابن المبارك من مثله ؟ وثقه ابن معين وغيره مات سنة ١٥٩ هـ وقيل سنة سبع وخمسين / تقريب التهذيب ١ / ١٨٠ الكاشف ١ /١٧٣ .

وقال أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثني حسين حدثني حصين حدثني شقيق سمعت ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل في خَضِرْ[1] تعلق به الدر » * إسناده صحيح * وقال ابن جرير حدثنا ابن بزيغ البغدادي قال حدثنا اسحاق بن منصور قال حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله (ما كذب الفؤآد ما رأى) قال رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلتا رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض * إسناد جيد قوي * وفي الصحيحين من حديث عامر الشعبي عن مسروق قال كنت عند عائشة فقلت أليس الله يقول ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عنها فقال : إنما ذاك جبريل لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض سادّ أعظمُ خلقه ما بين السماء والأرض .

وقال البخاري[2] حدثنا أبو نعيم حدثنا عمر بن ذر (ح) وحدثني يحيى بن جعفر حدثنا وكيع عن عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ لجبريل : « ألا تزورنا أكثر مما تزورنا قال فنزلت ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا ﴾[1] الآية * وروى البخاري[3] من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة * وقال البخاري[4] حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخر العصر شيئاً فقال له عروة أما إن جبريل قد نزل فصلى أمام رسول الله ﷺ فقال عمر أعلم ما تقول يا عروة قال سمعت بشير بن أبي مسعود يقول سمعت أبا مسعود يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نزل جبريل فأمني فصليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه ثم صليت معهن ثم صليت معه » يحسب بأصابعه خمس صلوات .

ومن صفة إسرافيل عليه السلام وهو أحد حملة العرش وهو الذي ينفخ في الصور بأمر ربه نفخات ثلاثة * أولاهن نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة البعث كما سيأتي بيانه في موضعه من كتابنا هذا بحول الله وقوته وحسن توفيقه * والصور قرن ينفخ فيه . كل دارة منه كما بين السماء والأرض . وفيه موضع أرواح العباد حين يأمره الله بالنفخ للبعث فإذا نفخ تخرج الأرواح

---

(١) مسند أحمد ١ /٤٠٧ وفيه : خضر حصين .
قال في التاج : الخَضِرُ اسم للرَخص من الشجر إذا قطع وخُضير .
(٢) في كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة ج ٤ / ٨٠.
(٣) نفس المصدر والباب ص ٤ /٨١ .
(٤) نفس المصدر والصفحة .

تتوهج فيقول الرب جل جلاله : « وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى البدن الذي كانت تعمره في الدنيا فتدخل على الأجساد في قبورها فتدب فيها كما يدب السم في اللديغ فتحيى الأجساد وتنشق عنهم الأجداث فيخرجون منها سراعاً إلى مقام المحشر » كما سيأتي تفصيله في موضعه .

ولهذا قال رسول الله ﷺ « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له »* قالوا كيف نقول يا رسول الله قال : « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ». على الله توكلنا » * رواه أحمد والترمذي من حديث عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري * وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سعد الطائي عن عطية العوفي عن أبي سعيد قال ذكر رسول الله ﷺ صاحب الصور فقال : « عن يمينه جبريل وعن يساره ميكائيل » عليهم السلام . وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا محمد بن عمر أن ابن أبي ليلى[1]حدثني عن أبي ليلى عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس * قال بينا رسول الله ﷺ ومعه جبريل بناحية إذ انشق أفق السماء فأقبل إسرافيل يدنو من الأرض ويتمايل فإذا ملك قد مثل بين يدي النبي ﷺ فقال : « يا محمد إن الله يأمرك أن تختار بين نبي عبد أو ملك نبي قال : « فأشار جبريل إليّ بيده (أن تواضع) فعرفت أنه لي ناصح فقلت : « عبد نبي »[2]فعرج ذلك الملك إلى السماء فقلت : يا جبريل قد كنت أردت أن أسالك عن هذا فرأيت من حالك ما شغلني عن المسألة فمن هذا يا جبريل ؟ فقال هذا إسرافيل عليه السلام خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافاً قدميه لا يرفع طرفه بينه وبين الرب سبعون نوراً ما منها من نور يكاد يدنو منه إلا احترق بين يديه لوح فإذا أذن الله في شيء من السماء أو في الأرض ارتفع ذلك اللوح فضرب جبهته فينظر فإن كان من عملي أمرني به وإن كان من عمل ميكائيل أمره به وإن كان من عمل ملك الموت أمره به * قلت « يا جبريل وعلى أي شيء أنت » قال : على الريح والجنود * قلت : « وعلى أي شيء ميكائيل » قال : على النبات والقطر قلت : « وعلى أي شيء ملك الموت » قال : على قبض الأنفس وما ظننت أنه نزل إلا لقيام الساعة وما الذي رأيت مني إلّا خوفاً من قيام الساعة * هذا حديث غريب من هذا الوجه * وفي صحيح مسلم[3]عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول : اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك[4]إنك تهدي من تشاء إلى صراط

---

(١) في تقريب التهذيب : محمد بن عمران بن محمد بن أبي ليلى ، ابو عبد الرحمن الكوفي صدوق . قال أبو حاتم صدوق أملى علينا من كتاب الفرائض من حفظه عن أبيه عن جده ـ ج ٢ / ١٩٦ والكاشف ج ٣ / ٧٦ .

(٢) اخرجه البيهقي بنحوه عن ابن عباس ولم يسم الملك . دلائل ج ١ / ٣٣٤، واخرجه ايضاً احمد في مسنده ٢ / ٢٣١ عن أبي هريرة . ولم يسم الملك أيضاً وآخره قال : بل عبداً رسولاً .

(٣) في ٦ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ٢٦ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامها ح ٢٠٠ (٧٧٠) ص ١ / ٥٣٤ .

(٤) قوله : اهدني . . باذنك : معناه ثبتني عليه .

مستقيم * وفي حديث الصور أن إسرافيل أول من يبعثه الله بعد الصعق لينفخ في الصور * وذكر محمد بن الحسن النقاش أن إسرافيل أول من سجد من الملائكة فجوزي بولاية اللوح المحفوظ * حكاه أبو القاسم السهيلي في كتابه (التعريف والأعلام . بما أبهم في القرآن من الأعلام) * وقال تعالى ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾[1] عطفهما على الملائكة لشرفهما فجبريل ملك عظيم قد تقدم ذكره * وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات وهو ذو مكانة من ربه عز وجل ومن أشراف الملائكة المقربين * وقد قال الإمام أحمد حدثنا أبو اليمان حدثنا ابن عباس عن عمارة بن غزنة الأنصاري أنه سمع حميد بن عبيد مولى بني المعلى يقول سمعت ثابتاً البناني يحدث عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال لجبريل : مالي لم أر ميكائيل ضاحكاً قط ؟[2] فقال : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار * فهؤلاء الملائكة المصرح بذكرهم في القرآن وفي الصحاح[3] هم المذكورون في الدعاء النبوي « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل * فجبريل ينزل بالهدى على الرسل لتبليغ الأمم . وميكائيل موكل بالقطر والنبات الذين يخلق منهما الأرزاق في هذه الدار * وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه . يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب جل جلاله . وقد روينا أنه ما من قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقررها في موضعها من الأرض « وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور للقيام من القبور . والحضور يوم البعث والنشور ليفوز الشكور . ويجازي الكفور . فذاك ذنبه مغفور . وسعيه مشكور * وهذا قد صار عمله كالهباء المنثور . وهو يدعو بالويل والثبور « فجبريل عليه السلام يحصل بما ينزل به الهدى * وميكائيل يحصل بما هو موكل به الرزق . وإسرافيل يحصل بما هو موكل به النصر والجزاء * وأما ملك الموت فليس بمصرح باسمه في القرآن ولا في الأحاديث الصحاح . وقد جاء تسميته في بعض الآثار بعزرائيل والله أعلم .

وقد قال الله تعالى ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ [السجدة : ١١] وله أعوان يستخرجون روح العبد من جثته حتى تبلغ الحلقوم فيتناولها ملك الموت بيده فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها منه فيلقوها في أكفان تليق بها كما قد بسط عند قوله : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ [إبراهيم : ٢٧].

ثم يصعدون بها فإن كانت صالحة فتحت لها أبواب السماء وإلا غلقت دونها وألقي بها إلى الأرض قال الله تعالى ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت

(١) سورة البقرة الآية ٩٨ .
(٢) مسند أحمد ٣/٢٢٤ .
(٣) أي الأحاديث الصحيحة .

وقته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ [الأنعام : ٦١].

وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنهم قالوا إن الأرض بين يدي ملك الموت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء وقد ذكرنا أن ملائكة الموت يأتون الإنسان على حسب عمله إن كان مؤمناً اتاه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب طيبة الأرواح . وإن كان كافرا فبالضد من ذلك * عياذاً بالله العظيم من ذلك * وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يحيى بن أبي يحيى المقري حدثنا عمرو بن شمر قال سمعت جعفر بن محمد قال سمعت أبي يقول نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبي ﷺ : « يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن » فقال ملك الموت : يا محمد طب نفساً وقر عيناً فإني بكل مؤمن رفيق * واعلم أن ما في الأرض بيت مدر ولا شعر في بر ولا بحر إلا وأنا أتفحصهم في كل يوم خمس مرات حتى إني أعرف بصغيرهم وكبيرهم بأنفسهم والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها . قال جعفر بن محمد أبي هو الصادق بلغني بتفحصهم عند مواقيت الصلاة فإذا حضر عند الموت فإذا كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ولقنه الملك (لا إله إلا الله محمد رسول الله) في تلك الحال العظيمة . هذا حديث مرسل وفيه نظر وذكرنا في حديث الصور من طريق إسمعيل بن رافع المدني القاصّ عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ (الحديث) بطوله . وفيه ويأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله فإذا هم قد خمدوا جاء ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول يا رب قد مات أهل السموات والأرض إلاّ من شئت * فيقول الله وهو أعلم بمن بقي (فمن بقي) فيقول بقيت أنت الحي الذي لا يموت وبقيت حملة عرشك وبقي جبريل وميكائيل * فيقول ليمت جبريل وميكائيل فينطق الله العرش فيقول يا رب يموت جبريل وميكائيل فيقول : اسكت فإني كتبت الموت على كل من كان تحت عرسي فيموتان « ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول يا رب قد مات جبريل وميكائيل فيقول الله وهو أعلم بمن بقي فمن بقي ؟ فيقول بقيت أنت الحي الذي لا يموت وبقيت حملة عرشك وبقيت أنا فيقول الله لتمت حملة عرشي . فتموت . ويأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل ثم يأتي ملك الموت فيقول يا رب قد مات حملة عرشك فيقول الله وهو أعلم بمن بقي (فمن بقي) فيقول بقيت أنت الحي الذي لا يموت وبقيت أنا فيقول الله أنت خلق من خلقي خلقتك لما أردت فمت فيموت فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد * كان آخراً كما كان أولاً * وذكر تمام الحديث بطوله رواه الطبراني وابن جرير والبيهقي ورواه الحافظ أبو موسى المديني في كتاب (الطوالات) وعنده زيادة غريبة وهي قوله فيقول الله له أنت خلق من خلقي خلقتك لما أردت فمت موتاً لا تحيى بعده أبداً .

ومن الملائكة المنصوص على أسمائهم في القرآن هاروت وماروت في قول جماعة كثيرة من السلف * وقد ورد في قصتهما وما كان من أمرهما آثار كثيرة غالبها إسرائيليات * وروى الإمام أحمد حديثاً مرفوعاً عن ابن عمر وصححه ابن حبان في تقاسيمه . وفي صحته عندي نظر والأشبه أنه موقوف على عبد الله بن عمر ويكون مما تلقاه عن كعب الأحبار كما سيأتي بيانه والله أعلم * وفيه أنه تمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر * وعن علي وابن عباس وابن عمر أيضاً ان الزهرة كانت امرأة وأنهما لما طلبا منها ما ذكر أبت إلا أن يعلماها الإسم الأعظم فعلماها فقالته فارتفعت إلى السماء فصارت كوكباً * وروى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس قال وفي ذلك الزمان إمرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب . وهذا اللفظ أحسن ما ورد في شأن الزهرة * ثم قيل كان أمرهما وقصتهما في زمان إدريس * وقيل في زمان سليمان بن داود كما حررنا ذلك في التفسير .

وبالجملة فهو خبر إسرائيلي مرجعه إلى كعب الأحبار كما رواه عبد الرزاق في تفسيره عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار بالقصة * وهذا أصح إسناداً وأثبت رجالاً والله أعلم .

ثم قد قيل إن المراد بقوله ﴿ وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾[1]قبيلان من الجان قاله ابن حزم وهذا غريب وبعيد من اللفظ * ومن الناس من قرأ وما أنزل على الملكين بالكسر ويجعلهما علجين من أهل فارس . قاله الضحاك . ومن الناس من يقول هما ملكان من السماء ولكن سبق في قدر الله لهما ما ذكره من أمرهما إن صح به الخبر ويكون حكمهما كحكم إبليس إن قيل إنه من الملائكة لكن الصحيح أنه من الجن كما سيأتي تقريره .

ومن الملائكة المسمين في الحديث منكر ونكير عليهما السلام . وقد استفاض في الأحاديث ذكرهما في سؤال القبر . وقد أوردناها عند قوله تعالى: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾[2]وهما فتانا القبر موكلان بسؤال الميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه ويمتحنان البر والفاجر وهما أزرقان أفرقان لهما أنياب وأشكال مزعجة وأصوات مفزعة أجارنا الله من عذاب القبر وثبتنا بالقول الثابت آمين * وقال البخاري حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا ابن وهب حدثني يونس عن ابن شهاب حدثني عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ : « هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟. قال : « لقد لقيت من قومك[3]وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة[4]إذ عرضت نفسي على ابن عبد

---

(١) سورة البقرة الاية ١٠٢ .

(٢) سورة إبراهيم الآية ٢٧ .

(٣) قومك : أي قريش ، وتقدير العبارة : لقد لقيت منهم ما لقيت .

(٤) يوم العقبة : وهو اليوم الذي وقف به النبي ﷺ عند العقبة بمنى داعياً الناس إلى الإسلام والى الله رب العالمين .

ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب[1] فرفعت رأسي فاذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فاذا فيها جبريل فناداني ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال : يا محمد فقال ذلك فما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[2] فقال النبي ﷺ : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا» ورواه مسْلم من حديث ابن وهب به[3] .

فصل

ثم الملائكة عليهم السلام بالنسبة إلى ما هيأهم الله له أقسام « فمنهم حملة العرش كما تقدم ذكرهم ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش . وهم الملائكة المقربون كما قال تعالى ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله ولا الملائكة المقربون ﴾[4]» ومنهم جبريل وميكائيل عليهما السلام . وقد ذكر الله عنهم أنهم يستغفرون للمؤمنين بظهر الغيب كما قال تعالى : ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته . وذلك هو الفوز العظيم ﴾[5].

ولما كانت سجاياهم هذه السجية الطاهرة كانوا يحبون من اتصف بهذه الصفة فثبت في الحديث عن الصادق المصدوق أنه قال « إذا دعا العبد لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ولك بمثل »[6].

= موحدين له ، فما أجيب إلا بالاذى ، وذلك اليوم أصبح معروفاً .

(١) قرن الثعالب : هو قرن المنازل ـ وهو ميقات أهل نجد ، وهو على مرحلتين من مكة ، والقرن أصله كل جبل صغير ينقطع من جبل كبير .

(٢) الأخشبان : جبلا مكة : أبو قبيس والجبل الذي يقابله .

(٣) في (٣٢) كتاب الجهاد والسير ـ ٣٩ باب ما لقي النبي من أذى المشركين ح ١١١ ـ ١٧٩٥ ص ٣/٤٢٠ والبخاري ح رقم /١٥٢٥ ـ

(٤) سورة النساء الآية ١٧٢ .

(٥) سورة غافر الآية ٧.

(٦) رواه الترمذي في صحيحه في بر / ٥٠ .
وأبو داود كتاب الصلاة ـ باب الدعاء بظهر الغيب ح ١٥٣٤ ، ج ٢ / ٨٩ . وابن ماجة في المناسك (٥).

ومنهم سكان السموات السبع يعمرونها عبادة دائبة ليلاً ونهاراً صباحاً ومساء كما قال [تعالى]: ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ [الأنبياء : ٢٠] فمنهم الراكع دائماً والقائم دائماً والساجد دائماً * ومنهم الذين يتعاقبون زمرة بعد زمرة إلى البيت المعمور كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم .

ومنهم الموكلون بالجنان وإعداد الكرامة لأهلها وتهيئة الضيافة لساكنيها من ملابس ومصاغ ومساكن ومآكل ومشارب وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وخازن الجنة ملك يقال له رضوان جاء مصرحاً به في بعض الأحاديث .

ومنهم الموكلون بالنار وهم الزبانية * ومقدموهم تسعة عشر وخازنها مالك وهو مقدم على جميع الخزنة . وهم المذكورون في قوله تعالى ﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ [غافر : ٤٩] الآية . وقال تعالى ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك . قال انكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ [الزخرف : ٧٧] وقال تعالى ﴿ عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [التحريم : ٦] وقال تعالى ﴿ عليها تسعة عشر وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين اؤتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً * كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء * وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ [المدثر : ٣١].

وهم الموكلون بحفظ بني آدم كما قال تعالى ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به . ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار * له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظون من أمر الله ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ [الرعد : ١٠].

قال الوالبي عن ابن عباس ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ وهي الملائكة وقال عكرمة عن ابن عباس يحفظونه من أمر الله * قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه وقال مجاهد ما من عبد إلاّ وملك موكل بحفظه في نومه . ويقظته من الجن والإنس والهوام . وليس شيء يأتيه يريده إلاّ وقال وراءك إلاّ شيء يأذن الله فيه فيصيبه . وقال أبو اسامة[1]: ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدر له . وقال أبو مجلز جاء رجل إلى علي فقال : إن نفراً من مراد يريدون قتلك فقال إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يُقدَّر فاذا جاء القدر خليا بينه وبينه و إن الأجل جُنة [2]حصينة .

---

(١) في القرطبي ٢٩٣/٩ أبو أمامة .

(٢) في القرطبي : حصن .

ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد كما قال تعالى: ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ [ق : ١٨] وقال تعالى : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ [الانفطار : ١٢] قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في تفسيره حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا وكيع حدثنا سفيان ومسعر عن علقمة بن يزيد عن مجاهد قال : قال رسول الله ﷺ : « أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلّا عند إحدى حالتين الجنابة والغائط فاذا اغتسل أحدكم فليستتر بجذم حائط أو بعيره أو يستره أخوه » هذا مرسل من هذا الوجه وقد وصله البزار في مسنده من طريق جعفر بن سليمان * وفيه كلام عن علقمة عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ينهاكم عن التعري فاستحيوا من الله والذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلّا عند إحدى ثلاث حالات الغائط والجنابة والغسل . فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجذم حائط أو بعيره . ومعنى إكرامهم أن يستحي منهم فلا يملي عليهم الأعمال القبيحة التي يكتبونها فان الله خلقهم كراماً في خلقهم وأخلاقهم * ومن كرمهم أنه قد ثبت في الحديث المروي في الصحاح والسنن والمسانيد من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا كلب ولا جنب[1] . وفي رواية عن عاصم بن ضمرة عن عليّ (ولا بول) وفي رواية رافع عن أبي سعيد مرفوعاً لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا تمثال . وفي رواية مجاهد عن أبي هريرة مرفوعاً لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو تمثال . وفي رواية ذكوان أبي صالح السماك عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب أو جرس . ورواه زرارة بن أوفى عنه لا تصحب الملائكة رفقة معهم جرس .

وقال البزار حدثنا إسحاق بن سليمان البغدادي المعروف بالقلوس . حدثنا بيان بن حمران حدثنا سلام عن منصور بن زاذان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن ملائكة الله يعرفون بني آدم ـ وأحسبه . قال ـ ويعرفون أعمالهم فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه وقالوا أفلح الليلة فلان نجا الليلة فلان . وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسموه . وقالوا هلك فلان الليلة * ثم قال سلّام أحسبه سلام المدائني[2]وهو لين الحديث . وقد قال البخاري حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق وكتاب الأنبياء والمغازي والنكاح .

وأبو داود في اللباس ـ والترمذي ـ والنسائي في الطهارة والصيد ومالك في الموطأ « الاستئذان » والدارمي في الإستئذان .

والإمام أحمد في مسنده ١ / ٨٠ ـ ٨٢ ـ ١٠٧ ـ ١٢٩ ـ ١٥٠ .

(٢) سلام بتشديد اللام ، ابن سليم أو سَلمْ أبو سليمان التميمي ويقال الطويل ،المدائني متروك تقريب ١ / ٣٤٢ قال البخاري : تركوه الكاشف ١ / ٣٣٠ .

الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الملائكة يتعاقبون ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر . ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم فيقول كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون . وأتيناهم وهم يصلون » هذا اللفظ في كتاب بدء الخلق بهذا السياق وهذا اللفظ تفرد به دون مسلم من هذا الوجه * وقد أخرجاه في الصحيحين في البدء من حديث مالك عن أبي الزناد به * وقال البزار حدثنا زياد بن أيوب حدثنا مبشر بن إسماعيل الحلبي حدثنا تمام بن نجيح عن الحسن يعني البصري عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من حافظين يرفعان إلى الله عز وجل ما حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفاراً إلاّ قال الله غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة » ثم قال تفرد به تمام بن نجيح وهو صالح الحديث * قلت وقد وثقه ابن معين وضعفه البخاري وأبو حاتم وأبو زرعة والنسائي وابن عدي ورماه ابن حبان بالوضع وقال الإمام أحمد لا أعرف حقيقة أمره والمقصود أن كل إنسان له حافظان ملكان اثنان واحد من بين يديه وآخر من خلفه يحفظانه من أمر الله بأمر الله عز وجل * وملكان كاتبان عن يمينه وعن شماله وكاتب اليمين أمير على كاتب الشمال . كما ذكرنا ذلك عند قوله تعالى : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ [ق : ١٨].

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا أسود ابن عامر * حدثنا سفيان . حدثنا منصور عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه عن عبد الله هو ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلاّ وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا وإياك يا رسول الله قال وإياي ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلاّ بخير . انفرد بإخراجه مسلم من حديث منصور به فيحتمل أن هذا القرين من الملائكة غير القرين بحفظ الإنسان وإنما هو موكل به ليهديه ويرشده بإذن ربه إلى سبيل الخير وطريق الرشاد كما أنه قد وكل به القرين من الشياطين لا يألوه جهداً في الخبال والإضلال . والمعصوم من عصمه الله عز وجل وبالله المستعان(١)

وقال البخاري حدثنا أحمد بن يونس حدثنا إبراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن والأغر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول فإذا جلس الإمام طووا الصحف

---

(١) مسند أحمد : ج ١/ ٣٨٥ ـ ٤٠١ ومنصور : هو منصور بن زاذان .
وفيه بحق بدل بخير .
وأخرجه مسلم في ٥٠ كتاب صفات المنافقين ١٦ باب ح ٦٩ (٢٨١٤) ص ٤/ ٢١٦٧ قال القاضي : واعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه . وفي هذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه فأعلمنا أنه معنا ، لنحترز منه بحسب الإمكان .

وجاؤوا يسمعون الذكر وهكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه وهو في الصحيحين ومن وجه آخر * وقد قال الله تعالى ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾* وقال الإمام أحمد حدثنا أسباط حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ * وحدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ قال تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار * ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجة من حديث أسباط * وقال الترمذي حسن صحيح * قلت وهو منقطع .

وقال البخاري حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ * قال : « فضل صلاة الجمع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة . ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر » . يقول أبو هريرة إقرؤا إن شئتم ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ وقال البخاري حدثنا مسدد حدثنا أبو عوانة عن الأعمش عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح »* تابعه شعبة وأبو حمزة وأبو داود وأبو معاوية عن الأعمش. وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمن الإمام فأمنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » * وفي صحيح البخاري حدثنا إسماعيل بلفظ : « إذا قال الإمام آمين فإن الملائكة تقول في السماء آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » * وفي صحيح البخاري حدثنا إسماعيل حدثني مالك عن سمي[1]عن أبي صالح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا (اللهم ربنا ولك الحمد) فإن من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » . ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه من حديث مالك * وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد هو شك (يعني الأعمش) قال قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة سياحين في الأرض فضلاً عن كتاب الناس فاذا وجدوا أقواماً يذكرون الله فنادوا هلموا إلى بغيتكم فيجيئون بهم إلى السماء الدنيا فيقول الله أي شيء تركتم عبادي يصنعون فيقولون تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويذكرونك فيقول وهل رأوني فيقولون لا فيقول كيف لو رأوني فيقولون لو رأوك لكانوا أشد تحميداً وتمجيداً وذكراً * قال فيقول فأي شيء يطلبون فيقولون يطلبون الجنة فيقول وهل رأوها فيقولون لا فيقول وكيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً قال فيقول من أي يتعوذون فيقولون من النار فيقول وهل رأوها فيقولون لا فيقول فكيف لو رأوها فيقولو ن لو رأوها كانوا أشد منها هرباً وأشد منها خوفاً . قال فيقول أشهدكم أني قد غفرت لهم . قال فيقول إن فيهم فلاناً

---

(١) سمي : مولى أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ثقة قتل يوم قديد سنة ١٣ وفي التقريب سنة ٣٠ وهو الصواب قتلته الحرورية : (١/ ٣٣٣) (الكاشف ١/ ٢٢٣) .

الخطاء لم يردهم إنما جاء لحاجة فيقول هم القوم لا يشقى بهم جليسهم[1] .

وهكذا رواه البخاري عن قتيبة عن جرير بن عبد الحميد عن الأعمش به . وقال رواه شعبة عن الأعمش ولم يرفعه . ورفعه سهيل عن أبيه . وقد رواه أحمد عن عفان عن وهيب عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه كما ذكره انبخاري معلقاً عن سهيل . ورواه مسلم عن محمد بن حاتم عن بهز بن أسد عن وهب به . وقد رواه الإمام أحمد أيضاً عن غندر عن شعبة عن سليمان (هو الأعمش) عن أبي صالح عن أبي هريرة كما أشار إليه البخاري رحمه الله * وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية . حدثنا الأعمش وابن نمير * وأخبرنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة * ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة . والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه . ومن سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده * ومن بطأ[2] به عمله لم يسرع به نسبه »* وكذا رواه مسلم من حديث أبي معاوية*[3] وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن أبي إسحاق عن الأغر (أبي مسلم) عن أبي هريرة وأبي سعيد عن رسول الله ﷺ. قال : « ما اجتمع قوم يذكرون الله إلاّ حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده * وكذا رواه أيضاً من حديث إسرائيل وسفيان الثوري وشعبة عن أبي إسحاق به نحوه * ورواه مسلم من حديث شعبة والترمذي من حديث الثوري وقال حسن صحيح * ورواه ابن ماجة عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يحيى بن آدم عن عمار بن زريق عن أبي إسحاق بإسناد نحوه * وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة * وفي مسند الإمام أحمد والسنن عن أبي الدرداء مرفوعاً (وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع) أي تتواضع له كما قال تعالى ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ [الاسراء : ٢٤] وقال تعالى ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ [الشعراء : ٢١٥] وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال إن لله ملائكة سياحين في الأرض ليبلغوني عن أمتي لسلام * وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري وسليمان الأعمش كلاهما عن عبد الله بن لسائب به * وقال الإمام أحمد . حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة

---

(١) مسند أحمد : ج ٤٥٢/١ و٢٥١/٢ .

(٢) قوله ومن بطأ به عمله : معناه من كان عمله ناقصاً لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال ، فينبغي أن لا يتكل على شرف النسب وفضيلة الآباء ، ويقصر في العمل .

(٣) مسند أحمد : ج ٢٥٢/٢ . ومسلم في ٤٨ كتاب الذكر والدعاء ـ ١١ باب فضل الإجتماع على تلاوة القرآن ٣٨ (٢٦٩٩) ص ٢٠٧٤/٤ .

قالت قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم » وهكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع وعبدة بن حميد كلاهما عن عبد الرزاق به . والأحاديث في ذكر الملائكة كثيرة جداً * وقد ذكرنا ما يسره الله تعالى وله الحمد .

فصل

وقد اختلف الناس في تفضيل الملائكة على البشر على أقوال : فأكثر ما توجد هذه المسألة في كتب المتكلمين والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم وأقدم كلام رأيته في هذه المسألة ما ذكره الحافظ بن عساكر في تاريخه في ترجمة أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص أنه حضر مجلساً لعمر بن عبد العزيز وعنده جماعة فقال عمر ما أحد أكرم على الله من كريم بني آدم . واستدل بقوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ [البينة : ٧] ووافقه على ذلك أمية بن عمرو بن سعيد فقال عراك بن مالك ما أحد أكرم على الله من ملائكته هم خدمة داريه ورسله إلى أنبيائه . واستدل بقوله تعالى ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ [الأعراف : ٢٠] فقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي ما تقول أنت يا أبا حمزة * فقال قد أكرم الله آدم فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وجعل من ذريته الأنبياء والرسل ومن يزوره الملائكة * فوافق عمر بن عبد العزيز في الحكم واستدل بغير دليله * وأضعف دلالة ما صرح به من الآية وهو قوله ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ مضمونه أنها ليست بخاصة بالبشر * فإن الله قد وصف الملائكة بالإيمان في قوله ﴿ ويؤمنون به ﴾ وكذلك الجان ﴿ وإنا لما سمعنا الهدى آمنا به ﴾ [الجن : ١٣] ﴿ وإنا منا المسلمون ﴾ قلت وأحسن ما يستدل به في هذه المسألة ما رواه عثمان بن سعيد الدارمي عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً وهو أصح ، قال : لما خلق الله الجنة قالت الملائكة يا ربنا اجعل لنا هذه نأكل منها ونشرب فإنك خلقت الدنيا لبني آدم فقال الله ، لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان .

باب خلق الجان وقصّة الشيطان

قال الله تعالى ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ [الرحمن : ١٤] وقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ [الحجر : ٢٦ ـ ٢٧] وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وغير واحد ﴿ من مارج من نار ﴾ قالوا من طرف اللهب وفي رواية من خالصه وأحسنه * وقد ذكرنا آنفاً من طريق الزهري عن عروة عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من نار وخلق آدم مما وصف لكم رواه

مسلم * قال كثير من علماء التفسير خلقت الجن قبل آدم عليه السلام وكان قبلهم في الأرض الحن والبن فسلط الله الجن عليهم فقتلوهم وأجلوهم عنها وأبادوهم منها وسكنوها بعدهم . وذكر السدي في تفسيره عن أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس على ملك الدنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن وإنما سموا الجن لأنهم خُزان الجنة . وكان إبليس مع ملكه خازناً فوقع في صدره إنما أعطاني الله هذا لمزية لي على الملائكة . وذكر الضحاك عن ابن عباس أن الجن لما أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء بعث الله إليهم إبليس ومعه جند من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم عن الأرض إلى جزائر البحور .

وقال محمد بن إسحاق عن خلاد عن عطاء عن طاوس عن ابن عباس كان اسم إبليس قبل أن يرتكب المعصية عزازيل . وكان من سكان الأرض ومن أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً وكان من حي يقال لهم الجن * وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عنه كان اسمه عزازيل وكان من أشرف الملائكة من أولي الأجنحة الأربعة * وقد أسند عن حجاج عن ابن جريج قال ابن عباس كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة * وكان خازناً على الجنان وكان له سلطان سماء الدنيا . وكان له سلطان الأرض * وقال صالح مولى التوأمة عن ابن عباس كان يسوس ما بين السماء والأرض رواه ابن جرير وقال قتادة عن سعيد بن المسيب كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا * وقال الحسن البصري لم يكن من الملائكة طرفة عين وأنه لأصل الجن كما أن آدم أصل البشر * وقال شهر ابن حوشب وغيره كان إبليس من الجن الذين طردوهم الملائكة فاسره بعضهم وذهب به إلى السماء . رواه ابن جرير * قالوا فلما أراد الله خلق آدم ليكون في الأرض هو وذريته من بعده وصور جثته منها جعل إبليس وهو رئيس الجان وأكثرهم عبادة اذ ذاك وكان اسمه عزازيل يطيف به فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك * وقال أما لئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت عليّ لأعصينك فلما أن نفخ الله في آدم من روحه كما سيأتي وأمر الملائكة بالسجود له دخل إبليس منه حسد عظيم وامتنع من السجود له وقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، فخالف الأمر واعترض على الرب عز وجل وأخطأ في قوله وابتعد من رحمة ربه وأنزل من مرتبته التي كان قد نالها بعبادته وكان قد تشبه بالملائكة ولم يكن من جنسهم لأنه مخلوق من نارٍ وهم من نور فخانه طبعه في أحوج ما كان إليه ورجع إلى أصله الناري ﴿ **فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلاّ إبليس استكبر وكان من الكافرين** ﴾ [الحجر : ٣٠] وقال تعالى ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً** ﴾ [الكهف : ٥٠] .

فاهبط إبليس من الملأ الأعلى وحرم عليه قدر أن يسكنه فنزل إلى الأرض حقيراً ذليلاً مذؤماً مدحوراً متوعداً بالنار هو ومن اتبعه من الجن والانس إلاّ أنه مع ذلك جاهد كل الجهد على إضلال

بني آدم بكل طريق وبكل مرصد كما قال ﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لاحتنكن ذريته إلا قليلاً . قال إذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً ﴾ [الإسراء : ٦٢] .

وسنذكر القصة مستفاضة عند ذكر خلق آدم عليه السلام * والمقصود أن الجان خلقوا من النار وهم كبني آدم يأكلون ويشربون ويتناسلون * ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون كما أخبر تعالى عنهم في صورة الجن في قوله تعالى ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين ﴾ [الأحقاف : ٢٩] وقال تعالى ﴿ قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً . وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً . وانه كان يقول سفيهنا على الله شططا . وأن ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا . وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا * وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا . وانا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا * وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا * وأنا ظننا ان لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا . وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون . فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا . وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه . ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴾ [الجن : ١] وقد ذكرنا تفسير هذه السورة وتمام القصة في آخر سورة الأحقاف * وذكرنا الأحاديث المتعلقة بذلك هنالك * وأن هؤلاء النفر كانوا من جن (نصيبين) وفي بعض الآثار من جن (بصرى) وأنهم مروا برسول الله ﷺ وهو قائم يصلي بأصحابه ببطن نخلة من أرض مكة فوقفوا فاستمعوا لقراءته . ثم اجتمع بهم النبي ﷺ ليلة كاملة فسألوه عن أشياء أمرهم بها ونهاهم عنها وسألوه الزاد فقال لهم ﴿ كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحما وكل روثة علف لدوابكم ﴾ ونهى النبي ﷺ أن يستنجي بهما وقال : ﴿ إنهما زاد إخوانكم ﴾ [أي] : الجن . ونهى عن البول في السرب لأنها مساكن الجن . وقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة الرحمن فما جعل يمر فيها بآية ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ إلا قالوا ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد . وقد أثنى عليهم

النبي ﷺ في ذلك لما قرأ هذه السورة على الناس فسكتوا . فقال ﴿ الجن كانوا أحسن منكم رداً ما قرأت عليهم فبأي آلاء ربكما تكذبان إلاّ قالوا ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد ﴾ رواه الترمذي عن جبير وابن جرير والبزار عن ابن عمر .

وقد اختلف في مؤمني الجن هل يدخلون الجنة أو يكون جزاء طائعهم أن لا يعذب بالنار فقط . على قولين الصحيح أنهم يدخلون الجنة لعموم القرآن * ولعموم قوله تعالى ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ [الرحمن : ٤٦] فامتن تعالى عليهم بذلك فلولا أنهم ينالونه لما ذكره وعده عليهم من النعم * وهذا وحده دليل مستقل كافي في المسألة وحده والله أعلم .

وقال البخاري حدثنا قتيبة عن مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه أن أبا سعيد الخدري قال له : ﴿ إني أراك تحب الغنم والبادية فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فانه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة ﴾* قال أبو سعيد سمعته من رسول الله ﷺ * انفرد به البخاري دون مسلم .

وأما كافرو الجن فمنهم الشياطين ومقدمهم الأكبر إبليس عدو آدم أبي البشر وقد سلطه هو وذريته على آدم وذريته . وتكفل الله عز وجل بعصمة من آمن به وصدق رسله واتبع شرعه منهم . كما قال ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً ﴾ [الاسراء : ٦٥] وقال تعالى ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين . وما كان عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ ﴾ [سبأ : ٢٠] وقال تعالى ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ [الأعراف : ٢٧].

وقال : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين قال يا إبليس مالك أن لا تكون من الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حماء مسنون قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة الى يوم الدين . قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون . قال فانك من المنظرين . الى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك المخلصين قال هذا صراط علي مستقيم . ان عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ [الحجر : ٢١].

وقد ذكر تعالى هذه القصة في سورة البقرة وفي الأعراف وههنا وفي سورة سبحان وفي سورة طه وفي سورة ص * وقد تكلمنا على ذلك كله في مواضعه في كتابنا التفسير ولله الحمد * وسنوردها في قصة آدم إن شاء الله * والمقصود أن إبليس أنظره الله إلى يوم القيامة محنة لعباده واختباراً منه لهم كما قال تعالى ﴿ وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك . وربك على كل شيء حفيظ ﴾* وقال تعالى ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم * وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها باذن ربهم تحيتهم فيها سلام ﴾ [إبراهيم : ٢٨].

فإبليس لعنه الله حي الآن منظر إلى يوم القيامة بنص القرآن * وله عرش على وجه البحر وهو جالس عليه ويبعث سراياه يلقون بين الناس الشر والفتن * وقد قال الله تعالى ﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ [النساء : ٧٦] وكان اسمه قبل معصيته العظيمة عزازيل * قال النقاش وكنيته (أبو كردوس) ولهذا لما قال النبي ﷺ لابن صياد ما ترى قال أرى عرشاً على الماء . فقال له النبي ﷺ : « أخسأ فلن تعدو قدرك » فعرف أن مادة مكاشفته التي كاشفه بها شيطانية مستمدة من إبليس الذي هو يشاهد عرشه على البحر * ولهذا قال له أخسأ فلن تعدو قدرك أي لن تجاوز قيمتك الدنية الخسيسة الحقيرة .

والدليل على أن عرش إبليس على البحر الذي رواه الإمام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثني معاذ التميمي[1]عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : « عرش إبليس في البحر يبعث سراياه في كل يوم يفتنون الناس فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة للناس » ورواه[2].

وقال أحمد حدثنا روح حدثنا ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول (عرش إبليس على البحر يبعث سراياه فيفتنون الناس فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة) تفرد به من هذا الوجه .

وقال أحمد حدثنا مؤمل حدثنا حماد حدثنا علي بن زيد عن أبي نضرة عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ لابن صائد : « ما ترى » قال أرى عرشاً على الماء أو قال على البحر حوله

---

(١) مسند أحمد : ج ٣٣٢/١ ماعز التميمي بدل معاذ .

(٢) ورواه بياض بالأصل . والتقدير أن أحمد رواه بروايتين اخريين عن جابر من طريق أبي الزبير ٣٨٤/٣ ومن طريق سفيان عن أبي الزبير عن جابر ٣٣٢/٣ وفيها : عرش إبليس على البحر .

حيات » ، قال ﷺ : « ذاك عرش إبليس » * هكذا رواه في مسند جابر .

وقال في مسند أبي سعيد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا علي بن زيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال لابن صائد : « ما ترى قال : أرى عرشاً على البحر حوله الحيات »، فقال . رسول الله ﷺ : « صدق ؛ ذاك عرش إبليس » .

وروى الإمام أحمد من طريق معاذ التميمي وأبي الزبير[1] عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ولكن في التحريش[2] بينهم » * وروى الإمام مسلم من حديث الأعمش عن أبي سفيان طلحة بن نافع عن جابر عن النبي ﷺ قال « إن الشيطان يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة . يجيء أحدهم فيقول ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا . فيقول إبليس لا والله ما صنعت شيئاً . ويجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله . قال فيقربه ويدنيه ويقول نعم أنت » يروى بفتح النون بمعنى نعم أنت ذاك الذي تستحق الإكرام . وبكسرها أي نعم منك * وقد استدل به بعض النحاة على جواز كون فاعل نعم مضمراً وهو قليل * واختار شيخنا الحافظ أبو الحجاج الأول ورجحه ووجهه بما ذكرناه والله أعلم .

وقد أوردنا هذا الحديث عند قوله تعالى ﴿ ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾[3] يعني أن السحر المتلقي عن الشياطين من الإنس والجن يتوصل به إلى التفرقة بين المتآلفين غاية التآلف المتوادين المتحابين ولهذا يشكر إبليس سعى من كان السبب في ذلك . فالذي ذمه الله يمدحه والذي يغضب الله يرضيه عليه لعنة الله * وقد أنزل الله عز وجل سورتي المعوذتين مطردة لأنواع الشر وأسبابه وغاياته . ولا سيما سورة ﴿ قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ﴾[4]. وثبت في الصحيحين عن أنس . وفي صحيح البخاري عن صفية بنت حسين[5] أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم »[6] .

---

(١) في المسند ماعز التميمي وسقط اسم أبي الزبير .

(٢) قوله في التحريش : متعلق بمقدر محذوف أي أن الشيطان سعى في التحريش بين المصلين عن طريق بث الخصومات والبغضاء والحروب والفتن وغيرها .

(٣) سورة البقرة الآية ١٠٢ .

(٤) سورة الناس الآية ٤ .

(٥) عند مسلم صفية بنت حييٍّ زوج النبي ﷺ وهو الصواب .

(٦) قال القاضي عياض وغيره : قيل هو على ظاهره وأن الله تعالى جعل له قوة وقدرة على الجري في باطن الإنسان في مجاري دمه ، وقيل هو على الإستعارة لكثرة إغوائه ووسوسته فكأنه لا يفارق الإنسان كما لا يفارقه دمه .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا محمد بن جبير حدثنا عدي بن أبي عمارة حدثنا زياد النميري عن أنس قال قال رسول الله ﷺ « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن نسي التقم قلبه فذلك الوسواس الخناس »* ولما كان ذكر الله مطردة للشيطان عن القلب كان فيه تذكار للناس كما قال تعالى ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾[1]، وقال صاحب موسى ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾[2]وقال تعالى ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾[3]يعني الساقي لما قال له يوسف اذكرني عند ربك نسي الساقي أن يذكره لربه يعني مولاه الملك . وكان هذا النسيان من الشيطان ﴿ فلبث يوسف في السجن بضع سنين ﴾[4]ولهذا قال بعده ﴿ وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة ﴾[5]أي مدة * وقرىء بعد أمة أي نسيان . وهذا الذي قلنا من أن الناسي هو الساقي هو الصواب من القولين كما قررناه في التفسير والله أعلم .

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عاصم سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف رسول الله ﷺ قال عثر بالنبي ﷺ حماره فقلت تعس الشيطان فقال النبي ﷺ : «لا تقل تعس الشيطان فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم وقال بقوتي صرعته وإذا قلت بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب»* تفرد به أحمد وهو إسناد جيد* وقال أحمد حدثنا أبو بكر الحنفي حدثنا الضحاك ابن عثمان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا كان في المسجد جاء الشيطان فأبس به كما يبس الرجل بدابته فإذا سكن له زنقه أو ألجمه»[6]* قال أبو هريرة وأنتم ترون ذلك . أما المزنوق فتراه مائلاً كذا لا يذكر إلا الله * وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله عز وجل تفرد به أحمد * وقال الإمام أحمد حدثنا ابن نمير حدثنا ثور يعني ابن يزيد عن مكحول عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « العين حق ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم » * وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن ذر بن عبد الله الهمداني عن عبد الله بن شداد عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني أحدث نفسي بالشيء ـ لأن أخرّ من

---

(١) سورة الكهف الآية ٢٤ .

(٢) سورة الكهف الآية ٦٣ .

(٣) سورة يوسف جزء من الآية ٤٢ .

(٤) سورة يوسف جزء من الآية ٤٢ .

(٥) سورة يوسف الآية ٤٥ .

أمّة بالتشديد : الحين ولا تكون الحين إلا على حذف مضاف والأمّة الجماعة من الناس .

وقرأ ابن عباس أمة بفتح الهمزة وتخفيف الميم أي بعد نسيان وقيل أُمِهِ النسيان ذكره النحاس ورجل أمه ذاهب العقل . قال صاحب اللسان أمه الرجل فهو ماموه وهو الذي ليس عقله معه .

وقرأ العقيلي بعد إمّة أي بعد نعمة ، أي بعد أن أنعم الله عليه بالنجاة .

(٦) أبس بالشيء : استقل به ، وزنقه : ضيق عليه .

السماء أحب إليّ من أن أتكلم به . فقال النبي ﷺ : « الله أكبر الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة » * ورواه أبو داود والنسائي من حديث منصور زاد النسائي والأعمش كلاهما عن أبي ذر به .

وقال البخاري حدثنا يحي بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال أخبرني عروة قال قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق ربك فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته »(١)* وهكذا رواه مسلم من حديث الليث ومن حديث الزهري وهشام بن عروة كلاهما عن عروة به * وقد قال الله تعالى ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾(٢) وقال تعالى ﴿ **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾(٣) وقال تعالى ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم** ﴾ (٤)وقال تعالى ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون** ﴾(٥). وروى الإمام أحمد وأهل السنن من حديث أبي المتوكل عن أبي سعيد قال كان رسول الله ﷺ يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه . وجاء مثله من رواية جبير بن مطعم وعبد الله بن مسعود وأبي أسامة الباهلي(٦). وتفسيره في الحديث (فهمزه الموتة وهو الخنق الذي هو الصرع . ونفخه الكبر . ونفثه الشعر) وثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل الخلاء قال « أعوذ بالله من الخبث والخبائث » قال كثير من العلماء استعاذ من ذُكران الشياطين وإناثهم(٧)* وروى الإمام أحمد عن شريح عن عيسى بن يونس عن ثور عن الحسين عن ابن سعد الخير وكان من أصحاب عمر عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « ومن أتى الغائط فليستتر فان لم يجد إلاّ أن يجمع كثيباً فليستدبره فان الشيطان

---

(١) عقيل هو عقيل بن خالد .
قوله فليستعذ بالله ولينته : معناه إذا عرض له الوسواس فليلجأ إلى الله في دفع شروره وليعرض عن التفكير بذلك . وليعلم أن هذا كله من وسوسة الشيطان الذي يسعى إلى إغرائه وإفساده وليشغل نفسه بالتفكير بأمور أخرى بعيداً عن الإصغاء لوسوسة الشيطان .

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٠١ .

(٣) سورة المؤمنون الآية ٩٧ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٢٠٠ .

(٥) سورة النحل الآية ٩٨ .

(٦) كذا أبو أسامة والصواب أبو أمامة الباهلي ، وهو صدي بن عجلان صحابي مشهور سكن الشهابي ومات بها سنة ٨٦/التقريب ج ١/٣٦٦ ـ كاشف ٢/٢٦ .

(٧) وقال ابن الأثير في النهاية : وقيل الخبث بسكون الباء ، وهو خلاف طيب الفعل من فجور وغيره . والخبائث يريد بها الأفعال المذمومة والخصال الرديئة .

يلعب بمقاعد بني آدم من فعل فقد أحسن ومن لا فلا حرج »* ورواه أبو داود وابن ماجة من حديث ثور بن يزيد به . وقال البخاري حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن عدي بن ثابت قال قال سليمان بن صرد استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه فقال النبي ﷺ : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد . لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » . فقالوا للرجل ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ فقال إني لست بمجنون . ورواه أيضاً مسلم وأبو داود والنسائي من طرق عن الأعمش .

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا عبيد الله بن عمر عن نافع . عن ابن عمر أن رسول ﷺ قال : « لا يأكل أحدكم بشماله ولا يشرب بشماله فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله » * وهذا على شرط الصحيحين بهذا الاسناد وهو في الصحيح من غير هذا الوجه .

وروى الإمام أحمد من حديث إسماعيل بن أبي حكيم عن عروة عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من أكل بشماله أكل معه الشيطان ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان »* وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر أنبأنا شعبة عن أبي زياد الطحان سمعت أبا هريرة يقول عن النبي ﷺ أنه رأى رجلاً يشرب قائماً فقال له : « قه » قال : لِمَ . قال : « أيسرك أن يشرب معك الهر » . قال : لا . قال : « فإنه قد شرب معك من هو شر منه الشيطان » تفرد به أحمد من هذا الوجه . وقال أيضاً : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن رجل عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لو يعلم الذي يشرب وهو قائم ما في بطنه لاستقاء » قال : وحدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بمثل حديث الزهري * وقال الإمام حدثنا موسى حدثنا ابن لهيعة عن ابن الزبير أنه سأل جابراً سمعتَ النبي ﷺ قال : « إذا دخل الرجل بيته فذكر اسم الله حين يدخل وحين يطعم قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء ههنا . وان دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال أدركتم المبيت . وان لم يذكر اسم الله عند طعامه قال أدركتم المبيت والعشاء »؟ قال نعم * وقال البخاري حدثنا محمد حدثنا عبدة حدثنا محمد عن هشام بن عروة عن أبيه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى يبرز وإذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى يغيب ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فانها تطلع بين قرني الشيطان »[1] أو (الشياطين) لا أدري أي ذلك قال هشام * ورواه مسلم والنسائي من حديث هشام به * وقال البخاري حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال رأيت رسول الله ﷺ يشير إلى

---

(١) بين قرني الشيطان : قيل المراد بقرنه أمته وشيعته وقيل : قرنه جانب رأسه . هذا ظاهر الحديث . ومعناه أن يدنو برأسه إلى الشمس في هذا الوقت ليكون الساجدون للشمس من الكفار كالساجدين له . حينئذ يمكن أن يلبس على المصلي صلاته . فكرهت الصلاة في هذا الوقت لسياق المعنى كما كرهت في مأوى الشيطان .

المشرق فقال « ها إن الفتنة ههنا إن الفتنة ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان » * هكذا رواه البخاري منفرداً به من هذا الوجه * وفي السنن أن رسول الله ﷺ : « نهى أن يجلس بين الشمس والظل . وقال إنه مجلس الشيطان ». وقد ذكروا في هذا معاني . من أحسنها أنه لما كان الجلوس في مثل هذا الموضع فيه تهوية بالخلقة فيما يرى كان يحبه الشيطان لان خلقته في نفسه مشوه وهذا مستقر في الأذهان . ولهذا قال تعالى: ﴿ طلعها كأنه رؤس الشياطين ﴾[1] الصحيح أنهم الشياطين لا ضرب من الحيات كما زعمه من زعمه من المفسرين والله أعلم * فان النفوس مغروز فيها قبح الشياطين وحسن خلق الملائكة وإن لم يشاؤا . ولهذا قال تعالى ﴿ طلعها كأنه رؤس الشياطين ﴾ وقال النسوة لما شاهدن جمال يوسف ﴿ حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾[2]. وقال البخاري حدثنا يحيى بن جعفر حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري حدثنا ابن جريج أخبرني عطاء عن جابر عن النبي ﷺ قال : (إذا استجنح) أو (كان جنح الليل) فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذ فإذا ذهب ساعة من العشاء فحلوهم وأغلق بابك واذكر اسم الله وأطفىء مصباحك واذكر اسم الله وأوكِ[3] سقاءك واذكر اسم الله وخمر إناءك واذكر اسم الله ولو تعرض عليه شيئاً ».

ورواه أحمد عن يحيى عن ابن جريج وعنده فإن الشيطان لا يفتح مغلقاً . وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن قط[4] عن أبي الزبير عن جابر قال قال رسول الله ﷺ : « أغلقوا أبوابكم وخمروا آنيتكم وأوكوا أسقيتكم وأطفؤا سرجكم فان الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ولا يكشف غطاء ولا يحل وكاء وإن الفويسقة تضرم البيت على أهله يعني الفارة . وقال البخاري حدثنا آدم حدثنا شعبة عن منصور عن سالم بن أبي الجعد عن كريب عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان ولم يسلط عليه ». وحدثنا الأعمش عن سالم عن كريب عن ابن عباس مثله .

ورواه أيضاً عن موسى بن إسماعيل عن همام عن منصور عن سالم عن كريب عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : (أما لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فرزقاً ولداً لم يضره الشيطان »* وقال البخاري حدثنا إسماعيل حدثنا أخي عن سليمان عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد . يضرب على كل عقدة مكانها » عليك ليل طويل فارقد « فان استيقظ فذكر الله انحلت عقدة . فإن توضأ إنحلت عقدة . فإن صلى إنحلت عقده كلها فأصبح نشيطاً طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان» هكذا رواه منفرداً به من

---

(١) سورة الصافات الآية ٦٥ .

(٢) سورة يوسف الآية ٣١ .

(٣) أوكِ من الوكاء وهو كل ما شُد رأسه من وعاء وغيرها .

(٤) كذا في الأصول قط وليس الرواة من تسمى بهذا الاسم وفي المسند ج ٣٠١/٣ ورد قطر .

هذا الوجه . وقال البخاري حدثنا إبراهيم عن حمزة حدثني ابن أبي حازم عن يزيد يعني ابن الهادي عن محمد بن إبراهيم عن عيسى بن طلحة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إذا استيقظ أحدكم من منامه فتوضأ فاستنثر ثلاثاً فإن الشيطان يبيت على خيشومه) ورواه مسلم عن بشر بن الحكم عن الدراوردي . والنسائي عن محمد بن زنبور عن عبد العزيز بن أبي حازم كلاهما عن يزيد بن الهادي به * وقال البخاري حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن عبد الله قال « ذكر عند النبي ﷺ رجل نام ليله ثم أصبح قال ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه » أو قال (في أذنه) .

ورواه مسلم عن عثمان واسحاق كلاهما عن جرير به . وأخرجه البخاري أيضاً والنسائي وابن ماجة من حديث منصور بن المعتمر به . وقال البخاري حدثنا محمد بن يوسف أنبأنا الأوزاعي عن يحى ابن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ « إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط فاذا قضى أقبل فإذا ثوب بها أدبر فاذا قضى أقبل حتى يخطر بين الإنسان وقلبه . فيقول اذكر كذا وكذا حتى لا يدري أثلاثاً صلى أم أربعاً فاذا لم يدر أثلاثاً صلى أم أربعاً سجد سجدتي السهو » هكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه . وقال أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا جعفر يعني الأحمر عن عطاء بن السائب عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « راصوا الصفوف فإن الشيطان يقوم في الخلل »[1] وقال أحمد حدثنا أبان حدثنا قتادة عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان يقول : « راصوا الصفوف وقاربوا بينها وحاذوا بين الأعناق فوالذي نفس محمد بيده إني لأرى الشيطان يدخل من خلل الصف كأنه الحذف»[2] * وقال البخاري حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا يونس عن حميد بن هلال عن أبي صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « إذا مر بين يدي أحدكم شيء فليمنعه فإن أبى فليمنعه فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان » ورواه أيضاً مسلم وأبو داود من حديث سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال به * وقال الإمام أحمد حدثنا أبو أحمد حدثنا بشير بن معبد حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي فذهبت أمرّ بين يديه فردني * ثم قال حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه يقرأ فالتبست عليه القراءة فلما فرغ من صلاته قال « لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين الإبهام والتي تليها ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل * وروى أبو داود منه فمن استطاع إلى آخره عن أحمد بن أبي سريج عن أبي أحمد محمد بن عبد الله بن محمد بن الزبير به . وقال البخاري حدثنا محمود حدثنا شبابة حدثنا شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ « أنه صلى صلاة فقال إن الشيطان عرض لي فسدّ عليّ لقطع الصلاة عليّ فأمكنني الله منه » فذكر الحديث * وقد رواه

---

(١) مسند أحمد ٣/١٥٤ .

(٢) مسند أحمد ٣/٢٦٠ .

مسلم والنسائي من حديث شعبة به مطولاً .

ولفظ البخاري عند تفسير قوله تعالى أخباراً عن سليمان عليه السلام أنه قال ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب﴾[1] من حديث روح وغندر عن شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن عفريتا[2] من الجن تفلت عليّ البارحة » أو كلمة نحوها[3] ليقطع عليّ الصلاة فأمكنني الله منه فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴾ قال روح فرده خاسئاً » وروى مسلم من حديث أبي إدريس عن أبي الدرداء قال قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك » ثم قال : « ألعنك بلعنة الله ثلاثاً » وبسط يده كأنه يتناول شيئاً فلما فرغ من الصلاة قلنا يا رسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك فقال : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله[4] في وجهي فقلت : « أعوذ بالله منك » . ثلاث مرات . ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة » . وقال تعالى ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾[5] يعني الشيطان وقال تعالى ﴿ إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ فالشيطان لا يألو الانسان خبالا جهده وطاقته في جميع أحواله وحركاته وسكناته كما صنف الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتاباً في ذلك سماه (مصائد الشيطان) . وفيه فوائد جمة .

وفي سنن أبي داود إن رسول الله ﷺ : كان يقول في دعائه . وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت . ورويناه في بعض الأخبار أنه قال (يا رب وعزك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني) وقال الله تعالى ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ﴾[6] فوعد الله هو الحق المصدق ووعد الشيطان هو الباطل . وقد روى الترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه وابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن للشيطان للمة بابن آدم وللملك لمة . فأما لمة الشيطان

---

(١) سورة ص الآية ٣٥ .

(٢) العفريت : العاتي المارد من الجن .

(٣) عند مسلم : يفتك عليّ : والفتك الأخذ في غفلة وخديعة .

(٤) عند مسلم : ليجعله .

(٥) سورة لقمان الآية ٣٣ .

(٦) سورة البقرة الآية ٢٦٨ .

فأيعاد بالشر وتكذيب بالحق . وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق . فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله . ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان »[1] ثم قرأ ﴿ والشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ﴾ .

وقد ذكرنا في فضل سورة البقرة أن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه . وذكرنا في فضل آية الكرسي أن من قرأها في ليلة لا يقربه الشيطان حتى يصبح . وقال البخاري حدثنا عبد الله بن يوسف أنبأنا ملك عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلاّ رجل عمل أكثر من ذلك »[2] . وأخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة من حديث ملك . وقال الترمذي حسن صحيح .

وقال البخاري أنبأنا أبو اليمان أنبأنا شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال ﷺ : « كل ابن آدم يطعن الشيطان في جنبيه بأصبعه حين يولد غير عيسى بن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب ». تفرد به من هذا الوجه . وقال البخاري حدثنا عاصم بن علي حدثنا ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « التثاؤب من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع فإن أحدكم إذا قال (ها) ضحك الشيطان » . ورواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه النسائي من حديث ابن أبي ذئب به * وفي لفظ « إذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع فان الشيطان يدخل ».

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا سفيان عن محمد بن عجلان عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يحب العطاس ويبغض أو يكره التثاؤب فإذا قال أحدكم ها ها فإنما ذلك الشيطان يضحك من جوفه . ورواه الترمذي والنسائي من حديث محمد بن عجلان به .

وقال البخاري حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن أشعث عن أبيه عن مسروق قال : قالت عائشة سألت النبي ﷺ : عن التفات الرجل في الصلاة فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم ». وكذا رواه أبو داود والنسائي من رواية أشعث بن أبي الشعثاء سليم بن أسود المحاربي عن أبيه عن مسروق به .

وروى البخاري من حديث الاوزاعي عن يحيى بن أبي كثير حدثني عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا حلم أحدكم حلماً يخافه فليبصق عن يساره وليتعوذ بالله من شرها فإنها لا تضره ». وقال الإمام أحمد حدثنا

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة (٢ : ٢٥) .

(٢) أخرجه البخاري في أكثر من موضع (إيمان : ٤٢) ومسلم في الإيمان (٤٦) والترمذي في الطهارة (٤١) وابن ماجة في المقدمة (٩) .

عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح فانه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزع في يده فيقع في حفرة من النار » . أخرجاه من حديث عبد الرزاق . وقال الله تعالى ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رُجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير ﴾[1] وقال ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾[2] وقال تعالى ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾[3] وقال تعالى ﴿ وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون انهم عن السمع لمعزولون ﴾[4] وقال تعالى إخباراً عن الجان ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديداً وشهبا . وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ﴾[5].

وقال البخاري : وقال الليث : حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال أن أبا الأسود أخبره عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ قال : الملائكة تحدث في العنان (والعنان الغمام) بالأمريكون في الأرض فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كلمة . هكذا رواه في صفة إبليس معلقاً عن الليث به . ورواه في صفة الملائكة عن سعيد بن أبي مريم عن الليث عن عبيد الله بن أبي جعفر عن محمد بن عبد الرحمن أبي الاسود عن عروة عن عائشة بنحوه * تفرد بهذين الطريقين دون مسلم * وروى البخاري في موضع آخر ومسلم من حديث الزهري عن يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال : « قالت عائشة سأل ناس النبي ﷺ : عن الكهان فقال « انهم ليسوا بشيء » * فقالوا يا رسول الله إنهم يحدثوننا أحياناً بشيء فيكون حقاً فقال ﷺ : « تلك الكلمة من الحق[6] يخطفها[7] من الجني فيقرقرها[8] في أذن وليه كقرقرة الدجاجة فيخلطون معها مائة كذبة * هذا لفظ البخاري .

---

(١) سورة الملك الآية ٥ .

(٢) سورة الصافات الآية ٦ .

(٣) سورة الحجر الآية ١٦ .

(٤) سورة الشعراء الآية ٢١٠ .

(٥) سورة الجن الآية ٨ .

(٦) عند مسلم من الجن ، يعني الكلمة المسموعة من الجن أو التي تصح مما نقلته الجن .

(٧) يخطفها : الخطف الاستراق والأخذ بسرعة .

(٨) قرقرها : وعند مسلم « قرها » : قال أهل اللغة القرّ ترديد الكلام في إذن المخاطب حتى يفهمه ، وقرّ الدجاجة صوتها إذا قطعته . يقال : قرت تقرقرا وقريرا وتقول إذا رددته : قرقرت قرقرة .

قال الخطابي وغيره : معناه أن الجني يقذف الكلمة إلى وليه الكاهن فتسمعها الشياطين ، كما تؤذن الدجاجة بصوتها رفيقاتها .

وقال البخاري حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال سمعت عكرمة يقول سمعت أبا هريرة يقول إن نبي الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان . فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذي قال : الحق وهو العلي الكبير . فيسمعها مسترق السمع . ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض . ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه . فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن . فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا . فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء انفرد به البخاري » وروى مسلم من حديث الزهري عن علي بن الحسين زين العابدين عن ابن عباس عن رجال من الأنصار عن النبي ﷺ نحو هذا . وقال تعالى ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾[1]وقال تعالى ﴿ وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾[2]الآية وقال تعالى ﴿ وقال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد . قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد ﴾[3]وقال تعالى ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً . ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون . ولتصغي إليه افئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾[4].

وقد قدمنا في صفة الملائكة ما رواه أحمد ومسلم من طريق منصور عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه واسمه رافع عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلاّ وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا وإياك يا رسول الله قال وإياي ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلاّ بخير .

وقال الإمام أحمد حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن قابوس عن أبيه واسمه حصين بن جندب وهو أبو ظبيان الجنبي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : « ليس منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الشياطين قالوا وأنت يا رسول الله قال نعم ولكن الله أعانني عليه

---

(١) سورة الزخرف الآية ٣٦ .

(٢) سورة فصلت الآية ٢٥ .

(٣) سورة ق الآية ٢٧ .

(٤) سورة الأنعام الآية ١١١ .

فأسلم[1] * تفرد به أحمد وهو على شرط الصحيح . وقال الإمام أحمد حدثنا هارون حدثنا عبد الله بن وهب أخبرني أبو صخر عن يزيد بن قسيط حدثه أن عروة بن الزبير حدثه أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته أن رسول الله ﷺ : « خرج من عندها ليلاً قالت فغرت عليه قالت فجاء فرأى ما أصنع فقال : « مالك يا عائشة أغرت » قالت : فقلت ومالي أن لا يغار مثلي على مثلك . فقال رسول الله ﷺ « أفأخذك شيطانك » قالت : يا رسول الله أو معي شيطان . قال : « نعم » . قلت ومع كل إنسان . قال : « نعم » . قلت ومعك يا رسول الله ؟ قال : « نعم ولكن ربي أعانني عليه حتى اسلم » * وهكذا رواه مسلم عن هارون وهو ابن سعيد الأيلي بإسناده نحوه .

وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن موسى بن وردان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال « إن المؤمن لينصي شيطانه كما ينصى أحدكم بعيره في السفر » تفرد به أحمد من هذا الوجه ومعنى لينصي شيطانه ليأخذ بناصيته فيغلبه ويقهره كما يفعل بالبعير إذا شرد ثم غلبه » . وقوله تعالى إخباراً عن إبليس ﴿ قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾[2] .

قال الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا أبو عقيل هو عبد الله بن عقيل الثقفي حدثنا موسى بن المسيب عن سالم بن أبي الجعد عن سبرة بن أبي فاكه قال سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة فقعد له بطريق الإسلام فقال أتسلم وتذر دينك ودين آبائك . قال فعصاه وأسلم قال وقعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر وتذر أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول فعصاه وهاجر . ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهد النفس والمال فقال أتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال قال فعصاه وجاهد » قال رسول الله ﷺ « فمن فعل ذلك منهم كان حقاً على الله أن يدخله الجنة. وان قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة وان كان غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة وان وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة . وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا عبادة بن مسلم الفزاري حدثني جبير بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم سمعت عبد الله بن عمر يقول لم يكن رسول الله ﷺ يدع هذه الدعوات حين يصبح وحين يمسي « اللهم اني أسألك العافية في الدنيا والآخرة اللهم إني اسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي

---

(١) فأسلم فيها روايتان برفع الميم وفتحها . فمن رفع قال : معناه أسلمُ أنا من شره وفتنته ، ومن فتح الميم اعتبر أن القرين أسلمَ وصار مؤمناً .

قال الخطابي الصحيح الرفع ؛ ورجح القاضي عياض الفتح : على معنيين : بمعنى انقاد واستسلم وقيل ، وهو الظاهر ، صار مسلماً مؤمناً . والله أعلم .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٦ .

وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي » قال وكيع يعني الخسف ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم من حديث عبادة بن مسلم به[1]. وقال الحاكم صحيح الإسناد .

باب خلق آدم عليه السّلام[2]

قال الله تعالى ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها . ثم عرضهم على الملائكة . فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم باسمائهم فلما أنبأهم باسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس . أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة . وكلا منها رغدا حيث شئتما . ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فاخرجهما مما كانا فيه . وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو . ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات . فتاب عليه انه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً فاما يأتينكم مني هدى . فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[3]وقال تعالى ﴿ ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾[4]وقال تعالى ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء

---

(١) في المسند : ج ٢/ ٢٥ عمارة بن مسلم وهو تحريف . وعبادة أبو يحيى البصري ثقة اضطرب فيه قول ابن حبان/ الكاشف ج ٢/ ٥٧ تقريب التهذيب ١/ ٣٩٥ .

(٢) ذكر اسم آدم في القرآن الكريم خمساً وعشرين مرة في خمس وعشرين آية في تسع سور :
في : البقرة٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ .
آل عمران ٣٣ ، ٥٩ .
المائدة ٢٧ .
الأعراف ١١ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٥ ، ١٧٢ .
الإسراء ٦١ ، ٧٠ .
الكهف ٥٠ .
مريم ٥٨ .
طه ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢١ .
يس ٦٠ .

(٣) سورة البقرة الآية ٣٠ .

(٤) سورة آل عمران الآية ٥٩ .

واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ [النساء : ١] كما قال ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير ﴾ [الحجرات : ١٣]. وقال تعالى ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ [الأعراف : ١٨٩] الآية وقال تعالى ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك أن لا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها . فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين . قال انظرني إلى يوم يبعثون . قال انك من المنظرين . قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذؤماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما أني لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور . فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخسفان عليهما من ورق الجنة . وناداهما ربهما ألم انهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا . وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ [الأعراف : ١١] . كما قال في الآية الأخرى ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ [طه : ٥٥]. وقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم . واذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . الا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال يا إبليس مالك أن لا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون . قال فاخرج منها فانك رجيم . وان عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون . قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين . الا عبادك منهم المخلصين * قال هذا صراط علي مستقيم . ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين . وان جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ [الحجر : ٢٦] وقال تعالى ﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس . قال أأسجد لمن خلقت طيناً . قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا . واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم

الشيطان الا غرورا . ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً ﴾ [الكهف : ٥٠] وقال تعالى ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه . أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ﴾ [الاسراء : ٦١]. وقال تعالى ﴿ ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما . واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى . فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . ان لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى . فوسوس اليه الشيطان . قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو. فأما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ [طه : ١١٥]. وقال تعالى ﴿ قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون . ما كان لي من علم بالملأ الأعلى اذ يختصمون إن يوحى الي الا أنما أنا نذير مبين . اذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين . قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاخرج منها فانك رجيم . وان عليك لعنتي إلى يوم الدين . قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون . قال فانك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم . قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين . قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين . قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . ان هو الا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ [ص : ٦٨].

فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن * وقد تكلمنا على ذلك كله في التفسير * ولنذكر ههنا مضمون ما دلت عليه هذه الآيات الكريمات وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة في ذلك عن رسول الله ﷺ * والله المستعان .

فأخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلاً لهم ﴿ اني جاعل في الأرض خليفة ﴾[1] أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضاً كما قال ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ [الأنعام : ١٦٥] فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لا على

(١) سورة البقرة الآية ٣٠ ومعنى الخلافة : انه أي آدم سيكون له سلطان عليها متصرفاً في موادها ليجعلها ملائمة لحاجاته .

وجه الاعتراض والتنقص لبني آدم والحسد لهم كما قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين(١) * قالوا ﴿ اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾(٢) قيل علموا ان ذلك كائن بما رأوا ممن كان قبل آدم من الجن والبن قاله قتادة .

وقال عبد الله بن عمر كانت الجن قبل آدم بألفي عام فسفكوا الدماء فبعث الله اليهم جنداً من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور * وعن ابن عباس نحوه . وعن الحسن ألهموا ذلك * وقيل لما اطلعوا عليه من اللوح المحفوظ فقيل أطلعهم عليه هاروت وماروت عن ملك فوقهما يقال له الشجل . رواه بن أبي حاتم عن ابي جعفر الباقر * وقيل لأنهم علموا أن الأرض لا يخلق منها إلاّ من يكون بهذه المثابة غالباً ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾(٣) أي نعبدك دائماً لا يعصيك منا أحد * فان كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فها نحن لا نفتر ليلا ولا نهاراً ﴿ قال إني اعلم ما لا تعلمون ﴾(٤) أي أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هؤلاء ما لا تعلمون أي سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء ثم بين لهم شرف آدم عليهم في العلم فقال ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾(٥) * قال ابن عباس هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وجمل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها * وفي رواية علمه اسم الصحفة والقدر حتى الفسوة والفسية * وقال مجاهد علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شيء .

---

(١) إن تساؤل الملائكة بعد أن آدهم أن يخلق الله خلقاً غيرهم ، مرده إلى خوفهم من أن يكون ذلك لتقصير وقع منهم ، أو لمخالفة كانت من أحدهم ، فأسرعوا بتساؤلهم لتبرئة أنفسهم وقالوا كيف تخلق غيرنا ؟ ونحن دائبون على التسبيح بحمدك وتقديس اسمك ؟

(٢) سورة البقرة الآية ٣٠ قالوا ذلك رغبة منهم فيما يزيل شبهتهم وينزع الوساوس من صدورهم ، وامتد رجاؤهم إلى الله أن يستخلفهم في الأرض يقول صاحب الظلال : ويوحي قول الملائكة هذا بأنه كان لديهم من شواهد الحال ، أو من تجارب سابقة في الأرض ، أو من إلهام البصيرة ، ما يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق ، أو من مقتضيات حياته على الأرض ، وما يجعلهم يعرفون أو يتوقعون انه سيفسد في الأرض ، وانه سيسفك الدماء ، ثم هم - بفطرة الملائكة البريئة التي لا تتصور إلا الخير المطلق - يرون التسبيح بحمد الله والتقديس له . . . وهو متحقق بوجودهم هم .

(٣) سورة البقرة جزء من الآية ٣٠ .

(٤) سورة البقرة جزء من الآية ٣٠ وفيه جواب على تساؤلهم ورجائهم ، جواب اطمأنت به قلوبهم وثلجت به صدورهم .

(٥) سورة البقرة الآية ٣١ قال النجار في قصص الأنبياء ص ٦ : « . . . وأن آدم سمى كل شيء باسمه ، وهذه مبالغة غير مقبولة لا أميل إليها ، بل أميل إلى أنه سمى الأشياء التي وقع عليها حسه ومنها الطيور والبهائم والطيور وكل أنواع الحيوان الموجودة هناك » .

وقال صاحب الظلال : أعطاه سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض ص ١ /٥٧ .

وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وغير واحد * وقال الربيع علمه أسماء الملائكة ، وقال عبد الرحمن بن زيد علمه أسماء ذريته والصحيح أنه علمه أسماء الذوات وأفعالها مكبرها ومصغرها كما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما * وذكر البخاري هنا ما رواه هو ومسلم من طريق سعيد وهشام عن قتادة عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : « يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك اسماء كل شيء » وذكر تمام الحديث * ﴿ ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ قال الحسن البصري : « لما أراد الله خلق آدم قالت الملائكة لا يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه فابتلوا بهذا » وذلك قوله ﴿ ان كنتم صادقين ﴾ وقيل غير ذلك كما بسطناه في التفسير قالوا ﴿ سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ﴾ أي سبحانك أن يحيط أحد بشيء من علمك من غير تعليمك كما قال ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ ﴿ قال يا آدم أنبئهم باسمائهم فلما أنبأهم باسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ أي أعلم السر كما أعلم العلانية * وقيل إن المراد بقوله واعلم ما تبدون ما قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها وبقوله وما كنتم تكتمون المراد بهذا الكلام ابليس حين أسر الكبر والتخيرة على آدم عليه السلام قاله سعيد بن جبير ومجاهد والسدي والضحاك والثوري واختاره ابن جرير * وقال ابو العالية والربيع والحسن وقتادة ﴿ وما كنتم تكتمون ﴾ قولهم لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه* قوله ﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى واستكبر ﴾(١)هذا إكرام عظيم من الله تعالى لآدم حين خلقه بيده ونفخ فيه من روحه كما قال ﴿ فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾(٢)فهذه أربع تشريفات : خَلْقُه له بيده الكريمة ، ونفخه فيه من روحه ، وأمره الملائكة بالسجود له ، وتعليمه أسماء الأشياء ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو وإياه في الملأ الأعلى وتناظرا كما سيأتي (أنت آدم أبو البشر الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء . وهكذا يقول أهل المحشر يوم القيامة كما تقدم وكما سيأتي إن شاء الله تعالى وقال في الآية الأخرى ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين * قال ما منعك ان لا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾(٣)قال

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٤ .

(٢) سورة الحجر الآية ٢٩ .

قال صاحب الظلال : إنه التكريم في أعلى صوره ، لهذا المخلوق الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء ، ولكنه وهب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة . لقد وهب سر المعرفة ، كما وهب سر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق . . . إن ازدواج طبيعته ، وقدرته على تحكيم ارادته ، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله . إن هذا كله بعض أسرار تكريمه .

(٣) سورة الأعراف الآية ١١ .

الحسن البصري قاس إبليس وهو أول من قاس * وقال محمد بن سيرين أول من قاس إبليس وما عبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس * رواهما ابن جرير ومعنى هذا أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم فرأى نفسه أشرف من آدم فامتنع من السجود له مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود . والقياس إذا كان مقابلاً بالنص كان فاسد الاعتبار * ثم هو فاسد في نفسه فإن الطين أنفع وخير من النار فإن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والاحراق[1]* ثم آدم شرفه الله بخلقه له بيده ونفخه فيه من روحه * ولهذا أمر الملائكة بالسجود له * كما قال ﴿ اذ قال ربك للملائكة أني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون* فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين * قال يا إبليس مالك أن لا تكون مع الساجدين * قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وان عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾[2]استحق هذا من الله تعالى لانه استلزم تنقصه لآدم وازدراؤه به وترفعه عليه مخالفة الأمر الألهي ومعاندة الحق في النص على آدم على التعيين وشرع في الاعتذار بما لا يجدي عنه شيئاً ـ وكان اعتذاره أشد من ذنبه كما قال تعالى في سورة سبحان ﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا * قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليَّ لئن اخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الاّ قليلا * قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴾[3]وقال في سورة الكهف ﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الاّ إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾[4]أي خرج عن طاعة الله عمداً وعناداً واستكباراً عن امتثال أمره وما ذاك إلا لأنه خانه طبعه ومادته الخبيثة أحوج ما كان إليها فانه مخلوق من نار كما قال وكما قدرنا في صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله ﷺ قال : « خلق الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم .

---

(١) قال القرطبي في أحكامه ١٧١/٧ : فإن الطين أفضل من النار من وجوه أربعة :
- إن من جوهر الطين الرزانة والسكون والوقار والاناه والحلم والحياء والصبر ومن جوهر النار الخفة والطيش والحدة والارتفاع والإضطراب .
- إن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مسك أذفر ولم ينطق الخبر بأن في الجنة ناراً .
- إن النار سبب العذاب .
- إن الطين مستغن عن النار ، والنار محتاجة إلى المكان ومكانها التراب .

(٢) سورة الحجر الأيات ٢٨ ـ ٣٥ .

(٣) سورة الإسراء الآيات ٦١ ـ ٦٥ .

(٤) سورة الكهف الآية ٥٠ .

قال الحسن البصري . لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط . وقال شهر بن حوشب . كان من الجن فلما أفسدوا في الأرض بعث الله إليهم جنداً من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم الى جزائر البحار وكان إبليس ممن أسر فأخذوه معهم إلى السماء فكان هناك[1]. فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه . وقال ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة وسعيد بن المسيب وآخرون : كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا . قال ابن عباس وكان اسمه عزازيل[2]. وفي رواية عن الحارث قال النقاش وكنيته (أبو كردوس) قال ابن عباس: وكان من حي من الملائكة يقال لهم الجن وكانوا خزان الجنان وكان من أشرفهم وأكثرهم علماً وعبادة وكان من أولي الأجنحة الأربعة فمسخه الله شيطاناً رجيماً . وقال في سورة ص ﴿ **إذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين . قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاخرج منها فانك رجيم . وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين قال رب فانظرني إلى يوم يبعثون . قال فانك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين قال فالحق والحق أقول لأملئن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين** ﴾[3]وقال في سورة الأعراف ﴿ **قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾[4]أي بسبب اغوائك إياي لأقعدن لهم كل مرصد ولآتينهم من كل جهة منهم فالسعيد من خالفه والشقي من اتبعه .

وقال الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا أبو عقيل (هو عبد الله بن عقيل الثقفي) حدثنا موسى بن المسيب عن سالم بن أبي الجعد عن سبرة بن أبي الفاكه قال سمعت رسول الله ﷺ : قال : « ان الشيطان يقعد لابن آدم بأطراقه » وذكر الحديث كما قدمناه في صفة إبليس .

وقد اختلف المفسرون في الملائكة المأمورين بالسجود لأدم . أهم جميع الملائكة كما دل عليه عموم الأيات وهو قول الجمهور . أو المراد بهم ملائكة الأرض . كما رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس . وفيه انقطاع . وفي السياق نكارة وان كان بعض المتأخرين قد رجحه

---

(١) جاء في القرطبي ١/٢٩٥ : قال المهدوي : إن إبليس هو الذي قاتل الجن في الأرض مع جند من الملائكة . وعن ابن عباس : انه كان رئيس ملائكة السماء الدنيا وكان له سلطانها وسلطان الأرض ، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً وكان يسوس ما بين السماء والأرض فرأى لنفسه بذلك شرفاً وعظمة .

(٢) كان اسمه بالسريانية عزازيل وبالعربية الحارث .

(٣) سورة ص الأيات ٧١ ـ ٨٥ .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٦ .

ولكن الأظهر من السياقات الأول ويدل عليه الحديث وأسجد له ملائكته وهذا عموم أيضاً والله أعلم[1]. وقوله تعالى لابليس ﴿ اهبط منها ﴾ و﴿ اخرج منها ﴾ دليل على أنه كان في السماء فأمر بالهبوط منها والخروج من المنزلة والمكانة التي كان قد نالها بعبادته وتشبهه بالملائكة في الطاعة والعبادة ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه فاهبط إلى الأرض مذؤماً مدحوراً . وأمر الله آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجته الجنة فقال ﴿ وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾[2]. وقال في الأعراف ﴿ قال اخرج منها مذؤماً مدحورا لمن تبعك منهم لاملئن جهنم منكم أجمعين . ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾[3]وقال تعالى ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾[4]وسياق هذه الأيات يقتضي أن خلق حواء كان قبل دخول آدم الجنة لقوله ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ وهذا قد صرح به اسحاق ابن بشار وهو ظاهر هذه الأيات .

ولكن حكى السدي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا اخرج ابليس من الجنة واسكن آدم الجنة فكان يمشي فيها وحشى ليس له فيها زوج يسكن إليها فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة . خلقها الله من ضلعه . فسألها من أنت قالت : امرأة . قال : ولما خلقت ؟ قالت : لتسكن إليّ فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه (ما اسمها يا آدم) قال : حواء قالوا : ولم كانت حواء ؟ قال لإنها خلقت من شيء حي . وذكر محمد بن إسحاق عن ابن عباس أنها خلقت من ضلعه الأقصر الايسر وهو نائم ولأم مكانه لحماً ومصداق هذا في قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾[5] الآية وفي قوله تعالى ﴿ هو الذي خلقكم من

---

(١) قال الفخر الرازي في تفسيره ج ١/ ٢٣٨ : قال الأكثرون ان جميع الملائكة مأمورون بالسجود لآدم واحتجوا عليه بوجهين : إن لفظ الملائكة صيغة الجمع وهي تفيد العموم .
. الوجه الثاني : هو انه تعالى استثنى إبليس منهم .
ومنهم من قال أن ملائكة الأرض .
أما الحكماء فإنهم يحملون الملائكة على الجواهر الروحانية وقالوا يستحيل ان تكون الأرواح السماوية منقادة للنفوس الناطقة إنما المراد من الملائكة المأمورين بالسجود القوى الجسمانية البشرية المطيعة للنفس الناطقة .

(٢) سورة البقرة الآية ٣٥ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١١٨ .

(٤) سورة طه الآيات ١١٧ ـ ١١٩ .

(٥) سورة النساء الآية ١ .

نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به ﴾[1] الآية وستتكلم عليها فيما بعد ان شاء الله تعالى .

وفي الصحيحين من حديث زائدة عن ميسرة الأشجعي عن أبي حازم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « استوصوا بالنساء خيراً ـ فان المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً » لفظ البخاري .

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ فقيل هي الكرم وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والشعبي وجعدة بن هبيرة ومحمد بن قيس والسدي في رواية عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة قال وتزعم يهود أنها الحنطة . وهذا مروي عن ابن عباس والحسن البصري ووهب بن منبه وعطية العوفي وأبي مالك ومحارب بن دثار وعبد الرحمن بن أبي ليلى * قال وهب والحبة منه ألين من الزبد وأحلى من العسل * وقال الثوري عن أبي حصين عن أبي مالك ولا تقربا هذه الشجرة هي النخلة * وقال ابن جريج عن مجاهد هي التينة وبه قال قتادة وابن جريج وقال أبو العالية[2] كانت شجرة من أكل منها أحدث ولا ينبغي في الجنة حدث .

وهذا الخلاف قريب * وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها * ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا كما في غيرها من المحال التي تبهم في القرآن .

وإنما الخلاف الذي ذكروه في أن هذه الجنة التي دخلها آدم هل هي في السماء أو في الأرض هو الخلاف الذي ينبغي فصله والخروج منه والجمهور على أنها هي التي في السماء وهي جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظي وإنما تعود على معهود ذهني وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام (علام أخرجتنا ونفسك من الجنة) الحديث كما سيأتي الكلام عليه * وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشجعي واسمه سعد بن طارق عن أبي حازم سلمة بن دينار عن أبي هريرة * وأبو مالك عن ربعي عن حذيفة قالا قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف[3] لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم من الجنة إلاّ خطيئة أبيكم » وذكر الحديث بطوله * وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٩ .

(٢) في تفسير الرازي : قاله الربيع بن أنس .
قال صاحب الظلال : لقد أبيحت لهما كل ثمار الجنة . . . إلا شجرة . . . شجرة واحدة ، ربما كانت ترمز للمحظور الذي لا بد منه في حياة الأرض . فبغير محظور لا تنبت الإرادة . ١/ ٥٨ .

(٣) عند مسلم (١) كتاب الإيمان ٣٢٩ (١٩٥) ص ١/ ١٨٧ : حتى تزلف : أي تقرب كما قال تعالى : وأزلفت الجنة للمتقين : أي قربت .

في الدلالة على أنها جنة المأوى وليست تخلو عن نظر .

وقال آخرون بل الجنة التي أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد لانه كلف فيها أن لا يأكل من تلك الشجرة ولأنه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه إبليس فيها وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى . وهذا القول محكي عن أبي بن كعب وعبد الله بن عباس ووهب بن منبه وسفيان بن عيينة واختاره ابن قتيبة في « المعارف » والقاضي منذر بن سعيد البلوطي في تفسيره وأفرد له مصنفاً على حدة . وحكاه عن أبي حنيفة الإمام وأصحابه رحمهم الله . ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي بن خطيب الريّ في تفسيره عن أبي القاسم البلخي وأبي مسلم الاصبهاني[1]. ونقله القرّطبي في تفسيره عن المعتزلة والقدرية * وهذا القول هو نص التوراة التي بأيدي أهل الكتاب * وممن حكى الخلاف في هذه المسألة أبو محمد بن حزم في الملل والنحل وأبو محمد بن عطية في تفسيره وأبو عيسى الرماني في تفسيره .

وحكى عن الجمهور الأول . وأبو القاسم الراغب والقاضي الماوردي في تفسيره فقال واختلف في الجنة التي أسكناها يعني آدم وحواء على قولين * أحدهما أنها جنة الخلد * الثاني جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التي جعلها دار جزاء . ومن قال بهذا اختلفوا على قولين * أحدهما انها في السماء لانه أهبطهما منها وهذا قول الحسن * والثاني أنها في الأرض لانه متحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار . وهكذا قول ابن يحيى وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم والله أعلم بالصواب من ذلك .

هذا كلامه . فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة واشعر كلامه أنه متوقف في المسألة . ولقد حكى أبو عبد الله الرازي في تفسيره في هذه المسألة أربعة أقوال هذه الثلاثة التي أوردها الماوردي . ورابعها الوقف * وحكى القول بأنها في السماء وليست جنة المأوى عن أبي علي الجبائي[2]. وقد أورد أصحاب القول الثاني سؤالاً يحتاج مثله إلى جواب فقالوا لا شك أن الله سبحانه وتعالى طرد

---

(١) في تفسير الفخر الرازي : قال أبو مسلم الأصفهاني وأبو القاسم البلخي : هذه الجنة كانت في الأرض ، وحملا الأهباط على الإنتقال من بقعة إلى بقعة . واحتجا عليه بوجوه . . .

- لو كانت هي دار الثواب لكانت جنة الخلد .
- من دخل هذه الجنة لا يخرج منها .
- إن إبليس لما امتنع عن السجود لآدم لعن فما كان يقدر على أن يصل إلى جنة الخلد .
- إن الجنة التي هي دار الثواب لا يفنى نعيمها .

انه لا يجوز في حكمته تعالى أن يبتدىء الخلق في جنة يخلدهم فيها .

- لا نزاع في أن الله تعالى خلق آدم في الأرض ولم يذكر . . . انه نقله إلى السماء . ج ٣/٣ .

(٢) قال الجبائي : ان تلك الجنة كانت في السماء السابعة وأن الإهباط الأول كان منها إلى السماء الأولى والثاني من السماء إلى الأرض . تفسير الفخر الرازي ج ٣/٣ .

إبليس حين امتنع من السجود عن الحضرة الإلهية وأمره بالخروج عنها والهبوط منها وهذا الأمر ليس من الأوامر الشرعية بحيث يمكن مخالفته وإنما هو أمر قدري لا يخالف ولا يمانع ولهذا قال ﴿ اخرج منها مذءوما مدحورا ﴾[1]وقال ﴿ اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ﴾[2]وقال ﴿ اخرج منها فانك رجيم ﴾[3]والضمير عائد إلى الجنة أو السماء أو المنزلة وإياماً كان فمعلوم أنه ليس له الكون قدراً في المكان الذي طرد عنه وأبعد منه لا على سبيل الإستقرار ولا على سبيل المرور والإجتياز * قالوا ومعلوم من ظاهر سياقات القرآن أنه وسوس لآدم وخاطبه بقوله له ﴿ هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾[4]وبقوله ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين . أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور ﴾[5]الآية وهذا ظاهر في اجتماعه معهما في جنتهما . وقد اجيبوا عن هذا بأنه لا يمتنع أن يجتمع بهما في الجنة على سبيل المرور فيها لا على سبيل الإستقرار بها أو أنه وسوس لهما وهو على باب الجنة أو من تحت السماء . وفي الثلاثة نظر . والله أعلم .

ومما احتج به أصحاب هذه المقالة ما رواه عبد الله بن الامام أحمد في الزيادات عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن البصري عن يحيى بن ضمرة السعدي عن أبي بن كعب قال : أن آدم لما احتضر اشتهى قطفاً من عنب الجنة . فانطلق بنوه ليطلبوه له . فلقيتهم الملائكة فقالوا أين تريدون يا بني آدم فقالوا إن أبانا اشتهى قطفاً من عنب الجنة . فقالوا لهم (ارجعوا فقد كفيتموه) فانتهوا إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبريل ومن خلفه من الملائكة ودفنوه . وقالوا . (هذه سنتكم في موتاكم) وسيأتي الحديث بسنده . وتمام لفظه عند ذكر وفاة آدم عليه السلام . قالوا فلولا انه كان الوصول إلى الجنة التي كان فيها آدم التي اشتهى منها القطف ممكناً لما ذهبوا يطلبون ذلك فدل على أنها في الأرض لا في السماء والله تعالى أعلم .

قالوا: والاحتجاج بأن الألف واللام في قوله ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة لم يتقدم عهد يعود عليه فهو المعهود الذهني مسلم ولكن هو ما دل عليه سياق الكلام فإن آدم خلق من الأرض ولم ينقل أنه رفع إلى السماء وخلق ليكون في الأرض وبهذا أعلم الرب الملائكة حيث قال ﴿ اني جاعل في الأرض خليفة ﴾ .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٣ .

(٣) سورة الحجر الآية ٣٤ .

(٤) سورة طه الآية ١٢٠ .

(٥) سورة الأعراف الآية ٢٠ .

قالوا : وهذا كقوله تعالى ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ﴾[1] فالألف واللام ليس للعموم ولم يتقدم معهود لفظي وإنما هي للمعهود الذهني الذي دل عليه السياق وهو البستان .

قالوا: وذكر الهبوط لا يدل على النزول من السماء قال الله تعالى: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ﴾[2]الآية وإنما كان في السفينة حين استقر على الجودي ونضب الماء عن وجه الأرض أمر أن يهبط اليها هو ومن معه مباركاً عليه وعليهم . وقال الله تعالى ﴿ اهبطوا مصراً فان لكم ما سألتم ﴾[3]الآية وقال تعالى ﴿ وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾[4]الآية . وفي الأحاديث واللغة من هذا كثير .

قالوا: ولا مانع بل هو الواقع أن الجنة التي أسكنها آدم كانت مرتفعة عن سائر بقاع الأرض ذات أشجار وثمار وظلال ونعيم ونضرة وسرور كما قال تعالى ﴿ إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ﴾[5]أي لا يذل باطنك بالجوع ولا ظاهرك بالعرى . ﴿ وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾[6]أي لا يمس باطنك حر الظمأ ولا ظاهرك حر الشمس . ولهذا قرن بين هذا وهذا وبين هذا وهذا لما بينهما من الملايمة . فلما كان منه ما كان من أكله من الشجرة التي نهي عنها اهبط إلى أرض الشقاء والتعب والنصب والكدر والسعي والنكد والابتلاء والإختبار والامتحان واختلاف السكان ديناً واخلاقاً واعمالاً وقصوداً وإرادات وأقوالاً وأفعالاً كما قال تعالى ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾[7]ولا يلزم من هذا أنهم كانوا في السماء كما قال تعالى ﴿ وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ﴾[6]ومعلوم انهم كانوا فيها لم يكونوا في السماء .

قالوا: وليس هذا القول مفرعاً على قول من ينكر وجود الجنة والنار اليوم ولا تلازم بينهما فكل من حكي عنه هذا القول من السلف واكثر الخلف ممن يثبت وجود الجنة والنار اليوم كما دلت عليه الآيات والأحاديث الصحاح كما سيأتي إيرادها في موضعها والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

---

(١) سورة القلم الآية ١٧ .

(٢) سورة هود الآية ٤٨ .

(٣) سورة البقرة الآية ٦١ .

(٤) سورة البقرة الآية ٧٤ .

(٥) سورة طه الآية ١١٨ .

(٦) سورة طه الآية ١١٩ .

(٧) سورة البقرة الآية ٣٦ .

(٨) سورة الإسراء الآية ١٠٤ .

وقوله تعالى ﴿ فأزلهما الشيطان عنها ﴾ أي عن[1] الجنة ﴿ فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ أي من النعيم والنضرة والسرور إلى دار التعب والكد والنكد وذلك بما وسوس لهما وزينه في صدورهما كما قال تعالى ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما . وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾[2] يقول ما نهاكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين أي ولو أكلتما منها لصرتما كذلك ﴿ وقاسمهما ﴾ أي حلف لهما على ذلك ﴿ إني لكما لمن الناصحين ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ أي هل أدلك على الشجرة التي إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم واستمررت في ملك لا يبيد ولا ينقضي وهذا من التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع .

والمقصود أن قوله شجرة الخلد التي إذا أكلت منها خلدت وقد تكون هي الشجرة التي قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا شعبة عن أبي الضحاك سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها شجرة الخلد » وكذا رواه أيضاً عن غندر وحجاج عن شعبة ، ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده عن شعبة أيضاً به و قال غندر قلت لشعبة هي شجرة الخلد قال ليس فيها هي .

تفرد به الإمام أحمد * وقوله ﴿ فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورقة الجنة ﴾[3] كما قال في « طه » ﴿ أكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾[4] وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم وهي التي حَدَتْه على أكلها والله أعلم .

وعليه يحمل الحديث الذي رواه البخاري حدثنا بشر بن محمد حدثنا عبد الله أنبأنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه لولا بنو اسرائيل لم يخنز[5] اللحم ولولا حواء لم تخن

---

(١) قال القرطبي : أزلهما من الزلة وهي الخطيئة ، أي استزلهما واوقعهما فيها . (على اعتبار لفظة عن في هذه الآية بمعنى في قاله صاحب الكشاف) .

قال ابن كيسان : فازالهما من الزوال : أي صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية . ج ١ / ٣١١ وقال القفال : هو من الزلل يكون الإنسان ثابت القدم على الشيء فينزل عنه ويصير متحولاً عن ذلك الموضع . التفسير الكبير ج ٣ / ٦ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٠ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٢ .

(٤) سورة طه الآية ١٢١ جاء في تفسير القرطبي ج ٧ / ١٨٠ : أكلت حواء أولاً فلم يصبها شيء ، فلما أكل آدم حلت العقوبة .

(٥) يخنز : ينتن .

أنثى زوجها . تفرد به من هذا الوجه وأخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة به ورواه أحمد ومسلم عن هارون بن معروف عن أبي وهب عن عمرو بن حارث عن أبي يونس عن أبي هريرة به * وفي كتاب التوراة التي بين أيدي أهل الكتاب أن الذي دل حواء على الأكل من الشجرة هي الحية وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها فأكلت حواء عن قولها وأطعمت آدم عليه السلام وليس فيها ذكر لإبليس فعند ذلك انفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فوصلا من ورق التين وعملا ميازر وفيها أنهما كانا عريانين * وكذا قال وهب بن منبه كان لباسهما نوراً على فرجه وفرجها .

وهذا الذي في هذه التوراة التي بأيديهم غلط منهم وتحريف وخطأ في التعريب فإن نقل الكلام من لغة إلى لغة لا يكاد يتيسر لكل أحد ولا سيما ممن لا يعرف كلام العرب جيداً ولا يحيط علماً بفهم كتابه أيضاً فلهذا وقع في تعريبهم لها خطأ كثير لفظاً ومعنى * وقد دل القرآن العظيم على أنه كان عليهما لباس في قوله ﴿ ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ﴾ فهذا لا يرد لغيره من الكلام والله تعالى أعلم .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسن بن اسكاب حدثنا علي بن عاصم عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب قال قال رسول الله ﷺ : « ان الله خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه فأول ما بدا منه عورته فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة فأخذت شعره شجرة فنازعها فناداه الرحمن عز وجل يا آدم مني تفر فلما سمع كلام الرحمن قال يا رب لا ولكن استحياء * وقال الثوري عن أبي ليلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ وورق التين[1] * وهذا إسناد صحيح إليه وكأنه مأخوذ من أهل الكتاب وظاهر الآية يقتضي أعم من ذلك وبتقدير تسليمه فلا يضر والله تعالى أعلم .

وروى الحافظ بن عساكر من طريق محمد بن اسحاق عن الحسن بن ذكوان عن الحسن البصري عن أبي بن كعب قال قال رسول الله ﷺ : « ان أباكم آدم كان كالنخلة السحوق ستين ذراعاً كثير الشعر مواري العورة فلما أصاب الخطيئة في الجنة بدت له سوأته فخرج من الجنة فلقيته شجرة فأخذت بناصيته فناداه ربه أفراراً مني يا آدم قال : بل حياء منك والله يا رب مما جئت به »* ثم رواه من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن يحيى بن ضمرة عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ: بنحوه . وهذا أصح فان الحسن لم يدرك أبياً * ثم أورده أيضاً من طريق خيثمة بن سليمان الاطرابلسي عن محمد بن عبد الوهاب أبي قرصافة العسقلاني عن آدم بن أبي

---

(١) جاء في تفسير القرطبي ج ١٨١/٧ قال : ويروى أن آدم عليه السلام لما بدت سوأته وظهرت عورته طاف على أشجار الجنة يسل منها ورقة يغطي بها عورته فزجرته أشجار الجنة حتى رحمته شجرة التين فأعطته ورقة .

أياس عن شيبان عن قتادة عن أنس مرفوعاً بنحوه * ﴿ وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[1]وهذا اعتراف ورجوع إلى الإنابة وتذلل وخضوع واستكانة وافتقار إليه تعالى في الساعة الراهنة وهذا السر ما سرى في أحد من ذريته إلا كانت عاقبته إلى خير في دنياه وأخراه ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾[2]وهذا خطاب لآدم وحواء ،وإبليس قيل والحية معهم أمروا أن يهبطوا من الجنة في حال كونهم متعادين متحاربين * وقد يستشهد لذكر الحية معهما بما ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه أمر بقتل الحيات وقال ما سالمناهن منذ حاربناهن وقوله في سورة طة ﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ﴾[3]هو أمر لآدم وإبليس واستتبع آدم حواء وإبليس الحية * وقيل هو أمر لهم بصيغة التثنية كما في قوله تعالى ﴿ وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ﴾[4]والصحيح ان هذا لما كان الحاكم لا يحكم إلاّ بين أثنين مدعٍ ومدعى عليه قال وكنا لحكمهم شاهدين وأما تكريره الإهباط في سورة البقرة في قوله ﴿ وقلنا اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[5]فقال بعض المفسرين[6]المراد بالاهباط الأول الهبوط من الجنة إلى السماء الدنيا وبالثاني من السماء الدنيا إلى الأرض . وهذا ضعيف لقوله في الأول ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ فدل على أنهم أهبطوا إلى الأرض بالإهباط الأول والله أعلم .

والصحيح أنه كرره لفظاً وإن كان واحداً وناط مع كل مرة حكماً فناط بالأول عداوتهم فيما بينهم وبالثاني الإشتراط عليهم أن من تبع هداه الذي ينزله عليهم بعد ذلك فهو السعيد ومن خالفه

---

(١) سورة الأعراف الأيات ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) سورة الأعراف الأية ٢٤ .

(٣) سورة طه الآية ١٢٣ .

قال الرازي في اهبطا وجوه : ـ قال أبو مسلم الخطاب : لآدم ومعه ذريته ولابليس ومعه ذريته فلكونهما جنسين صح قوله اهبطا . ولأجل اشتمال كل واحد من الجنسين على الكثرة صح قوله (فإما يأتينكم) .

ـ قال صاحب الكشاف : لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلاً للبشر جعلا كأنهما البشر ؛ فسهم فخوطبا مخاطبتهم (اهبطا) . ج ٢٢/١٢٩ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٧٨ .

(٥) سورة البقرة الآيات ٣٦ ـ ٣٩ .

(٦) أبو علي الجبائي ، كما تقدم عند الرازي .

فهو الشقي وهذا الاسلوب في الكلام له نظائر في القرآن الحكيم .

وروى الحافظ بن عساكر عن مجاهد قال : أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره فنزع جبريل التاج عن رأسه وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه وتعلق بـه غصن فظن آدم أنـه قد عوجل بالعقوبة فنكس رأسه يقول العفو العفو فقال الله فراراً مني قال بل حياء منك يا سيدي وقال الأوزاعي عن حسان هو بن عطية مكث آدم في الجنة مائة عام وفي رواية ستين عاماً وبكى على الجنة سبعين عاماً وعلى خطيئته سبعين عاماً وعلى ولده حين قتل أربعين عاماً * رواه بن عساكر .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن سعيد عن ابن عباس قال أهبط آدم عليه السلام إلى أرض يقال له دحنا بين مكـة والطائف* وعن الحسن قـال اهبط آدم بالهند وحواء بجدة وابليس بدستميسان من البصرة على أميال واهبطت الحية بأصبهان رواه ابن أبي حاتم أيضاً * وقال السدي نزل آدم بالهند ونزل معه بالحجر الأسود وبقبضة من ورق الجنة فبثه في الهنـد فنبتت شجرة الطيب هناك[1]* وعن ابن عمر قال اهبط آدم بـالصفا وحـواء بالمروة . رواه ابن أبي حاتم أيضاً وقال عبد الرزاق قال معمر أخبرني عوف عن قسامة بن زهير عن أبي موسى الأشعري قال : إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شيء وزوده من ثمار الجنة فثماركم هذه من ثمـار الجنة غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير* وقـال الحاكم في مستدركه أنبأنا أبو بكر بن بالوية عن محمد بن أحمد بن النضر عن معاوية بن عمر عن زائـدة عن عمار بن أبي معاوية البجلي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ما اسكن آدم الجنة إلا مـا بين صلاة العصر إلى غروب الشمس . ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

وفي صحيح مسلم من حديث الزهري عن الأعرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنـة وفيه أخـرج منها » وفي الصحيح من وجه آخر « وفيه تقوم الساعة » وقال أحمد حدثنا محمد بن مصعب حدثنا الأوزاعي عن أبي عمار عن عبد الله بن فروخ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « خير يوم طلعت فيه الشمس

---

(١) قـال القـرطبي ج ٣١٩/١ : اهبط آدم بـسرنـديب في الهـنـد بجبـل يقـال لـه بـوذ/ وفي المسعـودي ومعجم البلدان :

الراهون / ومعه الورق الذي خصفه من ورق الجنة فيبس فذرته الرياح فانتثر في بلاد الهند .

واهبط إبليس ببيـسـان / بلدة بمرو وبـالشام وموضع بـاليمامـة . وفي المسعودي بـالأبلة (قرب البصرة من جـانبهـا البحري) .

والحية وبيبسان وقيـل بسجستان (إحـدى مـدن خـراسـان) وفي المسعـودي : بـأصبهـان راجـع مـروج الـذهب ج ٢٩/١ .

يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها وفيه تقوم الساعة » على شرط مسلم[1] .

فأما الحديث الذي رواه ابن عساكر من طريق أبي القاسم البغوي حدثنا محمد بن جعفر الوركاني حدثنا سعيد بن ميسرة عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : « هبط آدم وحواء عريانين جميعاً عليهما ورق الجنة فأصابه الحر حتى قعد يبكي ويقول لها يا حواء قد أذاني الحر قال فجاءه جبريل بقطن وأمرها أن تغزل وعلمها وأمر آدم بالحياكة وعلمه أن ينسج وقال كان آدم لم يجامع امرأته في الجنة حتى هبط منها للخطيئة التي أصابتهما بأكلهما من الشجرة قال وكان كل واحد منهما ينام على حدة ينام أحدهما في البطحاء والآخر من ناحية أخرى حتى أتاه جبريل فأمره أن يأتي أهله قال وعلمه كيف يأتيها فلما أتاها جاءه جبريل فقال كيف وجدت امرأتك قال صالحة » فإنه حديث غريب ورفعه منكر جداً * وقد يكون من كلام بعض السلف وسعيد بن ميسرة هذا هو أبو عمران البكري البصري . قال فيه البخاري منكر الحديث . وقال بن حبان يروي الموضوعات وقال بن عدي مظلم الأمر وقوله ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾[2] قيل هي قوله ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[3] * روي هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبي العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب وخالد بن معدان وعطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين بن إشكاب حدثنا علي بن عاصم عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « قال آدم عليه السلام أرأيت يا رب إن تبت ورجعت أعائدي إلى الجنة ، قال : نعم » فذلك قوله . ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ وهذا غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع .

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد قال الكلمات (اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الراحمين اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم) * وروى الحاكم في مستدركه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ قال قال آدم يا رب ألم تخلقني بيدك . قيل له بلى . ونفخت فيّ من روحك قيل له بلى وعطستُ فقلتَ يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك قيل له بلى وكتبت عليّ أن أعمل هذا ـ قيل له بلى . قال أفرأيت إن تبت هل أنت

---

(١) في مروج الذهب ١/٢٩ : اسكنا الجنة لثلاث ساعات مضت منه (أي يوم خلقت حواء من آدم) فمكثا ثلاث ساعات وهو ربع يوم بمائتي سنة وخمسين سنة من أعوام الدنيا .

(٢) سورة البقرة الآية ٣٧ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٣ .

راجعي إلى الجنة . قال نعم * ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه * وروى الحاكم أيضاً والبيهقي وابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « لما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب أسألك بحق محمد أن غفرت لي فقال الله فكيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد ؟ فقال : يا رب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلاّ الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلاّ أحب الخلق إليك ، فقال الله : صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إليّ وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك * قال البيهقي تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه وهو ضعيف[1] والله أعلم وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾[2] .

احتجاج آدم وموسى عليهما السلام

قال البخاري حدثنا قتيبة حدثنا أيوب بن النجار عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « حاج موسى آدم[3] عليهما السلام فقال له : أنت الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم . قال آدم : يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه أتلومني على أمر قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني أو قدره عليّ قبل أن يخلقني . قال رسول الله ﷺ : فحج آدمُ موسى » * وقد رواه مسلم عن عمرو الناقد والنسائي عن محمد بن عبد الله بن يزيد عن أيوب بن النجار به * قال أبو مسعود الدمشقي ولم يخرجاه عنه في الصحيحين سواه * وقد رواه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة * ورواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به .

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو كامل حدثنا إبراهيم حدثنا أبو شهاب عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « احتج آدم وموسى فقال له موسى أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة فقال له آدم وأنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه تلومني على أمر قدّر عليّ قبل أن أخلق * قال رسول الله ﷺ : (فحج آدمُ موسى فحج آدمُ موسى » مرتين * قلت وقد روى هذا الحديث البخاري ومسلم من حديث الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه.

---

(١) ضعفه ابن معين والإمام أحمد والنسائي . الميزان (٢ / ٥٦٤) وذكره العقيلي في الضعفاء الكبير (٢ / ٣٣١) .

(٢) سورة طه الآية ١٢٢ .

(٣) قال أبو الحسن القابسي : معناه التقت أرواحهما في السماء فوقع الحجاج بينهما . قال القاضي عياض : يحتمل انه على ظاهره وانهما اجتمعا بشخصيهما .

وقال الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة قال فقال آدم وأنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه تلومني على عمل أعملُه كتبه الله عليّ قبل أن يخلق السموات والأرض قال : فحج آدمُ موسى » * وقد رواه الترمذي والنسائي جميعاً عن يحيى بن حبيب بن عدي عن معمر بن سليمان عن أبيه عن الأعمش به * قال الترمذيّ وهو غريب من حديث سليمان التيمي عن الأعمش قال وقد رواه بعضهم عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قلت هكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن محمد بن مثنى عن معاذ بن أسد عن الفضل بن موسى عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد . ورواه البزار أيضاً حدثنا عمرو بن علي الفلاس حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو أبي سعيد عن النبي ﷺ فذكر نحوه ، وقال أحمد حدثنا سفيان عن عمرو سمع طاووساً سمع أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ : « احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا[1] وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم يا موسى أنت الذي اصطفاك الله بكلامه وقال مرة برسالته وخط لك بيده[2] أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة قال : حج آدمُ موسى حج آدمُ موسى حج آدمُ موسى » وهكذا رواه البخاري عن علي بن المديني حدثنا عن سفيان قال حفظناه منْ عمرو عن طاوس قال سمعت أبا هريرة عن النبي ﷺ قال : « احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة فحج آدمُ موسى فحج آدمُ[3] موسى » هكذا ثلاثاً .

قال سفيان حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ مثله * وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجة من عشر طرق عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه * وقال أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا حماد عن عمار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال لقي آدم موسى فقال أنت آدم الذي خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته واسكنك الجنة ثم فعلت . فقال أنت موسى الذي كلمك الله واصطفاك برسالته وأنزل عليك التوراة أنا أقدم أم الذكر قال لا بل الذكر فحج آدم موسى .

قال أحمد وحدثنا عفان حدثنا حماد عن عمار بن أبي عمار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وحميد

---

(١) خيبتنا : أوقعتنا في الخيبة ؛ الحرمان والخسران ، ومعناه كن سبب خيبتنا وإغوائنا بالخطيئة التي ترتب عليها إخراجك من الجنة .

(٢) بيده : المراد وجهان : الإيمان بها ولا يتعرض لتأويلها . والثاني تأويلها بالقدرة .

(٣) حج آدمُ : برفع آدم ، وهو فاعل ، باتفاق الجميع ، أي غلبه بالحجة وظهر على موسى بها .

عن الحسن عن رجل قال حماد أظنه جندب بن عبد الله البجلي عن النبي ﷺ قال : « لقي آدم موسى فذكر معناه . تفرد به أحمد من هذا الوجه . وقال أحمد حدثنا الحسن حدثنا جرير هو ابن حازم عن محمد هو ابن سيرين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « لقي آدم موسى فقال أنت آدم الذي خلقك الله بيده واسكنك جنته وأسجد لك ملائكته ثم صنعت ما صنعت * قال آدم يا موسى أنت الذي كلمه الله وأنزل عليه التوراة * قال : نعم * قال فهل تجده مكتوباً عليّ قبل أن أخلق * قال نعم * قال : (فحج آدم موسى فحج آدم موسى ، وكذا رواه حماد بن زيد عن أيوب وهشام(1) عن محمد بن سيربن عن أبي هريرة رفعه .

وكذا رواه علي بن عاصم عن خالد وهشام عن محمد بن سيرين * وهذا على شرطهما من هذه الوجوه * وقال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أخبرني أنس بن عياض عن الحارث بن أبي ذُباب عن يزيد بن هرمز سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى . قال موسى : أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك * قال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجياً فبكم وجدت الله كتب التوراة * قال موسى بأربعين عاماً * قال آدم فهل وجدت فيها ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾(2) قال : نعم * قال أفتلومني على أن عملت عملاً كتب الله عليّ أن اعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة . قال : قال رسول الله ﷺ « فحج آدم موسى » .

قال الحارث وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ وقد رواه مسلم عن اسحق بن موسى الأنصاري عن أنس بن عياض عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب عن يزيد بن هرمز والأعرج كلاهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه ، وقال أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « احتج آدم وموسى فقال موسى لآدم يا آدم أنت الذي ادخلت ذريتك النار . فقال آدم يا موسى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وأنزل عليك التوراة فهل وجدت أن أهبط . قال نعم . قال فحجه آدم » وهذا على شرطهما ولم يخرجاه من هذا الوجه * وفي قوله أدخلت ذريتك النار نكارة .

فهذه طرق هذا الحديث عن أبي هريرة رواه عنه حميد بن عبد الرحمن وذكوان أبو صالح السمان وطاووس ابن كيسان وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج وعمار بن أبي عمار ومحمد بن سيرين وهمام بن منبه ويزيد بن هرمز وأبو سلمة بن عبد الرحمن .

وقد رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي

---

(1) هو هشام بن حَسّان .

(2) سورة طه الآية ١٢١ .

الله عنه فقال : حدثنا الحارث بن مسكين المصري حدثنا عبد الله بن وهب أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ قال : « قال موسى عليه السلام يا رب أرنا آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة فأراه آدم عليه السلام » فقال أنت آدم » فقال له آدم نعم قال أنت الذي نفخ الله فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلّمك الأسماء كلها » قال : نعم » قال : فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة فقال له آدم : من أنت قال : أنا موسى » قال : أنت موسى نبيٌّ بني إسرائيل أنت الذي كلمك الله من وراء الحجاب فلم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه » قال : نعم » قال تلومني على أمر قد سبق من الله عز وجل القضاء به قبل قال رسول الله ﷺ : « فحج آدم موسى فحج آدم موسى » ورواه أبو داود عن أحمد بن صالح المصري عن ابن وهب به . قال أبو يعلى ، وحدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبد الملك بن الصباح المسمعي حدثنا عمران عن الرديني عن أبي مجلز عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر عن عمر قال أبو محمد أكبر ظني أنه رفعه » قال : « التقى آدم وموسى فقال موسى لآدم : أنت أبو البشر أسكنك الله جنته وأسجد لك ملائكته . قال آدم : يا موسى أما تجده عليّ مكتوباً » قال فحج آدم موسى فحج آدم موسى » وهذا الاسناد أيضاً لا بأس به والله أعلم .

وقد تقدم رواية الفضل بن موسى لهذا الحديث عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد » ورواية الإمام أحمد له عن عفان عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن رجل » قال حماد أظنه جندب بن عبد الله البجلي عن النبي ﷺ : « لقي آدم موسى » فذكر معناه .

وقد اختلفت مسالك الناس في هذا الحديث فرده قوم من القدرية لما تضمن من إثبات القدر السابق » واحتج به قوم من الجبرية وهو ظاهر لهم بادىء الرأي حيث قال « فحج آدم موسى » لما احتج عليه بتقديم كتابه وسيأتي الجواب عن هذا ، وقال آخرون إنما حجه لأنه لامه على ذنب قد تاب منه والتائب من الذنب كمن لا ذنب له » وقيل إنما حجه لأنه أكبر منه وأقدم » وقيل لأنه أبوه » وقيل لانهما في شريعتين متغايرتين » وقيل لأنهما في دار البرزخ وقد انقطع التكليف فيما يزعمونه .

والتحقيق أن هذا الحديث روي بألفاظ كثيرة بعضها مروي بالمعنى . وفيه نظر . ومدار معظمها في الصحيحين وغيرهما على أنه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنة فقال له آدم أنا لم أخرجكم وإنما أخرجكم الذي رتب الإخراج على أكلي من الشجرة والذي رتب ذلك وقدّره وكتبه قبل أن أخلق هو الله عز وجل فأنت تلومني على أمر ليس له نسبة إلى أكثر ما أني نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها وكون الإخراج مترتباً على ذلك ليس من فعلي فأنا لم أخرجكم ولا نفسي من الجنة وإنما كان هذا من قدرة الله وصنعه وله الحكمة في ذلك فلهذا حج آدم موسى .

ومن كذب بهذا الحديث فمعاند لانه متواتر عن أبي هريرة رضي الله عنه وناهيك به عدالة

وحفظاً وإتقاناً * ثم هو مروي عن غيره من الصحابة كما ذكرنا . ومن تأوله بتلك التأويلات المذكورة آنفاً فهو بعيد من اللفظ والمعنى . وما فيهم من هو أقوى مسلكاً من الجبرية . وفيما قالوه نظر من وجوه * (أحدها) أن موسى عليه السلام لا يلوم على أمر قد تاب منه فاعله (الثاني) أنه قد قتل نفساً لم يؤمر بقتلها وقد سأل الله في ذلك بقوله : ﴿ رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له ﴾[1] الآية (الثالث) انه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقدر المتقدم كتابته على العبد لا نفتح هذا لكل من ليم على أمر قد فعله فيحتج بالقدر السابق فينسد باب القصاص والحدود ولو كان القدر حجة لاحتج به كل أحد على الأمر الذي ارتكبه في الأمور الكبار والصغار وهذا يفضي إلى لوازم فظيعة . فلهذا قال من قال من العلماء بأن جواب آدم إنما كان احتجاجاً بالقدر على المصيبة لا المعصية والله تعالى أعلم .

الأحاديث الواردة في خلق آدم

قال الإمام أحمد[2] حدثنا يحيى [بن سعيد] ومحمد بن جعفر حدثنا عوف حدثني قسامة بن زهير عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والاسود وبين ذلك . والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك » .

ورواه أيضاً عن هوذة عن عوف عن قسامة بن زهير سمعت الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء[3] منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك . والسهل والحزن وبين ذلك . والخبيث والطيب وبين ذلك » . وكذا رواه أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث عوف بن أبي جميلة الأعرابي عن قسامة بن زهير المازني البصري عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري عن النبي ﷺ بنحوه . وقال الترمذي حسن صحيح .

وقد ذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : (فبعث الله عز وجل جبريل في الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تشينني فرجع ولم يأخذ وقال رب : إنها عاذت بك فأعذتها فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها فرجع فقال كما قال جبريل فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخلطه ولم يأخذ من مكان واحد

---

(١) سورة القصص الآية ١٦ .
(٢) مسند أحمد ج ٤/٤٠٠ ، ٤٠٦ .
(٣) في المسند ج ٤/٤٠٦ : جعل منهم . الحزن : ما غلظ من الأرض .

وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به فَبَلَّ التراب حتى عاد طيناً لازباً) واللازب هو الذي يلزق بعضه ببعض * ثم قال للملائكة ﴿ إني خالق بشراً من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ [الحجر : ٢٨] فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه فخلقه بشراً فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعاً إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة فذلك حين يقول ﴿ من صلصال كالفخار ﴾ ويقول لأمر ما خلقت ودخل من فيه وخرج من دبره وقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه فلما بلغ الحين الذي يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت الملائكة قل الحمد لله فقال الحمد لله فقال له الله رحمك ربك فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخلت الروح في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة وذلك حين يقول الله تعالى ﴿ خلق الانسان من عجل ﴾ [الأنبياء : ٣٧] ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾ [الحجر : ٣٠] وذكر تمام القصة .

ولبعض هذا السياق شاهد من الأحاديث وإن كان كثير منه متلقى من الإسرائيليات فقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا حماد عن ثابت عن أنس أن النبي ﷺ قال : « لما خلق الله آدم تركه ما شاء أن يدعه فجعل إبليس يطيف به فلما رآه أجوف عرف أنه خَلْقٌ لا يتمالك » وقال ابن حبان في صحيحه حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا هدبة بن خالدحدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لما نفخ في آدم فبلغ الروح رأسه عطس فقال الحمد لله رب العالمين فقال له تبارك وتعالى يرحمك الله » .

وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا يحيى بن محمد بن السكن حدثنا حبان بن هلال حدثنا مبارك بن فضالة عن عبيد الله عن حبيب عن حفص هو ابن عاصم بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب عن أبي هريرة رفعه قال : « لما خلق الله آدم عطس فقال الحمد لله فقال له ربه رحمك ربك يا آدم » وهذا الاسناد لا بأس به ولم يخرجوه . وقال عمر بن عبد العزيز « لما أمرت الملائكة بالسجود كان أول من سجد منهم اسرافيل فآتاه الله أن كتب القرآن في جبهته » رواه ابن عساكر وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا عمرو بن محمد عن اسمعيل بن رافع عن المقبري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إن الله خلق آدم من تراب ثم جعله طيناً ثم تركه حتى إذا كان حمأ مسنوناً خلقه وصوره ثم تركه حتى إذا كان صلصالاً كالفخار قال فكان إبليس يمر به فيقول لقد خلقت لأمر عظيم . ثم نفخ الله فيه من روحه فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس فلقاه الله رحمة ربه فقال الله : يرحمك ربك . ثم قال الله يا آدم اذهب إلى هؤلاء النفر فقل

لهم [1]فانظر ماذا يقولون ؟ فجاء فسلم عليهم فقالوا وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فقال يا آدم هذا تحيتك وتحية ذريتك . قال يا رب وما ذريتي قال اختر يدي يا آدم قال اختار يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين وبسط كفه فإذا من هو كائن من ذريته في كف الرحمن فإذا رجال منهم أفواههم النور فاذا رجل يعجب آدم نوره قال يا رب من هذا قال ابنك داود قال يا رب فكم جعلت له من العمر قال جعلت له ستين قال يا رب فأتم له من عمري حتى يكون له من العمر مائة سنة ففعل الله ذلك وأشهد على ذلك فلما نفذ عمر آدم بعث الله ملك الموت فقال آدم أوَ لم يبق من عمري أربعون سنة قال لـه الملك : أوَ لم تعطها ابنك داود فجحد ذلك فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته * وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار والترمذي والنسائي في اليوم والليلة من حديث صفوان بن عيسى عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . وقال الترمذي حديث حسن غريب من هذا الوجه . وقال النسائي هذا حديث منكر وقد رواه محمد بن عجلان[2]عن سعيد المقبري عن أبيه عن عبد الله بن سلام * وقال الترمذي حدثنا عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور ثم عرضهم على آدم فقال أي رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال أي رب من هذا قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود : قال رب وكم جعلت عمره قال ستين سنة ، قال : أي رب زده من عمري أربعين سنة فلما انقضى عمر آدم ، جاءه ملك الموت ، قال : أوَ لم يبق من عمري أربعون سنة ، قال : أوَ لم تعطها ابنك داود . قال فجحد فجحدت ذريته ونسي آدم فنسيت ذريته وخطىء آدم فخطئت ذريته » ثم قال الترمذي حسن صحيح وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ورواه الحاكم في مستدركه من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وروى ابن أبي حاتم من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة مرفوعاً فذكره وفيه : « ثم عرضهم على آدم فقال يا آدم هؤلاء ذريتك وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام فقال آدم : يا رب لم فعلت هذا بذريتي قال : كي تشكر نعمتي ». ثم ذكر قصة داود . وستأتي من رواية ابن عباس أيضاً * وقال الإمام أحمد في مسنده حدثنا الهيثم ابن خارجة حدثنا أبو الربيع عن يونس بن ميسرة عن أبي إدريس عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر وضرب كتفه اليسرى فأخرج

---

(١) بياض بالأصل .

(٢) في هامش المطبوعة : قوله عن سعيد المقبري . . صوابه عن أبيه عن أبي سعيد المقبري عن عبدالله بن سلام . . .

ذرية سوداء كأنهم الحمم . فقال للذي في يمينه . إلى الجنة ولا أبالي . وقال للذي في كتفه اليسرى إلى النار ولا أبالي .

وقال ابن أبي الدنيا حدثنا خلف بن هشام حدثنا الحكم بن سنان عن حوشب عن الحسن قال : « خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى فألقوا على وجه الأرض منهم الأعمى والأصم والمبتلى * فقال آدم يا رب ألا سويت بين ولدي * قال يا آدم أني أردت أن أشكر » وهكذا روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن بنحوه * وقد رواه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه فقال حدثنا محمد بن اسحاق بن خزيمة حدثنا محمد بن بشار حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله فحمد الله باذن الله فقال له ربه يرحمك ربك يا آدم اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملأ منهم جلوس فسلم عليهم فقال السلام عليكم فقالوا وعليكم السلام ورحمة الله . ثم رجع إلى ربه فقال هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم وقال الله ويداه مقبوضتان أختر أيهما شئت فقال اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته فقال أي رب ما هؤلاء قال هؤلاء ذريتك وإذا كل إنسان منهم مكتوب عمره بين عينيه وإذا فيهم رجل أضوؤهم» أو«من أضوئهم لم يكتب له إلا أربعون سنة قال يا رب ما هذا ؟ قال : هذا ابنك داود وقد كتب الله عمره أربعين سنة * قال : أي رب زد في عمره فقال ذاك الذي كتب له قال : فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة قال أنت وذاك * اسكن الجنة . فسكن الجنة ما شاء الله ثم هبط منها وكان آدم يعد لنفسه فأتاه ملك الموت فقال له آدم قد عجلت قد كتب لي ألف سنة قال بلى ولكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنة فجحد آدم فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته فيومئذ أمر بالكتاب والشهود » هذا لفظه .

وقد قال البخاري حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً . ثم قال اذهب فسلم على أولئك من الملائكة واستمع ما يحيبونك فانها تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن ». وهكذا رواه البخاري في كتاب الإستئذان عن يحيى بن جعفر ومسلم عن محمد بن رافع كلاهما عن عبد الرزاق به ، وقال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان طول آدم ستين ذراعاً في سبع أذرع عرضاً . انفرد به أحمد .

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ « إن أول من جحد آدم إن أول من

جحد آدم إن أول من جحد آدم ان الله لما خلق آدم ومسح ظهره فأخرج منه ما هو ذاري إلى يوم القيامة فجعل يعرض ذريته عليه فرأى فيهم رجلاً يزهر قال أي رب من هذا قال هذا ابنك داود قال أي رب كم عمره قال ستون عاماً قال أي رب زد في عمره قال لا إلا أن أزيده من عمرك وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاماً . فكتب الله عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة فلما احتضر آدم اتته الملائكة لقبضه قال إنه قد بقي من عمري أربعون عاماً . فقيل له إنك قد وهبتها لابنك داود . قال ما فعلت وأبرز الله عليه الكتاب وشهدت عليه الملائكة » وقال أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول من جحد آدم قالها ثلاث مرات إن الله عز وجل لما خلقه مسح ظهره فأخرج ذريته فعرضهم عليه فرأى فيهم رجلاً يزهر فقال أي رب زد في عمره قال لا إلا أن تزيده أنت من عمرك فزاده أربعين سنة من عمره . فكتب الله تعالى عليه كتاباً وأشهد عليه الملائكة فلما أراد أن يقبض روحه قال إنه بقي من أجلي أربعون سنة فقيل له : إنك قد جعلتها لابنك داود.قال فجحد ، قال : فأخرج الله الكتاب وأقام عليه البينة فأتمها لداود مائة سنة وأتم لآدم عمره ألف سنة * تفرد به أحمد وعلي بن زيد في حديثه نكارة * ورواه الطبراني عن علي بن عبد العزيز عن حجاج بن منهال عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس وغير واحد عن الحسن قال : لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ : « إن أول من جحد آدم » ثلاثاً ؛ وذكره * وقال الإمام مالك بن أنس في موطئه عن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾[1] الآية فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها فقال : « ان الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل قال رسول الله ﷺ : اذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة وإذا خلق الله العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار ».

وهكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو حاتم بن حبان في صحيحه من طرق عن الإمام مالك به * وقال الترمذي هذا حديث حسن * ومسلم بن يسار لم يسمع عمر * وكذا قال أبو حاتم وأبو زرعة زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة * وقد رواه أبو داود عن محمد بن مصفى عن بقية عن عمر بن جُثعم عن زيد بن أبي أنيسة عن

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٢ .

عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة قال كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية فذكر الحديث * قال الحافظ الدارقطني وقد تابع عمر بن جُثعم أبو فروة بن يزيد بن سنان الرهاوي عن زيد بن أبي أنيسة قال وقولهما أولى بالصواب من قول مالك رحمه الله .

وهذه الأحاديث كلها دالة على استخراجه تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر وقسمتهم قسمين أهل اليمين وأهل الشمال وقال هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء للنار ولا أبالي . فأما الأشهاد عليهم واستنطاقهم بالأقرار بالوحدانية فلم يجيء في الأحاديث الثابتة . وتفسير الآية التي في سورة الأعراف وحملها على هذا فيه نظر كما بيناه هناك . وذكرنا الأحاديث والآثار مستقصاة بأسانيدها وألفاظ متونها . فمن أراد تحريره فليراجعه ثمّ والله أعلم .

فأما الحديث الذي رواه أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير يعني ابن حازم عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان[1] يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه . ثم كلمهم قبلا قال : ﴿ ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا ﴾ إلى قوله ﴿ المبطلون ﴾[2] فهو بإسناد جيد قوي على شرط مسلم * رواه النسائي وابن جرير والحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد المروزي به . وقال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه إلا أنه اختلف فيه على كلثوم بن جبر فروي عنه مرفوعاً وموقوفاً . وكذا روي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً . وهكذا رواه العوفي والوالبي والضحاك وأبو جمرة عن ابن عباس قوله * وهذا أكثر وأثبت والله أعلم .

وهكذا روي عن عبد الله بن عمر موقوفاً ومرفوعاً والموقوف أصح * واستأنس القائلون بهذا القول وهو أخذ الميثاق على الذرية وهم الجمهور بما قال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثني شعبة عن أبي عمران الجوني عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به قال فيقول نعم . فيقول قد أردت منك ما هو

---

(١) نعمان : وادٍ إلى جنب عرفة . وقال القرطبي في أحكامه ٣١٦/٧ : واختلف في الموضع الذي أخذ فيه الميثاق حين أخرجوا على أربعة أقوال :
- ببطن نعمان قاله ابن عباس .
- برهبا - أرض بالهند الذي هبط فيه آدم عليه السلام (قاله ابن عباس) .
- بين مكة والطائف قاله الكلبي .
- في السماء الدنيا قاله السدي .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٢ - ١٧٣ .

أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي » أخرجاه من حديث شعبة به .

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾(١) الآية والتي بعدها قال فجمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فخلقهم ثم صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهد عليهم أنفسهم ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ الآية قال فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن لا تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا . اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ولا تشركوا بي شيئاً وإني سأرسل اليكم رسلاً ينذرونكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتابي - قالوا نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك فأقروا له يومئذ بالطاعة ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك * فقال يا رب لو سويت بين عبادك فقال : إني أحببت أن أشكر . ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذي يقول الله تعالى ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ [الأحزاب : ٧] وهو الذي يقول ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ [الروم : ٣٠] وفي ذلك قال ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ [النجم : ٥٦] وفي ذلك قال ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ [الأعراف : ١٠٢]. رواه الأئمة عبد الله بن أحمد وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردوية في تفاسيرهم من طريق أبي جعفر * وروي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة والسدي وغير واحد من علماء السلف بسياقات توافق هذه الأحاديث وتقدم أنه تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم امتثلوا كلهم الأمر الإلهي وامتنع إبليس من السجود له حسداً وعداوة له فطرده الله وأبعده وأخرجه من الحضرة الإلهية ونفاه عنها وأهبطه إلى الأرض طريداً ملعوناً شيطاناً رجيماً .

وقد قال الإمام أحمد حدثنا وكيع . ويعلى ومحمد ابنا عبيد قالوا حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « (إذا) قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار . ورواه مسلم من حديث وكيع وأبي معاوية عن الأعمش به . ثم لما أسكن آدم الجنة التي أسكنها سواء كانت في السماء أو في الأرض على ما تقدم من الخلاف فيه أقام بها هو وزوجته حواء عليهما السلام يأكلان منها رغداً حيث شاآ فلما أكلا من الشجرة التي نهيا عنها سلبا ما كانا فيه من

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٢ .

اللباس وأهبطا إلى الأرض * وقد ذكرنا الاختلاف في مواضع هبوطه منها * واختلفوا في مقدار مقامه في الجنة فقيل بعض يوم من أيام الدنيا وقد قدمنا ما رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً وخلق آدم في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة وتقدم أيضاً حديثه عنه وفيه (يعني) يوم الجمعة خلق آدم وفيه أخرج منها فإن كان اليوم الذي خلق فيه فيه أخرج وقلنا إن الأيام الستة كهذه الأيام فقد لبث بعض يوم من هذه . وفي هذا نظر وإن كان إخراجه في غير اليوم الذي خلق فيه أو قلنا بأن تلك الأيام مقدارها ستة آلاف سنة كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد والضحاك واختاره ابن جرير فقد لبث هناك مدة طويلة . قال ابن جرير ومعلوم أنه خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة والساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر فمكث مصوراً طيناً قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة وأقام في الجنة قبل أن يهبط ثلاثاً وأربعين سنة وأربعة أشهر والله تعالى أعلم * وقد روى عبد الرزاق عن هشام بن حسان عن سوار خبر عطاء بن أبي رباح أنه كان لما أهبط رجلاه في الأرض ورأسه في السماء فحطه الله إلى ستين ذراعاً * وقد روى عن ابن عباس نحوه . وفي هذا نظر لما تقدم من الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن » * وهذا يقتضي أنه خلق كذلك لا أطول من ستين ذراعاً وأن ذريته لم يزالوا يتناقص خلقهم حتى الآن .

وذكر ابن جرير عن ابن عباس إن الله قال يا آدم إن لي حرماً بحيال عرشي فانطلق فابن لي فيه بيتاً فطف به كما تطوف ملائكتي بعرشي وأرسل الله له ملكاً فعرفه مكانه وعلمه المناسك . وذكر أن موضع كل خطوة خطاها آدم صارت قرية بعد ذلك .

وعنه أن أول طعام أكله آدم في الأرض أن جاءه جبريل بسبع حبات من حنطة فقال ما هذا قال هذا من الشجرة التي نهيت عنها فأكلت منها فقال وما أصنع بهذا قال ابذره في الأرض فبذره وكان كل حبة منها زنتها أزيد من مائة ألف فنبتت فحصده ثم درسه ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه فأكله بعد جهد عظيم وتعب ونكد وذلك قوله تعالى ﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾[1] .

وكان أول كسوتهما من شعر الضأن جزاه ثم غزلاه فنسج آدم له جبة ولحواء درعاً وخماراً .

واختلفوا هل ولد لهما بالجنة شيء من الأولاد فقيل لم يولد لهما إلا في الأرض * وقيل بل ولد لهما فيها فكان قابيل وأخته ممن ولد بها والله أعلم[2] .

وذكروا أنه كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى وأمر أن يزوج كل ابن أخت أخيه التي ولدت

---

(١) سورة طه الآية ١١٧ .

(٢) في الطبري : ان آدم كان يغشى حواء في الجنة فحملت له بقين بن آدم وتوأمته . وفي رواية أخرى عنده : ان آدم غشى حواء بعد مهبطهما إلى الأرض بمائة فولدت له قابيل وتوأمته . ١/٧١ .

معه والآخر بالأخرى وهلم جرا ولم يكن تحل أخت لأخيها الذي ولدت معه .

قصّة قابيل وَهَابيل[1]

قال الله تعالى ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين * لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين * إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين * فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين * فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين ﴾[2]* قد تكلمنا على هذه القصة في سورة المائدة في التفسير بما فيه كفاية ولله الحمد .

ولنذكر هنا ملخص ما ذكره أئمة السلف في ذلك * فذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الأخرى وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل وكان أكبر من هابيل وأخت هابيل أحسن[3] فأراد هابيل أن يستأثر بها على أخيه وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى فأمرهما أن يقربا قرباناً وذهب آدم ليحج إلى مكة واستحفظ السموات على بنيه فأبين والأرضين والجبال فأبين فتقبل قابيل بحفظ ذلك . فلما ذهب قرّبا قربانهما فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم وقرب قابيل حزمة من زرع من ردى زرعه فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل فغضب وقال ﴿ لأقتلنك ﴾ حتى لا تنكح أختي فقال ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾* وروي عن ابن عباس من وجوه أخر وعن عبد الله بن عمرو وقال عبد الله بن عمرو وأيم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج أن يبسط إليه يده .

وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم كان مباشراً لتقريبهما القربان والتقبل من هابيل دون قابيل فقال قابيل لآدم إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدع لي وتوعد أخاه فيما بينه وبينه . فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل في الرعي فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به فلما ذهب إذا هو به فقال له تقبّل منك

---

(١) اختلف في ابني آدم : قال الحسن البصري ليسا لصلبه ؛ كانا رجلين من بني إسرائيل ؛ ورد عليه ابن عطية قال : هذا وهم . التفسير الكبير للفخر الرازي ١١/٢٠٤ .
قال القرطبي : والصحيح انهما ابناه لصلبه ، هذا قول الجمهور من المفسرين وقاله ابن عباس وابن عمر ٦/١٣٢ .
لأن القاتل جهل ما يصنع بالمقتول حتى تعلم ذلك من عمل الغراب ، ولو كان من بني إسرائيل لما خفي عليه هذا الأمر .

(٢) سورة المائدة الآيات ٢٧ - ٣١ .

(٣) ذكر القرطبي : اسم أخت قابيل اقليمياء وأخت هابيل اسمها لبوذا .

ولم يتقبل مني فقال ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾. فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله[1] * وقيل إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته * وقيل بل خنقه خنقاً شديداً وعضّاً كما تفعل السّباع فمات والله أعلم .

وقوله له لما توعده بالقتل ﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين ﴾[2] دل على خلق حسن وخوفٍ من الله تعالى وخشية منه وتورع أن يقابل أخاه بالسوء الذي أراد منه أخوه مثله ولهذا ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار . قالوا يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » وقوله ﴿ إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ﴾[3] أي إني أريد ترك مقاتلتك وإن كنت أشد منك وأقوى إذ قد عزمت على ما عزمت عليه أن تبوء بإثمي وإثمك أي تتحمل إثم قتلي مع مالك من الآثام المتقدمة قبل ذلك قاله مجاهد والسدي وابن جرير وغير واحد وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله إلى القاتل كما قد توهمه بعض قال فان ابن جرير حكى الإجماع على خلاف ذلك .

وأما الحديث الذي يورده بعض من لا يعلم عن النبي ﷺ أنه قال : « ما ترك القاتل على المقتول من ذنب » فلا أصل له ولا يعرف في شيء من كتب الحديث بسند صحيح ولا حسن ولا ضعيف أيضاً ولكن قد يتفق في بعض الأشخاص يوم القيامة يطالب المقتول القاتل فتكون حسنات القاتل لا تفي بهذه المظلمة فتحول من سيئات المقتول إلى القاتل كما ثبت به الحديث الصحيح[4] في سائر المظالم والقتل من أعظمها والله أعلم . وقد حررنا هذا كله في التفسير ولله الحمد .

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال عند فتنة عثمان ابن عفان أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « أنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي والماشي خير من الساعي » قال أفرأيت إن دخل عليّ بيتي فبسط يده إليّ ليقتلني قال : « كن كابن آدم ». ورواه بن مردوية عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً وقال كن كخير ابني آدم . وروى مسلم وأهل السنن إلّا النسائي عن أبي ذر نحو هذا .

وأما الآخر فقد قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقتل نفس ظلماً إلّا كان على ابن

---

(١) هذا بعيد ، لأن الحديد لم يكن معروفاً في تلك الأزمان البعيدة في القدم .

(٢) سورة المائدة الآية ٢٨ .

(٣) سورة المائدة الآية ٢٩ .

(٤) ذكره الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة ص ٣٦٤ وقال تعقيباً على كلام ابن كثير « ومعناه صحيح » : يعني كما أخرجه ابن حبان عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ : « إن السيف محاء للخطايا » .

آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل » * ورواه الجماعة سوى أبي داود من حديث الأعمش به وهكذا روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص وإبراهيم النخعي أنهما قالا مثل هذا سواء * وبجبل قاسيون شمالي دمشق مغارة يقال لها مغارة الدم مشهورة بأنها المكان الذي قتل قابيل أخاه هابيل عندها وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب فالله أعلم بصحة ذلك[1] * وقد ذكر الحافظ بن عساكر في ترجمة أحمد بن كثير وقال إنه كان من الصالحين أنه رأى النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وهابيل ،أنه استحلف هابيل ان هذا دمه فحلف له وذكر أنه سأل الله تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء فأجابه إلى ذلك وصدقه في ذلك رسول الله ﷺ وقال إنه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان في كل يوم خميس * وهذا منام لو صح عن أحمد بن كثير هذا لم يترتب عليه حكم شرعي والله أعلم .

وقوله تعالى ﴿ **فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين** ﴾[2] ذكر بعضهم أنه لما قتله حمله على ظهره سنة وقال آخرون حمله مائة[3] سنة ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين * قال السدي باسناده عن الصحابة أخوين فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر فلما قتله عمد إلى الأرض يحفر له فيها ثم ألقاه ودفنه وواراه فلما رآه يصنع ذلك قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي ففعل مثل ما فعل الغراب فواراه ودفنه .

وذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن على ابنه هابيل حزناً شديداً[4] وأنه قال في ذلك شعراً وهو قوله فيما ذكره ابن جرير عن ابن حميد :

تغيرتِ البلادُ ومَن عليها ... فوجه الأرضِ مغبرٌّ قبيحُ
تغيّر كلُّ ذي لونٍ وطعم ... وقلَّ بشاشةَ الوجه المليحُ

(فأجيب آدم)

---

(١) في القرطبي ٦/١٣٩ : قال ابن مسعود وابن عباس في ثور - جبل مكة - وقيل عند عقبة حراء - حكاه محمد بن جرير الطبري - وقال جعفر الصادق - رضي الله عنه - بالبصرة في موضع المسجد الأعظم . ويقال قتله بأرض الهند . ثم هرب إلى أرض عدن من اليمن وكان لهابيل يوم قتله قابيل عشرون سنة . انظر تفسير الرازي ١١/٢٠٨ .

(٢) سورة المائدة الآية ٣١ .

(٣) في تفسير الكبير للرازي ١١/٢٠٩ : حمله في جراب حتى تغير فبعث الله غراباً . وفي القرطبي عن مجاهد : مائة سنة . وقيل حتى أروح (أنتن) .

(٤) ومكث بعده مائة سنة لم يضحك قط . وحزنه على ابنه فأمر طبيعي أما قوله الشعر فكلام غير مسلّم به . ويقال أن آدم وحواء أتيا قبره وبكيا أياماً عليه .

أبـا هـابيـلُ قـد قُتِـلا جميعـاً وصـارَ الحيّ كـالميْتِ الـذبيـحِ
وجـاء بشـرةٍ قـد كـان منهـا عـلى خـوفٍ فجـابهـا يصيـح

وهذا الشعر فيه نظر وقد يكون آدم عليه السلام قال كلاماً يتحزن به بلغته فألفه بعضهم إلى هذا وفيه أقوال والله أعلم(1)* وقد ذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه فعلقت ساقه إلى فخذه وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت تنكيلاً به وتعجيلاً لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه(2)* وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » .

والذي رأيته في الكتاب الذي بأيدي أهل الكتاب الذين يزعمون أنه التوراة أن الله عز وجل أجله وأنظره وأنه سكن في أرض نود في شرقي عدن وهم يسمونه قنين وأنه ولد له خنوخ ولخنوخ عندر ولعندر محوايل ولمحوايل متوشيل ولمواشيل لأمك وتزوج هذا امرأتين عدا وصلا فولدت عدا ولدا اسمه إبل وهو أول من سكن القباب واقتنى المال وولدت أيضاً نويل وهو أول من أخذ في ضرب الونج والصنج وولدت صلا ولداً اسمه تويلقين وهو أول من صنع النحاس والحديد وبنتاً اسمها نعمى وفيها أيضاً ان آدم طاف على امرأته فولدت غلاماً ودعت اسمه شيث(3)وقالت من أجل انه قد وهب لي خلفاً من هابيل الذي قتله قابيل وولد لشيث أنوش قالوا وكان عمر آدم يوم ولد له شيث مائة وثلاثين سنة وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وكان عمر شيث يوم ولد له أنوش مائة وخمساً وستين وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وسبع سنين . وولد له بنون وبنات غير أنوش فولد

---

(1) في قول آدم شعراً أكثر من قول :
قال القشيري وغيره : قال ابن عباس : ما قال آدم الشعر ، وإن محمداً والأنبياء كلهم في النهي عن الشعراء سواء . لكن لما قتل هابيل رثاه آدم وهو سرياني ، فهي مرثية بلسان السريانية أوصى بها إلى ابنه شيث . . فحفظت منه إلى زمن يعرب فترجمه وجعله شعراً يعرب بن قحطان .
وقال الألوسي : ذكر بعض علماء العربية أن في ذلك الشعر لحناً أو أقواء أو ارتكاب ضرورة والأولى عدم نسبته إلى يعرب أيضاً لما فيه من الركاكة الظاهرة . وقال صاحب الكشاف : ويروى أنه (آدم) رثاه بشعر . قال وهو كذب بحت ، وما الشعر إلا منحول ملحون ، والأنبياء معصومون عن الشعر ؛ فإن ذلك الشعر في غاية الركاكة لا يليق بالحمقى من المعلمين فكيف ينسب إلى من جعل الله علمه حجة على الملائكة .
(2) جاء في القرطبي ٦/١٤٢ : إن قابيل كان على ذروة جبل فنطحه ثور فوقع إلى السفح وقد تفرقت عروقه . وقيل دعا عليه آدم فانخسفت به الأرض .
وقيل : انه هرب إلى عدن من أرض اليمن ؛ واستوحش ولزم البرية وذكر المسعودي في المروج ١/٣٤ : وفي زمن انوش قتل قاين (قابيل) قاتل أخيه هابيل . (انظر تفسير الفخر الرازي ج ١١/٢٠٨ ـ وانظر قصة هابيل وقابيل في التوراة وهي لا تخالف ما جاء في القرآن تقريباً) .
(3) في القرطبي ج ٦/١٣٩ بعد قتل هابيل بخمس سنين . وتفسيره هبة الله .

لأنوش قينان وله من العمر تسعون سنة وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وخمس عشرة سنة وولد له بنون وبنات فلما كان عمر قينان سبعين سنة ولد له مهلاييل وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وأربعين سنة وولد له بنون وبنات فلما كان لمهلاييل من العمر خمس وستون سنة ولد له يرد وعاش بعد ذلك ثمانمائة وثلاثين سنة وولد له بنون وبنات فلما كان ليرد مائة سنة واثنتان وستون سنة ولد له خنوخ وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وولد له بنون وبنات فلما كان لخنوخ خمس وستون سنة ولد له متوشلح وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وولد له بنون وبنات فلما كان لمتوشلح مائة وسبع وثمانون سنة ولد له لامك وعاش بعد ذلك سبعمائة واثنين وثمانين سنة وولد له بنون وبنات فلما كان للامك من العمر مائة واثنتان وثمانون سنة ولد له نوح وعاش بعد ذلك خمسمائة وخمساً وتسعين سنة . وولد له بنون وبنات فلما كان لنوح خمسمائة سنة ولد له بنون سام وحام ويافث هذا مضمون ما في كتابهم صريحاً .

وفي كون هذه التواريخ محفوظة فيما نزل من السماء نظر كما ذكره غير واحد من العلماء طاعنين عليهم في ذلك والظاهر أنها مقحمة فيها . ذكرها بعضهم على سبيل الزيادة والتفسير . وفيها غلط كثير كما سنذكره في مواضعه ان شاء الله تعالى * وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه عن بعضهم أن حواء ولدت لآدم أربعين ولداً في عشرين بطناً قاله ابن إسحاق وسماهم والله تعالى أعلم . وقيل مائة وعشرين بطناً في كل واحد ذكر وأنثى . أولهم قابيل وأخته قليما . واخرهم عبد المغيث وأخته أم المغيث * ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا وامتدوا في الأرض ونموا كما قال الله تعالى ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾ [النساء : ١] الآية .

وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف[1] نسمة والله أعلم * وقال تعالى ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين اليها فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون ﴾ [الأعراف : ١٨٩] الآيات فهذا تنبيه أولاً بذكر آدم ثم استطرد إلى الجنس وليس المراد بهذا ذكر آدم وحواء بل لما جرى ذكر الشخص استطرد الى الجنس كما في قوله تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار ميكن ﴾ [المؤمنون : ١٢] وقال تعالى ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ [الملك : ٥] ومعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء وإنما استطرد من شخصها إلى جنسها * فأما الحديث الذي رواه

---

(١) في القرطبي عن ابن عباس : اربعين ألفاً ٦/١٣٥ . وفي المسعودي ١/٣٣ اربعين الفاً .

الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد[1] حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة [بن جندب] عن النبي ﷺ قال : « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فانه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره » .

وهكذا رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردوية في تفاسيرهم عند هذه الآية وأخرجه الحاكم في مستدركه كلهم من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث به * وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه * وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلّا من حديث عمر بن إبراهيم ورواه بعضهم عن عَبد الصمد ولم يرفعه فهذه علة قادحة في الحديث أنه روي موقوفاً على الصحابي وهذا أشبه والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات * وهكذا روي موقوفاً على ابن عباس . والظاهر أن هذا متلقى عن كعب الأخبار ودوّنه والله أعلم * وقد فسر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا . فلو كان عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه إلى غيره والله أعلم . وأيضاً فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر وليبث منهما رجالاً كثيراً ونساء فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد كما ذكر في هذا الحديث إن كان محفوظاً . والمظنون بل المقطوع به ان رفعه إلى النبي ﷺ خطأ والصواب وقفه والله أعلم * وقد حررنا هذا في كتابنا التفسير ولله الحمد .

نعم قد كان آدم وحواء أتقى لله مما ذكر عنهما في هذا . فان آدم أبو البشر الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه جنته * وقد روى ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر قال قالت يا رسول الله كم الأنبياء قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً . قلت يا رسول الله كم الرسل منهم قال ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير[2] . قلت يا رسول الله من كان أولهم . قال آدم . قلت يا رسول الله نبي مرسل قال : نعم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلا » . وقال الطبراني حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا نافع بن هرمز عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « ألا أخبركم بأفضل الملائكة جبريل وأفضل النبيين آدم وأفضل الأيام يوم الجمعة وأفضل الشهور شهر رمضان وأفضل الليالي ليلة القدر وأفضل النساء مريم بنت عمران * وهذا إسناد ضعيف فإن نافعاً أبا هرمز كذبه ابن معين وضعفه أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم وابن حبان وغيرهم والله أعلم .

وقال كعب الاحبار ليس أحد في الجنة له لحية إلا آدم . لحيته سوداء إلى سرته . وليس أحد يكنى في الجنة إلا آدم كنيته في الدنيا أبو البشر وفي الجنة أبو محمد * وقد روى ابن عدي من طريق

---

(١) وهو عبد الصمد بن عبد الوارث .

(٢) في الطبري : جماً غفيراً . ورواه عن عبد الرحمن بن وهب عن عمه عن الماضي بن محمد عن أبي سليمان عن القاسم بن محمد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر عن النبي ﷺ .

سبح[٢] ابن أبي خالد عن حماد بن سلمة بن عمرو بن دينار عن جابر بن عبدالله مرفوعاً أهل الجنة يدعون بأسمائهم إلا آدم فإنه يكنى أبا محمد * ورواه ابن عدي أيضاً من حديث علي بن أبي طالب وهو ضعيف من كل وجه والله أعلم .

وفي حديث الاسراء الذي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما مر بآدم وهو في السماء الدنيا قال له مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح قال : وإذا عن يمينه أسودة[٢] وعن يساره اسودة . فاذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى . فقلت يا جبريل ما هذا قال هذا آدم وهؤلاء نسم بنيه * فاذا نظر قبل أهل اليمين وهم أهل الجنة ضحك وإذا نظر قبل أهل الشمال وهم أهل النار بكى هذا معنى الحديث * وقال أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا هشام بن حسان عن الحسن قال كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده .

وقال بعض العلماء في قوله ﷺ : «فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن » * قالوا معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام * وهذا مناسب . فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة ونفخ فيه من روحه فما كان ليخلق إلا أحسن الأشباه * وقد روينا عن عبد الله بن عمر وابن عمرو أيضاً موقوفاً ومرفوعاً إن الله تعالى لما خلق الجنة قالت الملائكة يا ربنا اجعل لنا هذه فانك خلقت لبني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون . فقال الله تعالى وعزتي وجلالي لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان . وقد ورد الحديث المروي في الصحيحين وغيرهما من طرق أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم على صورته » وقد تكلم العلماء على هذا الحديث فذكروا فيه مسالك كثيرة ليس هذا موضع بسطها والله أعلم .

وفاة آدم وَوَصيّته إلى ابنه شيث

ومعنى شيث هبة الله وسمياه بذلك لأنهما رزقاه بعد أن قتل هابيل[٣]* قال أبو ذر في حديثه عن رسول الله ﷺ : « إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف » . على شيث خمسين صحيفة * قال محمد بن اسحاق ولما حضرت آدم الوفاة عهد الى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار وعلمه عبادات تلك الساعات وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك . قال ويقال إن انتساب بني آدم اليوم كلها تنتهي إلى شيث . وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا والله أعلم .

---

(١) قوله سبح بن أبي خالد كذا بالأصل ، ولم نجد فيما لدينا هذا الاسم . . وتحت يدنا : إسماعيل بن أبي خالد الكوفي الأحمسي الحافظ توفي عام ١٤٦ هـ . وإسماعيل بن أبي خالد الفدكي . والاثنان لم يرويا عن حماد .

(٢) أسودة : جمع من الناس .

(٣) قال الطبري في تاريخه ١/٧٦ : بعد قتل هابيل قابيل بخمس سنين ، وكان آدم عمره مائة وثلاثون سنة ، وولد شيث ولداً فرداً بغير توأم ، هبة الله ، خلف من هابيل .
واسمه بالعربية شث وبالسريانية شاث وبالعبرانية شيث .

ولما توفي آدم عليه السلام وكان ذلك يوم الجمعة جاءته الملائكة بحنوط وكفن من عند الله عز وجل من الجنة . وعزوا فيه ابنه ووصيه شيثاً عليه السلام * قال ابن اسحاق وكسفت الشمس والقمر سبعة أيام بلياليهن * وقد قال عبد الله بن الإمام أحمد حدثنا هدبة بن خالد حدثنا حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن يحيى هو ابن ضمرة السعدي قال رأيت شيخاً بالمدينة تكلم فسألت عنه فقالوا هذا أبي بن كعب . فقال إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه أي بني إني أشتهي من ثمار الجنة قال فذهبوا يطلبون له فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفوس[1] والمساحي[2] والمكاتل[3] فقالوا لهم يا بني آدم ما تريدون وما تطلبون أو ما تريدون وأين تطلبون قالوا أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة فقالوا لهم ارجعوا فقد قضى أبوكم فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم فقال إليك عني فإني إنما أتيت من قبلك فخلي بيني وبين ملائكة ربي عز وجل فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه وحفروا له ولحدوه * وصلوا عليه . ثم ادخلوه قبره فوضعوه في قبره . ثم حثوا عليه . ثم قالوا يا بني آدم هذه سنتكم * إسناد صحيح إليه * وروى ابن عساكر من طريق شيبان بن فروخ عن محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « كبّرت الملائكة على آدم أربعاً وكبر أبو بكر على فاطمة أربعاً وكبر عمر على أبي بكر أربعاً وكبر صهيب على عمر أربعاً »* قال ابن عساكر ورواه غيره عن ميمون فقال عن ابن عمر .

واختلفوا في موضع دفنه فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذي أهبط منه في الهند[4] وقيل بجبل أبي قبيس بمكة * ويقال إن نوحاً عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء في تابوت فدفنهما ببيت المقدس * حكى ذلك ابن جرير * وروى ابن عساكر عن بعضهم أنه قال رأسه عند مسجد إبراهيم ورجلاه عند صخرة بيت المقدس * وقد ماتت بعده حواء بسنة واحدة * واختلف في مقدار عمره عليه السلام فقدمنا في الحديث عن ابن عباس وأبي هريرة مرفوعاً أن عمره اكتتب في اللوح المحفوظ ألف سنة . وهذا لا يعارضه ما في التوراة من أنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة لان قولهم هذا مطعون فيه مردود إذا خالف الحق الذي بأيدينا مما هو المحفوظ عن المعصوم * وأيضاً فإن قولهم هذا يمكن الجمع بينه وبين ما في الحديث فإن ما في التوراة إن كان محفوظاً محمول على مدة مقامه في الأرض بعد الإهباط وذلك تسعمائة وثلاثون سنة شمسية وهي بالقمرية تسعمائة وسبع وخمسون

---

(١) الفوس : جمع فأس .

(٢) المساحي : آلة كالمجرفة يجرف بها الطين وغيره .

(٣) المكاتل : جمع مكتل : وهو الزنبيل الذي يحمل فيه التمر .

(٤) عن ابن عباس : جبل بوذ . طبري ١ /٨٢ .

وعن ابن إسحاق : في مشارف الفردوس عند قرية هي أول قرية كانت في الأرض طبري ١ /٨٠ وفي المسعودي ج ١ /٣٣ : قبره بمنى في مسجد الخيف ، ومنهم من قال في كهف في جبل أبي قبيس .

سنة ويضاف إلى ذلك ثلاث وأربعون سنة مدة مقامه في الجنة قبل الإهباط على ما ذكره ابن جرير وغيره فيكون الجميع ألف سنة[1] .

وقال عطاء الخراساني لما مات آدم بكت الخلائق عليه سبعة أيام * رواه ابن عساكر فلما مات آدم عليه السلام قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام . وكان نبياً بنص الحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر مرفوعاً أنه أنزل عليه خمسون صحيفة . فلما حانت وفاته أوصى الى ابنه أنوش فقام بالأمر بعده ثم بعده ولده قينن . ثم من بعده ابنه مهلاييل[2]وهو الذي يزعم الأعاجم من الفرس أنه ملك الأقاليم السبعة وأنه أول من قطع الأشجار وبنى المدائن والحصون الكبار . وأنه هو الذي بنى مدينة بابل ومدينة السوس الأقصى . وأنه قهر إبليس وجنوده وشردهم عن الأرض إلى أطرافها وشعاب جبالها وأنه قتل خلقاً من مردة الجن والغيلان وكان له تاج عظيم وكان يخطب الناس ودامت دولته أربعين سنة . فلما مات قام بالأمر بعده ولده يرد فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ولده خنوخ[3] وهو إدريس عليه السلام على المشهور .

ادريس عليه السلام

قال الله تعالى ﴿ واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقاً نبياً * ورفعناه مكاناً علياً ﴾[4]فادريس عليه السلام قد أثنى الله عليه ووصفه بالنبوة والصديقية وهو خنوخ هذا وهو في عمود نسب رسول الله ﷺ على ما ذكره غير واحد من علماء النسب . وكان أول بني آدم أعطى النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام * وذكر ابن اسحاق أنه أول من خط بالقلم وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثماني سنين[5]. وقد قال طائفة من الناس إنه المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي لما سأل رسول الله ﷺ عن الخط بالرمل فقال : « إنه كان نبي يخط به فمن وافق خطه فذاك » * ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم في ذلك ويسمونه هرمس الهرامسة[6]ويكذبون عليه أشياء كثيرة كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء

---

(١) قال المسعودي في مروجه ١ / ٣٣ : توفي يوم الجمعة لست خلون من نيسان في الساعة التي كان فيها خلقه ، وكان عمره عليه السلام تسعماية سنة وثلاثون سنة .

(٢) في الطبري : نسابو الفرس يسمونه أو شهنج وهو أول من استنبط الحديد ١ / ٨٤ .

(٣) في الطبري والمسعودي أخنوخ ؛ الترجمة العربية لخنوخ اسمه في التوراة بالعبرية .

(٤) سورة مريم الآية ٥٦ .

(٥) جاء في الطبري : رواية أهل التوراة وكان عمره إلى أن رفع ثلاثمائة سنة وخمس وستين سنة . وعند المسعودي ثلاث مائة سنة .

(٦) قال القفطي في تاريخ الحكماء :

اختلف الحكماء في مولده ومنشئه وعمن أخذ العلم قبل النبوة . فقالت فرقة : ولد بمصر وسموه هرمس الهرامسة ، =

والحكماء والأولياء * وقوله تعالى ﴿ ورفعناه مكانا عليا ﴾ هو كما ثبت في الصحيحين في حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مرّ به وهو في السماء الرابعة * وقد روى ابن جرير عن يونس عن عبد الأعلى عن ابن وهب عن جرير بن حازم عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر فقال له : ما قول الله تعالى لإدريس ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ فقال كعب : أما إدريس فإن الله أوحى إليه اني أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بني آدم (لعله من أهل زمانه) فأحب أن يزداد عملاً فأتاه خليل له من الملائكة فقال [له] : ان الله أوحى إليّ وكذا فكلّم ملك الموت حتى أزداد عملاً فحمله بين جناحيه ثم صعد به الى السماء فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدراً فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس ، فقال : وأين إدريس ؟ قال هو ذا على ظهري فقال ملك الموت فالعجب[1] بعثتُ وقيل لي اقبض روح إدريس في السماء الرابعة ، فجعلت أقول : كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض فقبض روحه هناك فذلك قول الله عز وجل ﴿ ورفعناه مكاناً عليا ﴾ .

ورواه ابن أبي حاتم عند تفسيرها * وعنده فقال لذلك الملك : سل لي ملك الموت كم بقي من عمري ؟ فسأله وهو معه كم بقي من عمره ؟ فقال : لا أدري حتى أنظر ، فنظر فقال : إنك لتسألني عن رجل ما بقي من عمره إلّا طرفة عين ، فنظر الملك إلى تحت جناحه إلى إدريس فإذا هو قد قبض وهو لا يشعر * وهذا من الإسرائيليات وفي بعضه نكارة .

وقول ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ قال إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى إن أراد أنه لم يمت الى الآن ففي هذا نظر وإن أراد أنه رفع حياً الى السماء ثم قبض هناك فلا ينافي ما تقدم عن كعب الأحبار والله أعلم * وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ ورفعناه مكاناً عليا ﴾ رفع إلى السماء السادسة فمات بها . وهكذا قال الضحاك . والحديث المتفق عليه من أنه في السماء الرابعة أصح وهو قول مجاهد وغير واحد * وقال الحسن البصري ﴿ ورفعناه مكاناً عليا ﴾ قال إلى الجنة * وقال قائلون رفع في حياة أبيه يرد بن مهلاييل والله أعلم * وقد زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح بل في زمان بني اسرائيل .

قال البخاري ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس ، واستأنسوا في ذلك

= ومولده بمنف ؛ وباليونانية أرميس وعرب بهرمس ومعنى أرميس عطارد . وقال آخرون اسمه باليونانية طرميس . . . وسماه الله في كتابه المبين « إدريس » وقال هؤلاء أن معلمه اسمه الغوثاذيمون ، المصري ، وسموه أيضاً اورين الثاني وإدريس عندهم اورين الثالث . وقالوا : وخرج هرمس من مصر وجاب الأرض كلها ثم عاد إليها ورفعه الله إليه بها ، بعد ٨٢ سنة من عمره . وقالت فرقة إن إدريس ولد ببابل ولها نشأ وأخذ بعلم شيث بن آدم وقال الشهرستاني : ان اغثاذيمون هو شيث . مراجعة النجار : قصص الأنبياء ص ٢٥ .

(١) في قصص الأنبياء لابن كثير : يا للعجب !

بما جاء في حديث الزهري عن أنس في الإسراء : أنه لما مر به عليه السلام قال له : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح قالوا فلو كان في عمود نسبه لقال له كما قال[1] له* وهذا لا يدل ولا بد لأنه قد لا يكون الراوي حفظه جيداً . أو لعله قاله له على سبيل الهضم والتواضع ، ولم ينتصب له في مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبي البشر ، وإبراهيم الذي هو خليل الرحمن وأكبر أولي العزم بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين .

قصة نوح عليه السلام[2]

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ ـ وهو إدريس ـ بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام[3] .

كان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة فيما ذكره ابن جرير وغيره . وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة وكان بينهما عشرة قرون كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان في صحيحه : حدثنا محمد بن عمر بن يوسف حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه حدثنا أبو توبة حدثنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام سمعت أبا سلام سمعت أبا أمامة أن رجلاً قال : يا رسول الله أنبي كان آدم ؟ قال : نعم مكلم . قال : فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال : عشرة قرون . قلت وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه . وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام * فان كان المراد بالقرن مائة سنة ـ كما هو المتبادر عند كثير من الناس ـ فبينهما ألف سنة لا محالة لكن لا ينفي أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام اذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام لكن حديث أبي أمامة يدل على الحصر في عشرة قرون وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على الإسلام * وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب أن قابيل وبنيه عبدوا النار والله أعلم .

وان كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما في قوله تعالى ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد

---

(١) في قصص ابن كثير : قالا ؛ والخبر رواه ابن عساكر في تاريخه (١/ ٣٨٢ تهذيب) .

(٢) ورد ذكر نوح في ثلاثة وأربعين موضعاً من القرآن الكريم في :

آل عمران ٢٣ ، النساء ١٦٣ ، الأنعام ٨٤ ، الأعراف ٥٩ ـ ٦٩ ، التوبة ٧٠ ، يونس ٧١ ، هود ٢٥ ـ ٣٢ ـ ٣٦ ـ ٤٢ ـ ٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٨ ـ ٨٩ ، إبراهيم ٩ ، الإسراء ٣ ـ ١٧ ، مريم ٥٨ ، الأنبياء ٧٦ ، الحج ٤٢ ، المؤمنون ٢٣ ، الفرقان ٣٧ ، الشعراء ١٠٥ ـ ١٠٦ ـ ١١٦ ، العنكبوت ١٤ ، الاحزاب ٧ ، الصافات ٧٥ ـ ٧٩ ص ١٢ ، غافر ٥ ـ ٣١ ، الشورى ١٣ ، ق ١٢ ، الذاريات ٤٦ ، النجم ٥٢ ، القمر ٩ ، الحديد ٢٦ ، التحريم ١٠ ، نوح ١ ـ ٢١ ـ ٢٦ .

(٣) قال في قصص الأنبياء : أشك كثيراً في نسق هذا النسب لأني أعتقد أن بين نوح وآدم أكثر من ذلك .

نوح ﴾ [الإسراء : ٣٧] وقوله ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾ وقال تعالى ﴿ وقرونا بين ذلك كثيراً ﴾[1] وقال ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ [مريم : ٧٤] وكقوله عليه السلام ﴿ خير القرون قرني ﴾ الحديث . فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهر الطويلة * فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين والله أعلم .

وبالجملة فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لما عبدت الأصنام والطواغيت وشرع الناس في الضلالة والكفر فبعثه الله رحمة للعباد فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة * وكان قومه يقال لهم بنو راسب فيما ذكره ابن جبير وغيره .

واختلفوا في مقدار سنه يوم بعث ، فقيل كان ابن خمسين سنة . وقيل ابن ثلاثمائة وخمسين سنة وقيل ابن اربعمائة وثمانين سنة . حكاها ابن جرير ، وعزا الثالثة منها الى ابن عباس .

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه ، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان ، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة ، في غير ما موضع من كتابه العزيز * ففي الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت وأنزل فيه سورة كاملة * فقال في سورة الأعراف ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه انا لنراك في ضلال مبين . قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون . فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ [الأعراف : ٥٩ ـ ٦٤] وقال في سورة يونس ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا اليّ ولا تنظرون . فان توليتم فما سألتكم من أجر ان أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين . فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾[1]وقال تعالى في سورة هود ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه أني لكم نذير مبين * أن لا تعبدوا الا الله أني أخاف عليكم عذاب يوم أليم * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم اراذلنا بادىء الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين * قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ان أجري الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون * ويا قوم من ينصرني من الله أن طردتهم أفلا تذكرون * ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم

(١) سورة يونس الآيات ٧١ ـ ٧٣ .

الغيب ولا أقول اني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم اني إذا لمن الظالمين * قالوا يا نوح قد جادلتنا فاكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين * قال إنما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين * ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون * أم يقولون افتراه قل ان افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون * وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون * واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون * ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون * فسوف تعلمون * من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم * حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل * وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم * وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكانا من المغرقين *وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين * ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من أهلي وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين * قال يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم اني أعظك أن تكون من الجاهلين * قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين * قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم * تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين ﴾ [هود : ٢٥ - ٤٩]

وقال تعالى في سورة الأنبياء ﴿ونوحاً اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم* ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾ [الأنبياء : ٧٦ - ٧٧].

وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين * ان هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين * قال رب انصرني بما كذبون * فاوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون * فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين * وقل رب انزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين * ان في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين ﴾ [المؤمنون : ٢٣ - ٣٠].

وقال تعالى في سورة الشعراء ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين * اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . أني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر ان أجري إلا على رب العالمين . فاتقوا الله وأطيعون . قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال وما علمي بما كانوا يعملون * ان حسابهم إلا على ربي لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين . قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين . قال رب إن قومي كذبون . فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين . فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين . إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ [الشعراء : ١٠٥ ـ ١٢٢].

وقال تعالى في سورة العنكبوت ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾ [العنكبوت : ١٤ ـ ١٥].

وقال تعالى في سورة الصافات ﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وأهله من الكرب العظيم . وجعلنا ذريته هم الباقين . وتركنا عليه في الآخرين . سلام على نوح في العالمين . إنا كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ثم اغرقنا الآخرين ﴾ [الصافات : ٧٥ ـ ٨٢].

وقال تعالى في سورة اقتربت ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه اني مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر. وحملناه على ذات ألواح ودسر. تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر. ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ [القمر : ٩ ـ ١٧] وقال تعالى ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم انا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال يا قوم إني لكم نذير مبين * أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون * قال رب اني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فرارا . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً * ثم إني دعوتهم جهارا . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا * فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا * ما لكم لا ترجون لله وقارا * وقد خلقكم أطوارا * ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا * والله انبتكم من الأرض نباتا * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا * والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا * قال نوح رب

انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ومكروا مكـرا كبارا * وقـالوا لا تـذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا * مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا * وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا * رب اغفـر لي ولـوالـدي ولمن دخـل بيتي مؤمنـاً ونلمؤمنين والمؤمنـات ولا تـزد الـظالمين إلا تبارا ﴾[نوح السورة بتمامها] .

وقد تكلمنا على كل موضع من هذه [السو رة] في التفسير وسنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه الأماكن المتفرقة ومما دلت عليه الأحاديث والآثار وقد جرى ذكره أيضاً في مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه وذم من خالفه فقال تعالى في سورة النساء : ﴿ إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا * ورسلاً قـد قصصناهم عليـك من قبل ورسـلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾ [النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥] وقـال في سورة الأنعـام ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هـدينا من قبـل ومن ذريته وداود وسليمـان وأيوب ويـوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين * واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذريـاتهم واخوانهم واجتبينـاهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾ [الأنعام : ٨٣ ـ ٨٧] الآيات .

وتقدمت قصته في الأعراف .

وقال في سورة براءة ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قـوم نوح وعـاد وثمود وقـوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكـات أتتهم رسلهم بالبينـات فما كـان الله ليظلمهم ولكن كـانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [التوبة : ٧٠] وتقدمت قصته في يونس وهود .

وقال في سورة ابراهيم ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والـذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفـرنا بمـا أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ [ابراهيم : ٩].

وقال في سورة سبحان ﴿ ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبداً شكورا ﴾ [الاسراء : ٣] وقال فيها أيضاً ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾ [الاسراء : ١٧] وتقدمت قصته في الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت .

وقال في سورة الأحزاب ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا ﴾ [الأحزاب : ٧] وقال في سورة (ص) ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب . ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب ﴾ [ص : ١١ ـ ١٣] وقال في سورة غافر ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب . وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ [غافر : ٥ ـ ٦] وقال في سورة الشورى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه * الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ [الشورى : ١٣] وقال تعالى في سورة (ق) ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾ [ق : ١٣ ـ ١٤] وقال في الذاريات ﴿ وقوم نوح من قبل انهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ [الذاريات : ٤٦] وقال في النجم ﴿ وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾ [النجم : ٥٢] وتقدمت قصته في سورة اقتربت الساعة .

وقال تعالى في سورة الحديد ﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ [الحديد : ٢٦] وقال تعالى في سورة التحريم ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾ [التحريم : ١٠].

وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذاً من الكتاب والسنة والآثار فقد قدمنا عن ابن عباس أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام رواه البخاري * وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل أو المدة على ما سلف * ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام وكان سبب ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً . ولا يغوث ويعوق نسرا ﴾ [نوح : ٢٣] قال : (هذه) أسماء رجال صالحين من قوم نوح . فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون (فيها) أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت .

قال ابن عباس وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد * وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن اسحاق .

وقال ابن جرير في تفسيره حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس قال كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم

الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم * وروى ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير أنه قال ود ويغوث ويعوق وسواع ونسر أولاد آدم وكان ود أكبرهم وأبرهم به .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن منصور حدثنا الحسن بن موسى حدثنا يعقوب عن أبي المطهر قال ذكروا عند أبي جعفر هو الباقر وهو قائم يصلي بـزيد بن المهلب قال : فلما انفتل من صلاته قال : ذكرتم يزيد بن المهلب أما أنه قتل في أول أرض عبد فيها غير الله . قال ذكر وداً رجلاً صالحاً وكان محبباً في قومه فلما مات عكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان ثم قال إني أرى جزعكم على هذا الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه قالوا : نعم . فصوّر لهم مثله . قال ووضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه . فلما رأى ما بهم من ذكره قال : هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالاً مثله ليكون له في بيته فتذكرونه . قالوا : نعم ، قال : فمثل لكل أهل بيت تمثالاً مثله فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به . قال وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به قال وتناسلوا ودرس أثر ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلهاً يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم ، فكان أولَ ما عبد غير الله « ودُ » الصنم الذي سموه ودا .

ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس * وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لهم ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عز وجل * ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جداً قد ذكرناها في مواضعها من كتابنا التفسير . ولله الحمد والمنة .

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التي رأينها[1] بأرض الحبشة ، يقال لها مارية فذكرنا من حسنها وتصاوير فيها قال : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ، ثم صوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل »[2].

والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض وعم البلاء بعبادة الأصنام فيها بعث الله عبده ورسوله نوحاً عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه فكان

---

(١) قوله رأينها بنون الجمع على أن أقل الجمع اثنان ، أو على أنه كان معهما غيرهما من النسوة . (القسطلاني) .

(٢) فتح الباري ٤٢٧/٤٨/٨ ، ٤٣٤ . ومسلم في صحيحه . وأخرجه النسائي في سننه وأحمد في مسنده (٥١/٦ حلبي) .

أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيان عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة قال : « فيأتون آدم فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فيقول ربي قد غضب غضباً شديداً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، ونهاني عن الشجرة فعصيت ، نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحاً فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبداً شكوراً ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عز وجل ؟ فيقول ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله نفسي نفسي » [1]. وذكر تمام الحديث بطوله كما أورده البخاري في قصة نوح .

فلما بعث الله نوحاً عليه السلام دعاهم إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له وأن لا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً وأن يعترفوا بوحدانيته وأنه لا إله غيره ولا رب سواه كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته كما قال تعالى ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ [الصافات : ٧٧] وقال فيه وفي إبراهيم ﴿ وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ﴾ [الحديد : ٢٦] أي كل نبي من بعد نوح فمن ذريته . وكذلك إبراهيم قال الله تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ [النحل : ٣٦] وقال تعالى ﴿ واسئل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ [الزخرف : ٤٥] وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ولهذا قال نوح لقومه ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ وقال ﴿ ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ وقال ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ وقال ﴿ يا قوم اني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون * قال رب اني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فرارا واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم اني دعوتهم جهارا ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا * ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا ﴾ الآيات الكريمات .

فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار والسر والاجهار بالترغيب تارة والترهيب أخرى وكل هذا فلم ينجح فيهم بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة

(١) رواه مسلم في صحيحه ، والبخاري . وأبو داود والترمذي وأحمد في مسنده ٢ /٣٩٨ .

الأصنام والأوثان ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان وتنقصوه وتنقصوا من آمن بـه وتوعـدوهم بالرجم والإخراج ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم ﴿ قال الملأ من قـومه ﴾ أي السـادة الكبراء منهم ﴿ انا لنراك في ضلال مبين . قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ﴾ أي لست كما تزعمون من أني ضال بل على الهدى المستقيم رسول من رب العالمين أي الذي يقول للشيء كن فيكـون ﴿ أبلغكم رسـالات ربي وأنصـح لكـم وأعلم من الله مـا لا تـعلمـون ﴾ [الأعراف : ٦٠ ـ ٦٢] وهذا شأن الرسول أن يكون بليغاً أي فصيحاً ناصحاً أعلم الناس بالله عز وجل . وقالوا له فيما قالوا : ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادىء الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ [هود : ٢٧] تعجبـوا أن يكون بشـراً رسولاً وتنقصوا بمن اتبعـه ورأوهم أراذلهم[1]* وقـد قيـل : إنهم كـانـوا من أقيـاد النـاس وهم ضعفاؤهم كما قال هرقل وهم أتباع الرسل[2]وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق وقولهم : ﴿ بادىء الرأي ﴾[3]أي بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية وهذا الذي رموهم به هو عين ما يمدحون بسببه رضي الله عنهم فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر بل يجب اتباعه والإنقياد له متى ظهر . ولهذا قال رسول الله ﷺ مادحاً للصديق : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلاّ كانت له كبوة غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم » ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضاً سريعة من غير نظر ولا روية ، لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحـابة رضي الله عنهم . ولهذا قال رسول الله ﷺ لما أراد أن يكتب الكتاب الذي أراد أن ينص فيه على خـلافته فتـركه . وقال : « يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » رضي الله عنه . وقول كفرة قوم نوح لـه ولمن آمن به . ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ [هود : ٢٧] أي لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا ﴿ بل نظنكم كاذبين . قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾[هود : ٢٨].

وهذا تلطف في الخطاب معهم وترفق بهم في الدعوة إلى الحق كما قال تعالى: ﴿ فقولا له قولاً

---

(١) أرادوا : اخسـاؤهم وسقطهم وسفلتهم . قـال النحاس :الاراذل هم الفقـراء ، والذين لا حسب لهم والخسيسو الصناعات . .

قال القرطبي : الاراذل هنا : الفقراء والضعفاء .

(٢) قال العلماء : إنما كان ذلك لإستيلاء الرياسة عن الأشراف ، وصعوبة الإنفكاك عنها ، والأنفة من الأنقياد للغيـر ، والفقير خلي عن تلك الموانع ، فهو سريع إلى الإجابة والانقياد . وهذا غالب أحوال أهـل الدنيـا . (انظر أحكـام القرطبي ج ٢٣/٩) .

(٣) بادي الرأي أي ظاهر الرأي ، وباطنهم على خلاف ذلك .

وقال أبو عمرو بادىء الرأي بالهمز : أي أول الرأي : أي اتبعوك حين ابتدأوا ينظرون ، ولو امعنوا النـظر والفكر لم يتبعوك .

ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ [طه : ٤٤] وقال تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [النحل : ١٢٥] وهذا منه يقول لهم ﴿ أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده ﴾ أي النبوة والرسالة[١] ﴿ فعميت عليكم ﴾ أي فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها ﴿ أنلزمكموها ﴾ أي انغضبكم بها ونجبركم عليها[٢] ﴿ وأنتم لها كارهون ﴾ أي ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله ﴾ أي لست أريد منكم أجرة على إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وأخراكم إن أطلب ذلك إلا من الله الذي ثوابه خير لي وأبقى مما تعطونني أنتم . وقوله ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه ووعدوه أن يجتمعوا به اذا هو فعل ذلك فأبى عليهم ذلك وقال ﴿ انهم ملاقوا ربهم ﴾ أي فأخاف إن طردتهم أن يشكوني إلى الله عز وجل ولهذا قال ﴿ ويا قوم من ينصرني من الله ان طردتهم أفلا تذكرون ﴾ ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم نهاه الله عن ذلك كما بيناه في سورتي الأنعام والكهف ﴿ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ﴾ أي بل أنا عبد رسول لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمني به ولا أقدر إلّا على ما أقدرني عليه ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلّا ما شاء الله ﴿ ولا أقول للذين تزدري أعينكم ﴾ يعني من أتباعه ﴿ لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم اني اذا لمن الظالمين ﴾ [هود : ٣١] أي لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة الله أعلم بهم وسيجازيهم على ما في نفوسهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر كما قالوا في المواضع الأخر ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال وما علمي بما كانوا يعملون . ان حسابهم إلا على ربي لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين ان أنا إلا نذير مبين ﴾ [الشعراء : ١١١] .

وقد تطاول الزمان والمجادلة[٣] بينه وبينهم كما قال تعالى ﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ [العنكبوت : ١٤] أي ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلّا القليل منهم وكان كل ما انقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته * وكان

---

(١) وقيل الهداية إلى الله بالبراهين ، وقيل بالإيمان والإسلام .

وقال الرازي في تفسيره الكبير : المراد بتلك الرحمة : إما النبوة ، وإما المعجزة الدالة على النبوة . ج ٢١٣/١٧ .

(٢) جاء في أحكام القرطبي : قيل شهادة أن لا إله إلا الله وقيل الهاء ترجع إلى الرحمة ، وقيل إلى البينة ، أي انلزمكم قبولها ؟ وهو استفهام بمعنى الانكار ، أي لا يمكنني أن اضطركم إلى المعرفة بها ؛ وقصد نوح بهذا القول أن يرد عليهم . ج ٩/٢٥ ـ ٢٦ .

(٣) الجدل في كلام العرب المبالغة في الخصومة . قال في أحكام القرآن : والجدل في الدين محمود ، ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق ؛ فمن قبله الحج وأفلح ، ومن رده خاب . وأما الجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق فمذموم . ٢٨/٩ .

الوالد اذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه أن لا يؤمن بنوح أبداً ما عاش ودائماً ما بقي وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق ولهذا قال ﴿ ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾ ولهذا قالوا ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين * قال إنما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين ﴾ [هود : ٣٢ : ٣٣] أي إنما يقدر على ذلك الله عز وجل فإنه الذي لا يعجزه شيء ولا يكترثه أمر بل هو الذي يقول للشيء كن فيكون ﴿ ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ [هود : ٣٤] أي من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الفعال لما يريد وهو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية . وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ﴿ وأوحى إلى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ﴾ [هود : ٣٦] تسلية له عما كان منهم اليه ﴿ فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ وهذه تعزية لنوح عليه السلام في قومه أنه لن يؤمن منهم الا من قد آمن أي لا يسوأنك ما جرى فان النصر قريب والنبأ عجيب ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون ﴾ [هود : ٣٧] وذلك أن نوحاً عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ورأى أنهم لا خير فيهم وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال دعا عليهم دعوة غضب فلبى الله دعوته وأجاب طلبته قال الله تعالى ﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وقومه من الكرب العظيم ﴾ [الصافات : ٧٥]. وقال تعالى ﴿ ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ [الأنبياء : ٧٦]. وقال تعالى ﴿ قال رب ان قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين ﴾ [الشعراء : ١١٧] وقال تعالى ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ [القمر : ١٠] وقال تعالى ﴿ قال رب انصرني بما كذبون ﴾ [المؤمنون : ٣٩] وقال تعالى ﴿ مما خطيآتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً . وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفار ﴾ [نوح : ٢٥ - ٢٧] فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم فعند ذلك امره الله تعالى أن يصنع الفلك وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها . وقدم الله تعالى اليه أنه اذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم فإنه ليس الخبر كالمعاينة ولهذا قال ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾ [هود : ٣٨] أي يستهزئون به استبعاداً لوقوع ما توعدهم به ﴿ قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ [هود : ٣٨] أي نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم في استمراركم على كفركم وعنادكم الذي يقتضي وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ [هود : ٣٩] وقد

كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ في الدنيا وهكذا في الآخرة فإنهم يجحدون أيضاً أن يكون جاءهم رسول . كما قال البخاري حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ : « يجيء نوح عليه السلام وأمته فيقول الله عز وجل هل بلّغت فيقول : نعم أي رب . فيقول لأمته : هل بلغكم فيقولون لا ما جاءنا من نبي . فيقول لنوح من يشهد لك فيقول محمد وأمته فتشهد أنه قد بلغ »[1]وهو قوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ [البقرة : ١٤٣] والوسط العدل . فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق بأن الله قد بعث نوحاً بالحق وأنزل عليه الحق وأمره به وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها ولم يدع شيئاً مما ينفعهم في دينهم إلّا وقد أمرهم به ولا شيئاً مما قد يضرهم إلّا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه * وهكذا شأن جميع الرسل حتى أنه حذر قومه المسيح الدجال وان كان لا يتوقع خروجه في زمانهم حذراً عليهم وشفقة ورحمة بهم . كما قال البخاري حدثنا عبدان حدثنا عبد الله ، عن يونس ، عن الزهري ، قال سالم : قال ابن عمر : قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله . ثم ذكر الدجال فقال : « إني لأنذركموه وما من نبي إلّا وقد أنذره قومه . لقد أنذره نوح قومه ولكني أقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور » وهذا الحديث في الصحيحين أيضاً من حديث شيبان بن عبد الرحمن عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ألا أحدثكم عن الدجال حديثاً ما حدث به نبي قومه إنه أعور وانه يجيء معه بمثال الجنة والنار والتي يقول عليها الجنة هي النار وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه »[2]لفظ البخاري .

وقد قال بعض علماء السلف لما استجاب الله له أمره أن يغرس شجراً ليعمل منه السفينه فغرسه وانتظره مائة سنة ثم نجره في مائة أخرى وقيل في أربعين[3]سنة فالله أعلم * قال محمد بن اسحق عن الثوري وكانت من خشب الساج * وقيل من الصنوبر . وهو نص التوراة . قال الثوري وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين ذراعاً وأن يطلي ظاهرها وباطنها بالقار وان يجعل لها جؤجؤاً أزور يشق الماء * وقال قتادة كان طولها ثلثمائة ذراع في عرض خمسين ذراعاً وهذا الذي في التوراة على ما رأيته .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٦٠/٣/٣٣٣٩ فتح الباري . ورواه أحمد في مسنده ٣٢/٣ ورواه السيوطي في الفتح الكبير وقال : رواه أحمد والبخاري والترمذي والنسائي .

(٢) الحديث رواه مسلم في كتاب الفتن ٥٢/ح ١٠٩/ ٢٩٣٦ والبخاري ح رقم ١٥٧٧ عن أبي هريرة واللفظ لمسلم .

(٣) قال الرازي في تفسيره : قيل اتخذها في ستين (عن ابن عباس كما عند القرطبي) وقيل في اربع سنين . وقال كعب ، كما عند القرطبي ، بناها في ثلاثين سنة ، وقال ابن العربي : عملها في أربعين سنة . التفسير الكبير - أحكام القرآن ٣١/٩ .

وقال الحسن البصري ستمائة في عرض ثلثمائة وعن ابن عباس ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة ذراع * وقيل كان طولها ألفي ذراع وعرضها مائة ذراع . قالوا كلهم وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعاً وكانت ثلاث طبقات . كل واحدة عشرة أذرع . فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للناس والعليا للطيور وكان بابها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها .

قال الله تعالى ﴿ قال رب انصرني بما كذبون فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ [المؤمنون : ٢٦ ـ ٢٧] أي بأمرنا لك وبمرأى منا لصنعتك لها ومشاهدتنا لذلك لنرشدك إلى الصواب في صنعتها ﴿ فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ [المؤمنون : ٢٧] فتقدم اليه بأمره العظيم العالي أنه إذا جاء أمره وحل بأسه أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها وأن يحمل معه أهله أي أهل بيته إلاّ من سبق عليه القول منهم أي إلاّ من كان كافراً فانه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد وأمر أنه لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم الذي قد حتمه عليهم الفعال لما يريد كما قدمنا بيانه قبل .

والمراد بالتنور[١] عند الجمهور وجه الأرض أي نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التي هي محال النار . وعن ابن عباس التنور عين في الهند وعن الشعبي بالكوفة وعن قتادة بالجزيرة * وقال علي بن أبي طالب المراد بالتنور فلق الصبح وتنوير الفجر أي إشراقه وضياؤه أي عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين وهذا قول غريب * وقوله تعالى ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ﴾ [هود : ٤٠] هذا أمر بأن عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين وفي كتاب أهل الكتاب أنه أمر أن يحمل من كل ما يؤكل سبعة أزواج ومما لا يؤكل زوجين ذكراً وأنثى وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى في كتابنا الحق (إثنين) إن جعلنا ذلك مفعولاً به . وأما إن جعلناه توكيداً لزوجين والمفعول به محذوف فلا ينافي والله أعلم .

وذكر بعضهم ويروى عن ابن عباس أن أول ما دخل من الطيور الدرّة[٢] وآخر ما دخل من

---

(١) قال الليث : التنور : لفظة عمت بكل لسان وصاحبه تنار . وقال الأزهري : هذا يدل على أن الاسم قد يكون أعجمياً فتعربه العرب فيصير عربياً .

وتنور على بناء فعّل لأن أصل بنائه تنرّ وليس في كلام العرب نون قبل راء . قاله صاحب أحكام القرآن وفي هامشه ورد : زنره : ملأه ، وتزنر : دق والسنر : شراسة الخلق ، وشنر عليه : عابه .

(٢) قال ابن عباس : أول ما حمل : الأوزة .

والدرة : قال الدميري في كتاب حياة الحيوان الكبرى هي : البيغاء المتقلمة وهو طائر لونه أخضر وهو في قدر الحمام يتخذها الناس للانتفاع بصوتها . ١ / ١٩٠ ـ ٥٩٢ .

الحيونات الحمار * ودخل إبليس متعلقاً بذنب الحمار . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن صالح حدثني الليث حدثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه وكيف نطمئن أو كيف تطمئن المواشي ومعنا الأسد فسلط الله عليه الحمّى فكانت أول حمى نزلت في الأرض * ثم شكوا الفارة فقالوا الفويسقة[1] تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها » . هذا مرسل * وقوله ﴿ وأهلك إلا من سبق عليه القول ﴾ أي من استجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر فكان منهم ابنه يام[2] الذي غرق كما سيأتي بيانه ﴿ ومن آمن ﴾ أي واحمل فيها من آمن بك من أمتك قال الله تعالى ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ودعوتهم الأكيدة ليلاً ونهاراً بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة والترغيب والوعد أخرى .

وقد اختلف العلماء في عدة من كان معه في السفينة فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفساً معهم نساؤهم . وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفساً . وقيل كانوا عشرة وقيل إنما كانوا نوحاً وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع بامرأة يام الذي انخزل وانعزل وسلل عن طريق النجاة فما عدل إذ عدل . وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية بل هي نص في أنه قد ركب معه غير أهله طائفة ممن آمن كما قال ﴿ ونجني ومن معي من المؤمنين ﴾ وقيل كانوا سبعة وأما امرأة نوح وهي أم أولاده كلهم حام وسام ويافث ويام وتسميه أهل الكتاب كعنان وهو الذي قد غرق وعابر وقد ماتت قبل الطوفان . قيل إنها غرقت مع من غرق وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها وعند أهل الكتاب أنها كانت في السفينة فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك أو أنها أنظرت ليوم القيامة والظاهر الأول قوله ﴿ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ قال الله تعالى ﴿ فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين . وقل رب انزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ﴾ [المؤمنون : ٢٨ - ٢٩] أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه وأقر عينه ممن خالفه وكذبه كما قال تعالى ﴿ الذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ [الزخرف : ١٢ - ١٤]. وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء الأمور أن يكون على الخير والبركة وأن تكون عاقبتها محمودة كما قال تعالى

---

(١) الفويسقة : الفأرة وقيل سميت فويسقة لخروجها على الناس وإغتيالها إياهم في أموالهم بالفساد . (الدميري ٢/٣٩٩) .

(٢) في أحكام القرطبي : كنعان وامرأته واعلة .

وفي الطبري : كنعان وهو الذي تسميه العرب يام وهو الذي غرق في الطوفان .

لرسوله ﷺ حين هاجر ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ [الإسراء : ٨٠] وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم ﴾ [هود : ٤١] أي على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاؤه ﴿ إن ربي لغفور رحيم ﴾ أي وذو عقاب أليم مع كونه غفوراً رحيماً لا يرد بأسه عن القوم المجرمين كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره . قال الله تعالى ﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾. وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده كان كأفواه القرب وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها كما قال تعالى ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾ [القمر : ١٠ ـ ١٣]. والدسر السائر[1]﴿ تجري بأعيننا ﴾ أي بحفظنا وكلاأتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها جزاء لمن كان كفر .

وقد ذكر ابن جرير وغيره أن الطوفان كان في ثالث عشر شهر آب[2]في حساب القبط . وقال تعالى ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ﴾ أي السفينة ﴿ لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾ [الحاقة : ١١] قال جماعة من المفسرين ارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض خمسة عشر ذراعاً وهو الذي عند أهل الكتاب وقيل ثمانين ذراعاً وعم جميع الأرض طولها والعرض سهلها وحزنها وجبالها وقفارها ورمالها . ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الاحياء عين تطرف . ولا صغير ولا كبير .

قال الإمام مالك عن زيد بن أسلم : كان أهل ذلك الزمان قد ملأوا السهل والجبل * وقال عبد الرحمن[3]بن زيد بن اسلم ﴿ لم تكن بقعة في الأرض إلّا ولها مالك وحائز ﴾ رواهما ابن أبي حاتم ﴿ ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ [هود : ٤٢ ـ ٤٣] وهذا الابن هو يام أخو سام وحام ويافث * وقيل اسمه كنعان .

---

(١) في قصص الأنبياء لابن كثير : المسامير . وهو قول قتادة والقرظي وابن زيد وابن جبير . وقال الحسن وعكرمة : هي صدر السفينة التي تضرب بها الموج لأنها تدسر الماء أي تدفعه . وقال ابن عباس : الدسر كلكل (صدر السفينة) .
وقال الليث : خيط من ليف تشد به ألواح السفينة واحده الدسار . وفي الصحاح : خيوط . وفي الطبري : مسامير الحديد .

(٢) تاريخ الطبري ج ٩٦/١ دار القاموس ، لعشر ليال مضين من رجب كما في الطبري والكامل . وعند المسعودي لتسع عشرة ليلة خلت من آذار .

(٣) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم المدني ، العدوي مولاهم ، ضعيف من الثامنة مات سنة ١٨٢ له تفسير (تقريب التهذيب ٤٨٠/١ . الكاشف ١٤٦/٢) .

وكان كافرا عمل عملا غير صالح فخالف أباه في دينه ومذهبه فهلك مع من هلك هـذا ، وقد نجا مع أبيه الأجانب في النسب لما كانوا موافقين في الدين والمذهب ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ [هود : ٤٤] أي لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق منها أحد ممن عبد غير الله عز وجل أمر الله الأرض أن تبلع ماءها وأمر السماء أن تقلع أي تمسك عن المطر ﴿ وغيض الماء ﴾ أي نقص[1] عما كان ﴿ وقضي الأمر ﴾ أي وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره من إحلاله بهم ما حل بهم . ﴿ وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ أي نودي عليهم بلسان القدرة بعداً لهم من الرحمة والمغفرة كما قال تعالى ﴿ فكذبوه فانجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين ﴾ [الأعراف : ٦٤] وقال تعالى ﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ [يونس : ٧٣] وقال تعالى ﴿ ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فاغرقناهم أجمعين ﴾ [الأنبياء : ٧٧] وقال تعالى ﴿ فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين . ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وان ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ [الشعراء : ١١٩ ـ ١٢٢] وقال تعالى ﴿ فانجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ وقال ﴿ ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ [القمر : ١٥ ـ ١٧] وقال تعالى ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله انصارا . وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . انك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا ﴾ [نوح : ٢٥ ـ ٢٧] وقد استجاب الله تعالى ـ وله الحمد والمنة ـ دعوته فلم يبق منهم عين تطرف .

وقد روى الإمامان أبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبي حاتم في تفسيريهما من طريق يعقوب ابن محمد الزهري عن قائد مولى عبد الله بن أبي رافع أن ابراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة اخبره أن عائشة أم المؤمنين أخبرته أن رسول الله ﷺ قال : « فلو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي » قال رسول الله ﷺ : « مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة ـ يعني إلاّ خمسين عاماً ـ وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون تعمل سفينة في البر كيف تجري قال سوف تعلمون * فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً خرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل . فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي » * وهذا حديث غريب * وقد روي عن كعب الاحبار

---

(١) وغيض الماءُ : يقال غاض الشيءُ وغضته أنا ، في المصباح المنير : غاض : نضب أي ذهب في الأرض .

ومجاهد وغير واحد شبيه لهذه القصة[1]* وأحرى بهذا الحديث أن يكون موقوفاً متلقى عن مثل كعب الاحبار والله أعلم .

والمقصود أن الله لم يبقِ من الكافرين دياراً فكيف يزعم بعض المفسرين أن عوج بن عنق ويقال بن عناق كان موجوداً من قبل نوح إلى زمان موسى ويقولون كان كافراً متمرداً جباراً عنيداً ويقولون كان لغير رشده بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنا وإنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار ويشويه في عين الشمس وإنه كان يقول لنوح وهو في السفينة ما هذه القصيعة التي لك ويستهزىء به * ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاث مائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلثاً إلى غير ذلك من الهذيانات التي لولا انها مسطرة في كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها لسقاطتها وركاكتها * ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول .

أما المعقول فكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح لكفره وأبوه نبي الأمة وزعيم أهل الإيمان ولا يهلك عوج بن عنق ويقال عناق وهو أظلم وأطغى على ما ذكروا . وكيف لا يرحم الله منهم أحداً ولا أم الصبي ولا الصبي ويترك هذا الدعي الجبار العنيد الفاجر الشديد الكافر الشيطان المريد على ما ذكروا .

وأما المنقول فقد قال الله تعالى ﴿ ثم أغرقنا الآخرين وقال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ [نوح : ٢٦]. ثم هذا الطول الذي ذكروه مخالف لما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن ».

فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿ إن هو إلاّ وحي يوحى ﴾ [النجم : ٤] أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن أي لم يزل الناس في نقصان في طولهم من آدم إلى يوم اخباره بذلك وهلم جرا إلى يوم القيامة .

وهذا يقتضي أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه فكيف يترك هذا ويذهل عنه ويصار إلى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب الذين بدلوا كتب الله المنزلة وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها فما ظنك بما هم يستقلون بنقله أو يؤتمنون عليه وما أظن أن هذا الخبر عن عوج بن عناق إلا اختلاقاً من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء والله أعلم .

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه في ولده[2] وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام

---

(١) رواه الطبري في تاريخه ١ / ٩٠ ، ونقله القرطبي في أحكام القرآن قال : وحكي انه لما كثر الماء . . . . وذكر القصة ٩/٤١ .

(٢) قال تعالى : (ونادى نوح ربه ، فقال رب أن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) [هود : ٤٥] وكان نوح يعتقد في ظنه انه مؤمن ، وكان ابنه يسر الكفر ويظهر الإيمان ، فأوحى الله إليه : يا نوح انه ليس من

والاستكشاف ووجه السؤال أنك وعدتني بنجاة أهلي معي وهو منهم وقد غرق فأجيب بأنه ليس من أهلك أي الذين وعدت بنجاتهم أي أما قلنا لك ﴿ وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ﴾ فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأن سيغرق بكفره ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان * ثم قال تعالى ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ [هود : ٤٨] هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض وأمكن السعي فيها والاستقرار عليها أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودي * وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور وقد قدمنا ذكره عند خلق الجبال ﴿ بسلام منا وبركات ﴾ أي اهبط سالماً مباركاً عليك وعلى أمم ممن سيولد بعد أي من أولادك فان الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلا ولا عقباً سوى نوح عليه السلام قال تعالى ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينسبون الى أولاد نوح الثلاثة وهم « سام وحام ويافث .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الوهاب(1)، عن سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة أن النبي ﷺ قال : « سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم » ورواه الترمذي عن بشر بن معاذ العقدي عن يزيد بن زريع عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة مرفوعاً نحوه .

وقال الشيخ أبو عمرو بن عبد البر وقد روي عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ مثله . قال والمراد بالروم هنا الروم الأول وهم اليونان المتنسبون إلى رومي بن لبطى بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام * ثم روى من حديث اسمعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال : « ولد نوح ثلاثة سام ويافث وحام وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة فولد سام العرب وفارس والروم . وولد يافث الترك والسقالبة ويأجوج ومأجوج وولد حام القبط والسودان والبربر » قلت وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حدثنا ابراهيم بن هانىء وأحمد بن حسين بن عباد أبو العباس قالا : حدثنا محمد بن يزيد بن سنان الرهاوي حدثني أبي ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ولد لنوح سام وحام ويافث فولد لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم . وولد ليافث يأجوج ومأجوج والترك والسقالبة ولا

= أهلك ولا من خاصة عشيرتك فقد سبقت له الشقاوة وحقت عليه كلمة الكفر . . فإياك بعدها أن تسألني عن شيء لا تعلمه أو تجادلني في أمر لا تدركه : (إني أعظك أن تكون من الجاهلية) [سورة هود ٤٦] .

(١) الخبر رواه ابن سعد في ١/٤٢ وفيه عبد الوهاب بن عطاء العجلي ، وأحمد في مسنده ٨/٥ وقال السيوطي في الفتح : رواه الحاكم في المستدرك وأحمد في المسند والترمذي عن سمرة . والطبري ١/١٠٦ من طريق عثمان بن سعيد عن عباد بن العوام عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة .

خير فيهم * وولد لحام القبط والبربر والسودان »[1] ثم قال لا نعلم يروى مرفوعاً إلاّ من هذا الوجه . تفرد به محمد بن يزيد بن سنان عن أبيه وقد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه . ورواه غيره عن يحيى بن سعيد مرسلاً ولم يسنده وإنما جعله من قول سعيد . قلت وهذا الذي ذكره أبو عمرو وهو المحفوظ عن سعيد قوله * وهكذا روى عن وهب بن منبه مثله والله أعلم * ويزيد بن سنان أبو فروة الرهاوي ضعيف بمرة لا يعتمد عليه * وقد قيل إن نوحاً عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطوفان وإنما ولد له قبل السفينة كنعان الذي غرق وعابر مات قبل الطوفان * والصحيح ان الأولاد الثلاثة كانوا معه في السفينة هم ونساؤهم وأمهم وهو نص التوراة * وقد ذكر أن حاماً واقع امرأته في السفينة فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته فولد له ولد أسود وهو كنعان بن حام جد السودان * وقيل بل رأى أباه نائماً وقد بدت عورته فلم يسترها وسترها أخواه فلهذا دعا عليه أن تغير نطفته وان يكون أولاده عبيداً لأخوته .

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير[2] من طريق علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قال (قال الحواريون لعيسى بن مريم لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها . قال فانطلق بهم حتى أتى إلى كثيب من تراب فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه قال أتدرون ما هذا . قالوا الله ورسوله أعلم . قال هذا كعب[3] حام بن نوح . قال وضرب الكثيب بعصاه وقال قم باذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه [و] قد شاب * فقال له عيسى عليه السلام هكذا هلكت قال لا ولكني مت وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت . قال حدثنا عن سفينة نوح . قال كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات فطبقة فيها الدواب والوحش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير . فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فاقبلا على الروث ولما وقع الفار يخرز السفينة بقرضه أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اضرب بين عيني الأسد فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفار . فقال له عيسى كيف علم نوح عليه السلام أن البلاد قد غرقت قال بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت . قال ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها[4] فعلم أن البلاد قد غرقت فطوقها الخضرة التي في عنقها ودعا لها أن تكون في أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت . قال فقالوا :[5] يا رسول الله الا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا

---

(١) رواه الطبري ١٠٦/١ وابن سعد في الطبقات ٤٢/١ ـ ٤٣ .

(٢) تاريخ الطبري ٩١/١ .

(٣) في الطبري : قبر .

(٤) في الطبري : برجليها .

(٥) في الطبري : فقال الحواريون .

قال كيف يتبعكم من لا رزق له . قال فقال له عد بإذن الله فعاد تراباً) وهذا أثر غريب جداً .

وروى غلباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم وإنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوماً[١] وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين[٢] يوماً ثم وجهها إلى الجودي فاستقرت عليه فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فابطأ عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين فعرف نوح أن الماء قد نضب فهبط إلى أسفل الجودي فابتنى قرية وسماها ثمانين فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها العربي وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم .

وقال قتادة وغيره ركبوا في السفينة في اليوم العاشر من شهر رجب[٣] فساروا مائة وخمسين يوماً واستقرت بهم على الجودي شهراً . وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم * وقد روى ابن جرير خبراً مرفوعاً يوافق هذا وأنهم صاموا يومهم ذلك .

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو جعفر حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي عن أبيه حبيب بن عبد الله عن شبل عن أبي هريرة قال (مر النبي ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال : « ما هذا الصوم ؟ فقالوا هذا اليوم الذي نجا الله موسى وبني اسرائيل من الغرق ، وغرق فيه فرعون ، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي فصام نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله عز وجل فقال النبي ﷺ : « انا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم ، [فأمر أصحابه بالصوم] وقال لأصحابه : « من كان منكم أصبح صائماً فليتم صومه ، ومن كان منكم قد أصاب من غد أهله فليتم بقية يومه »[٤]. وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من وجه آخر والمستغرب ذكر نوح أيضاً والله أعلم . وأما ما يذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم ومن حبوب كانت معهم قد استصحبوها واطحنوا الحبوب يومئذ واكتحلوا بالإثمد لتقوية أبصارهم لما انهارت من الضياء بعدما كانوا في ظلمة السفينة فكل هذا لا يصح فيه شيء وإنما يذكر فيه آثار منقطعة عن بني اسرائيل لا يعتمد عليها ولا يقتدى بها والله أعلم .

وقال محمد بن اسحاق لما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان ـ أرسل ريحاً على وجه الأرض ، فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض ، فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر ، وكان استواء الفلك [على الجودي] فيما يزعم أهل التوراة ـ في الشهر السبع لسبع عشر ليلة مضت منه وفي أول يوم من الشهر العاشر رئيت رؤس الجبال * فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً فتح نوح كوة الفلك التي

---

(١) عند الطبري ستة أشهر ؛ وفي الكامل : كان بين إرسال الماء وبين أن غاض ستة أشهر وعشر ليال .

(٢) عند الطبري والكامل : أسبوعاً .

(٣) في المسعودي : يوم الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من آذار ؛ وفي الطبري والكامل فكالأصل .

(٤) مسند أحمد ج ٢ / ٣٥٩ ـ ٣٦٠ وما بين معكوفين من المسند ج ٥ / ٣٥٩ عن أبي هريرة .

صنع فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء فلم يرجع اليه فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم يجد لرجلها موضعاً فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له ما فعل الماء فلم ترجع فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتونة فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض * ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه فعلم نوح أن الأرض قد برزت فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن ارسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين ، برر وجه الأرض وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك * وهذا الذي ذكره ابن اسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة التي بأيدي أهل الكتاب * قال ابن اسحق وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين في ست وعشرين ليلة منه ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى امم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ [هود : ٤٨] وفيما ذكر أهل الكتاب أن الله كلم نوحاً قائلاً له : اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك وجميع الدواب التي معك ولينموا وليكبروا(١) في الأرض . فخرجوا وابتنى نوح مذبحاً لله عز وجل وأخذ من جميع الدواب الحلال والطير الحلال فذبحها قرباناً إلى الله عز وجل وعهد الله إليه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض . وجعل تذكاراً لميثاقه إليه القوس الذي في الغمام وهو قوس قزح الذي قدمنا عن إبن عباس أنه أمان من الغرق * قال بعضهم فيه إشارة إلى أنه قوس بلا وتر أي أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة .

وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان واعترف به آخرون منهم وقالوا إنما كان بأرض بابل ولم يصل الينا . قالوا ولم نزل نتوارث الملك كابراً عن كابر من لدن كيومرث يعنون آدم إلى زماننا هذا . وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عباد النيران وأتباع الشيطان .

وهذه سفسطة منهم وكفر فظيع وجهل بليغ ومكابرة للمحسوسات وتكذيب لرب الأرض والسموات وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن مع ما تواتر عند الناس في سائر الأزمان على وقوع الطوفان وأنه عم جميع البلاد(٢) ولم يبقِ الله أحداً من كفرة العباد استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم وتنفيذاً لما سبق في القدر المحتوم .

ذكر شيء من اخبار نوح عليه السلام

قال الله تعالى ﴿ إنه كان عبداً شكورا ﴾ [الاسراء : ٣] . قيل إنه كان يحمد الله على طعامه

---

(١) وفي نسخة : وليكثروا .

(٢) في الطوفان مسائل عديدة أجاب عنها الدكتور النجار في قصص الأنبياء ص ٣٦ ـ ٣٧ : الأولى : هل عمَّ طوفان نوح الكرة الأرضية .

والجواب : أن بعض العلماء يميل إلى عمومه . ويقول بعض علماء الجيولوجيا : إننا كلما بحثنا في أعالي الجبال وجدنا بقايا حيوانية من الأحياء التي لا تعيش إلا في الماء : وهذا يستدعي وجود طوفان على هذه الجبال بل عدد من الطوفانات لوجود الاختلاف في عمر هذه البقايا ، فلا مانع من أن يكون طوفان نوح أحدها ويكون قد =

. . . .

= عمّ . ويستأنس لذلك بقوله تعالى ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ .

ويميل فريق إلى أن الطوفان لم يكن عاماً بل طغيان الماء كان على الجهة التي كان يسكنها نوح وقومه . وأما بقية بقاع الأرض فلم يعمها هذا الطوفان ، ويستأنس لذلك بأن الهند كانوا يزعمون أن عمران بلادهم يمتد في الماضي إلى تاريخ أبعد من الذي قدرته التوراة لنوح وطوفانه . وأن عمرانهم متصل من أعمق أجيال التاريخ إلى اليوم . وأنتم تعلمون أني غير واثق من التاريخ الذي تقدره التوراة ؛ فربما كان نوح أبعد من ذلك بعداً يشمل ما يدعيه أهل الهند .

وعلى كل حالة فالمسألة ليس فيها نص من القرآن ، بل كل ما فيه من هذه الناحية أن قوم نوح كفروا وعصوا الرسول فأغرقهم الله بالطوفان ونجى نوحا ومن معه في الفلك وجعل ذريته الباقين ؛ فالعموم محتمل والخصوص محتمل .

والذي أميل إليه أن يكون خاصا وأن النوع الإنساني لم يكن منتشراً في جميع الكرة بل كانوا منحصرين في الناحية التي عمها الطوفان ، وأنهم قد هلكوا وبقي نوح وذريته .

الثانية : ما ذنب الأطفال من قوم نوح حتى هلكوا مع الآثمين من آبائهم وأمهاتهم ؟

والجواب : أن الله سبحانه وتعالى جرت عادته بأن النقمة لا تصيب الذين ظلموا خاصة وفي علم الظالمين بهلاك أولادهم معهم زيادة تعذيب ونكال لهم ؛ على أننا في كل يوم نرى الأطفال يهلكون بمختلف الأمراض وليس ذلك عقاباً للأطفال على ذنوب ارتكبوها أو آثام اقترفوها . ولكن ذلك من باب وجود المسبب عند وجود سببه . وتلك الأسباب هي الأمراض والعلل التي هي جند الله (وما يعلم جنود ربك إلا هو) وبهذا لا نحتاج إلى ما تكلفه بعض العلماء والمفسرين : من أن الله تعالى أعقم أرحام نساء قوم نوح قبل الطوفان بأربعين سنة فلم يولد لهم في تلك المدة مولود ، وبذلك اشترك جميع قومه في الاثم وهم مكلفون فحق عليهم العذاب وحاق بهم الهلاك .

على أننا نرى الزلازل تعمل عملها في الناس بلا تمييز بين البار والفاجر وتخسف الأرض بسكانها كما حصل في سان فرنسيسكو بأمريكا في زلزالها المشهور وقد وقع في زماننا ، وكما حصل في زلزال اليابان سنة ١٩٢٣ وهو قريب العهد منا جداً وكما يحصل في إيطاليا بسبب بركان « فيزوف » فقد تطغى حممه فتغطي البلاد القريبة منه فلا يشعر أهل القرية إلا بالحمم البركانية يسيل سيلها في طرق بلدهم فتهلكهم وتغطيها . وهذا حاصل كثيراً .

وهذه الطيارات التي تسقط من الجو بأسباب مختلفة لا يهلك من هلك فيها بآثامهم ولا ينجو فيها الناجون ببرهم . ولكن أحاط قسمت وجدود . وما حادثة المنطاد الانجليزي (ر ١٠١) سنة ١٩٣٠ منا ببعيدة ، وكذلك البواخر الجبارة العظيمة الحجم والقوة « كتايتانك » التي غرقت منذ عشرين عاماً والباخرة الإنجليزية « لويزيتانيا » التي غرقت في أيام الحرب العظمى وكان في كلتيهما من العلماء والكتاب والأغنياء والمهندسين والمخترعين عدد عظيم ، فقد هلكوا بآجالهم ﴿ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

الثالثة : أين جبل الجودي الذي استوت عليه سفينة نوح ؟

والجواب : جبل الجودي في نواحي ديار بكر من بلاد الجزيرة ، وهو يتصل بجبال أرمينية . قال في القاموس المحيط : والجودي جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ، ويسمى في التوراة « أرارَاط » .

الرابعة : ما حجم سفينة نوح ؟

وشرابه ولباسه وشأنه كله وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو أسامة ، حدثنا زكريا بن أبي زائدة عن سعيد بن أبي بردة ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها » وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث أبي أسامة . والظاهر أن الشكور هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية فإن الشكر[1] يكون بهذا وبهذا كما قال الشاعر .

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

صومه عليه السلام

وقال ابن ماجة باب صيام نوح عليه السلام حدثنا سهل بن أبي سهل حدثنا سعيد بن أبي مريم ، عن ابن لهيعة ، عن جعفر بن ربيعة عن أبي فراس ، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : « صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم الأضحى » هكذا رواه ابن ماجه من طريق عبد الله بن لهيعة باسناده ولفظه[2]. وقد قال الطبراني : حدثنا أبو الزنباع روح بن فرج ، حدثنا عمرو بن خالد الحراني ، حدثنا ابن لهيعة ، عن أبي قتادة عن يزيد بن رياح أبي فراس أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « صام نوح الدهر الا يوم الفطر والأضحى وصام داود نصف الدهر وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر ، صام الدهر وأفطر الدهر » .

حَجُّه عليه السلام

وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا أبي عن زمعة هو ابن أبي صالح ، عن سلمة بن وهرام[3]، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال حج رسول الله ﷺ فلما أتى وادي عسفان قال : « يا أبا بكر أيّ واد هذا ؟ » قال : هذا وادي عسفان قال : « لقد مر بهذا الوادي نوح وهود وإبراهيم على بكرات لهم حمر خطمهم الليف أزرهم العباء وأرديتهم النمار يحجون البيت العتيق » فيه غرابة .

---

(١) قال الفخر الرازي في تفسيره ج ٢٠/١٥٤ : الشكور الموحد الذي لا يرى حصول شيء من النعم إلا من فضل الله .

(٢) قال البوصيري في الزوائد : هذا إسناد ضعيف لضعف ابن لهيعة . . . وذكره الالباني ٤/٤٥٩ في سلسلة الأحاديث الضعيفة .

وقال في أحكام القرآن ج ٦٠/٢١٣ : كان يشكر الله على نعمه ولا يرى الخير إلا من عنده .

(٣) وفي نسخة دهران . وهو سلمة بن وهرام اليماني وثقه ابن معين وغيره . وضعفه أبو داود الكاشف ج ١/٣٠٩ .

وصيّته لولده

قال الامام أحمد حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن الصقعب[1] بن زهير عن زيد بن أسلم قال حماد أظنه عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال : كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيحان[2] مزرورة بالديباج فقال : « ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس بن فارس أو قال يريد أن يضع كل فارس بن فارس ورفع كل راع بن راع » قال : فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال : لا أرى عليك لباس من لا يعقل !؟ ثم قال : « إن نبي الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه إني قاصّ عليك الوصية آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين آمرك بلا إله إلا الله فان السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله . ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة فضمتهن لا إله إلا الله ، وسبحان الله وبحمده . فإن بها صلات كل شيء وبها يرزق الخلق وأنهاك عن الشرك والكبر » قال : قلت ـ أو قيل ـ يا رسول الله ، هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر أن يكون لأحدنا نعلان حسنان لهما شراً كان حسنان قال : « لا ». قال : هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها ؟ قال : « لا » . قال : هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها ؟ قال : « لا » . قال : هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه ؟ قال : « لا » * قلت ـ أو قيل يا رسول الله فما الكبر ؟ قال : « سفه الحق وغمض[3] الناس » . وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه * ورواه أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الرحيم بن سليمان عن محمد بن اسحق عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ : قال : « كان في وصية نوح لابنه أوصيك بخصلتين وأنهاك عن خصلتين » فذكر نحوه * وقد رواه أبو بكر البزار عن إبراهيم بن سعيد عن أبي معاوية الضرير عن محمد بن اسحق عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ بنحوه * والظاهر أنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه أحمد والطبراني والله أعلم .

ويزعم أهل الكتاب أن نوحاً عليه السلام لما ركب السفينة كان عمره ستمائة سنة * وقدمنا عن ابن عباس مثله وزاد وعاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة . وفي هذا القول نظر * ثم إن لم

---

(١) كذا في الأصل والمسند ، وفي الأسماء للبيهقي : المصعب .

(٢) في الهيثمي : سنجاب . وفي المسند سيجان : جمع اساج الطيلسان الأخضر : قيل هو الطيلسان المقور ينسج كذلك . .

(٣) في المسند والهيثمي وغمص ، غمط الناس وغمص الغمط والغمص الاستهانة والاحتقار . أخرج الحديث في المسند ج ٢ / ١٦٩ ، ١٧٠ والأسماء والصفات للبيهقي ١٢٨ عن ابن عمر ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٢ / ٢١٩ . وقال : رواه كله أحمد ورواه الطبراني بنحوه وزاد في رواية : وأوصيك بالتسبيح فإنها عبادة الخلق وبالتكبير . ورواه البزار من حديث ابن عمر . ورجال أحمد ثقات . ص ٢٢٠ .

يمكن الجمع بينه وبين دلالة القرآن فهو خطأ محض فإن القرآن يقتضي أن نوحا مكث في قومه بعد البعثة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك فإن كان ما ذكر محفوظاً عن ابن عباس من أنه بعث وله أربع مائة وثمانون سنة وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة .

وأما قبره عليه السلام فروى ابن جرير والأزرقي عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلاً أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام . وهذا أقوى وأثبت من الذي يذكره كثير من المتأخرين من أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح وهناك جامع قد بني بسبب ذلك فيما ذكر والله أعلم .

قصّة هود عليه السلام(١)

وهو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام * ويقال إن هوداً هو عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح . ويقال هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود(٢) بن عاد بن عوص بن ارم ابن سام بن نوح عليه السلام * ذكره ابن جرير وكان من قبيلة يقال لهم عاد بن عوص بن سام بن نوح كانوا عرباً يسكنون الأحقاف وهي جبال الرمل وكانت باليمن من عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر(٣) واسم واديهم مغيث * وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام كما قال تعالى **﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ﴾** [الفجر : ٦] أي عاد إرم وهم عاد الأولى * وأما عاد الثانية فمتأخرة كما سيأتي بيان ذلك في موضعه * وأما عاد الأولى فهم عاد **﴿ إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾** [الفجر : ٨] أي مثل القبيلة * وقيل مثل العمد . والصحيح الأول كما بيناه في التفسير .

ومن زعم أن ارم مدينة تدور في الأرض فتارة في الشام وتارة في اليمن وتارة في الحجاز وتارة في غيرها فقد أبعد النجعة وقال ما لا دليل عليه ولا برهان يعول عليه ولا مستند يركن إليه * وفي

---

(١) ذكر هود في القرآن الكريم سبع مرات . فذكر في سورة الأعراف ٦٥ وفي سورة هود : ٥٠ - ٥٣ - ٥٨ - ٦٠ - ٨٩ وفي سورة الشعراء : ١٢٤ .

(٢) في الطبري الخلود وفي الكامل : الجلود .

(٣) وهو قول القسطلاني ج ٥/٣٣٣ . وأرض الأحقاف تقع شمال حضرموت ، وفي شمالها الربع الخالي وفي شرقها عُمان .

فما في الأصل وما عند القسطلاني يخالف ما هو معروف ؛ لأن الأحقاف في موقعها يجعل جنوبها مطل على المحيط الهندي .

صحيح بن حبان عن أبي ذر في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه منهم أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر * ويقال إن هوداً عليه السلام أول من تكلم بالعربية * وزعم وهب بن منبه أن أباه أول من تكلم بها * وقال غيره أول من تكلم بها نوح * وقيل آدم وهو الأشبه . قيل غير ذلك والله أعلم .

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام العرب العاربة وهم قبائل كثيرة منهم عاد * وثمود * وجرهم * وطسم * وجديس * وأميم * ومدين * وعملاق * وعبيل * وجاسم * وقحطان * وبنو يقطن * وغيرهم .

وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل * وكان اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة * وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم كما سيأتي بيانه في موضعه[1] إن شاء الله تعالى ولكن أنطقه الله بها في غاية الفصاحة والبيان . وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ .

والمقصود أن عاداً وهم عاد الأولى كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان . وكان أصنامهم ثلاثة صداً وصموداً وهراً[2]. فبعث الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام فدعاهم إلى الله كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح وما كان من أمرهم في سورة الأعراف . ﴿ والى عاد أخاهم هوداً . قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة . فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . فانتظروا إني معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ [الأعراف ٦٥ - ٧٢] وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح في سورة هود ﴿ والى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون . يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون . ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين . قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك . وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما

(١) الجزء الثاني من البداية والنهاية - في أخبار العرب .

(٢) في الطبري : هباء بدل هرا وفي الكامل : ضرا وضمور والهبا .

تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ . ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود ﴾ [هود : ٥٠ ـ ٦٠] وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون بعد قصة قوم نوح ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون. وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين . إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين . قال رب انصرني بما كذبون . قال عما قليل ليصبحن نادمين . فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين ﴾ [المؤمنون : ٣١ ـ ٤١] .

وقال تعالى في سورة الشعراء بعد قصة قوم نوح أيضاً ﴿ كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . إن هذا إلا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ [الشعراء : ١٢٣ ـ ١٤٠].

وقال تعالى في سورة حم السجدة ﴿ وأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة . أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾ [فصلت : ١٥ ـ ١٦].

وقال تعالى في سورة الأحقاف ﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به إليكم ولكني أراكم قوماً تجهلون . فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل

هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ [الأحقاف : ٢١ ـ ٢٥].

وقال تعالى في الذاريات ﴿ وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ [الذاريات ٤١ ـ ٤٢].

وقال تعالى في النجم ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى فبأي آلاء ربك تتمارى ﴾ [النجم ٥٠ ـ ٥٥].

وقال تعالى في سورة اقتربت ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ [القمر ١٨ ـ ٢٢].

وقال في الحاقة ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل يرى لهم من باقية ﴾ [الحاقة : ٦ ـ ٨].

وقال في سورة الفجر ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الأوتاد . الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد . فنصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد ﴾ [الفجر : ٦ ـ ١٤].

وقد تكلمنا على كل من هذه القصص في أماكنها من كتابنا التفسير ولله الحمد والمنة .

وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة وإبراهيم والفرقان والعنكبوت وفي سورة (ص) وفي سورة (ق) ولنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه السياقات مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار * وقد قدمنا أنهم أول الأمم[1] عبدوا الأصنام بعد الطوفان . وذلك بيِّن في قوله لهم ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة ﴾ [الأعراف : ٦٩] أي جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش . وقال في المؤمنون ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ [المؤمنون : ٣١] وهم قوم هود[2] على الصحيح * وزعم آخرون أنهم ثمود لقوله ﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء ﴾ قالوا وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة ﴿ وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾ وهذا الذي قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية

---

(١) في الطبري والكامل : كانوا أهل أوثان .

(٢) في أحكام القرآن : هم قوم عاد ، لأنه ما كانت أمة أنشئت في أثر قوم نوح إلا عاد .

عليهم كما سيأتي في قصة أهل مدين أصحاب الأيكة فإنه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات * ثم لا خلاف أن عاداً قبل ثمود .

والمقصود أن عادا كانوا عرباً جفاة كافرين عتاة متمردين في عبادة الأصنام فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له فكذبوه وخالفوه وتنقصوه فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم في طاعته واستغفاره ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة ﴿ **قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة** ﴾ أي هذا الأمر الذي تدعونا اليه سفه بالنسبة الى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التي يرتجى منها النصر والرزق ومع هذا نظن أنك تكذب في دعواك أن الله أرسلك ﴿ **قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين** ﴾ أي ليس الأمر كما تظنون ولا ما تعتقدون ﴿ **أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين** ﴾ والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلغ وعدم الزيادة فيه والنقص منه ويستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم لا يبتغي منهم أجراً ولا يطلب منهم جعلاً بل هو مخلص لله عز وجل في الدعوة إليه والنصح لخلقه لا يطلب أجره إلاّ من الذي أرسله فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه وأمره إليه ولهذا ﴿ **قال يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون** ﴾ [هود : ٥١] أي ما لكم عقل تميزون به وتفهمون أني أدعوكم إلى الحق المبين الذي تشهد به فطركم التي خلقتم عليها وهو دين الحق الذي بعث الله به نوحاً وأهلك من خالفه من الخلق وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجراً عليه بل أبتغي ذلك عند الله مالك الضر والنفع ولهذا قال مؤمن يس ﴿ **اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون . ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون** ﴾ وقال قوم هود له فيما قالوا ﴿ **يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء** ﴾ [هود : ٥٣] يقولون ما جئتنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته وما نظن إلا أنك مجنون فيما تزعمه وعندنا إنما أصابك هذا أن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك في عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك وهو قولهم ﴿ **إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون** ﴾ [هود : ٥٤] وهذا تحدّ منه لهم وتبرّ من آلهتم وتنقص منه لها وبيان أنها لا تنفع شيئاً ولا تضرو أنها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله . فان كانت كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر فها أنا بريء منها لاعن لها ﴿ **فكيدوني ثم لا تنظرون** ﴾ أنتم جميعاً بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه[1] ولا تؤخروني ساعة واحدة ولا طرفة عين فإني لا أبالي بكم ولا أفكر فيكم ولا أنظر إليكم

---

(١) قوله فكيدوني لا تنظرون ، من أعلام النبوة ، وهو أن يكون الرسول وحده ، مع كثرة أعدائه يدل على الثقة بنصر

﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴾ [هود : ٥٦] أي أنا متوكل على الله ومتأيد به وواثق بجنابه الذي لا يضيع من لاذ به واستند إليه فلست أبالي مخلوقاً سواه ولست أتوكل إلا عليه ولا أعبد إلا إياه * وهذا وحده برهان قاطع على أن هوداً عبد الله ورسوله وأنهم على جهل وضلال في عبادتهم غير الله لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروهاً فدل على صدقه فيما جاءهم به وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه .

وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عليه السلام قبله في قوله ﴿ يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون ﴾ [يونس : ٧١].

وهكذا قال الخليل عليه السلام ﴿ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيأ وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ [الأنعام : ٨٠ - ٨٣] * ﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون . أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ﴾ [المؤمنون : ٣٣ - ٣٥] استبعدوا أن يبعث الله رسولاً بشرياً وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديماً وحديثاً كما قال تعالى ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾ [يونس : ٢] وقال تعالى ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً . قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ [الإسراء : ٩٤ - ٩٥] ولهذا قال لهم هود عليه السلام ﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾ [الاعراف : ٦٣] اي ليس هذا بعجيب فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته وقوله ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما

= الله ، وكذلك قال الرسول ﷺ لقريش ؛ وقال نوح ص (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) .

وكان هود في علاقته بقومه الناصح الامين لهم ؛ ومرت هذه العلاقة ؛ بصبر هود واتزانه ورزانته ووقاره واخلاصه والبعد عن الشوائب واسداء النصيحة الخالصة وتلطفه معهم وترغيبهم في الإيمان . .

أما قومه فقد ترقوا في عداوتهم لهود ؛ من رفضهم لنصائحه ودعواته ثم اتهامهم له في عقله إلى تحديه (فأتنا بما تعدنا ـ من العذاب) . . .

وانذرهم هود بالهلاك ؛ واستحلال قوم غيرهم . ولما لم تبق فائدة في النصيحة والدعوة والإنذار . . . أحل الله تعالى بهم نقمته في الدنيا . . .

توعدون . إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحي وما نحن بمبعوثين إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين * قال ربي انصرني] [المؤمنون : ٣٥ - ٣٩]* استبعدوا المعاد.وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها تراباً وعظاماً وقالوا هيهات هيهات أي بعيد بعيد هذا الوعد إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحي وما نحن بمبعوثين أي يموت قوم ويحيى آخرون * وهذا هو اعتقاد الدهرية كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة أرحام تدفع وأرض تبلع .

وأما الدورية فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل يستميل عقل الفجرة الكفرة من بني آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون كما قال تعالى ﴿ ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ [الأنعام : ١١٣] وقال لهم فيما وعظهم به ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ [الشعراء : ١٢٨] يقول لهم أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيماً هائلاً كالقصور ونحوها تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام كما قال تعالى ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ [الفجر : ٦ - ٧] فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام .

ومن زعم أن إرم مدينة من ذهب وفضة وهي تتنقل في البلاد فقد غلط وأخطأ وقال ما لا دليل عليه * وقوله ﴿ وتتخذون مصانع ﴾ قيل هي القصور * وقيل بروج الحمام * وقيل مآخذ الماء[1]﴿ لعلكم تخلدون ﴾ [الشعراء : ١٢٩] أي رجاء منكم أن تعمروا في هذه الدار أعماراً طويلة ﴿ وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ [الشعراء : ١٣٠ - ١٣٥] وقالوا له مما قالوا ﴿ أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ﴾ [الأعراف : ٧٠] أي أجئتنا لنعبد الله وحده ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه * فإن كنت صادقاً فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك[2]كما قالوا ﴿ سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . إن هذا الا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين ﴾ [الشعراء : ١٣٦ - ١٣٨] أما على قراءة فتح الخاء فالمراد به اختلاق الأولين أي أن هذا الذي جئت به إلّا إختلاق منك وأخذته من كتب الأولين * هكذا فسره غير واحد من الصحابة والتابعين * وأما على قراءة ضم الخاء واللام فالمراد به الدين أي أن هذا الدين الذي نحن عليه إلّا دين الآباء والأجداد من أسلافنا ولن نتحول عنه ولا نتغير ولا

---

(١) في إحكام القرآن : قال الكلبي منازل ، وقال ابن عباس ومجاهد : حصون مشيدة .

(٢) طلبوا منه بتحدٍ العذاب الذي خوفهم به وحذرهم منه .

نزال متمسكين به . ويناسب كلا القراءتين الأولى والثانية قولهم ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ قال ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ [الأعراف : ٧١] أي قد استحقيتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان أي لم ينزل على ما ذهبتم إليه دليلاً ولا برهاناً وإذا أبيتم قبول الحق وتماديتم في الباطل وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم وبأسه الذي لا يرد ونكاله الذي لا يصد وقال تعالى ﴿ قال رب انصرني بما كذبون قال عما قليل ليصبحن نادمين فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين ﴾ [المؤمنون : ٢٦] وقال تعالى ﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوماً تجهلون . فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شيء بامر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ [الأحقاف : ٢٢] وقد ذكر الله تعالى خبر إهلاكهم في غير ما آية كما تقدم مجملاً ومفصلاً كقوله ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ [الأعراف : ٧٢] وكقوله ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا أن عاداً كفروا ربهم الا بعداً لعاد قوم هود ﴾ [هود : ٥٨ - ٦٠] وكقوله ﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين ﴾ [المؤمنون : ٤١] وقال تعالى ﴿ فكذبوه فأهلكناهم ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ [الشعراء ١٣٩ - ١٤٠].

وأما تفصيل إهلاكهم فلما قال تعالى ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما أستعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ﴾ [الأحقاف : ٢٤] كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب أنهم كانوا ممحلين مستنين فطلبوا السقيا فرأوا عارضاً في السماء وظنوه سقياً رحمة فإذا هو سقيا عذاب . ولهذا قال تعالى ﴿ بل هو ما استعجلتم به ﴾ أي من وقوع العذاب وهو قولهم ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ ومثلها في الأعراف . وقد ذكر المفسرون وغيرهم ههنا الخبر الذي ذكره الإمام محمد بن اسحق بن بشار[1] وقال فلما أبوا إلا الكفر بالله عز وجل أمسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك قال وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه إنما يطلبونه بحرمه ومكان بيته وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان وبه

---

(١) كذا في الأصول بشار وهو تحريف والصواب يسار .

العماليق مقيمون وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال له معاوية بن بكر[1] وكانت أمه من قوم عاد واسمها جلهدة ابنة الخيبري . قال فبعث عاد وفداً[2] قريباً من سبعين رجلاً ليستقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر يغنيهم الجرادتان قينتان لمعاوية وكانوا قد وصلوا إليه في شهر . فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحيى منهم أن يأمرهم بالإنصراف عمل شعراً فيعرض لهم بالإنصراف وأمر القينتين أن تغنيهم به فقال :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يمنحنا[3] غماما
فيسقي أرض عاد إن عاداً ... قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديدِ فليس نرجو ... به الشيخَ الكبيرَ ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهمُ بخيرٍ ... فقد أمستْ نساؤهمُ أياماً[4]
وإن الوحشَ يأتيهم جَهاراً ... ولا يخشى لعاديّ سهاما
وأنتمْ ههنا فيما اشتهيتم ... نهارَكُمُ وليلُكمُ تماما
فقُبِّح وفدُكم من وفدِ قومٍ ... ولا لقُّوا التحيةَ والسلاما

قال فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم فدعا داعيهم وهو قيل ابن عنز فأنشأ الله سحابات ثلاثاً : بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء [يا قيل] اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب فقال : اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه اخترت رماداً رمدداً لا تبقي من عادٍ أحداً . لا والداً يترك ولا ولداً . إلا جعلته همداً إلا بني اللودية الهمد[5] ـ قال وهو بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم قال ومن بقي من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الأخرة ـ قال : وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل ابن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من وادٍ يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا فيقول تعالى ﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ أي كل شيء أمرت به فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيها يذكرون

---

(١) في الطبري : بكر بن معاوية . وفي رواية ابن إسحاق عنده معاوية بن بكر .

(٢) في الطبري : بعثوا قيل بن عنز ولقيم بن هزال بن هزيل بن عتيك ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلماً يكتم إسلامه وجلهمة بن الخيبري ثم بعثوا لقمان بن عاد بن . . بن . . بن عاد الأكبر مع رهط كل منهم حتى بلغوا سبعين رجلاً .

(٣) في الطبري يسقينا .

(٤) في الطبري : عياما . والأيم : المرأة التي فارقت زوجها .

(٥) في الطبري : اللوذية الهمداني وهم بنو لقيم بن هزال بن هزيل بن هزيلة ابنة بكر .

امرأة من عاد يقال لها فهد[1] فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت . فلما أفاقت قالوا ما رأيت يا فهد[2] قالت رأيت ريحاً فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً والحسوم الدائمة فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك قال واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لي في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود ويلتذ الأنفس وإنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة » وذكر تمام القصة[3].

وقد روى الإمام أحمد حديثاً في مسنده[4] يشبه هذه القصة فقال حدثنا زيد بن الحباب حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي حدثنا عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث ـ وهو ابن حسان ـ ويقال ابن يزيد البكري قال : خرجت أشكو العلا بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة ، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها فقالت لي يا عبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة فهل أنت مبلغي إليه قال فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله وإذا راية سوداء تخفق وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ : فقلت ما شأن الناس قالوا يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً قال: فجلست قال: فدخل منزله ـ أو قال رحله ـ فأستأذنت عليه فأذن لي فدخلت فسلمت ، فقال : « هل كان بينكم وبين بني تميم شيء ؟ » فقلت : نعم . وكانت لنا الدبرة عليهم ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها فسألتني أن أحملها إليك وها هي بالباب ، فأذن لها فدخلت فقلت يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزاً فاجعل الدهناء فإنها كانت لنا قال ؛ فحميت العجوز واستوفزت وقالت يا رسول الله فإلى أين تضطر مضرك قال : فقلت : إن مثلي ما قال الأول (معزى حملت حتفها)[5] حملت هذه الأمة ولا أشعر أنها كانت لي خصماً أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد قال هيه وما وافد عاد وهو أعلم بالحديث منه[1] ولكن يستطعمه ، قلت : إن عاداً قحطوا فبعثوا وفداً لهم يقال له قيل ، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر ويغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان فلما مضى الشهر خرج إلى جبال تهامة[6] فقال اللهم إنك تعلم أني لم أجيء إلى مريض فأداويه ولا إلى أسير فأفاديه . اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه فمرت به سحابات سود فنودي منها اختر فأومى إلى سحابة منها سوداء فنودي منها خذها رماداً رمدداً لا تبقي من عاد أحداً قال فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجري في

---

(١) في الطبري : مهدد .

(٢) روى الطبري الخبر في تاريخه ١/١١٣ بتغيير طفيف في التعابير والألفاظ .

(٣) مسند أحمد ج ٣/٤٨٢ وتاريخ الطبري ج ١/١١١ . وروى الترمذي نحوه وقال : وقد روى غير واحد هذا الحديث عن سلام بن أبي المنذر عن عاصم ، وعن أبي وائل عن الحارث بن حسان ويقال له : ابن يزيد .

(٤) في الطبري : حيفا .

(٥) في الطبري : قلت : على الخبير سقطت قال : وهو يستطعمني الحديث .

(٦) في الطبري : مهرة .

خاتمي هذا من الريح حتى هلكوا . قال أبو وائل وصدق وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وفداً لهم قالوا لا تكن كوافد عاد وهكذا رواه الترمذي عن عبد بن حميد عن زيد بن الحباب به ورواه النسائي من حديث سلام أبي المنذر عن عاصم بن بهدلة ، ومن طريقه رواه ابن ماجة . وهكذا أورد هذا الحديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين كابن جرير وغيره * وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة ، فإن فيما ذكره ابن اسحاق وغيره ذكر لمكة ، ولم تبن إلا بعد إبراهيم الخليل حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل فنزلت جرهم عندهم كما سيأتي وعاد الأولى قبل الخليل وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره ، وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى ، لا يشبه كلام المتقدمين . وفيه أن في تلك السحابة شرر نار ، وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر . وقد قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من أئمة التابعين هي الباردة والعاتية الشديدة الهبوب ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ [الحاقة : ٧] أي كوامل متتابعات * قيل كان أولها الجمعة وقيل الأربعاء ﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ شبههم بأعجاز النخل التي لا رؤس لها وذلك لأن الريح كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس كما قال ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصرا في يوم نحس مستمر ﴾ [القمر : ١٩] أي في يوم نحس عليهم مستمر عذابه عليهم ﴿ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ [القمر : ٢٠] ومن قال إن اليوم النحس المستمر هو يوم الأربعاء وتشاءم به لهذا الفهم فقد أخطأ وخالف القرآن فإنه قال في الآية الأخرى ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات ﴾ [فصلت : ١٦] ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات فلو كانت نحسات في أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشؤمة وهذا لا يقوله أحد وإنما المراد في أيام نحسات أي عا م وقال تعالى ﴿ وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ [الذاريات : ٤١] أي التي لا تنتج خيراً فإن الريح المفردة لا تنثر سحاباً ولا تلقح شجراً بل هي عقيم لا نتيجة خير لها ولهذا قال ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ [الذاريات : ٤٢] أي كالشيء البالي الفاني الذي لا ينتفع به بالكلية * وقد ثبت في الصحيحين من حديث شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور »[1] * وأما قوله تعالى ﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالاحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ [الأحقاف : ٢١] فالظاهر أن عاداً هذه هي عاد الأولى فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأولى . ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عاد الثانية . ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٥/٢٦/١٠٣٥ الفتح ، وفي أكثر من رواية ورواه مسلم في صحيحه ٩/٤/١٧ وأحمد في مسنده ١/٢٣ - ٣٢٤ - ٣٤١ - ٣٥٥ - ٣٧٣ .

قال ابن حجر : الصبا يقال لها القَبول لأنها تقابل الكعبة لأن مهبها من مشرق الشمس ، والدبور ضد الصبا .

من الحديث عن عائشة رضي الله عنها * وأما قوله ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ فإن عاداً لما رأو هذا العارض وهو الناشيء في الجو كالسحاب ظنوه سحاب مطر فإذا هو سحاب عذاب اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر قال الله تعالى ﴿ بل هو ما استعجلتم به ﴾ أي من العذاب ثم فسره بقوله ﴿ ريح فيها عذاب أليم ﴾ يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب التي استمرت عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية فلم تبق منهم أحداً بل تتبعتهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة فكما منوا بقوتهم وشدتهم وقالوا من أشد منا قوة سلط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة وأقدر عليهم وهو الريح العقيم * ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة ظن من بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لمن بقي منهم فأرسلها الله عليهم شرراً وناراً كما ذكره غير واحد ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة مع الصيحة التي ذكرها في سورة قد أفلح المؤمنون والله أعلم .

وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي : حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس ، حدثنا ابن فضل[1]عن مسلم ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا بها إلاّ مثل موضع الخاتم فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها (قالوا هذا عارض ممطرنا) فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة ». وقد رواه الطبراني عن عبدان بن أحمد ، عن اسماعيل بن زكريا الكوفي ، عن أبي مالك ، عن مسلم الملائي ، عن مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ « ما فتح الله على عاد من الريح إلاّ مثل موضع الخاتم . ثم أرسلت عليهم البدو إلى الحضر فلما رآها أهل الحضر قالوا هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا وكان أهل البوادي فيها فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا ». قال : عتت على خزائنها[2]حتى خرجت من خلال الأبواب . قلت : وقال غيره : خرجت بغير حساب .

والمقصود أن هذا الحديث في رفعه نظر . ثم اختلف فيه على مسلم الملائي ، وفيه نوع اضطراب والله أعلم * وظاهر الآية أنهم رأوا عارضاً والمفهوم منه[3]لمعة السحاب كما دل عليه حديث الحارث بن حسان البكري ان جعلناه مفسراً لهذه القصة . وأصرح منه في ذلك ما رواه

---

(١) كذا بالأصل والصواب ابن فضيل وهو محمد بن فضيل بن غزوان ، ثقة مشهور ، قال ابن سعد : بعضهم لا يحتج به ، المغني في الضعفاء (٢/٦٢٤/٥٩٠٧) تقريب التهذيب (٢/٢٠٠/٦٢٨) .

(٢) في قصص الأنبياء لابن كثير : خزانها وهو الصواب .

(٣) لمعة تحريف ، وما في قصص الأنبياء لابن كثير : لغة . هو الصواب .

مسلم في صحيحه حيث قال : حدثنا أبو الطاهر ، حدثنا ابن وهب [قال] سمعت بن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبي رباح ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها ، وشر ما أرسلت به » قالت : وإذا عبيت[1] السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فاذا أمطرت سري عنه[2] فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال لعله يا عائشة كما قال قوم عاد ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ [الأحقاف : ٢٤][3] رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة من حديث ابن جريج .

طريق أخرى * قال الإمام أحمد[4] حدثنا هرون بن معروف أنبأنا عبدالله بن وهب، أنبأنا عمرو وهو ابن الحارث ، أن أبا النضر ، حدثه عن سليمان بن يسار ، عن عائشة أنها قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط حتى أرى منه لهواته إنما كان يبتسم . وقالت كان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه قالت يا رسول الله الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية فقال : « يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب . قد عذب قوم نوح بالريح . وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا » * فهذا الحديث كالصريح في تغاير القصتين كما أشرنا إليه أولاً . فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة الأحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية . وتكون بقية السياقات في القرآن خبراً عن عاد الأولى والله أعلم بالصواب * وهكذا رواه مسلم عن هارون بن معروف وأخرجه البخاري وأبو داود من حديث ابن وهب * وقدمنا حج هود عليه السلام عند ذكر حج نوح عليه السلام . وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن . وذكر آخرون أنه بدمشق وبجامعها مكان في حائطة القبلي يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام والله أعلم .

---

(١) كذا في الأصول . وعند مسلم تخيلت . قال أبو عبيدة وغيره : تخيلت من المخيلة بفتح الميم : وهي سحابة فيها رعد وبرق يخيل إليه انها ماطرة . .

(٢) سري عنه : انكشف عنه الهم . قال صاحب النهاية : وقد تكرر ذكر هذه اللفظة في الحديث ، وخاصة في ذكر نزول الوحي عليه . وكلها بمعنى الكشف والإزالة . يقال :سروت الثوب ، وسريته إذا خلعته. والتشديد فيه للمبالغة .

(٣) أخرجه مسلم في ٩ كتاب صلاة الاستسقاء (٣ باب) ح ١٥ ص ٦١٦/٢ .

(٤) مسند أحمد ج ٦٦/٦ وصحيح مسلم ٩ كتاب صلاة الاستسقاء (٣ باب) ١٦ ح ص ٦١٦/٢ .

ولهواته : جمع لهاة . وهي اللحمة الحمراء المعلقة في أعلى الحنك . قاله الأصمعي .

قصّة صالح نبي ثمود عليه السلام[1]

وهم قبيلة مشهورة يقال ثمود باسم جدهم ثمود أخي جديس وهما ابنا عابر بن ارم بن سام بن نوح وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك . وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين كما سيأتي بيانه وكانوا بعد قوم عاد وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو عبد الله ورسوله صالح بن عبد بن ماسح[2]بن عبيد بن حاجر ابن ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح فدعاهم الى عبادة الله وحده لا شريك له وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئاً فآمنت به طائفة منهم وكفر جمهورهم ونالوا منه بالمقال والفعال وهموا بقتله وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى في سورة الأعراف ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم . هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون من الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ [الأعراف : ٧٣ - ٧٩] وقال تعالى في سورة هود ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب . قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نترك ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب . قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله ان عصيته فما تزيدونني غير تخسير . ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب . فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب . فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ . إن ربك هو القوي العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ﴾

---

(١) ذكر اسم صالح في القرآن تسع مرات ، في سورة الأعراف : ٧٣ - ٧٥ - ٧٧ وفي سورة هود في الآيات : ٦١ - ٦٢ - ٦٦ - ٨٩ ، وفي سورة الشعراء : ١٤٢ .

(٢) في الطبري : صالح بن عبيد بن آسف بن ماسخ بن عبيد بن خادر بن ثمود بن جاثر بن ارم بن سام بن نوح .

[هود : ٦١ ـ ٦٧] وقال تعالى في سورة الحجر ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين . وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين . فأخذتهم الصيحة مصبحين . فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ [الحجر : ٧٠ ـ ٨٤] وقال سبحانه وتعالى في سورة سبحان ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون . وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ [الإسراء : ٥٩] وقال تعالى في سورة الشعراء ﴿ كذبت ثمود المرسلين . إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين . أتتركون فيما ها هنا آمنين في جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين . فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون . قالوا إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين . قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم . فعقروها فأصبحوا نادمين . فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ [الشعراء : ١٤١ ـ ١٥٩] وقال تعالى في سورة النمل ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون . قال يا قوم لمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون . قالوا اطيرنا بك وبمن معك . قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون . وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [النمل : ٤٥ ـ ٥٣] وقال تعالى في سورة حم السجدة ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [فصلت : ١٧ ـ ١٨] وقال تعالى في سورة اقتربت ﴿ كذبت ثمود بالنذر . فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه انا إذاً لفي ضلال وسعر . أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر . سيعلمون غداً من الكذاب الأشر . انا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فكيف كان عذابي ونذر . انا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) [القمر : ٢٣ ـ ٣٢] وقال تعالى ﴿ كذبت ثمود بطغواها إذا انبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها ﴾ [الشمس : ١١ ـ ١٥] وكثيراً ما يقرن الله في كتابه بين ذكر عاد وثمود كما في سورة براءة وابراهيم والفرقان وسورة (ص) وسورة (ق) والنجم والفجر * ويقال إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما

أهل الكتاب وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما كما قال تعالى في سورة ابراهيم ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد . ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات] [ابراهيم : ٨ - ٩] الآية . الظاهر أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيداً ولا اعتنوا بحفظه وإن كان خبرهما كان مشهوراً في زمان موسى عليه السلام * وقد تكلمنا على هذا كله في التفسير متقصياً ولله الحمد والمنة .

والمقصود الآن ذكر قصتهم وما كان من أمرهم وكيف نجى الله نبيه صالحاً عليه السلام ومن آمن به وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ومخالفتهم رسولهم عليه السلام * قد قدمنا أنهم كانوا عرباً وكانوا بعد عاد ولم يعتبروا بما كان من أمرهم * ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام ﴿ أعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ [الأعراف : ٧٣ - ٧٤] أي إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان أمرهم وتعملوا بخلاف عملهم وأباح لكم هذه الأرض تبنون في سهولها القصور وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين أي حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح والعبادة له وحده لا شريك له وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته فإن عاقبة ذلك وخيمة ولهذا وعظهم بقوله ﴿ اتتركون فيما ههنا آمنين . في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ﴾ [الشعراء : ١٤٦ - ١٤٨] أي متراكم كثير حسن بهي ناضج ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ [الشعراء : ١٤٩ - ١٥٢] وقال لهم أيضاً ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾[هود : ٦١] أي هو الذي خلقكم فأنشأكم من الأرض وجعلكم عمارها أي أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار فهو الخالق الرزاق فهو الذي يستحق العبادة وحده لا سواه ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ﴾ أي أقلعوا عما أنتم فيه[1]وأقبلوا على عبادته فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم ﴿ إن ربي قريب مجيب قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ﴾ [هود : ٦٢] أي قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً قبل هذه المقالة[2]وهي دعاؤك إيانا الى إفراد

---

(١) أي سلوه المغفرة من عبادة الأصنام .

(٢) في أحكام القرآن : كنا نرجو أن تكون فينا سيداً قبل هذا ، أي قبل دعوتك النبوة ، وكانوا يرجون رجوعه دينهم . . . وانقطع رجاؤهم لما دعاهم إلى الله .

العبادة وترك ما كنا نعبده من الأنداد والعدول عن دين الآباء والأجداد ولهذا قالوا ﴿ اتنهانا أن نترك ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ـ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير ﴾ [هود : ٦٣] وهذا تلطف منه لهم في العبارة ولين الجانب وحسن تأتٍ في الدعوة لهم إلى الخير أي فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه ماذا عذركم عند الله وماذا يخلصكم بين يديه وأنتم تطلبون مني أن أترك دعاءكم إلى طاعته وأنا لا يمكنني هذا لأنه واجب علي ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرني منه ولا ينصرني فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له حتى يحكم الله بيني وبينكم وقالوا له أيضاً ﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾ [الشعراء : ١٥٣] أي من المسحورين يعنون مسحوراً لا تدري ما تقول في دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده وخلع ما سواه من الأنداد وهذا القول عليه الجمهور إن المراد بالمسحرين المسحورين * وقيل من المسحرين أي ممن له سحر وهي الرئة كأنهم يقولون إنما أنت بشر له سحر والأول أظهر لقولهم بعد هذا ما أنت إلا بشر مثلنا * وقولهم ﴿ فأت بآية إن كنت من الصادقين ﴾ [هود : ١٥٤] سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم ﴾ [هرد : ١٥٦] وقال ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ [الأعراف : ٧٣] وقال تعالى : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوماً في ناديهم فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم فقالوا له إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة هناك ناقة من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافاً سموها ونعتوها وتعنتوا[1] فيها وأن تكون عشراء[2] طويلة من صفتها كذا وكذا فقال لهم النبي صالح عليه السلام أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به . قالوا نعم فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء، على الوجه المطلوب الذي طلبوا أو على الصفة التي نعتوا فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلاً وقدرة باهرة ودليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً[3] فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم

---

(١) تعنتوا : تشددوا .

(٢) عشراء : التي مضى لحملها عشرة أشهر أو هي كالنفساء من النساء .

(٣) قال الرازي في تفسيره ج ١٨ / ١٩ : وأعلم أن تلك الناقة كانت معجزة من وجوه : الأول : انه تعالى خلقها من الصخرة .
الثاني : انه تعالى خلقها في جوف الجبل ثم شق عنها الجبل .

ولهذا قال (فظلموا بها) أي جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها أي أكثرهم . وكان رئيس الذين آمنوا جندع بن عمرو بن محلاه بن لبيد بن جواس . وكان من رؤسائهم وهم بقية الأشراف بالإسلام قصدهم ذؤاب بن عمر بن لبيد والحباب صاحبا أوثانهم ورباب بن صمعر بن جمس ودعا جندع بن عمه شهاب بن خليفة وكان من اشرافهم فهمّ بالإسلام فنهاه أولئك فمال إليهم فقال في ذلك رجل من المسلمين يقال له مهرش بن غنمة بن النميل رحمه الله :

وكانتْ عصبةٌ من آلِ عمروٍ ... الى دِينِ النبيّ دَعوا شهابا
عزيزَ ثمودَ كلهمُ جميعاً ... فهمّ بأن يُجيبَ ولو أجابا
لأصبحَ صالحَ فينا عزيزاً ... وما عَدَلوا بصاحبهمْ ذؤابا
ولكنّ الغُواةَ من آلِ حجْرٍ ... تولّوا بعدَ رُشدهمُ ذآبا(١)

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام ﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ [هود : ٦٤] أضافها الله سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتعظيم كقوله بيت الله وعبد الله لكم آية أي دليلاً على صدق ما جئتكم به ﴿فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب﴾ [هود: ٦٤] فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوماً بعد يوم وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم ويقال إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ولهذا ﴿ قال لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ أنا مرسلوا الناقة فتنة لهم ﴾ [القمر : ٢٧] أي اختباراً لهم أيؤمنون بها أم يكفرون والله أعلم بما يفعلون ﴿ فارتقبهم ﴾ أي انتظر ما يكون من امرهم ﴿ واصطبر ﴾ على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية ﴿ ونبئهم ان الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ﴾ [القمر : ٢٨] فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملؤهم واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم وزين لهم الشيطان أعمالهم قال الله تعالى ﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ [الأعراف - ٧٧] وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف بن جندع وكان أحمر أزرق أصهب وكان يقال أنه ولد زانية ولد على فراش سالف وهو ابن رجل يقال له صيبان . وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم(٢) ●

الثالث : انه تعالى خلقها حاملاً من غير ذكر .

الرابع : خلقها دفعة واحدة من غير ولادة .

الخامس : ما روي انه كان لها شرب يوم ولكل القوم شرب يوم آخر .

السادس : كان يحصل منها لبن كثير يكفي لخلق عظيم .

(١) في قصص الانبياء لابن كثير : ذبابا .

(٢) وفي نسخة قصص الأنبياء لابن كثير : إليهم كلهم . وهو مناسب .

وذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسرين[1] أن امرأتين من ثمود اسم احداهما صدوق ابنة المحيا ابن زهير بن المختار وكانت ذات حسب ومال وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته فدعت ابن عم لها يقال له مصرع بن مهرج بن المحيا وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة واسم الأخرى عنيزة بنت غنيم بن مجلز وتكنى أم عثمان وكانت عجوزاً كافرة لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو احد الرؤساء فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف إن هو عقر الناقة فله أي بناتها شاء فانتدب هذان الشابان لعقرها وسعوا في قومهم بذلك فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة وهم المذكورون في قوله تعالى ﴿ وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ [النمل : ٤٨] وسعوا في بقية القبيلة وحسنوا لهم عقرها فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم في ذلك فانطلقوا يرصدون الناقة فلما صدرت من وردها كمن لها مصرع فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها وجاء النساء يزمرن القبيلة في قتلها وحسرن عن وجوههن ترغيباً لهم فابتدرهم قدار بن سالف فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها ثم طعن في لبتها فنحرها وانطلق سقبها وهو فصيلها فصعد جبلاً منيعاً ودعا[2] ثلاثاً .

وروى عبد الرزاق عن معمر عمن سمع الحسن أنه قال يا رب أين أمي ثم دخل في صخرة فغاب فيها ويقال بل اتبعوه فعقروه أيضاً قال الله تعالى ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فكيف كان عذابي ونذر ﴾ [القمر : ٢٩ ـ ٣٠] وقال تعالى ﴿ اذ انبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ﴾ [الشمس : ١٢ ـ ١٣] أي احذروها ﴿ فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها ﴾ [الشمس : ١٤ ـ ١٥] .

قال الامام أحمد حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا هاشم ـ هو أبو عزرة ـ عن أبيه عبد الله بن زمعة[3] قال : خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال ﴿ اذ انبعث أشقاها ﴾ انبعث لها رجل من عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة[4]. أخرجاه من حديث هشام بن[5] عارم أي شهم عزيز أي رئيس منيع أي مطاع في قومه * وقال محمد بن اسحاق حدثني

---

(١) تاريخ الطبري ، وروح المعاني للألوسي .

(٢) كذا في الأصل ، وفي قصص الأنبياء لابن كثير : ورغا . وهو المناسب .

(٣) في المسند ٤/١٧ : عن ابن نمير عن هشام عن أبيه عن عبدالله بن زمعة . وهشام بن عروة ، وأبو عزرة تحريف / عن مسلم .

(٤) رواه مسلم في ٥١ كتاب/١٣ باب/ح ٤٩ بزيادة : ذكر النساء فوعظ فيهم ثم قال : إلام يجلد أحدكم امرأته .

ورواه البخاري في الفتح : ٦٥/٩١/٤٩٤٢ بزيادة « ذكر النساء . . .

وعارم : قال أهل اللغة : هو الشرير المفسد الخبيث ، وقيل : القوي الشرس .

(٥) كذا بالأصول والنسخ المطبوعة : وفي قصص الأنبياء لابن كثير : من حديث هشام به .

يزيد بن محمد بن خيثم عن محمد بن كعب عن محمد بن خيثم عن يزيد عن عمار بن ياسر قال قال رسول الله ﷺ لعلي : « ألا أحدثك بأشقى الناس » قال : بلى . قال : « رجلان أحدهما أحيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك يا علي على هذا - يعني قرنه - حتى تبتل منه هذه - يعني لحيته » . رواه ابن أبي حاتم . وقال تعالى ﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين ﴾ [الأعراف : ٧٧] فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه :

منها انهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية .

ومنها أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين * أحدهما الشرط عليهم في قوله ﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ﴾ وفي آية « عظيم » وفي الأخرى « أليم » والكل حق * والثاني استعجالهم على ذلك .

ومنها أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه وهم يعلمون ذلك علماً جازماً ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم * قال الله تعالى ﴿ فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام[1] ذلك وعد غير مكذوب ﴾ [هود : ٦٥] وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار بن سالف لعنه الله فعرقبها فسقطت إلى الأرض ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها فلما عاين ذلك سقبها وهو ولدها شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك ورغا ثلاث مرات فلهذا قال لهم صالح ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ﴾ أي غير يومهم ذلك فلم يصدقوه أيضاً في هذا الوعد الأكيد بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا فيما يزعمون أن يلحقوه بالناقة ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ﴾ [النمل : ٤٨] أي لنكبسنه في داره مع أهله فلنقتلنه ثم نجحدنّ قتله وننكرنّ ذلك أن طالبنا أولياؤه بدمه . ولهذا قالوا : ﴿ ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ﴾ [النمل : ٤٨] قال الله تعالى ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [النمل : ٥٠ - ٥٣] وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم وأصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما أنذرهم صالح عليه السلام فلما أمسوا نادوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل . ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل . وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى يومان من الأجل . ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة فلما

(١) قال الرازي في تفسيره : قال ابن عباس : انه تعالى لما امهلهم تلك الأيام الثلاثة فقد رغبهم في الإيمان ، وذلك لانهم لما عقروا الناقة انذرهم صالح ﷺ بنزول العذاب . .

أمسوا نادوا ألا قد مضى الأجل فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة لا يدرون كيف يفعل بهم ولا من أي جهة يأتيهم العذاب فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات وخشعت الأصوات وحقت الحقائق فأصبحوا في دارهم جاثمين جثثاً لا أرواح فيها ولا حراك بها . قالوا ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها كلبة - ابنت السلق - ويقال لها الذريعة وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شيء فأتت حياً من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستسقتهم ماء فلما شربت ماتت . قال الله تعالى ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أي لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء ﴿ ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود﴾ [هود : ٦٠] أي نادى عليهم لسان القدر بهذا .

قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : « لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ﴿ فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ﴾. وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً ، فعقروها فأخذتهم صيحة أخمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله . فقالوا من هو يا رسول الله قال : « هوَ أبو رغال . فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه »[1]. وهذا الحديث على شرط مسلم وليس هو في شيء من الكتب الستة والله أعلم .

وقد قال عبد الرزاق أيضاً : قال معمر ، أخبرني إسماعيل بن أمية أن النبي ﷺ مر بقبر أبي رغال فقال : « أتدرون من هذا » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هذا قبر أبي رغال ، رجل من ثمود ، كان في حرم الله فمنعه حرم الله [من] عذاب الله . فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ههنا ، ودفن معه غصن من ذهب . فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن » * قال عبد الرزاق قال معمر قال الزهري :أبو رغال أبو ثقيف * هذا مرسل . من هذا الوجه * وقد جاء من وجه آخر متصلاً كما ذكره محمد بن اسحق في السيرة عن إسماعيل بن أمية عن بجير بن أبي بجير ، [قال] سمعت عبد الله بن عمرو ، [يقول] سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه الى الطائف فمررنا بقبر ، فقال : « إن هذا قبر أبي رغال . وهو أبو ثقيف ؛ وكان من ثمود ؛ وكان بهذا الحرم يدفع عنه ، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان

---

(١) مسند أحمد ج ٣/٢٩٦ وتفرد به . وأبو الزبير هو محمد بن مسلم ، صدوق مشهور ، اعتمده مسلم وروى له البخاري متابعة . قال ابن حجر : صدوق إلا انه يدلس . تقريب التقريب (٢/٢٠٧/٦٩٧) المغني في الضعفاء للذهبي /٢ -٦٣٢) .

فدفن فيه ، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب ، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه . فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن » وهكذا رواه أبو داود من طريق محمد بن اسحق به * قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي رحمه الله هذا حديث حسن عزيز . قلت تفرد به بجير بن أبي بجير هذا ولا يعرف إلا بهذا الحديث ولم يرو عنه سوى اسماعيل بن أمية * قال شيخنا فيحتمل أنه وهم في رفعه وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو من زاملتيه والله أعلم . قلت لكن في المرسل الذي قبله وفي حديث جابر أيضاً شاهد له * والله أعلم .

وقوله تعالى ﴿ **فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين**﴾ [الأعراف : ٧٩] إخبار عن صالح عليه السلام أنه خاطب قومه بعد هلاكهم وقد أخذ في الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلاً لهم ﴿ **يا قوم لقد ابلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم** ﴾ أي جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي ﴿ **ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾ أي لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم المتصل إلى الأبد وليس لي فيكم حيلة ولا لي بالدفع عنكم يدان والذي وجب عليّ من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم ولكن الله يفعل ما يريد .

وهكذا خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال : وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل فقال : « يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً ، وقال لهم فيما قال : « بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس وأخرجتموني وآواني الناس وقاتلتموني ونصرني الناس فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم » فقال له عمر : يا رسول الله تخاطب أقواماً قد جيفوا فقال : ﴿ **والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجيبون** ﴾. وسيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله * ويقال إن صالحاً عليه السلام إنتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات .

قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال لما مر النبي ﷺ بوادي عسفان حين حج قال : « يا أبا بكر أي وادٍ هذا ». قال وادي عسفان قال : « لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمها الليف أزرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق »[1]* إسناد حسن * وقد تقدم في قصة نوح عليه السلام من رواية الطبراني وفيه نوح وهود وإبراهيم .

---

(١) مسند أحمد ج ١ /٢٣٢ وفيه زمعة بن صالح الجندي ، اليماني ، نزيل مكة ، أبو وهب ضعيف /تقريب التهذيب /١ ـ ٢٩٣ ـ ٦٥ .

مرور النبي بوادي الحجر من أرض ثمود عام تبوك

قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور فأمرهم رسول الله فاهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا [فقال] إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم(١)* وقال أحمد أيضاً حدثنا عفان حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ : وهو بالحجر لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم(٢)* أخرجاه في الصحيحين من غير وجه * وفي بعض الروايات أنه عليه السلام لما مر بمنازلهم قنع رأسه وأسرع راحلته ونهى عن دخول منازلهم إلاّ أن تكونوا باكين وفي رواية فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم * صلوات الله وسلامه عليه .

وقال الامام أحمد حدثنا يزيد بن هرون ، حدثنا المسعودي ، عن اسمعيل بن أوسط عن محمد بن أبي كبشة الأنباري عن أبيه واسمه عمرو بن سعد ويقال عامر بن سعد رضي الله عنه قال لما كان في غزوة تبوك فسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى في الناس الصلاة جامعة قال فأتيت النبي ﷺ وهو ممسك بعيره وهو يقول : « ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم » فناداه رجل تعجب منهم يا رسول الله قال أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً * إسناد حسن ولم يخرجوه .

وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة فكانوا يبنون البيوت من المدر فتخرب قبل موت الواحد منهم فنحتوا لهم بيوتاً في الجبال . وذكروا أن صالحاً عليه السلام لما سألوه آية فأخرج الله لهم الناقة من الصخرة أمرهم بها وبالولد الذي كان في جوفها وحذرهم بأس الله إن هم نالوها بسوء وأخبرهم أنهم سيعقرونها ويكون سبب هلاكهم ذلك وذكر لهم صفة عاقرها وأنه أحمر أزرق أصهب فبعثوا القوابل في البلد متى وجدوا مولوداً بهذه الصفة يقتلنه فكانوا على ذلك دهراً طويلاً وانقرض جيل وأتى جيل آخر . فلما كان في بعض الأعصار خطب رئيس من رؤسائهم على ابنه بنت

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ٢٩٨١/١/٥٣ وأحمد في مسنده (٢/٧٢ ـ ٩١) والبخاري في الفتح ١٥/٦٥ ـ ٢/٤٧٠٢ والحميدي في مسنده وابن هشام في السيرة والواقدي في المغازي ١/٣٩٧ .

(٢) مسند أحمد ج ٢/٦٦ .

آخر مثله في الرياسة فزوجه فولد بينهما عاقر الناقة وهو قدار بن سالف فلم تتمكن القوابل من قتله لشرف أبويه وجديه فيهم فنشأ نشأة سريعة فكان يشب في الجمعة كما يشب غيره في شهر حتى كان من أمره أن خرج مطاعاً فيهم رئيساً بينهم فسولت له نفسه عقر الناقة واتبعه على ذلك ثمانية من أشرافهم وهم التسعة الذين أرادوا قتل صالح عليه السلام . فلما وقع من أمرهم ما وقع من عقر الناقة وبلغ ذلك صالحاً عليه السلام جاءهم باكياً عليها فتلقوه يعتذرون إليه ويقولون إن هذا لم يقع عن ملأ منا وإنما فعل هذا هؤلاء الأحداث فينا . فيقال إنه أمرهم باستدراك سقبها حتى يحسنوا إليه عوضاً عنها فذهبوا وراءه فصعد جبلاً هناك فلما تصاعدوا فيه وراءه تعالى الجبل حتى ارتفع فلا يناله الطير وبكى الفصيل حتى سالت دموعه . ثم استقبل صالحاً عليه السلام ودعا[1] ثلاثاً فعندها قال صالح تمتعوا في داركم ثلاثة أيام وذلك وعد غير مكذوب وأخبرهم أنهم يصبحون من غدهم صفراً ثم تحمر وجوههم في الثاني وفي اليوم الثالث تسود وجوههم * فلما كان في اليوم الرابع أتتهم صيحة فيها صوت كل صاعقة فأخذتهم فأصبحوا في دارهم[2] جاثمين * وفي بعض هذا السياق نظر ومخالفة لظاهر ما يفهم من القرآن في شأنهم وقصتهم كما قدمنا والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب[3].

قصة إبراهيم خليل الرحمن

هو إبراهيم بن تسارخ « ٢٥٠ » بن ناحور « ١٤٨ » بن ساروغ « ٢٣٠ » بن راعو « ٢٣٩ » ابن فالغ « ٤٣٩ » بن عابر « ٤٦٤ » بن شالح « ٤٣٣ » بن أرفخشذ « ٤٣٨ » بن سام « ٦٠٠ » ابن نوح عليه السلام[4] * هذا نص أهل الكتاب في كتابهم ، وقد أعلمت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندي كما ذكروه من المدد وقدمنا الكلام على عمر نوح عليه السلام فأغنى عن إعادته * وحكى الحافظ ابن عساكر في ترجمة ابراهيم الخليل من تاريخه عن اسحق بن بشر الكاهلي صاحب كتاب « المبتدأ » ان اسم أم ابراهيم « أميلة » * ثم أورد عنه في خبر ولادتها له حكاية طويلة وقال

---

(١) في الطبري والكامل : ورغا ثلاثا . فقال صالح : لكل رغوة أجل يوم .

(٢) في الطبري : ديارهم .

(٣) نقل الخبر الطبري في تاريخه ١/١١٧ ـ ١١٨ دار القاموس .
والفصيل : ولد الناقة .

(٤) نسبه الموجود في التوراة والتواريخ هو : إبراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن ارفكشاذ بن سام بن نوح عليه السلام
وفي تهذيب ابن عساكر (٢/١٣٦ ـ ١٣٧) : إبراهيم بن ازار وهو تارخ بن ناحور بن شاروع بن أرغو بن فالغ بن شالح بن ارفشخد بن سام بن نوح ويكنى بأبي الضيفان .
وكما هو ملاحظ فأكثر الأسماء مخالفة لما في الأصل الذي نعتمده .

الكلبي اسمها « بونا » بنت كربنا بن كرثى من بني أرفخشذ بن سام بن نوح[1]

وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال كان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان[2]. قالوا ولما كان عمر تارخ خمساً وسبعين سنة ولد له إبراهيم عليه السلام وناحور وهاران وولد لهاران لوط * وعندهم أن إبراهيم عليه السلام هو الأوسط وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها وهي أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل * وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ[3] والأخبار وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر بعدما روى من طريق هشام بن عمار عن الوليد عن سعيد بن عبد العزيز عن مكحول عن ابن عباس قال ولد ابراهيم بغوطة دمشق في قرية يقال لها برزة في جبل يقال له قاسيون * ثم قال والصحيح أنه ولد ببابل. وإنما نسب إليه هذا المقام لانه صلى فيه إذ جاء معيناً للوط عليه السلام . قالوا فتزوج ابراهيم سارة[4] وناحور ملكا ابنة هاران يعنون بابنة اخيه. قالوا وكانت سارة عاقراً لا تلد قالوا وانطلق تارخ بابنة إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين فنزلوا حران فمات فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنة[5] وهذا يدل على أنه لم يولد بحران وإنما مولده بأرض الكلدانيين وهي أرض بابل وما والاها * ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين * وهي بلاد بيت المقدس فأقاموا بحران وهي أرض الكشدانيين في ذلك الزمان وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضاً وكانوا يعبدون الكواكب السبعة . والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال * ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها ويعملون لها أعياداً وقرابين * وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور وأبطل به ذاك الضلال فان الله سبحانه وتعالى أتاه رشده في صغره وابتعثه رسولاً واتخذه خليلاً في كبره قال تعالى ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾ [الأنبياء : ٥١] أي كان أهلاً لذلك .

---

(١) في الطبري : عن غير واحد من أهل العلم : اسمها أميوتا من ولد افراهم بن أرغو بن فالغ . . . من ولد سام . وقيل اسمها : المتلي بنت يكفور .

(٢) تاريخ ابن عساكر ١٢/ ١٤١ التهذيب .

(٣) قال الطبري : اختلف في الموضع الذي كان منه والموضع الذي ولد فيه ؛ قالوا بالسوس من أرض الأهواز - بابل - بناحية كوثى من السواد - بالوركاه بناحية الزوابي - حران ونقله منها أبوه إلى بابل (١/ ١١٩ والكامل لابن الأثير ١/ ٩٤) .

(٤) في سارة أقوال : في رواية للطبري ولابن الأثير : انها ابنة عمه هاران وفي رواية أخرى عنده عن السدي : انها ابنة ملك حران وقد طعنت في دين قومها وآمنت بالله تعالى مع إبراهيم .

(٥) وفي المسعودي : مائتان وستين سنة ١/ ٤٠ .

وقال تعالى ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون إنما نعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين . أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير . قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة . ان الله على كل شيء قدير يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير . والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فانجاه الله من النار . إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين . فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي انه هو العزيز الحكيم . ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب . وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ [العنكبوت : ١٦ ـ٢٧] ثم ذكر تعالى مناظرته لأبيه وقومه كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وكان أول دعوته لأبيه ، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له كما قال تعالى ﴿ واذكر في الكتاب ابراهيم إنه كان صديقاً نبياً . اذ قال لأبيه . يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً . يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً . قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً . قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً ﴾ [مريم : ٤١ ـ ٤٨].

فذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة . وأحسن إشارة بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التي لا تسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه فكيف تغني عنه شيئاً أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر ؟* ثم قال منبهاً على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع وإن كان أصغر سناً من أبيه ﴿ يا أبت إنه قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ﴾ أي مستقيماً واضحاً سهلاً حنيفاً يفضي بك إلى الخير في دنياك وأخراك(١) فلما عرض هذا الرشد عليه وأهدى هذه النصيحة إليه لم يقبلها منه ولا أخذها عنه بل تهدده وتوعده قال ﴿ أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك ﴾ قيل بالمقال وقيل

(١) قال في أحكام القرآن : أي أرشدك إلى دين مستقيم فيه النجاة . ١١١/١١ وقوله : يا أبت دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب وإرشاده إلى الصواب . . /الرازي ج ٢١/ ٢٢٦ .

بالفعال(١)﴿ واهجرني ملياً ﴾ أي واقطعني وأطل هجراني . فعندها قال له ابراهيم ﴿ سلاه عليك ﴾ أي لا يصلك مني مكروه ولا ينالك مني أذىً بل أنت سالم من ناحيتي وزاده خيراً فقال ﴿ سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً ﴾* قال ابن عباس وغيره أي لطيفاً يعني في أن هداني لعبادته والاخلاص له ولهذا قال ﴿ واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً ﴾(٢). وقد استغفر له ابراهيم عليه السلام كما وعده في أدعيته . فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى ﴿ وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن ابراهيم لأواه حليم ﴾(٣).

وقال البخاري : حدثنا اسمٰعيل بن عبد الله ، حدثني أخي عبد الحميد ، عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعصني فيقول له أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون وأيّ خزي أخزى من أبي الأبعد فيقول الله إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال يا إبراهيم ما تحت رجليك فينظر فإذا هو بذبح متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار »(٤)هكذا رواه في قصة إبراهيم منفرداً .

وقال في التفسير وقال إبراهيم بن طهمان عن ابن أبي ذؤيب(٥)عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة * وهكذا رواه النسائي عن احمد بن حفص بن عبد الله عن أبيه عن ابراهيم بن طهمان به . وقد رواه البزار من حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه . وفي سياقه غرابة . ورواه أيضاً من حديث قتادة عن عقبة بن عبد الغافر عن أبي سعيد عن النبي ﷺ بنحوه . وقال تعالى ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة اني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ [الأنعام : ٧٤] هذا يدل على أن اسم أبي إبراهيم آزر وجمهور أهل النسب منهم ابن عباس على أن اسم أبيه تارح وأهل الكتاب يقولون تارخ بالخاء المعجمة فقيل إنه لقب بصنم كان يعبده إسمه آزر *

وقال ابن جرير والصواب أن اسمه آزر ولعل له اسمان علمان أو أحدهما لقب والآخر

---

(١) قال الحسن : يعني بالحجارة وقال الضحاك : بالقول أي لاشتمنك ، وقال ابن عباس : لأضربنك ، وقيل لأظهرن أمرك / القرطبي ١١/ ١١١ ؛ وقال الرازي في الرجم قولان : الرجم باللسان ـ والرجم باليد .

(٢) في القرطبي : أراد بهذا الدعاء أن يهب الله تعالى له أهلاً وولداً يتقوى بهم حتى لا يستوحش بالإعتزال عن قومه ؛ (ومفارقته إياهم) . وقال في تفسير الرازي : في الرجم .

(٣) سورة التوبة الآية ١١٤ .

(٤) فتح الباري ٦٠/٨/ ٣٣٥٠ ورواه ابن عساكر في ٢/ ١٣٧ التهذيب .

(٥) كذا في الأصول وهو تحريف وفي البخاري ابن أبي ذئب ، وقد تقدم قبل قليل .

علم . وهذا الذي قاله محتمل والله أعلم[1]﴾ ثم قال تعالى ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت

(١) يقول الدكتور النجار في قصص الأنبياء معللاً ص ٧٠ ـ ٧١ : « هو أبراهيم خليل الله بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عامر بن شالح بن أرفكشاذ بن سام بن نوح عليه السلام .

هذا هو نسبه الموجود في التوراة والتواريخ . .

وقد جاء في الكتاب الكريم قوله تعالى ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ﴾ .

اختلف المفسرون في اسم أبي إبراهيم ـ فقال بعضهم أن لفظ « آزر » في الآية بدل من لفظ « أب » في « أبيه » . ويكون مقول القول « أتتخذ أصناما آلهة) الخ وقال آخرون اسمه « تارح » وان لفظ « آزر » كلمة ذم في لغته ومعناه « أعرج » قاله السهيلي في التكملة .

وقال آخرون أن معناه الخاطىء والخرف وفي التكملة « يا مخطىء يا خرف » وقيل معناه « يا شيخ » أو هي كلمة زجر عن الباطل « راجع ص ١٢ ج ٣ تاج العروس » .

أقول : بعيد في نظري أن يكون إبراهيم عليه السلام قد واجه أباه بكلمات فيها تحقير أو عيب أو زجر كأعرج وخرف ومخطىء لأن والد إبراهيم عليه السلام لما هدده بقوله (أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا) لم يكن له جواب على هذه الجفوة القاسية وهذا التهديد العنيف إلا أن قال لأبيه (سلام عليك سأستغفر لك ربي أنه كان بي حفيا) .

وقال آخرون : أن تارح اسمه العلم ، وان آزر وصف له كما قال البيضاوي .

أقول : إذا صح أن والد إبراهيم كان له اسم علمي واسم وصفي ، يكون معناه القوي أو الناصر أو المعين ؛ لأن لفظ آزر من الأزر أي القوة والنصر والعون ومنه الوزير أي المعين « تاج العروس ص ١١ ج ٣ » وهي كذلك في اللغات السامية التي منها لغة إبراهيم ، ومن ذلك عازر وعزير وعازر في العبرية . فإن هذه المادة تفيد

التقوية والنصرة والاعانة في تلك اللغة كما هي في اللغة العربية . قال تعالى ﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه . . . الخ ﴾ ومعلوم أن العين والهمزة يتعاوران على موضع واحد .

وفي أسماء ملوك الأشوريين « اسرحدون » ولفظا « اسر » و« ازر » في غاية القرب . وفيهم أيضاً « توخلات ابال ازار » وعلى ذلك فلا يبعد عن علماء الفيلولوجيا وعلماء اللغات السامية على الخصوص أن يثبتوا النسب بين هذه الألفاظ في اللغات السامية .

وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية ما نصه : « آزر » اسم أبي إبراهيم في القرآن ـ سورة الأنعام الآية ٧٤ ـ ويظهر أن في هذا بعض الخلط لأن اسم آزر لم يرد مطلقاً على أنه أبو إبراهيم في غير هذا الموضع . كما أن تارح أو تارخ قد ورد في روايات بعض المؤرخين والمفسرين من المسلمين على أنه أبو إبراهيم أيضاً . ولذلك لجئوا إلى التحاليل للتوفيق بين هاتين الروايتين . ولكن هذا التحايل لا قيمة له .

ويقول مراتشي Prodrani Maracci ، جـ ٤ ـ ص ٩٠ « ان صيغة آزر نشأت عن قراءة خاطئة Agac التي وردت في =

السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم ﴾ [الأنعام : ٧٥ ـ ٨٣] وهذا المقام مقام مناظرة لقومه وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية ولا أن تعبد مع الله عز وجل لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة تطلع تارة وتأفل أخرى فتغيبُ عن هذا العالم والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية بل هو الدائم الباقي بلا زوال لا إله إلّا هو ولا رب سواه فبينّ لهم أولاً عدم صلاحية الكواكب . قيل هو الزهرة لذلك ثم ترقى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسنها . ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء فبين أنها مسخرة مسيّرة مقدّرة مربوبة كما قال تعالى ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ [فصلت : ٣٧] ولهذا قال ﴿ فلما رأى الشمس بازغة ﴾ أي طالعة ﴿ قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً ﴾ [الأنعام : ٧٨ ـ ٨٠]. أي لست أبالي في هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله فإنها لا تنفع شيئاً ولا تسمع ولا تعقل بل هي مربوبة ومسخرة كالكواكب ونحوها أو مصنوعة منحوتة منجورة .

والظاهر أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حران فإنهم كانوا يعبدونها وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيراً كما ذكره ابن اسحٰق وغيره وهو مستند إلى أخبار اسرائيلية لا يوثق بها ولا سيما إذا خالفت الحق * وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام وهم الذين ناظرهم في عبادتها وكسرها عليهم وأهانها وبيّن بطلانها كما قال تعالى ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا . ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً . ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ [العنكبوت : ٢٥] وقال في سورة الأنبياء ﴿ ولقد

تاريخ الكنيسة ليوز بيوس ؛ إلا أنه لم يعين لا هو ولا من نقلوا عنه الفقرة التي ورد فيها هذا الاسم . اضف إلى ذلك أن هذا المؤرخ قد ذكر في مواضع متعددة . ومهما يكن من شيء فإن ما ذهب إليه مراتشي بعيد الاحتمال » .

آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذاً الا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم إن كانوا ينطقون فرجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون. ثم نكسوا على رؤسهم . لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ [الأنبياء : ٥١ ـ ٧٠] وقال في سورة الشعراء ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لي إلا رب العالمين . الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين رب هب لي حكماً والحقني بالصالحين ﴾ [الشعراء : ٦٩ ـ ٨٣] وقال تعالى في سورة الصافات ﴿ وإن من شيعته لأبراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . ائفكاً آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين . فنظر نظرة في النجوم . فقال إني سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضرباً باليمين فأقبلوا إليه يزفون . قال أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون. قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم . فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾ [الصافات : ٨٣ ـ ٩٨] يخبر الله تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقرها عندهم وصغرها وتنقصها فقال﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ أي معتكفون عندها وخاضعون لها قالوا ﴿ وجدنا آبائنا لها عابدين ﴾ما كان حجتهم إلا صنيع الأباء والأجداد وما كانوا عليه من عبادة الأنداد ﴿ قال لقد كنتم . أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ [الأنبياء : ٥٢] كما قال تعالى ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أئفكاً آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين ﴾ قال قتادة : فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره وقال لهم ﴿ هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ سلموا له أنها لا تسمع داعياً ولا تنفع ولا تضر شيئاً وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجهال ولهذا قال لهم ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فانهم عدو لي إلا رب العالمين ﴾ وهذا برهان قاطع على بطلان آلهية ما

ادعوه من الأصنام لأنه تبرأ منها وتنقص بها فلو كانت تضر لضرته أو تؤثر لأثرت فيه ﴿ **قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين** ﴾ يقولون هذا الكلام الذي تقوله لنا وتنتقص به آلهتنا وتطعن بسببه في آبائنا تقوله محقاً جاداً فيه أم لاعباً ﴿ **قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين** ﴾ يعني بل أقول لكم ذلك جاداً محقاً وإنما إلهكم الله الذي لا إله إلاّ هو ربكم ورب كل شيء فاطر السموات والأرض الخالق لهما على غير مثال سبق فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له وأنا على ذلكم من الشاهدين . وقوله ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ أقسم ليكيدن هذه الأصنام التي يعبدونها بعد أن تولوا مدبرين إلى عيدهم . قيل إنه قال هذا خفية في نفسه وقال ابن مسعود سمعه[1] بعضهم . وكان لهم عيد يذهبون إليه في كل عام مرة إلى ظاهر البلد فدعاه أبوه ليحضره[2] فقال إني سقيم كما قال تعالى ﴿ **فنظر نظرة في النجوم . فقال إني سقيم** ﴾ . عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق في بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الإهانة * فلما خرجوا الى عيدهم واستقر هو في بلدهم ﴿ **راغ إلى آلهتهم** ﴾ أي ذهب إليها مسرعاً مستخفياً فوجدها في بهو عظيم وقد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها (فقال) لها على سبيل التهكم والازدراء ﴿ **ألا تأكلون . ما لكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضرباً باليمين** ﴾ لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر فكسرها بقدوم[3] في يده كما قال تعالى ﴿ **فجعلهم جذاذاً** ﴾ أي حطاماً كسرها كلها ﴿ **إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون** ﴾ قيل إنه وضع القدوم في يد الكبير[4] إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار . فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم ﴿ **قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين** ﴾ .

وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون وهو ما حل بآلهتهم التي كانوا يعبدونها فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم ﴿ **من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم** ﴾ أي يذكرها بالعيب والتنقص لها والازدراء بها فهو المقيم عليها والكاسر لها . وعلى قول ابن مسعود أي يذكرهم بقوله وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴿ **قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون** ﴾ أي في الملأ الأكبر على رؤس الأشهاد لعلهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم

---

(١) قال الطبري : فخرجوا إليه خرج معهم إبراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال : إني سقيم . وفي الكامل : لم يخرج معهم ؛ لأنه كان يتوقع فرصة ينتهي بها ليفعل بأصنامهم ذلك (أي تكسيرها) .

(٢) في الكامل والطبري ١ /١٢٢ : سمعه ضعفي الناس ومن هو في آخرهم ١ /٩٦ .

(٣) في الطبري : حديدة ـ وفي الكامل : بفأس في يده ؛ وهي كذلك في رواية للطبري .

(٤) أما في الطبري والكامل : فربط الفأس بيده . (الصنم الأعظم) .

فيقيم على جميع عبّاد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه كما قال موسى عليه السلام لفرعون ﴿ موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾ [طه : ٥٩] فلما اجتمعوا وجاؤوا به كما ذكروا ﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا ﴾ قيل معناه هو الحامل لي على تكسيرها[1] وإنما عرض لهم في القول ﴿ فاسئلوهم إن كانوا ينطقون ﴾ [الأنبياء : ٦٢ - ٦٣] وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾ أي فعادوا على أنفسهم بالملامة فقالوا إنكم أنتم الظالمون أي في تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها ﴿ ثم نكسوا على رؤسهم ﴾ قال السدي أي ثم رجعوا إلى الفتنة فعلى هذا يكون قوله إنكم أنتم الظالمون أي في عبادتها * وقال قتادة أدركت القوم حيرة سوء أي فاطرقوا ثم قالوا ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ أي لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق فكيف تأمرنا بسؤالها فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام ﴿ أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ [البقرة : ٢٥٨] كما قال ﴿ فأقبلوا اليه يزفون ﴾ قال مجاهد يسرعون * قال ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ أي كيف تعبدون أصناماً أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة وتصورونها وتشكلونها كما تريدون ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ وسواء كانت ما مصدرية أو بمعنى الذي فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون وهذه الأصنام مخلوقة فكيف يعبد مخلوق لمخلوق مثله فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم وهذا باطل فالآخر باطل للتحكم إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له ﴿ قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم . فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾ [الصافات : ٩٧ - ٩٨]. عدلوا عن الجدال والمناظرة[2] لما انقطعوا وغلبوا ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم فكادهم الرب جل جلاله وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قال تعالى ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ [الأنبياء : ٦٨ - ٧٠] . وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن فمكثوا مدة يجمعون له حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق ابراهيم * ثم عمدوا إلى جوبة[3] عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم ير مثله قط * ثم وضعوا ابراهيم عليه السلام في كفة منجنيق

---

(١) قال إبراهيم ساخراً منهم : ان هذا الكبير ، الصنم الكبير ، غضب من أن تعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرها . ويتابع الطبري قائلاً : فارعوا ورجعوا عنه فيما ادعوه عليه . ج ١ /١٢٢ .

(٢) أي فلما أعيتهم الحيلة فيه ووجدت موعظته منهم قلوباً غلفاً وأذاناً صماً ، عمدوا إلى ما يلجأ إليه القوي الجبار الذي لاحق معه بإزاء المحق الضعيف .

(٣) الجوبة : الحفرة .

صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له هزن[1]وكان أول من صنع المجانيق فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك فلما وضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً ثم ألقوه منه إلى النار قال حسبنا الله ونعم الوكيل كما روى البخاري عن ابن عباس أنه قال حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد حين قيل له ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً . وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء** ﴾ [آل عمران : ١٧٣] الآية .

وقال أبو يعلى حدثنا أبو هشام الرفاعي حدثنا اسحق بن سليمان عن أبي جعفر الرازي عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال ﷺ : « لما ألقي إبراهيم في النار قال : اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد أعبدك »[2].

وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له في الهواء فقال ألك حاجة فقال أما إليك فلا * ويروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنه قال جعل ملك المطر يقول متى أومر فأرسل المطر فكان أمر الله أسرع ﴿ **قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم** ﴾ [الأنبياء : ٦٩] قال علي بن أبي طالب أي لا تضريه وقال ابن عباس وأبو العالية لولا أن الله قال وسلاماً على إبراهيم لأذى إبراهيم بردها * وقال كعب الأحبار لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار ولم يحرق منه سوى وثاقه * وقال الضحاك يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه لم يصبه منها شيء غيره * وقال السدي كان معه أيضاً ملك الظل . وصار ابراهيم عليه السلام في ميل الجوبة حوله النار وهو في روضة خضراء والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول إليه ولا هو يخرج إليهم فعن أبي هريرة أنه قال أحسن كلمة قالها أبو ابراهيم إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال نعم الرب ربك يا ابراهيم * وروى ابن عساكر[3]عن عكرمة أن أم ابراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام فنادته يا بني إني أريد أن أجيء إليك فادع الله أن ينجيني من حر النار حولك . فقال نعم فأقبلت إليه لا يمسها شيء من حر النار . فلما وصلت اليه اعتنقته وقبلته ثم عادت * وعن المنهال بن عمرو أنه قال أخبرت أن ابراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوماً وأنه قال ما كنت أياماً وليالي أطيب عيشاً إذ كنت فيها ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها صلوات الله وسلامه عليه فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا . قال الله تعالى ﴿ **وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين** ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿ **الأسفلين** ﴾ ففازوا بالخسارة والسفال هذا في

---

(١) في الطبري والكامل : هيزن .

(٢) ورواه ابن عساكر في تاريخه ٢ / ١٤٧ .

(٣) في رواية مطولة تراجع في تاريخه ٢ / ١٤٥ .

الدنيا وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً بل هي كما قال تعالى ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاما ﴾ .

قال البخاري حدثنا عبد الله[1] بن موسى ، أو ابن سلام عنه ، أنبأنا ابن جريج ، عن عبد الحميد بن جبير ، عن سعيد بن المسيب ، عن أم شريك أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ[2] ، وقال : « وكان ينفخ على ابراهيم »* ورواه مسلم من حديث ابن جريج * وأخرجاه والنسائي وابن ماجة من حديث سفيان بن عيينة كلاهما عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة به * وقال أحمد حدثنا محمد بن بكر حدثنا ابن جريج أخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي أمية أن نافعاً مولى ابن عمر أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ قال : « اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم » . قال فكانت عائشة تقتلهن * وقال احمد حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن نافع أن امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب فقالت ما هذا الرمح فقالت نقتل به الأوزاغ . ثم حدثت عن رسول الله ﷺ : « أن ابراهيم لما ألقي في النار جعلت الدواب كلها تطفىء عنه إلا الوزغ فإنه جعل ينفخها عليه » تفرد به أحمد من هذين الوجهين .

وقال أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا جرير ، حدثنا نافع ، حدثتني سمامة[3] مولاة الفاكه بن المغيرة قالت : دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحاً موضوعاً فقلت : يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح قالت هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به فإن رسول الله ﷺ حدثنا : « أن ابراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفىء عنه النار غير الوزغ كان ينفخ عليه فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله[4] » * ورواه ابن ماجة عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يونس بن محمد عن جرير بن حازم به .

ذكر مناظرة ابراهيم الخليل مع من ادّعى الربوبيّة وهو أحدُ العبيد الضعفاء

قال الله تعالى ﴿ ألم تر الى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحي وأميت . قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر . والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [البقرة : ٢٥٨] يذكر تعالى مناظرة

---

(١) في البخاري عبيد الله .

(٢) الوزغ : حشرة يقال لكبيرها : سام أبرص .

(٣) في المسند : سائبة روت عن عائشة وروى عنها نافع وابن عمر وذكرها ابن حبان في الثقات الكاشف ج ٤٢٧/٣ .

(٤) رواه أحمد في مسنده ج ٨٣/٦ ـ ٢٠٠ والبخاري في الفتح ٣٣٥٩/٨/٦٠ ومسلم في صحيحه ٤١/٧ وأبو داود في سننه كتاب الأدب ـ باب قتل الأوزاغ وابن عساكر في تاريخه ١٤٦/٢ تهذيب . بوجوه مختلفة .

خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد الذي أدعى لنفسه الربوبية فأبطل الخليل عليه السلام دليله وبيّن كثرة جهله وقلة عقله وألجمه الحجة وأوضح له طريق المحجة .

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار وهذا الملك هو ملك بابل واسمه النمرود ابن كنعان بن كوش بن سام بن نوح قاله مجاهد . وقال غيره نمرود بن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح قال مجاهد وغيره وكان أحد ملوك الدنيا فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة مؤمنان وكافران . فالمؤمنان ذو القرنين وسليمان . والكافران النمرود وبختنصر وذكروا أن نمرود هذا استمر في ملكه أربعمائة سنة وكان قد طغا وبغا وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا * ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع فحاج إبراهيم الخليل في ذلك وادعى لنفسه الربوبية . فلما قال الخليل ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحي وأميت .

قال قتادة والسدي ومحمد بن اسحق يعني أنه إذا أُتي بالرجلين قد تحتم قتلهما فإذاً أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر . وهذا ليس بمعارضة للخليل بل هو كلام خارجي عن مقام المناظرة ليس بمنع ولا بمعارضة بل هو تشغيب محض وهو انقطاع في الحقيقة فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها [هذا دليل][1]على وجود فاعل ذلك الذي لا بد من استنادها إلى وجوده ضرورة عدم قيامها بنفسها ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها وتسخيرها وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة ثم إماتتها ولهذا ﴿ **قال ابراهيم ربي الذي يحي ويميت** ﴾ فقول هذا الملك الجاهل أنا أحي وأميت إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند وإن عنى ما ذكره قتادة والسدي ومحمد بن اسحق فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل إذ لم يمنع مقدمة ولا عارض الدليل .

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم ذكر دليلاً آخر بين وجود الصانع وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة ﴿ **قال فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب** ﴾ أي هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها . وهو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء * فان كنت كما زعمت من أنك الذي تحي وتميت فات بهذه الشمس من المغرب فإن الذي يحي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء فان كنت كما تزعم فافعل هذا فإن لم تفعله فلست كما زعمت وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا بل أنت أعجز وأقل

(١) زيادة اقتضاها السياق ، ليستقيم بها المعنى .

من أن تخلق بعوضة أو تنصر منها فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه ولم يبق له كلام يجيب الخليل به بل انقطع وسكت ولهذا قال ﴿ فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار ولم يكن إجتمع به يومئذ فكانت بينهما هذه المناظرة * وقد روى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن زيد بن أسلم ، أن النمرود كان عنده طعام ، وكان الناس يفدون إليه للميرة ، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة ، فكان بينهما هذه المناظرة ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطي الناس ، بل خرج وليس معه شيء من الطعام * فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه وقال أشغل أهلي إذا قدمت عليهم فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاماً طيباً فعملت منه طعاماً * فلما أستيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه فقال أنى لكم هذا قالت من الذي جئت به فعرف أنه رزقٌ رزقهموه الله عز وجل * قال زيد بن أسلم وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكاً يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه . ثم دعاه الثانية فأبى عليه . ثم الثالثة فأبى عليه . وقال اجمع جموعك وأجمع جموعي فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس فأرسل الله عليه ذباباً من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودمائهم وتركتهم عظاماً بادية ودخلت واحدة منها في منخر الملك فمكثت في منخرها أربعمائة سنة عذبه الله تعالى بها فكان يضرب رأسه بالمزارب في هذه المدة كلها حتى أهلكه الله عز وجل بها .

هجرة الخليل إلى بلاد الشام ثم الديّار المصرية واستقراره في الأرض المقدسة

قال الله : ﴿ فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم . ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب . وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ [العنكبوت : ٢٦ ـ ٢٧] وقال تعالى : ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ [الأنبياء : ٧١ ـ ٧٣] لما هجر قومه في الله وهاجر من بين أظهرهم وكانت امرأته عاقراً لا يولد لها ولم يكن له من الولد أحد بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين وجعل في ذريته النبوة والكتاب فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله وعقبه خلعة من الله وكرامة له حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه وهاجر الى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل ودعوة الخلق إليه والأرض التي قصدها بالهجرة أرض الشام وهي التي قال الله عز وجل ﴿ الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾

قاله أبي بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم * وروى العوفي عن ابن عباس قوله ﴿ الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ مكة ألم تسمع إلى قوله ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ .

وزعم كعب الأحبار أنها حران * وقد قدمنا عن نقل أهل الكتاب أنه خرج من أرض بابل هو وابن أخيه لوط وأخوه ناحور وامرأة ابراهيم سارة وامرأة أخيه ملكاً فنزلوا حران فمات تارح أبو إبراهيم بها .

وقال السدي انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام فلقي ابراهيم سارة وهي ابنة ملك حران وقد طعنت على قومها في دينهم فتزوجها على أن لا يغيرها رواه ابن جرير[1]وهو غريب * والمشهور أنها ابنة عمه هاران الذي تنسب إليه حران ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط كما حكاه السهيلي عن القتيبي والنقاش فقد أبعد النجعة وقال بلا علم وادعى ان تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعاً فليس له على ذلك دليل . ولو فرض أن هذا كان مشروعاً في وقت كما هو منقول عن الربانيين من اليهود فان الأنبياء لا تتعاطاه والله أعلم * ثم المشهور أن ابراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجراً من بلاده كما تقدم والله أعلم . وذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحى الله اليه إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك فابتنى إبراهيم مذبحاً لله شكراً على هذه النعمة وضرب قبته شرقي بيت المقدس ثم انطلق مرتحلاً إلى التيمن وأنه كان جوع أي قحط وشدة وغلاء فارتحلوا إلى مصر وذكروا قصة سارة مع ملكها وان إبراهيم قال لها قولي أنا أخته وذكروا خدام الملك إياها هاجر . ثم أخرجهم منها فرجعوا الى بلاد التيمن يعني أرض بيت المقدس وما والاها ومعه دواب وعبيد وأموال .

وقد قال البخاري حدثنا محمد بن محبوب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن محمد عن أبي هريرة قال لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ثنتان منهن في ذات الله قوله ﴿ إني سقيم ﴾ وقوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقال بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس فأرسل اليه وسأله عنها فقال من هذه قال أختي فأتى سارة فقال يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ فقال ادعي الله لي ولا أضرك فدعت الله فأطلق ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد فقال ادعي الله لي ولا أضرك فدعا بعض حجبته فقال إنك لم تأتني بإنسان وإنما أتيتني بشيطان فأخدمها هاجر فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده مهيم فقالت رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر * قال أبو هريرة فتلك أمكم يا بني ماء

---

(١) تاريخ الطبري ج ١/١٢٥ .

السماء[1] تفرد به من هذا الوجه موقوفاً * وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار عن عمرو بن علي الفلاس عن عبد الوهاب الثقفي عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن إبراهيم لم يكذب قط إلاّ ثلاث كذبات كل ذلك في ذات الله قوله ﴿ إني سقيم ﴾ وقوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة إذ نزل منزلاً فأتى الجبار فقيل له إنه قد نزل ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس . فأرسل إليه فسأله عنها فقال إنها أختي فلما رجع اليها قال إن هذا سألني عنك فقلت إنك أختي وإنه ليس اليوم مسلم غيري وغيرك وإنك أختي فلا تكذبيني عنده فأنطلق بها فلما ذهب يتناولها أخذ فقال ادعي الله لي ولا أضرك فدعت له فأرسل فذهب يتناولها فأخذ مثلها أو أشد منها . فقال ادعي الله لي ولا أضرك فدعت فأرسل ثلاث مرات فدعا أدنى حشمة فقال إنك لم تأتني بإنسان ولكن أتيتني بشيطان أخرجها وأعطها هاجر فجاءت وإبراهيم قائم يصلي فلما أحس بها انصرف فقال مهيم فقالت كفى الله كيد الظالم وأخدمني هاجر[2]. وأخرجاه من حديث هشام * ثم قال البزار لا نعلم أسنده عن محمد عن أبي هريرة إلاّ هشام ورواه غيره موقوفاً .

وقال الإمام أحمد حدثنا علي بن حفص عن ورقاء هو ابن عمر اليشكري ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يكذب إبراهيم إلاّ ثلاث كذبات قوله حين دعي إلى آلهتهم فقال ﴿ إني سقيم ﴾ وقوله ﴿ بل فُعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله لسارة ﴿ انها أختي ﴾ قال ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فقيل دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس قال فأرسل اليه الملك أو الجبار من هذه معك قال أختي قال فأرسل بها قال فأرسل بها إليه وقال لا تكذبي قولي فإني قد أخبرته أنك أختي إن على الأرض مؤمن غيري وغيرك فلما دخلت عليه قام إليها فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلاّ على زوجي فلا تسلط عليّ الكافر قال فغط حتى ركض برجله * قال أبو الزناد قال أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة إنها قالت اللهم إن يمت يقال هي قتلته قال فأرسل قال : ثم قام إليها قال فقامت تتوضأ وتصلي وتقول اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليّ الكافر قال فغط حتى ركض برجله قال أبو الزناد وقال أبو سلمة عن أبي هريرة انها قالت اللهم ان يمت يقل هي قتلته قال فأرسل قال فقال في الثالثة أو الرابعة ما أرسلتم إليّ إلاّ شيطاناً أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر قال فرجعت فقالت

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠/٨/٣٣٥٨ الفتح) ورواه مسلم في صحيحه (٤٣ كتاب - ح ١٥٤) ورواه أبو داود في سننه والترمذي وأحمد في مسنده ١/٢٨١ - ٢٩٥ ، ٢/٤٠٣ ، ٣/٢٤٤ وأبو داود الطيالسي في مسنده (٢٧١١) .

ومحمد : هو ابن سيرين . قال الحافظ ابن حجر : ان ابن سيرين كان غالباً لا يصرح برفع كثير من حديثه .

(2) روى ابن عساكر نحوه في تاريخه ٢/١٤٣ ، وانظر ما تقدم من تعليق في الحديث الذي قبله .

لإبراهيم أشعرت أن الله رد كيد الكافرين وأخدم وليدة * تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط الصحيح * وقد رواه البخاري عن أبي اليمان عن شعيب بن أبي حمزة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ به مختصراً * وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سفيان عن علي بن زيد بن جدعان عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « في كلمات ابراهيم الثلاث التي قال ما منها كلمة إلاّ ما حل[1]بها عن دين الله فقال إني سقيم وقال بل فعله كبيرهم هذا وقال للملك حين أراد امرأته هي أختي فقوله في الحديث هي أختي أي في دين الله وقوله لها إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك ويتعين حمله على هذا لان لوطاً كان معهم وهو نبي عليه السلام وقوله لها لما رجعت إليه مهيم معناه ما الخبر فقالت إن الله رد كيد الكافرين . وفي رواية الفاجر وهو الملك وأخدم جارية وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلى الملك قام يصلي لله عز وجل ويسأله أن يدفع عن أهله وأن يرد بأس هذا الذي أراد أهله بسوء وهكذا فعلت هي أيضاً فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوئها وصلاتها ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم ولهذا قال تعالى ﴿ واستعينوا بالصبر والصلوة ﴾ [البقرة : ٤٥] فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عليه السلام .

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة سارة وأم موسى ومريم عليهن السلام * والذي عليه الجمهور أنهن صديقات رضي الله عنهن وأرضاهن * ورأيت في بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه وكان مشاهداً لها وهي عند الملك وكيف عصمها الله منه ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته فإنه كان يحبها حباً شديداً لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر فإنه قد قيل إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها رضي الله عنها * ولله الحمد والمنة[2] .

وذكر بعض أهل التواريخ أن فرعون مصر هذا كان أخاً للضحاك الملك المشهور بالظلم وكان عاملاً لأخيه على مصر[3]* ويقال كان اسمه سنان بن علوان بن عبيد بن عويج[4]بن عملاق بن لاود بن سام بن نوح . وذكر ابن هشام في التيجان أن الذي أرادها عمرو بن امرىء القيس بن مايلون بن سبأ وكان على مصر نقله السهيلي فالله أعلم .

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن وهي الأرض المقدسة التي

---

(١) ماحل : جادل ودافع .

(٢) استغل اليهود هذه الحادثة للطعن على إبراهيم عليه السلام كما طعنوا على لوط وداود عليهما السلام .

(٣) ذكره الكامل لابن الأثير : ١٠١/١ والطبري في رواية ١٥١/١ .

(٤) في الكامل لابن الأثير : عولج وفي الطبري فكالأصل .

كان فيها ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل وصحبتهم هاجر القبطية المصرية ثم إن لوطاً عليه السلام نـزح بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك إلى أرض الغور المعروف بغور زغر فنزل بمدينة سدوم[1]وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان وكان أهلها أشراراً كفاراً فجاراً وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل فأمره أن يمد بصره وينظر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض * وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة بل ما كملت ولا كانت أعظم منها في هذه الأمة المحمدية * يؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ « ان الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منه »[2]. قالوا ثم أن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه فلما بلغ[3]أمواله وقتل من أعداء الله ورسوله خلقاً كثيراً وهزمهم وساق في آثارهم حتى وصل إلى شرقي دمشق وعسكر بظاهرها عند برزة وأظن مقام إبراهيم إنما سمي لأنه كان موقف جيش الخليل والله أعلم .

ثم رجع مؤيداً منصوراً إلى بلاده وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين واستقر ببلاده صلوات الله وسلامه عليه .

ذكر مولد اسماعيل عليه السلام من هاجَر

قال أهل الكتاب : إن إبراهيم عليه السلام سأل الله ذرية طيبة وأن الله بشره بذلك وأنه لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشرون سنة قالت سارة لإبراهيم عليه السلام إن الرب قد أحرمني الولد فادخل على أمتي هذه لعل الله يرزقني منها ولداً فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام فحين دخل بها حملت منه قالوا فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاظمت على سيدتها فغارت منها سارة فشكت ذلك إلى إبراهيم فقال لها افعلي بها ما شئت فخافت هاجر فهربت فنزلت عند عين هناك فقال لها ملك من الملائكة لا تخافي فإن الله جاعل من هذا الغلام الذي حملت خيراً

---

(١) في الطبري : ١/١٢٧ : ونزل لوط بالمؤتفكة وهي من السبع (من أرض فلسطين) على مسيرة يوم وليلة ؛ وفي رواية أخرى ١/١٥١ نزل الأردن . وبعثه الله نبياً على المدائن الخمس : سدوم ، وعمورا ، وادموتا ، وصاعورا وصابورا (المسعودي ١ / ٤٢) ونزل إبراهيم السبع من أرض فلسطين / الطبري ـ الكامل .

(٢) أخرجه الطبراني عن سلمان وجابر بن عبدالله . وأخرجه البيهقي في الدلائل ج ٦/٥٢٧ عن أبي أسماء الرحبي عن ثوبان وفيه زيادة قال : وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض واني سألت ربي عز وجل لأمتي الا يهلكها بسنة عامة . . . زوي : جمع . وسنة : قحط وجدب .

(٣) سقط في الكلام ؛ وفي قصص الانبياء لابن كثير : فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار اليهم في ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً فاستنقذ لوطاً عليه السلام واسترجع أمواله . . . .

وأمرها بالرجوع وبشرها أنها ستلد ابناً وتسميه إسماعيل ويكون وحش الناس يده على الكل ويد الكل به ويملك جميع بلاد إخوته فشكرت الله عز وجل على ذلك . وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمد صلوات الله وسلامه عليه فإنه الذي سادت به العرب وملكت جميع البلاد غرباً وشرقاً وأتاها الله من العلم النافع والعمل الصالح ما لم تؤت أمة من الأمم قبلهم وما ذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل وبركة رسالته ويمن بشارته وكماله فيما جاء به وعموم بعثته لجميع أهل الأرض . ولما رجعت هاجر وضعت اسماعيل عليه السلام قالوا وولدته ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة قبل مولد اسحق بثلاث عشرة سنة * ولما ولد اسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشره باسحق من سارة فخر لله ساجداً وقال له قد استجبت لك في اسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته(١) جداً كثيراً ويولد له اثنا عشر عظيماً * وأجعله رئيساً لشعب عظيم وهذه أيضاً بشارة بهذه الأمة العظيمة وهؤلاء الاثنا عشر عظيماً هم الخلفاء الراشدون الاثنا عشر المبشر بهم في حديث عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ قال : « يكون اثنا عشر أميراً » ثم قال كلمة لم افهمها فسألت أبي ما قال قال « كلهم من قريش » أخرجاه في الصحيحين(٢) . وفي رواية لا يزال هذا الأمر قائماً وفي رواية عزيزاً حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش . فهؤلاء منهم الأئمة الأربع أبو بكر وعمر وعثمان وعلي . ومنهم عمر بن عبد العزيز أيضاً . ومنهم بعض بني العباس وليس المراد أنهم يكونون اثني عشر نسقاً بل لا بد من وجودهم وليس المراد الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الرافضة الذين أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا وهو محمد بن الحسن العسكري فيما يزعمون فان أولئك ، يكن فيهم أنفع من علي وابنه الحسن بن علي حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية وأخمد نار الفتنة وسكن رحى الحروب بين المسلمين والباقون من جملة الرعايا لم يكن لهم حكم على الأمة في أمر من الأمور * وأما ما يعتقدونه بسرداب سامرا فذاك هوس في الرؤوس وهذيان في النفوس لا حقيقة له ولا عين ولا أثر .

والمقصود أن هاجر عليها السلام لما ولد لها اسماعيل اشتدت غيرة سارة منها وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها فذهب بها وبولدها فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم ويقال إن ولدها كان إذ ذاك رضيعاً فلما تركهما هناك وولي ظهره عنها قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه وقالت يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ههنا وليس معنا ما يكفينا فلم يجبها فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها قالت له ، الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت فإذاً لا يضيعنا * وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبي زيد رحمه الله في كتاب النوادر أن سارة تغضبت على هاجر فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها فأمرها

(١) كذا في النسخ المطبوعة ، ونسخ قصص الأنبياء لابن كثير ؛ ولعله ونميته وهي أكثر مناسبة للسياق .

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل ج ٦/٥١٩ والبخاري في ٩٣ كتاب الأحكام ٥١ باب الاستخلاف ومسلم في ٣٣ كتاب الإمارة (١) باب الناس تبع لقريش ص ١٤٥٢ .
وأبو داود في أول كتاب المهدي ، وأحمد في المسند ٥/٩٢ .

الخليل أن تثقب أذنيها وأن تخفضها فتبر قسمها[1]* قال السهيلي فكانت أول من اختتن من النساء وأول من ثقبت أذنها منهن وأول من طولت ذيلها .

ذكر مهاجرة ابراهيم بابنه اسماعيل وأمّه هاجر الى جبال فاران وهي ارض مكّة وبنائه البيت العتيق

قال البخاري قال عبد الله بن محمد ـ هو أبو بكر بن أبي شيبة ـ حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر ، عن أيوب السختياني ، وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة ، يزيد أحدهما على الآخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم اسماعيل اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها اسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعها هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفي إبراهيم منطلقاً فتبعته أم اسماعيل فقالت يا إبراهيم : أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنس ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : الله أمرك بهذا ، قال : نعم . قالت إذاً لا يضيعنا . ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال ﴿ ربنا إني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ [ابراهيم : ٣٧] وجعلت أم اسماعيل ترضع اسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى ـ أو قال يتلبط ـ فانطلقت كراهية أن تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعي الانسان المجهود ، حتى إذا جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة ، فقامت عليها ، ونظرت هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات ، قال ابن عباس قال النبي ﷺ : « فلذلك سعى الناس بينهما » . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه ، تريد نفسها . ثم تسمعت فسمعت أيضاً ؛ فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث . فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه ـ أو قال بجناحه ـ حتى ظهر الماء فجعلت تحوّضه وتقول بيدها هكذا . وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهي تفور بعدما تغرف *قال ابن عباس قال النبي ﷺ : « يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم » أو قال : « لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً » فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافي الضيعة ، فإن ههنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت

---

(١) أورده الطبري في تاريخه ١ / ١٣٠ وابن الأثير في الكامل ١ /١٠٣ وفيهما : فمن ثم خفض النساء .

مرتفعاً من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم ، أو أهل بيت من جرهم ، مقبلين من طريق كذا فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً »[1]فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على الماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا ، قال : وأم اسمعيل عند الماء فقالوا تأذنين لنا أن ننزل عندك ، قالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء ، قالوا : نعم * قال عبد الله بن عباس قال النبي ﷺ : « فألقى ذلك أم اسمعيل وهي تحب الانس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم[2]وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم[3]وماتت أم اسمعيل فجاء ابراهيم بعدما تزوج اسمعيل يطالع تركته فلم يجد اسمعيل فسأل امرأته فقالت : خرج يبتغي لنا . ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشر في ضيق وشدة وشكت اليه * قال : فإذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام وقولي له : يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسمعيل ، كأنه آنس شيئاً ، فقال : هل جاءكم من أحد ؟ فقالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة . قال فهل أوصاك بشيء قالت : نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول لك غير عتبة بابك قال ذاك أبي وأمرني أن أفارقك ، فالحق بأهلك ، فطلقها وتزوج منهم أخرى[4]ولبث عنهم ابراهيم ما شاء الله * ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت خرج يبتغي لنا قال كيف أنتم ، وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله فقال ما طعامكم ؟ قالت : اللحم قال فما شرابكم قالت : الماء . قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء .

قال النبي ﷺ : « ولم يكن لهم يومئذ حب[5]. ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه » [قال :] فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلاّ لم يوافقاه[6] . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء اسماعيل قال هل أتاكم من أحد قالت نعم أتانا شيخ حسن ، قال الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير قال : فأوصاك بشيء قالت : نعم هو

---

(١) عائفاً : باحثاً عن الماء .

(٢) أنفسهم : زاحمهم في النفاسة وعلو الهمة .

(٣) وهي جداء بنت سعد ، امرأة من جرهم وهي التي امره أبوه بتطليقها .

(٤) وهي رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، وقيل اسمها السيدة .

(٥) حب ، بكسر الحاء ، إناء من فخار يحفظ فيه الماء .

(٦) كذا العبارة في الأصول والمعنى وغير مكتمل ؛ وفي العرائس للثعلبي ما يكتمل به المعنى : « فلو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو شعير أو تمر لكانت مكة أكثر أرض الله براً وشعيراً وتمراً » . (انظر الكامل لابن الأثير ١/١٠٤ ، الطبري ١/١٣٢) .

يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك ، قال : ذاك أبي وأمرني أن أمسكك * ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك واسمعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمـزم فلما رآه قام إليـه فصنعا كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد * ثم قال يا اسمعيل إن الله أمرني بأمر قال فاصنع ما أمرك به ربك قال : وتعينني قال وأعينك قال فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل اسمعيل يأتي بالحجارة وابراهيم يبني ، حتى إذا ارتفع البناء ، جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني واسمعيل يناوله الحجارة وهما يقولان ﴿ ربنا تقبل منا أنك أنت السميع العليم ﴾ [البقرة:١٢٧] قال وجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ ثم قـال حدثنـا عبد الله بن محمد ، حدثنا أبو عامر عبدالملك بن عمرو ، حدثنا إبـراهيم بن نافـع ، عن كثير بن كثـير ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما كان من ابراهيم وأهله ما كان خرج باسمعيل وأم اسمعيـل ومعهم شنة فيها ماء * وذكر تمامه بنحو ما تقدم وهذا الحديث من كلام ابن عباس وموشح برفع بعضه وفي بعضه غرابة وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات * وفيه أن اسمعيل كان رضيعاً إذ ذاك * وعند أهل التوراة أن إبراهيم أمره الله بأن يختن ولده اسمعيل وكل من عنده من العبيد وغيرهم فختنهم وذلك بعد مضي تسع وتسعين سنة من عمره فيكون عمر اسمعيل يومئذ ثـلاث عشرة سنة وهذا امتثال لأمر الله عز وجل في أهله فيدل على أنه فعله على وجه الوجوب ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء أنه واجب على الرجال كما هو مقرر في موضعه .

وقـد ثبت في الحديث الـذي رواه البخـاري : حـدثنـا قتيبـة بن سعيـد حـدثنـا مغيـرة بن عبـد الرحمن القـرشي عن أبي الزنـاد عن الأعرج عن أبي هـريرة قـال : قال النبي ﷺ : «اختتن إبراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمـانين سنـة بالقـدوم » * تابعـه عبد الـرحمن بن إسحق عن أبي الزناد وتابعه عجلان عن أبي هريرة ورواه محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة * وهكذا رواه مسلم عن قتيبة به * وفي بعض الألفاظ اختتن ابراهيم بعدما أتت عليه ثمانون سنة واختتن بالقدوم . والقدوم هو الآلة وقيل موضع . وهذا اللفظ لا ينافي الزيادة على الثمانين . والله أعلم لما سيأتي من الحديث عند ذكر وفاتـه عن أبي هريـرة عن رسول الله ﷺ أنـه قال : « اختتن ابراهيم وهو ابن مائة وعشرين سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة » . رواه ابن حبان في صحيحه . وليس في هذا السياق ذكر قصة الذبيح وانه اسمعيل ولم يذكر في قد مات[1] ابراهيم عليه السلام إلاّ ثلاث مرات أولاهن بعد أن تزوج إسمعيل بعد موت هاجر ، وكيف تركهم من حين صغر الولد ، على ما ذكر إلى حين تزويجه ، لا ينظر في حالهم . وقد ذكر أن الأرض كانت تطوى له وقيل : إنه كان يركب البراق إذا سار إليهم فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم وهم في غاية الضرورة الشديدة

(١) قدمات : المرات التي قدمها إبراهيم إلى ولده .

والحاجة الأكيدة * وكأن بعض هذا السياق متلقى من الإسرائيليات ومطرز بشيء من المرفوعات ولم يذكر فيه قصة الذبيح وقد دللنا(١) على أن الذبيح هو إسمعيل على الصحيح في سورة الصافات .

قصَّة الذَبيح

قال الله تعالى ﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين . رب هب لي من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه ان يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين . ان هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى اسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ [الصافات : ١١٣] . يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً فبشره الله تعالى بغلام حليم وهو إسماعيل عليه السلام لانه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل . وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل لأنه أول ولده وبكره وقوله ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ أي شب وصار يسعى في مصالحه كأبيه قال مجاهد ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ أي شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل . فلما كان هذا رئى ابراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده * هذا . وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعاً « رؤيا الأنبياء وحي »(٢) * قاله عبيد بن عمير أيضاً وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كبر وقد طعن في السن بعدما أمر بأن يسكنه هو وأمه في بلاد قفر وواد ليس به حسيس ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع فامتثل أمر الله في ذلك وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلا عليه ، فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً ورزقهما من حيث لا يحتسبان . ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفرده عن أمر ربه وهو بكره ووحيده الذي ليس له غيره أجاب ربه ، وامتثل أمره ، وسارع إلى طاعته ، ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً ﴿ قال يا بني اني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ [الصافات : ١٠٢] فبادر الغلام الحليم ، سر والده الخليل إبراهيم ، فقال : ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين ﴾* وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد قال الله تعالى ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ قيل أسلما أي استسلما لأمر الله وعزما على ذلك . وقيل هذا من المقدم والمؤخر والمعنى تله للجبين أي ألقاه على وجهه . قيل أراد أن يذبحه من قفاه

---

(١) في تفسير ابن كثير ؛ راجع سورة الصافات . وسيأتي الحديث عنه في الفصل القادم .

(٢) الحديث في البخاري في رواية طويلة (١٣٨/٥/٤ فتح الباري) .

لئلا يشاهده في حال ذبحه قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك. وقيل بل أضجعه كما تضجع الذبائح وبقي طرف جبينه لاصقاً بالأرض (﴿ واسلما ﴾ أي سمى ابراهيم وكبر وتشهد الولد للموت * قال السدي وغيره أمر السكين على حلقه فلم تقطع شيئاً ويقال جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس والله أعلم . فعند ذلك نودي من الله عز وجل ﴿ أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ أي قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك وبذلك ولدك للقربان كما سمحت ببدنك للنيران وكما مالك مبذول للضيفان ولهذا قال تعالى ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ أي الاختبار الظاهر البين وقوله ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ أي وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى له من العوض عنه .

والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن رآه مربوطاً بسمرة في ثبير . قال الثوري عن عبد الله بن عثمان بن خيثم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً وقال سعيد بن جبير كان يرتع في الجنة حتى تشقق عنه ثبير وكان عليه عهن أحمر[١] . وعن ابن عباس هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه[٢]. رواه ابن أبي حاتم .

قال مجاهد فذبحه بمنى وقال عبيد بن عمير ذبحه بالمقام . فأما ما روي عن ابن عباس أنه كان وعلاً وعن الحسن أنه كان تيساً من الأروى . واسمه جرير فلا يكاد يصح عنهما * ثم غالب ما ههنا من الآثار مأخوذ من الاسرائيليات * وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم والاختبار الباهر وأنه فدى بذبح عظيم وقد ورد في الحديث أنه كان كبشاً .

قال الإمام أحمد ، حدثنا سفيان ، حدثنا منصور عن خاله نافع[٣]، عن صفية بنت شيبة ، قالت : أخبرتني إمرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت : أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة ـ وقال مرة ـ إنها سألت عثمان لم دعاك رسول الله ﷺ قال : إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما[٤]فخمرهما فانه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي . قال : سفيان : لم تزل قرنا الكبش في البيت حتى احترق البيت فاحترقا[٥].

---

(١) العهن : الصوف .
(٢) الخبر في الطبري ج ١٤١/١ ـ ١٤٢ .
(٣) في المسند : مسافع .
(٤) تخمرهما : تغطيهما .
(٥) الحديث في مسند أحمد ج ٦٨/٤ ، ٣٨٠/٥ . وفيه :
ـ صفية بنت شيبة بن عثمان بن أبي طلحة العبدرية حدثت عن عائشة وأم حبيبة ، وفي البخاري صرح بسماعها عن النبي ﷺ وأنكر الدارقطني ذلك . (تقريب التهذيب ٦٠٣/٢) الكاشف ٤٢٩/٣ .

وهذا روي عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة قد يبس . وهذا وحده دليل على أن الذبيح اسمعيل لأنه كان هو المقيم بمكة . واسحق لا نعلم أنه قدمها في حال صغره والله أعلم .

وهذا هو الظاهر من القرآن بل كأنه نص على أن الذبيح هو اسمعيل لأنـه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده ﴿ وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين ﴾ [الصافات : ١١٢] ومن جعله حالا[1] فقد تكلف ، ومستنده أنه إسحق إنما هو اسرائيليات ، وكتابهم فيه تحريف ، ولا سيما ههنا قطعاً لا محيد عنه ، فان عندهم أن الله أمر ابراهيم أن يذبح ابنه وحيده وفي نسخة من المعربة بكره اسحق فلفظة اسحق ههنا مقحمة مكذوبة مفتراة لانه ليس هو الوحيد ولا البكر [انما] ذاك اسمعيل . وإنما حملهم على هذا حسد العرب فإن إسمعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ وإسحق والد يعقوب وهو اسرائيل الذين ينتسبون اليه فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهت ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . وقد قال بأنه اسحق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم[2] . وإنما أخذوه والله أعلم من كعب الاحبار أو صحف أهل الكتاب وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ولا يفهم هذا من القرآن بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل على أنه اسمعيل . وما أحسن ما استدل محمد بن كعب القرظي على أنه اسمعيل وليس باسحق من قوله ﴿ فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحق يعقوب ﴾ [هود : ٧١] قال : فكيف تقع البشارة باسحق ؟ وأنه سيولد له يعقوب ، ثم يؤمر بذبح إسحق ، وهو صغير ، قبل أن يولد له ، هذا لا يكون لانه يناقض البشارة المتقدمة والله أعلم .

وقد اعترض السهيلي على هذا الاستدلال بما حاصله أن قوله ﴿ فبشرناها باسحاق ﴾ جملة تامة وقوله ﴿ ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ جملة أخرى ليست في حيز البشارة . قال لانه لا يجوز من حيث العربية أن يكون مخفوضاً إلا أن يعاد معه حرف الجر فلا يجوز أن يقال مررت بزيد ومن

= منصور بن عبد الرحمن بن طلحة بن الحارث العبدري الحجبي المكي ، وهو ابن صفية بنت شيبة ثقة . تقريب التهذيب ٢٧٦/٢ قال أبو حاتم : صالح الحديث مات سنة ١٣٧ هـ (الكاشف ج ١٥٦/٣) .

(١) أي من جعل كلمة ـ نبياً ـ حال من إسحاق فيكون التبشير به ـ بإسحاق ـ تبشيراً بنبوته لا بولادته .

(٢) قال القرطبي ٩٩/١٥ : واختلف العلماء في المأمور بذبحه ؛ فقال أكثرهم : الذبيح اسحق . وممن قال بذلك : العباس بن عبد المطلب وابنه عبدالله ـ ابن عباس ـ ابن مسعود ـ حماد بن زيد ـ جابر بن عبدالله ـ عبدالله بن عمر ـ عمر بن الخطاب ـ (هؤلاء من الصحابة) ومن التابعين وغيرهم : علقمة الشعبي مجاهد وسعيد بن جبير وكعب الأحبار وقتادة ومسروق وعكرمة وعطاء ومقاتل والسدي والزهري ومالك بن أنس . .

وقال الزجاج : الله أعلم أيها الذبيح ، وهذا مذهب ثالث .

أما المذهب الثاني ؛ فهم من قال : انه إسماعيل .

هو بعده عمرو حتى يقال ومن بعده بعمر. وقال فقوله ﴿ومن وراء إسحق يعقوب﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره ﴿ ووهبنا لاسحق يعقوب ﴾ وفي هذا الذي قاله نظر . ورجح أنه اسحاق واحتج بقوله ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ قال واسماعيل لم يكن عنده إنما كان في حال صغره هو وأمه بحيال مكة فكيف يبلغ معه السعي * وهذا أيضاً فيه نظر لأنه قد روي أن الخليل كان يذهب في كثير من الأوقات راكباً البراق إلى مكة يطلع على ولده وابنه ثم يرجع والله أعلم * فمن حكى القول عنه بأنه اسحق كعب الأحبار * وروي عن عمر والعباس وعلي وابن مسعود ومسروق وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والشعبي ومقاتل وعبيد بن عمر وأبي ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق والزهري والقاسم وابن أبي بردة ومكحول وعثمان بن حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبي الهذيل وابن سابط وهو اختيار ابن جرير وهذا عجب منه وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس ولكن الصحيح عنه وعن أكثر هؤلاء أنه اسماعيل عليه السلام . قال مجاهد وسعيد والشعبي ويوسف بن مهران وعطاء وغير واحد عن ابن عباس هو اسماعيل عليه السلام وقال ابن جرير حدثني يونس أنبأنا ابن وهب أخبرني عمرو بن قيس عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال المفدى اسماعيل وزعمت اليهود أنه اسحق وكذبت اليهود * وقال عبد الله بن الامام احمد عن أبيه هو اسماعيل * وقال ابن أبي حاتم سألت أبي عن الذبيح فقال الصحيح أنه اسماعيل عليه السلام .

قال ابن أبي حاتم وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح أنهم قالوا الذبيح هو اسماعيل عليه السلام * وحكاه البغوي أيضاً عن الربيع بن أنس والكلبي وأبي عمرو بن العلاء * قلت وروي عن معاوية[1] وجاء عنه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله ﷺ . وإليه ذهب عمر بن عبد العزيز ومحمد بن إسحاق بن يسار وكان الحسن البصري يقول لا شك في هذا .

وقال محمد بن اسحاق عن بريدة عن سفيان بن فروة الأسلمي عن محمد بن كعب أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام ، يعني استدلاله بقوله بعد العصمة[2]﴿ فبشرناه باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب ﴾ فقال له عمر إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إلي رجل كان عنده بالشام كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه

---

(١) روى الخبر الحاكم في مستدركه (٢/٥٥١) من طريق عبدالله بن محمد العتبي ، عن عبدالله بن سعيد عن الصنابحي .

قال الذهبي في الرواية : « قلت اسناده واهٍ » . وعلق عليه ابن كثير في التفسير : هذا حديث غريب جداً .

(٢) « بعد العصمة » في النسخ المطبوعة وهو تحريف والصواب : بعد ذكر القصة .

وكان يرى أنه من علمائهم قال فسأله عمر بن عبد العزيز أي ابني ابراهيم أمر بذبحه فقال اسماعيل والله يا أمير المؤمنين وإن اليهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل والذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحق لأن إسحق أبوهم * وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة بأدلتها وآثارها في كتابنا التفسير ولله الحمد والمنة .

مولد اسحاق

قال الله تعالى ﴿ وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين . وباركنا عليه وعلى اسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ [الصافات : ١١٢ ـ ١١٣]* وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهم مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم كما سيأتي بيانه في موضعه ان شاء الله تعالى قال الله تعالى ﴿ ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل اليهم نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا الى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب . قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ [هود : ٦٩ ـ ٧٣] وقال تعالى ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون . قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم . قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون . قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ [الحجر : ٥١ ـ ٥٦].

وقال تعالى ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون . فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه اليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾ [الذاريات : ٢٤ ـ ٣٠].

يذكر تعالى أن الملائكة قالوا وكانوا ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل لما وردوا على الخليل حسبهم أضيافاً فعاملهم معاملة الضيوف شوى لهم عجلاً سميناً من خيار بقره فلما قرّبه اليهم وعرض عليهم لم ير لهم همة الى الأكل بالكلية ، وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام ﴿ فنكرهم ﴾ إبراهيم ﴿ وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا الى قوم لوط ﴾ [هود : ٧٠] أي لندمر عليهم فاستبشرت عند ذلك سارة غضباً لله عليهم وكانت قائمة على رؤس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم فلما ضحكت استبشاراً بذلك قال الله تعالى

﴿ فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب ﴾ أي بشرتها الملائكة بذلك ﴿ فأقبلت امرأته في صرة﴾ أي في صرخة ﴿فصكت وجهها﴾ [الذاريات : ٢٩] أي كما يفعل النساء عند التعجب ﴿ وقالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ﴾ [هود : ٧٢] أي كيف يلد مثلي وأنا كبيرة وعقيم أيضاً وهذا بعلي - أي زوجي - شيخاً تعجبت من وجود ولد والحالة هذه . ولهذا قالت ﴿ إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ [هود : ٧٢ - ٧٣] وكذلك تعجب ابراهيم عليه السلام استبشاراً بهذه البشارة وتثبيتاً لها وفرحاً بها ﴿ قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون . قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ﴾ [الحجر : ٥٤ - ٥٥] أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه فبشروهما ﴿ بغلام عليم ﴾ [الحجر : ٥٣]. وهو إسحق وأخوه اسماعيل غلام حليم مناسب لمقامه وصبره وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر . وقال في الآية الأخرى ﴿ فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب ﴾ وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظي وغيره على أن الذبيح هو اسماعيل وأن اسحق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده .

وعند أهل الكتاب أنه أحضر مع العجل الحنيذ ، وهو المشوي[1]، رغيفاً من مكة فيه ثلاثة أكيال وسمن ولبن . وعندهم أنهم أكلوا ، وهذا غلط محض * وقيل كانوا يودون[2]أنهم يأكلون والطعام يتلاشى في الهواء . وعندهم أن الله تعالى قال لإبراهيم أما سارا امرأتك فلا يدعى اسمها سارا ولكن اسمها سارة وأبارك عليها وأعطيك منها ابناً وأباركه ويكون الشعوب وملوك الشعوب منه ، فخر ابراهيم على وجهه - يعني ساجداً - وضحك قائلاً في نفسه أبعد مائة سنة[3]يولد لي غلام أو سارة تلد وقد أتت عليها تسعون سنة . وقال ابراهيم لله تعالى ليت إسماعيل يعيش قدامك فقال الله لإبراهيم بحقي ان امرأتك سارة تلد لك غلاماً وتدعو اسمه إسحق إلى مثل هذا الحين من قابل وأوثقه ميثاقي إلى الدهر ولخلفه من بعده وقد استجبت لك في اسماعيل وباركت عليه وكبرته ونميته جداً كثيراً ويولد له اثنا عشر عظيماً وأجعله رئيساً لشعب عظيم * وقد تكلمنا على هذا بما تقدم والله أعلم . فقوله تعالى ﴿ فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب ﴾ دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحق ثم من بعده بولد ولده يعقوب أي يولد في حياتها لتقر أعينها به كما قرت بولده . ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحق فائدة ولما عين بالذكر دل على أنهما يتمتعان به ويسران بولده كما سرا بمولد أبيه من قبله وقال تعالى ﴿ ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا ﴾ [الأنعام : ٨٤] وقال تعالى ﴿ فلما اعتزلهم وما

---

(١) قال الطبري : التحناذ : الانضاج .

(٢) كذا في النسخ المطبوعة يودون ، وما في قصص ابن كثير يرون وهو مناسب أكثر .

(٣) في المسعودي : عشرين ومائة سنة وفي الطبري ١٢٠ سنة .

يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب ﴾ [مريم : ٤٩] وهذا ان شاء الله ظاهر قوي ويؤيده ما ثبت في الصحيحين[1]من حديث سليمان بن مهران الأعمش ، عن إبراهيم بن يزيد التيمي ، عن أبيه ، عن أبي ذر ، قال : قلت يا رسول الله أي مسجد وضع [في الأرض][2]أول ؟ قال : « المسجد الحرام » قلت : ثم أي ؟ قال : « المسجد الأقصى » . قلت كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » قلت : ثم أي ؟ قال : « ثم حيث أدركت الصلاة فصلِّ فكلها مسجد » . وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرفه الله . وهذا متجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث فعلى هذا يكون بناء يعقوب وهو اسرائيل عليه السلام بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحق لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا قال في دعائه كما قال تعالى ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم . ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء . الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل واسحق إن ربي لسميع الدعاء . رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ [ابراهيم : ٣٥ ـ ٤١]. وما جاء في الحديث من أن سليمان بن داود عليهما السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالاً ثلاثاً كما ذكرناه عند قوله ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ [الحج : ٢٦ ـ ٢٧] وكما سنورده في قصته فالمراد من ذلك والله أعلم أنه جدد بناءه كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة ولم يقل أحد إن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان في تقاسيمه وأنواعه وهذا القول لم يوافق عليه ولا سبق اليه .

بناء البيت العتيق

قال الله تعالى ﴿ وإذ بوءنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ [الحج : ٢٦ ـ ٢٧] وقال تعالى ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً . ولله على الناس حج البيت من

---

(١) في صحيح مسلم (٥) كتاب المساجد ح ١/ ٥٢٠ ص ١/ ٣٧٠ . والبخاري ح رقم ١٥٨٩ .

(٢) من مسلم . وأولُ : بضم اللام ، وهي ضمة بناء ، لقطعه عن الإضافة . مثل قبلُ وبعدُ . والتقدير أول كل شيء .

استطاع اليه سبيلاً . ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ [آل عمران : ٩٦ - ٩٧] وقال تعالى ﴿ وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن . قال إني جاعلك للناس اماما . قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين . واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا الى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فامتعه قليلاً ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير . واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [البقرة : ١٢٤ - ١٢٦] .

يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله ، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء [إبراهيم] عليه أفضل صلاة وتسليم أنه بنى البيت العتيق الذي هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه وبوأه الله مكانه أي ارشده اليه ودله عليه * وقد روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغيره أنه أرشد إليه بوحي من الله عز وجل . وقد قدمنا في صفة خلق السموات أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث أنه لو سقط لسقط عليها وكذلك معابد السموات السبع ، كما قال بعض السلف إن في كل سماء بيتاً يعبد الله فيه أهل كل سماء وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض فأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يبني له بيتاً يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السموات وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له المعين لذلك منذ خلق السموات والأرض كما ثبت في الصحيحين[1]: « أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة » . ولم يجيء في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام * ومن تمسك في هذا بقوله مكان البيت فليس بناهض ولا ظاهر لأن المراد مكانه المقدر في علم الله المقرر في قدرته المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم*وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبة وأن الملائكة قالوا له : قد طفنا قبلك بهذا البيت وأن السفينة طافت به أربعين[2]يوماً أو نحو ذلك ولكن كل هذه الأخبار عن بني اسرائيل * وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب فلا يحتج بها فأما إن ردها الحق فهي مردودة . وقد قال الله ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ [آل عمران : ٩٦] أي أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى البيت الذي ببكة * قيل مكة وقيل محل الكعبة ﴿ فيه آيات بينات ﴾ [آل عمران - ٩٧] أي على أنه بناء الخليل والد الأنبياء من بعده

---

(١) مسلم في ١٥ كتاب الحج ٨١ - ٨٢ تحريم مكة ح ٤٤٥/١٣٥٣ ص ٢/٩٨٦ من طريق مجاهد عن طاوس عن ابن عباس . والبخاري حديث رقم ٧١٠ .

(٢) في الطبري : أسبوعاً . وفي تاريخ مكة للأزرقي فكالأصل .

وإمام الحنفاء من ولده[1] الذين يقتدون به ويتمسكون بسنته ولهذا قال ﴿مقام إبراهيم﴾ أي الحجر الذي كان يقف عليه قائما لما ارتفع البناء عن قامته فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ليرتفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء كما تقدم في حديث ابن عباس الطويل . وقد كان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأخره عن البيت قليلاً لئلا يشغل المصلين عنده الطائفين بالبيت واتبع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا فإنه قد وافقه ربه في أشياء منها في قوله لرسوله ﷺ لو اتخذنا من مقام ابراهيم مصلى[2] فأنزل الله ﴿ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ﴾ [البقرة: ١٣٥] وقد كانت آثار قدمي الخليل باقية في الصخرة إلى أول الاسلام وقد قال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة .

وثورٍ ومن أرسى ثبيراً مكانه ... وراقٍ لبـرّ في حِراء ونازِل[3]
وبالبيتِ حقّ البيت من بطنِ مكةٍ ... وبالله إنّ الله ليس بغافِل
بالحجرِ المسودّ إذ يمسحُونه ... اذِ اكتنفوهُ بالضّحى والأصائل
بموطىء ابراهيمَ في الصّخرِ رطبةً ... على قدميهِ حافياً غيرَ ناعل

يعني أن رجله الكريمة غاصت في الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لا متنعلة ولهذا قال تعالى ﴿ وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ أي في حال قولهما ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ [البقرة : ١٢٨] فهما في غاية الاخلاص والطاعة لله عز وجل وهما يسألان من الله السميع العليم أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعي المشكور ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ [البقرة : ١٢٨].

والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع في وادٍ غير ذي زرع ودعا لأهلها بالبركة وأن يرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار، وأن يجعله حرماً محرماً وآمناً محتماً فاستجاب الله وله الحمد له مسألته ولبى دعوته وآتاه طلبته فقال تعالى ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ﴾ [العنكبوت : ٦٧] وقال تعالى ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ﴾ [القصص : ٥٧] وسأل الله أن يبعث فيهم رسولاً منهم أي من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة ، لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية سعادة الأولى والأخرى . وقد استجاب الله له فبعث فيهم رسولاً وأي رسول ختم به

---

(١) قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ فيه آيات بينات ﴾ : أثر قدميه في المقام .

(٢) رواه البخاري في صحيحه : فتح الباري ١٢٨/٨ وأحمد في مسنده وذكره السيوطي في الدر المنثور ١١٨/١ ورواه ابن كثير في تفسيره مطولاً

(٣) ثور : الجبل الذي فيه الغار ، وقال الجوهري : جبل بمكة .

أنبياءه ورسله وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحداً قبله وعمّ بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم في سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة . كان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء لشرفه في نفسه وكمال ما أرسل به وشرف بقعته وفصاحة لغته وكمال شفقته على أمته ولطفه ورحمته وكريم محتده[1] وعظيم مولده وطيب مصدره ومورده ولهذا استحق ابراهيم الخليل عليه السلام إذ كان باني الكعبة لأهل الأرض أن يكون منصبه ومحله وموضعه في منازل السموات ، ورفيع الدرجات ، عند البيت المعمور الذي هو كعبة أهل السماء السابعة ، المبارك المبرور ، الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه . ثم لا يعودون إليه الى يوم البعث والنشور ، وقد ذكرنا في التفسير من سورة البقرة صفة بناية البيت وما ورد في ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفاية فمن أراده فليراجعه ثم ولله الحمد .

فمن ذلك ما قال السدي لما أمر الله إبراهيم واسماعيل أن يبنيا البيت ثم لم يدريا أين مكانه حتى بعث الله ريحاً يقال له الخجوج لها جناحان ورأس في صورة حية فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول واتبعاها بالمعاول يحفران ، حتى وضعا الأساس ، وذلك حين يقول تعالى ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ [الحج : ٢٦] فلما بلغا القواعد بنيا الركن قال ابراهيم لاسماعيل يا بني اطلب لي [حجراً حسناً أضعه ها هنا وقال : يا أبت إني كسلان تعب . قال : على ذلك فانطلق . وجاءه جبريل بالحجر][2] الأسود من الهند وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل النعامة[3] وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن . فقال يا أبتي من جاءك بهذا ؟ قال : جاء به من هو أنشط منك فبنيا وهما يدعوان الله : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ وذكر ابن أبي حاتم أنه بناه من خمسة أجبل[4] وأن ذا القرنين وكان ملك الأرض إذ ذاك مر بهما وهما يبنيانه فقال من أمركما بهذا فقال إبراهيم : الله أمرنا به فقال وما يدريني بما تقول فشهدت خمسة أكبش أنه أمره بذلك فآمن وصدق .

وذكر الأزرقي أنه طاف مع الخليل بالبيت[5] . وقد كانت على بناء الخليل مدة طويلة ثم بعد ذلك بنتها قريش فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلي الشام على ما هي عليه

---

(١) محتده : أصله ونسبه .

(٢) ما بين معكوفين سقطت من النسخ المطبوعة ، واستدركناها ـ كما يقتضي السياق ـ من قصص الأنبياء لابن كثير وفي رواية الأزرقي : أن إسماعيل ذهب يطوف في الجبال . . . وفي رواية أخرى : ان إسماعيل اتاه بحجر فلم يرضه إبراهيم فجاءه جبريل بهذا الحجر . وعن عبدالله بن عمرو أن جبريل جاء بالحجر من الجنة .

(٣) في الأصول النعامة وهو تحريف والصواب الثغامة : وهو نبات أبيض .

(٤) في تاريخ مكة : قال قتادة ذكر لنا انه بناه من خمسة أجبل : من طور سيناء ، وطور زيتا ولبنان والجودي وحرا . . ٦٣/١ .

(٥) تاريخ مكة ٧٤/١ .

اليوم * وفي الصحيحين من حديث مالك عن ابن شهاب عن سالم أن عبد الله بن محمد بن أبي بكر أخبر بن عمر عن عائشة أن رسول الله ﷺ : قال « ألم تري إلى قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد ابراهيم » فقلت : يا رسول الله ألا تردها على قواعد ابراهيم ؟ فقال : « لولا حدثان قومك » وفي رواية : « لولا أن قومك حديث[1]عهد بجاهلية » ـ أو قال بكفر ـ لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ولأدخلت فيها الحجر »[2]* وقد بناها ابن الزبير رحمه الله في أيامه على ما أشار اليه رسول الله ﷺ حسبما أخبرته خالته عائشة أم المؤمنين عنه فلما قتله الحجاج في سنة ثلاث وسبعين كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه فأمر بردها إلى ما كانت عليه فنقضوا الحائط الشامي وأخرجوا منها الحجر ثم سدوا الحائط وردموا الأحجار في جوف الكعبة فارتفع بابها الشرقي وسدوا الغربي بالكلية كما هو مشاهد إلى اليوم ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ، ندموا على ما فعلوا ، وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك * ثم لما كان في زمن المهدي بن المنصور ، استشار الإمام مالك بن أنس ، في ردها على الصفة التي بناها ابن الزبير ، فقال له : إني أخشى أن يتخذها الملوك لعبة ـ يعني كلما جاء ملك بناها على الصفة التي يريد ـ فاستقر الأمر على ما هي عليه اليوم .

ذكر ثناء الله ورسوله الكريم على عبده وخليله ابراهيم

قال الله ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما . قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ [البقرة : ١٢٤]. ولما وفى ما أمره ربه به من التكاليف العظيمة جعله للناس إماماً يقتدون به ويأتمون بهديه وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه وباقية في نسبه وخالدة في عقبه فأجيب إلى ما سأل ورام . وسلمت إليه الإمامة بزمام واستثني من نيلها الظالمون واختص بها من ذريته العلماء العاملون . كما قال تعالى ﴿ ووهبنا له اسحق ويعقوب . وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب . وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ [العنكبوت : ٢٧]* وقال تعالى ﴿ ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين . واسمعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين . ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط

---

(١) في البخاري : حديثو .

(٢) أخرجه البخاري في ٢٥/٤٢/١٥٨٣ فتح الباري وبرواية أخرى في ٦٠/١٠/٣٣٦٨ فتح الباري ورواه مسلم في صحيحه ١٥/٦٩/١٣٣٣ ورواه النسائي وأبو داود والترمذي ومالك في الموطأ واحمد في مسنده ٦/١١٣ ـ ١٧٧ ـ ٢٤٧ .

مستقيم ﴾ [الأنعام : ٨٤ ـ ٨٧]. فالضمير في قوله ومن ذريته عائد على إبراهيم على المشهور . ولوط وإن كان ابن أخيه إلّا أنه دخل في الذرية تغليباً . وهذا هو الحامل للقائل الآخر إن الضمير على نوح كما قدمنا في قصته والله أعلم . وقال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ﴾ [الحديد : ٢٦] الآية . فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل فمن ذريته وشيعته . وهذه خلعة سنية لا تضاهى ومرتبة عليه لا تباهى . وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان اسمعيل من هاجر ثم إسحق من سارة وولد لهذا يعقوب وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه سائر أسباطهم فكانت فيهم النبوة وكثروا جداً بحيث لا يعلم عددهم إلّا الذي بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة حتى ختموا بعيسى ابن مريم من بني اسرائيل وأما اسمعيل عليه السلام فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي المكي ثم المدني صلوات الله وسلامه عليه فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة والدرة الزاهرة وواسطه العقد الفاخرة وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة . وقد ثبت عنه في صحيح مسلم كما سنورده أنه قال : « سأقوم مقاماً يرغب إلى الخلق كلهم حتى ابراهيم »[1]فمدح ابراهيم أباه مدحة عظيمة في هذا السياق ودل كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلاق في هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساق .

وقال البخاري حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن منصور عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول : « أن أباكما كان يعوذ بهما اسمعيل وإسحق . أعوذ بكلمات الله التامة . من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة » . ورواه أهل السنن[1]من حديث منصور به وقال تعالى ﴿ وإذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزأ ثم ادعهن يأتينك سعيا . وأعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ [البقرة : ٢٦٠] ذكر المفسرون لهذا السؤال اسباباً بسطناها في التفسير[2]. وقررناها بأتم تقرير * والحاصل أن الله عز وجل أجابه الى ما سأل فأمره أن يعمد إلى أربعة من الطيور واختلفوا في تعينها على أقوال[3]والمقصود

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٦٠/١٠ ٣٣٧١ فتح الباري ؛ وفي كتاب خلق أفعال العباد بروايات متعددة؛ وأحمد في مسنده (١٨١/٢ ـ ٢٩٠ ـ ٣٧٥ ، ٤٣٠/٥ ، ٦/٦) ورواه الترمذي وأبو داود والدارمي ومالك في الموطأ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير الجزء الأول . تفسير سورة البقرة .

(٣) قال ابن إسحاق هي : الديك والطاووس والحمام والغراب وقال ابن عباس : الكركي والنسر بدل الحمام والغراب .

حاصل على كل تقدير فأمره أن يمزق لحومهن وريشهن ويخلط ذلك بعضه في بعض ثم يقسمه قسماً ويجعل على كل جبل منهن جزأ ففعل ما أمر به ثم أمر أن يدعوهن بإذن ربهن فلما دعاهن جعل كل عضو يطير إلى صاحبه وكل ريشة تأتي إلى أختها حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه وهو ينظر إلى قدرة الذي يقول للشيء كن فيكون فأتين اليه سعياً ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيراناً * ويقال إنه أمر أن يأخذرؤوسهن في يده فجعل كل طائر يأتي فيلقي رأسه فيتركب على جثته كما كان فلا إله إلا الله ، وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علماً يقيناً لا يحتمل النقيض ، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عياناً ويترقى من علم اليقين الى عين اليقين ، فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله * وقال تعالى ﴿ **يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل الا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم . فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين** ﴾ [آل عمران : ٦٥ ـ ٦٨] ينكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في دعوى كل من الفريقين كون الخليل على ملتهم وطريقتهم فبرأه الله منهم وبيّن كثرة جهلهم وقلة عقلهم في قوله ﴿ ﴿ **وما أنزلت التوراة والإنجيل الا من بعده** ﴾ أي فكيف يكون على دينكم وأنتم إنما شرع لكم ما شرع بعده بمدد متطاولة ولهذا قال ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ إلى أن قال ﴿ **ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين** ﴾ . فبيّن أنه كان على دين الله الحنيف وهو القصد إلى الاخلاص ، والانحراف وعمداً عن الباطل ، إلى الحق الذي هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية . كما قال تعالى ﴿ **ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي . قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسمعيل واسحق إلهاً واحداً**

---

(١) اختلف الناس في سؤال إبراهيم ربه ﴿ وإذا قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى . . ﴾ هل صدر من إبراهيم عن شك أم لا ؟ فقال الجمهور : لم يكن إبراهيم عليه السلام شاكاً في إحياء الله الموتى قط وإنما طلب المعاينة ؛ وقال الحسن : سأله ليزداد يقيناً إلى يقينه .

والشك فهو توقف بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر ، وذلك هو المنفي عن إبراهيم ؛ والمتأمل سؤاله وسائر ألفاظ الآية ؛ فالاستفهام بكيف إنما هو عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسؤول ، فإنما السؤال عن حال من أحواله . وكيف هنا إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء ، والإحياء متقرر .

قال الرازي : انه إنما سأل ذلك لقومه ، والمقصود أن يشاهده فيزول الإنكار عن قلوبهم . (التفسير الكبير للرازي ـ القرطبي أحكام القرطبي في تفسير سورة البقرة) .

ونحن له مسلمون تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون . وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد أهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون . أم يقولون إن ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٤٠]. فنزه الله عز وجل خليله عليه السلام عن أن يكون يهودياً أو نصرانياً وبيّن أنه إنما كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين ولهذا قال تعالى ﴿ إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه ﴾ [آل عمران : ٦٨]. يعني الذين كانوا على ملته من اتباعه في زمانه ومن تمسك بدينه من بعدهم ﴿ وهذا النبي ﴾ يعني محمداً ﷺ فإن الله شرع له الدين الحنيف الذي شرعه للخليل وكمله الله تعالى له وأعطاه ما لم يعطِ نبياً ولا رسولاً قبله . كما قال تعالى ﴿ قل إنني هداني ربي الى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ [الأنعام : ١٦١ ـ ١٦٣] وقال تعالى ﴿ إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يكن من المشركين . شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم . وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ [النحل :١٢٠ ـ ١٢٣].

وقال البخاري حدثنا ابراهيم بن موسى ، حدثنا هشام ، عن معمر ، عن أيوب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت ورأى إبراهيم وإسمعيل بأيديهما الأزلام فقال قاتلهم الله والله إن[1] يستقسما بالازلام قط[2] لم يخرجه مسلم * وفي بعض ألفاظ البخاري قاتلهم الله لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط[3]. فقوله ﴿ أمة ﴾ أي قدوة إماماً مهتدياً داعياً إلى الخير يقتدى به فيه ﴿ قانتاً لله ﴾ أي خاشعاً له في جميع حالاته وحركاته وسكناته ﴿ حنيفاً ﴾ أي مخلصاً على بصيرة ﴿ ولم يك من المشركين . شاكراً

(١) أي لم يستقسما بالازلام قط ، وإن هنا نافية .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٣٣٥٢/٨/٦٠ فتح الباري ، وأخرجه أبو داود في سننه (٤٦٧/١ حلبي) وفيه : ما استقسما بها قط . وأخرجه أحمد في مسنده ١/ ٣٣٤ ـ ٣٦٥ .

(٣) في الصحيح ١٦٠١/٥٤/٢٥ فتح الباري عن ابن عباس وفيه : لم يستقسما بها قط .

لأنعمه ﴾ أي قائماً بشكر ربه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله ﴿ اجتباه ﴾ أي اختاره الله لنفسه واصطفاه لرسالته واتخذه خليلاً وجمع له بين خيري الدنيا والآخرة وقال تعالى ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلاً ﴾ [النساء :١٢٥]. يرغب تعالى في اتباع إبراهيم عليه السلام لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم . وقد قام بجميع ما أمره به ربه ، ومدحه تعالى بذلك فقال ﴿ وابراهيم الذي وفى ﴾ [النجم ـ ٢٧] ولهذا اتخذه الله خليلاً والخلة هي غاية المحبة كما قال بعضهم .

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلا

وهكذا نال هذه المنزلة[1] خاتم الأنبياء وسيد الرسل[2] محمد صلوات الله وسلامه عليه كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث جندب البجلي وعبد الله بن عمرو وابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أيها الناس إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً » . وقال أيضاً في آخر خطبة خطبها: « أيها الناس لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله »[3]. أخرجاه من حديث أبي سعيد وثبت أيضاً من حديث عبد الله بن الزبير وابن عباس وابن مسعود . وروى البخاري في صحيحه حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن عمرو بن ميمون قال إن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ : واتخذ الله إبراهيم خليلا . فقال رجل من القوم لقد قرت عين أم إبراهيم * وقال ابن مردويه حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم ، حدثنا اسمعيل بن أحمد ابن أسيد ، حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني بمكة ، حدثنا عبد الله الحنفي ، حدثنازمعة بن صالح ، عن سلمة ابن وهرام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم وإذا بعضهم يقول : عجب أن الله اتخذ من خلقه خليلاً فإبراهيم خليله * وقال آخر ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليماً . وقال آخر فعيسى روح الله وكلمته . وقال آخر آدم اصطفاه الله . فخرج عليهم فسلم وقال : « قد سمعت كلامكم وعجبكم أن إبراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى كليمه وهو كذلك ، وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك . ألا وإني حبيب الله ولا فخر ألا وإني أول شافع وأول مشفع ولا فخر وأنا أول من يحرك حلقة باب الجنة فيفتحه الله فيدخلنيها ومعي

---

(١) وفي نسخة : المرتبة .

(٢) وفي نسخة : المرسلين .

(٣) أخرجه البخاري في ٦٣/٤٥/١٩٠٤ فتح الباري و٦٢/٥/٣٦٥٦ في رواية طويلة والدارمي في سننه ، وابن ماجة في سننه مقدمه ١١/٩٣ ، وأحمد في مسنده ١/٢٧٠ ـ ٣٥٩ ، ٣/١٨ ـ ٤٧٨ ، ٤/٤ ـ ٥ ، ٥/٢١٢ . وأخرجه الترمذي ومسلم في ٤٤/١/٢/٧ .

فقراء المؤمنين وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر » * هـذا حديث غـريب من هذا الوجه وله شواهد من وجوه أخر والله أعلم[1]* وروى الحاكم في مستدركه من حـديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال أتنكرون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين * وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمود بن خالد المسلمي ، حدثنا الوليد ، عن اسحاق بن بشار[2]قال : لما اتخذ الله ابراهيم خليلاً ألقى في قلبه الوجل حتى أن كان خفقان قلبه ليسمع من بعد ، كما يسمع خفقان الطير في الهواء ، وقال عبيد بن عمير كان إبراهيم عليه السلام يضيف الناس ، فخرج يوماً يلتمس إنساناً يضيفه فلم يجد احداً يضيفه ، فرجع إلى داره فوجد فيها رجلاً قائماً فقال : يا عبد الله ما أدخلك داري بغير إذني قال دخلتها بأذن ربهـا * قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ملك الموت أرسلني ربي إلى عبد من عباده أبشـره بان الله قـد اتخذه خليلاً قال : من هو فوالله إن أخبرتني به ثم كان بأقصى البلاد لآتينه ثم لا أبرح له جاراً حتى يفرق بيننا الموت ، قال : ذلك العبد أنت ! قال : أنا ، قال : نعم قـال : فبم اتخذني ربي خليـلاً قال بأنك تعطي الناس ولا تسألهم . رواه ابن أبي حاتم * وقد ذكره الله تعالى في القرآن كثيراً في غير ما موضع بالثناء عليه والمدح له فقيل إنه مذكور في خمسة وثلاثين[3]موضعاً منها خمسة عشر في البقرة وحدها وهو أحد أولي العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء في آيتي الأحزاب والشورى وهما قوله تعالى ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً** ﴾ [الأحـزاب : ٧] وقوله ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه** ﴾ [الشورى : ١٣] الآية . ثم هو أشرف أولي العزم بعـد محمد ﷺ وهـو الذي وجده عليه السلام في السماء السابعة مسنداً ظهره بالبيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون اليه آخر ما عليهم . وما وقع في حديث شريك ابن أبي نمر عن أنس في حديث الإسراء من أن ابراهيم في السادسـة وموسى في السـابعة فمما انتقد عـلى شريـك في هذا الحديث والصحيح الأول .

---

(١) أخرج القسم الأخير منه البيهقي بروايات مختلفة راجع دلائل النبوة ج ٥/٤٧٨ وما بعدها .

(٢) بشار تحريف والصواب يسار .

(٣) ذكـر اسم إبـراهيم في القرآن في : البقـرة : ١٢٤ ـ ١٢٥ ـ ١٢٦ ـ ١٢٧ ـ ١٣٠ ـ ١٣٢ ـ ١٣٣ ـ ١٣٥ ـ ١٣٦ ـ ١٤٠ ـ ٢٥٨ ـ ٢٦٠ ، وآل عمـران : ٣٣ ـ ٣٥ ـ ٦٧ ـ ٦٨ ـ ٨٤ ـ ٩٥ ـ ٩٧ ، النسـاء : ٥٤ ـ ١٢٥ ـ ١٦٣ ، الأنعام : ٧٤ ـ ٧٥ ـ ٨٣ ـ ١٥١ ، التوبة : ٧٠ ـ ١١٤ ، هود : ٦٩ ـ ٧٤ ـ ٧٥ ـ ٨٣ ـ ١٥١ ، يـوسف : ٦ ـ ٣٨ ، إبراهيم : ٣٦ ، الحجر : ٥١ ، النحل : ١٢٠ ـ ١٢٣ ، مريم : ٤١ ـ ٤٦ ـ ٥٨ ، الأنبياء : ٥١ ـ ٦٠ ـ ٦٢ ـ ٦٩ . الحج : ٢٦ ـ ٤٣ ـ ٧٨ . الشعراء : ٦٩ ، العنكبوت : ١٦ ـ ٣١ ، الأحزاب : ٧ ، الصـافات : ٨٣ ـ ١٠٤ ـ ١٠٩ ص : ٤٥ ، الشـورى : ١٣ ، الـزخـرف : ٢٦ ، الـذاريـات : ٢٤ ، النجم : ٣٧ ، الحديد : ٢٦ ، الممتحنة : ٤ ، الأعلى : ١٩ .

وقال أحمد : حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا محمد بن عمرو ، حدثنا أبو سلمة ، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم خليل الرحمن » . تفرد به احمد[1].

ثم مما يدل على أن إبراهيم أفضل من موسى الحديث الذي قال فيه : « وأخرت الثالثة ليوم يرغب الى الخلق كلهم حتى إبراهيم » رواه مسلم[2] من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه . وهذا هو المقام المحمود الذي أخبر عنه صلوات الله وسلامه عليه بقوله : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » ثم ذكر إستشفاع الناس بآدم ثم بنوح ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى فكلهم يحيد عنها حتى يأتوا محمداً ﷺ فيقول : « أنا لها أنا لها » الحديث .

قال البخاري حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا عبد الله ، حدثني سعيد[3] عن أبيه عن أبي هريرة قال : قيل يا رسول الله من أكرم[4] الناس ؟ قال : « أتقاهم » . قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : « فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله بن خليل الله » . قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : « فعن معادن[5] العرب تسألوني خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا »[6] وهكذا رواه البخاري في مواضع أخر ومسلم والنسائي من طريق عن يحيى بن سعيد القطان عن عبيد الله وهو ابن عمر العمري به * ثم قال البخاري قال أبو أسامة ومعتمر عن عبيد الله عن سعيد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قلت وقد أسنده في موضع آخر من حديثهما وحديث عبدة ابن سليمان والنسائي من حديث محمد بن بشر أربعتهم عن عبيد الله بن عمر عن سعيد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وقال أحمد حدثنا محمد بن بشر حدثنا محمد بن عمرو حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق ابن ابراهيم خليل الله » . تفرد به أحمد * وقال البخاري حدثنا عبدة حدثنا عبد الصمد بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « الكريم ابن الكريم

---

(١) مسند أحمد ج ٢/٣٢٢ . وأخرج بنحوه البخاري ٦/١٩/٣٣٩٠ وأحمد من رواية ابن عمر ٢/٩٦ .

(٢) أخرجه مسلم في ٦/٤٨/٢٧٣ من حديث طويل ج ١/٥٦١ - ٥٦٢ .
وأخرجه أحمد في مسنده ج ٥/١٢٧ - ١٢٩ .

(٣) في البخاري : . . . حدثنا عبيدالله ، عن سعيد بن أبي سعيد ، وعبيدالله هو - بن سعيد .

(٤) أكرم الناس : قال العلماء : أصل الكرم كثرة الخير ، وقد جمع يوسف ﷺ مكارم الأخلاق مع شرف النبوة مع شرف النسب وكونه نبياً ابن ثلاثة أنبياء متناسلين ؛ وانضم إليه شرف علم الرؤيا وتمكنه فيه وسياسة الدنيا وملكها بالسيرة الجميلة . .

(٥) معادن العرب : أصولها .

(٦) أخرجه البخاري في كتاب المناقب (٦٠) - باب ١٤ ح ٣٣٧٤ . ومسلم في ٤٣/ كتاب الفضائل - ٤٣ باب ح ١٦٨/٢٣٧٨ ص ٤/١٨٤٦ .

ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم » . تفرد بـه من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر به * فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا يحيى عن سفيان حدثني مغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ « يحشر الناس حفاة عراة غرلا فأول من يكسى إبراهيم عليه السلام »[1] ثم قرأ ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] فأخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج كلاهما عن مغيرة بن النعمان النخعي الكوفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به . وهذه الفضيلة المعينة لا تقتضي الأفضلية بالنسبة إلى ما قابلها مما ثبت لصاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون * وأما الحديث الآخر الذي قال الامام أحمد حدثنا وكيع وأبو نعيم حدثنا سفيان هو الثوري عن مختار بن فلفل عن أنس بن مالك قال قال رجل للنبي ﷺ يا خير البرية فقال : « ذاك ابراهيم »[2] فقد رواه مسلم من حديث الثوري وعبد الله بن إدريس وعلي بن مسهر ومحمد بن فضيل أربعتهم عن المختار بن فلفل * وقال الترمذي حسن صحيح * وهذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليل عليه السلام كما قال : « لا تفضلوني على الأنبياء » وقال : « لا تفضلوني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور ؟ » * وهذا كله لا ينافي في ما ثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه من أنه سيد ولد آدم يوم القيامة وكذلك حديث أبي بن كعب في صحيح مسلم[3] « وأخرت الثالثة ليوم يرغب الى الخلق كلهم حتى ابراهيم » . ولما كان ابراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولي العزم بعد محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أمر المصلي أن يقول في تشهده ما ثبت في الصحيحين من حديث كعب بن عجرة وغيره قال : قلنا يا رسول الله هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك « قال قولوا اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل ابراهيم إنك حميد مجيد » وقال تعالى ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ [النجم : ٣٧] قالوا وفي جميع ما أمر به وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار . قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس ﴿ واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ [البقرة : ١٢٤]

---

(١) أخرجه البخاري في ٦٠ كتاب المناقب باب (٨) ح ٣٣٤٩ فتح الباري وأخرجه مسلم في صحيحه ٥٨/١٤/٥١ ورواه الترمذي في سننه وأحمد في مسنده ج ٣/٥ والنسائي في سننه وأبو داود الطيالسي .

(٢) أخرجه مسلم في ٤٣ كتاب الفضائل ٤١ / ١٥٠ وأبو داود في سننه وأحمد في مسنده ج ١٧٨/٣ ـ ١٨٤ .

(٣) تقدم التعليق فليراجع في موضعه .

(٤) مسلم في ٤ كتاب الصلاة ١٧ باب الصلاة على النبي ﷺ ٤٠٦/٦٦ ص ٣٠٥/١ والحديث في البخاري رقم ١٥٩١ .

قال إبتلاه الله بالطهارة خمس في الرأس وخمس فى الجسد . في الرأس قص الشارب والمضمضة والسواك والاستنشاق وفرق الرأس وفي الجسد تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الابط وغسل أثر الغائط والبول بالماء . رواه ابن أبي حاتم * وقال وروي عن سعيد بن المسيب ومجاهد والشعبي والنخعي وأبي صالح وأبي الجلد نحو ذلك قلت : وفي الصحيحين[1] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. قال : « الفطرة خمس الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الابط » * وفي صحيح مسلم[2] وأهل السنن من حديث وكيع عن ذكريا بن أبي زائدة عن مصعب بن شيبة العبدري المكي الحجبي عن طلق بن حبيب العتري عن عبد الله بن الزبير عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « عشر من الفطرة قص الشارب واعفاء اللحية والسواك وإستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم[3] ونتف الابط وحلق العانة وإنتقاص الماء » - يعني الاستنجاء - وسيأتي في ذكر مقدار عمره الكلام على الختان * والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يشغله القيام بالإخلاص لله عز وجل وخشوع العبادة العظيمة عن مراعاة مصلحة بدنه وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين وإزالة ما يشين من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلح[4] أو وسخ فهذا من جملة قوله تعالى في حقه من المدح العظيم ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ .

قصره في الجنّة

قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن سنان القطان الواسطي ، ومحمد بن موسى القطان ، قالا : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة قصراً أحسبه قال من لؤلؤة ليس فيه فصم ولا وهي أعده الله لخليله إبراهيم عليه السلام نزلا » . قال البزار وحدثناه أحمد بن جميل المروزي ، حدثنا النضر بن شميل ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه . ثم قال : وهذا الحديث لا نعلم رواه عن حماد بن سلمة فأسنده إلّا يزيد بن هارون والنضر بن شميل ، وغيرهما يرويه موقوفاً . قلت : لولا هذه العلة لكان على شرط الصحيح ، ولم يخرجوه .

---

(١) مسلم في صحيحه ٢ كتاب الطهارة ١٦ باب خصال الفطرة ح ٥٠ ص ١/٢٢٢ .
وفي البخاري ح رقم ٢٢٩١ ورواه أبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجة ومالك في الموطأ وأحمد في مسنده .

(٢) في ٢ كتاب الطهارة ١٦ باب خصال الفطرة حديث ٥٦/٢٦١ ص ١/٢٢٣ .

(٣) البراجم : جمع برجمة وهي عقد الأصابع ومفاصلها كلها .

(٤) قلح : صفرة الأسنان وسوادها .

صفة ابراهيم عليه السلام

قال الإمام أحمد حدثنا يونس وحجين قالا : حدثنا الليث ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « عرض عليّ الأنبياء فإذا موسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى ابن مريم فاذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود ، ورأيت ابراهيم فاذا أقرب من رأيت به شبهاً دحية . تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه وبهذا اللفظ[1] * وقال أحمد حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا اسرائيل ، عن عثمان ـ يعني ابن المغيرة ـ عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «رأيت عيسى ابن مريم وموسى وابراهيم ، فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر ـ وأما موسى فآدم جسيم » . قالوا له فإبراهيم ؟ قال : « انظروا إلى صاحبكم » يعني نفسه * وقال البخاري حدثنا بنان[2] بن عمرو ، حدثنا النضر ، أنبأنا ابن عون ، عن مجاهد ، أنه سمع ابن عباس وذكروا له الدجال بين عينيه كافراً و (ك ف ر) فقال لم اسمعه ولكنه قال ﷺ : « أما ابراهيم فانظروا إلى صاحبكم وأما موسى فجعد آدم على جمل احمر مخطوم بخلبه كأني انظر إليه انحدر في الوادي » . ورواه البخاري أيضاً ومسلم عن محمد بن المثنى ، عن ابن أبي عدي عن عبد الله بن عون به * وهكذا رواه البخاري أيضاً في كتاب الحج وفي اللباس ومسلم جميعاً عن محمد بن المثنى عن ابن أبي عدي عن عبد الله بن عون به .

وفاة ابراهيم وما قيل في عمره

ذكر ابن جرير في تاريخه أن مولده كان في زمن النمرود بن كنعان وهو فيما قيل الضحاك الملك المشهور الذي يقال إنه ملك ألف سنة وكان في غاية الغشم والظلم * وذكر بعضهم أنه من بني راسب الذين بعث اليهم نوح عليه السلام وأنه كان إذ ذاك ملك الدنيا . وذكروا أنه طلع نجم اخفى ضوء الشمس والقمر فهال ذلك أهل ذلك الزمان وفزع النمرود . فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك فقالوا يولد مولود في رعيتك يكون زوال ملكك على يديه . فأمر عند ذلك بمنع الرجال عن النساء وأن يقتل المولودون من ذلك الحين فكان مولد إبراهيم الخليل في ذلك الحين فحماه الله عز وجل وصانه من كيد الفجار وشب شباباً باهراً وانبته الله نباتاً حسناً حتى كان من أمره ما تقدم وكان مولده بالسوس وقيل ببابل وقيل بالسواد من ناحية كوثى[3] وتقدم عن ابن عباس أنه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ج ٣/٣٢٤ ومسلم في صحيحه ١/٧٤/٢٧١ وفيه زيادة : ورأيت جبرائيل عليه السلام فإذا أقرب ما رأيت به شبهاً دحية . وقبله . . . رأيت إبراهيم . . . شبهاً بصاحبكم (يعني نفسه) .

(٢) في البخاري : بيان بن عمرو .

(٣) تقدم التعليق فليراجع في موضعه .

ولد ببرزة شرقي دمشق فلما أهلك الله نمرود على يديه وهاجر إلى حران ثم إلى أرض الشام وأقام ببلاد إيليا كما ذكرنا وولد له إسماعيل واسحق وماتت سارة قبله بقرية حبرون التي في أرض كنعان ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر أهل الكتاب فحزن عليها ابراهيم عليه السلام ورثاها رحمها الله واشترى من رجل من بني حيث يقال له عفرون بن صخر مغارة بأربع مائة مثقال ودفن فيها سارة هنالك قالوا ثم خطب إبراهيم على ابنه اسحق فزوجه رفقا بنت بتوئيل بن ناحور بن تارح وبعث مولاه فحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجوارها على الابل قالوا ثم تزوج ابراهيم عليه السلام قنطورا[1] فولدت له زمران ويقشان ومادان ومدين وشياق وشوح[2]. وذكروا ما ولد كل واحد من هؤلاء أولاد قنطورا . وقد روى ابن عساكر عن غير واحد من السلف عن أخبار أهل الكتاب في صفة مجيء ملك الموت إلى إبراهيم عليه السلام أخباراً كثيرة الله أعلم بصحتها*وقد قيل إنه مات فجأة وكذا داود وسليمان والذي ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك. قالوا ثم مرض إبراهيم عليه السلام ومات عن مائة وخمس وسبعين*وقيل وتسعين سنة ودفن في المغارة المذكورة التي كانت بحبرون الحيثي عند إمرأته سارة التي في مزرعة عفرون الحيثي وتولى دفنه اسمعيل واسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين * وقد ورد ما يدل أنه عاش مائتي[3] سنة كما قاله ابن الكلبي وقال أبو حاتم بن حبان في صحيحه أنبأنا المفضل بن محمد الجندي بمكة حدثنا علي بن زياد اللخمي حدثنا أبو قرة عن ابن جريج عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « اختتن ابراهيم بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة »[4] وقد رواه الحافظ بن عساكر من طريق عكرمة بن إبراهيم وجعفر بن عون العمري ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد ، عن أبي هريرة موقوفاً .

ثم قال ابن حبان ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن رفع هذا الخبر وهم أخبرنا محمد بن عبد الله بن الجنيد نيست[5] حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا الليث عن ابن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال اختتن إبراهيم حين بلغ مائة وعشرين سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة واختتن بقدوم . وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن سعيد عن ابن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وقد أتت عليه ثمانون سنة . ثم روى ابن حبان عن

---

(١) قطورا بنت يقطن من الكنعانيين ابن الاثير في الكامل والطبري في تاريخه . وقيل تزوج بعدها حجورا بنت أهير .

(٢) ذكر المسعودي ١ /٤٣ الأسماء كالتالي : مرق ـ نفس ـ مدن ـ مدين ـ سنان وسرح .

وفي الطبري : يقسان ، زمران مديان ، يسبق ، سوح ، بسر .

(٣) في الكامل وتاريخ الطبري : مائتي سنة ـ وعند المسعودي : مائة وخمس وتسعين .

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخه ج ٢ /١٤٩ تهذيب .

(٥) هكذا في الأصول ، ولم أجد فيما لدي من مراجع من تسمى من الرجال بهذا الاسم ، وقد ورد محمد بن عبدالله بن نمير ممن روى عن قتيبة ولم يعرف غيره .

عبد الرزاق أنه قال القدوم اسم القرية . قلت الذي في الصحيح أنه اختتن وقد أتت عليه ثمانون سنة * وفي رواية وهو ابن ثمانين سنة وليس فيهما تعرض لما عاش بعد ذلك والله أعلم * وقال محمد بن اسماعيل الحساني الواسطي زاد في تفسير وكيع عنه فيما ذكره من الزيادات حدثنا أبو معاوية ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة قال : كان إبراهيم أول من تسرول وأول من فرق وأول من استحد وأول من اختتن بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة ، وأول من قرى الضيف ، وأول من شاب . هكذا رواه موقوفاً وهو أشبه بالمرفوع خلافاً لابن حبان والله أعلم .

وقال مالك[١] عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال كان إبراهيم أول من أضاف[٢] الضيف،وأول الناس اختتن، وأول الناس قص شاربه[٣] وأول الناس رأى الشيب ، فقال يا رب ما هذا؟ فقال الله [تبارك وتعالى] «وقار [يا إبراهيم]» فقال يا رب زدني وقاراً . وزاد غيرهما وأول من قص شاربه وأول من استحد وأول من لبس السراويل * فقبره وقبر ولده اسحق وقبر ولد ولده يعقوب في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلد « حبرون » وهو البلد المعروف بالخليل اليوم وهذا تلقى بالتواتر أمة بعد أمة وجيل بعد جيل من زمن بني اسرائيل وإلى زماننا هذا أن قبره بالمربعة تحقيقاً . فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن معصوم فينبغي أن تراعي تلك المحلة وأن تحترم احترام مثلها وأن تبجل وأن تجل أن يداس في أرجائها خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد من أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتها * وروى ابن عساكر بسنده إلى وهب بن منبه قال وجد عند قبر ابراهيم الخليل على حجر كتابة خلقة .

الحي جهولاً أمله ... يموتُ مَن جا أجَله
ومَن دنا مِن حتفهِ ... لم تُغنِ عنه حِيَله
وكيفَ يبقى آخر ... مَن ماتَ عنهُ أوله
والمرءُ لا يصحبه ... في القبرِ إلا عملُه

ذكر أولاد ابراهيم الخليل

أول من ولد له : إسماعيل من هاجر القبطية المصرية ، ثم ولد له إسحق من سارة بنت عم الخليل ، ثم تزوج بعدها « قنطوراً » بنت يقطن الكنعانية فولدت له ستة مدين وزمران وسرج ويقشان ونشق ولم يسم السادس ثم تزوج بعدها « حجون » بنت أمين[٤]فولدت له خمسة كيسان

(١) أخرجه مالك في الموطأ ـ باب ما جاء في السنة في الفطرة ح ١٦٦٧/ص ٥١٠ .
(٢) عند مالك : أول الناس ضيف الضيف .
(٣) عند مالك : الشارب .
(٤) في الكامل لابن الأثير : حجون بنت أهير .

وسورج واميم ولوطان ونافس * وهكذا ذكره أبو القاسم السهيلي في كتابه « التعريف والاعلام ».

ومما وقع في حياة ابراهيم الخليل من الأمور العظيمة ، قصة قوم لوط عليه السلام ، وما حل بهم من النقمة الغميمة[1]وذلك أن لوطاً بن هاران بن تارح وهو آزر كما تقدم ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل فإبراهيم وهاران وناحور اخوة كما قدمنا ويقال إن هاران هذا هو الذي بنى حران * وهذا ضعيف لمخالفته ما بأيدي أهل الكتاب والله أعلم * وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وأذنه فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر وكان أم تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم واسوأهم طوية وأرداهم سريرة وسيرة يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم اليها أحد من بني آدم وهي إتيان الذكران من العالمين وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل المستقبحات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم واستمروا على فجورهم وكفرانهم فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم وجعلهم مثلة في العالمين وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم في غير ما موضع من كتابه المبين فقال تعالى في سورة الأعراف ﴿ **ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها أحد من العالمين . أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾ [الأعراف : ٨٠ ـ ٨٤].

وقال تعالى في سورة هود ﴿ **ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل اليهم نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا الى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحق ومن وراء اسحاق يعقوب . قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد . فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب . يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك . وإنهم آتاهم عذاب غير مردود . ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب . وجاءه قومه يهرعون اليه . ومن قبل كانوا يعملون السيئات . قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي أليس منكم رجل رشيد . قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد . قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن**

---

(١) وفي نسخة العميمة ؛ أي الشاملة .

شديد . قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا إمرأتك إنه مصيبها ما أصابهم ان موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ [هود : ٦٩ - ٨٣].

وقال تعالى في سورة الحجر ﴿ ونبئهم عن ضيف ابراهيم اذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون قال لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون . قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . الا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين . إلا امرأته قدرنا أنها لمن الغابرين . فلما جاء آل لوط المرسلون قال إنكم قوم منكرون . قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وآتيناك بالحق وإنا لصادقون . فاسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين . وجاء أهل المدينة يستبشرون . قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون . واتقوا الله ولا تخزون . قالوا أولم ننهك عن العالمين . قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين . لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون . فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن في ذلك لآيات للمتوسمين وانها لبسبيل مقيم . إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ [الحجر : ٥١ - ٧٧].

وقال تعالى في سورة الشعراء ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين * اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين * أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون * قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين * قال إني لعملكم من القالين * رب نجني وأهلي مما يعملون * فنجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزاً في الغابرين ثم دمرنا الآخرين * وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ [الشعراء : ١٦٠ - ١٧٥].

وقال تعالى في سورة النمل ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون * فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين ﴾ [النمل : ٥٤ - ٥٨]. وقال تعالى في سورة العنكبوت ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر * فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب

الله إن كنت من الصادقين . قال رب انصرني على القوم المفسدين * ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية*إن أهلها كانوا ظالمين*قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين * ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون * ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾ [العنكبوت : ٢٨ - ٣٥] وقال تعالى في سورة الصافات ﴿ وإن لوطاً لمن المرسلين * إذ نجيناه وأهله أجمعين . الا عجوزاً في الغابرين * ثم دمرنا الآخرين * وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون ﴾ [الصافات : ١٣٣ - ١٣٧] وقال تعالى في الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنا أرسلنا الى قوم مجرمين * لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين * فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين . وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ [الذاريات : ٣١ - ٣٨]. وقال في سورة الانشقاق ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر * ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر * ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر فذوقوا عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر*﴾ [القمر : ٣٣ - ٤٠].

وقد تكلمنا على هذه القصص في أماكنها من هذه السورة في التفسير * وقد ذكر الله لوطاً وقومه في مواضع أخر من القرآن تقدم ذكرها(١) مع قوم نوح وعاد وثمود * والمقصود الآن ايراد ما كان من أمرهم وما أحل الله بهم مجموعاً من الآيات والآثار وبالله المستعان * وذلك أن لوطاً عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم ولم يتركوا ما عنه نهوا بل استمروا على حالهم ولم يرتدعوا(٢) عن غيهم وضلالهم وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم [واستضعفوه وكثروا منه](٣) وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم اذ كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون ﴾ [النمل : ٥٦] فجعلوا غاية المدح ذماً يقتضي الإخراج وما حملهم على مقالتهم هذه إلاّ العناد واللجاج . فطهره الله وأهله إلا امرأته وأخرجهم منها أحسن اخراج وتركهم في محلتهم خالدين لكن بعدما صيرها عليهم بحرة منتنة ذات أمواج لكنها عليهم في

---

(١) غيرما تقدم ذكر اسم لوط في : الأنعام ٨٦ ، الأنبياء : ٧١ - ٧٤ ، الحج : ٤٣ ، الصافات : ١٣٣ ص : ١٣ ، ق : ١٢ ، التحريم : ١٠ .

(٢) وفي نسخة : ولم يرعووا .

(٣) سقطت من النسخ المطبوعة .

الحقيقة نار تأجج وحر يتوهج وماؤها ملح أجاج . وما كان هذا جوابهم إلاّ لما نهاهم عن [ارتكاب](١) الطامة العظمى والفاحشة الكبرى التي لم يسبقهم اليها أحد من أهل الدنيا(٢)* ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ويأتون في ناديهم وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه حتى قيل إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم ولا يستحيون من مُجالسهم وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستنكفون ولا يرعوون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلاً ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر ولا ندموا على ما سلف من الماضي ولا راموا في المستقبل تحويلاً فأخذهم الله أخذاً وبيلا وقالوا له فيما قالوا ﴿ ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ [العنكبوت : ٢٩] فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم وحلول البأس العظيم فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين فغار الله لغيرته وغضب لغضبته واستجاب لدعوته وأجابه إلى طلبته وبعث رسله الكرام وملائكته العظام فمروا على الخليل ابراهيم وبشروه بالغلام العليم وأخبروه بما جاؤوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا انا ارسلنا إلى قوم مجرمين . لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين ﴾ [الذاريات : ٣١ ـ ٣٤] وقال ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين ﴾ [العنكبوت : ٣١ ـ ٣٤] وقال الله تعالى ﴿ فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ﴾ [هود : ٧٤]. وذلك إنه كان يرجو أن ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا . ولهذا قال تعالى ﴿ إن ابراهيم لحليم أواه منيب . يا إبراهيم اعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ [هود : ٧٥] أي أعرض عن هذا وتكلم في غيره فإنه قد حتم أمرهم ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم ، إنه قد جاء أمر ربك أي قد أمر به ، من لا يرد أمره ، ولا يرد بأسه ، ولا معقب لحكمه ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود .

وذكر سعيد بن جبير والسدي وقتادة ومحمد بن اسحق أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول : * ﴿ أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن قالوا لا قال فمائتا مؤمن قالوا لا قال فاربعون مؤمناً قالوا لا قال فاربعة عشر مؤمناً قالوا لا ﴾ قال ابن اسحق إلى أن قال ﴿ أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد قالوا لا قالوا إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها ﴾ الآية وعند أهل الكتاب أنه قال : يا رب أتهلكهم وفيهم خمسون رجلاً صالحاً فقال الله لا أهلكهم وفيهم خمسون صالحاً ثم تنازل إلى

(١) سقطت من النسخ المطبوعة .
(٢) في نسخة : من العالمين .

عشرة فقال الله ﴿ لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون ﴾ قال الله تعالى ﴿ وقال ولما جاءت رسلنا لوطاً سيىء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب ﴾ قال المفسرون لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صور شبان حسان اختباراً من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم فاستضافوا لوطاً عليه السلام وذلك عند غروب الشمس فخشي إن لم يضفهم يضيفهم غيره وحسبهم بشراً من الناس وسيىء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن اسحق شديد بلاؤه وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم كما كان يصنع بهم في غيرهم وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحداً ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه * وذكر قتادة أنهم وردوا عليه وهو في أرض له يعمل فيها فتضيفوا فاستحيى منهم وانطلق أمامهم وجعل يعرّض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلوا في غيرها فقال لهم: فيما قال[والله][1] يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ثم مشى قليلاً ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات قال وكانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك .

وقال السدي خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قوم لوط فأتوها نصف النهار فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها وكانت له ابنتان اسم الكبرى ريثا والصغرى ذعرتا فقالوا لها يا جارية هل من منزل فقالت لهم مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم فرقت[2]عليهم من قومها فأتت أباها فقالت يا أبتاه أرادك[3]فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم لا يأخذهم قومك فيفضحوهم وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت فخرجت امرأته فأخبرت قومها فقالت إن في بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط فجاءه قومه يهرعون اليه . وقوله ﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ [هود : ٧٧] أي هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة ﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ [هود : ٧٨] يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعاً لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد كما ورد في الحديث وكما قال تعالى ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴾ [الأحزاب : ٦] وفي قول بعض الصحابة والسلف وهو أب لهم . وهذا كقوله ﴿ أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾ [الشعراء : ١٦٥ ـ ١٦٦] وهذا هو الذي نص عليه مجاهد وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة والسدي ومحمد بن اسحق

---

(١) سقطت من النسخ المطبوعة .

(٢) وفي نسخة : شفقة عليهم ، وفي الكامل : خافت عليهم .

(٣) في الكامل : أدرك .

وهو الصواب . والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب وقد تصحف عليهم كما أخطأوا في قولهم إن الملائكة كانوا إثنين وانهم تعشوا عنده وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصة تخبيطاً عظيماً وقوله ﴿ فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ﴾ [هود : ٧٨] نهي لهم عن تعاطي ما لا يليق من الفاحشة وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة ولا فيه خير بل الجميع سفهاء . فجرة أقوياء . كفرة أغبياء . وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوا منه من قبل أن يسألوه عنه . فقال قومه عليهم لعنة الله الحميد المجيد . مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد ﴿ لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما تريد ﴾ [هود : ٧٩] يقولون عليهم لعن الله لقد علمت يا لوط إنه لا أرب لنا في نسائنا وانك لتعلم مرادنا وغرضنا [من غير النساء][(١)]. واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ولم يخافوا سطوة العظيم . ذي العذاب الأليم . ولهذا قال عليه السلام ﴿ لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ﴾ [هود : ٨٠] ود أن لو كان له بهم قوة أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب .

وقد قال الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً : «نحن أحق بالشك من ابراهيم ، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»[(٢)]ورواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة * وقال محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد ـ يعني الله عز وجل ـ فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه »[(٣)]. وقال تعالى ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون قال ان هؤلاء ضيفي فلا تفضحون . واتقوا الله ولا تخزون . قالوا أو لم ننهك عن العالمين . قال هؤلاء بناتي ان كنتم فاعلين ﴾ [الحجر : ٦٧ ـ ٧١] فأمرهم بقربان نسائهم وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيآتهم هذا وهم في ذلك لا ينتهون ولا يرعوون بل كلما لهم[(٤)]يبالغون في تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرصون . ولم يعلموا ما حمّ به القدر مما هم اليه صائرون . وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون ولهذا قال تعالى مقسماً بحياة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ [الحجر : ٧٢] وقال تعالى ﴿ ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾ [القمر ـ ٣٦ ـ ٣٨] ذكر المفسرون وغيرهم أن نبي الله لوطاً عليه السلام جعل

---

(١) سقطت من النسخ المطبوعة .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٦٠ كتاب المناقب باب ١١ ح ٣٣٧٢ فتح الباري وروى ابن ماجة نحوه ورواه أحمد في مسنده ٢/٣٢٦ـ٣٣٢ـ٣٥٠ .

(٣) انظر الدر المنثور ج ٢ /١٨٥ .

(٤) هكذا في الأصول وفي نسخة من قصص الأنبياء لابن كثير : كلما نهاهم .

يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق وهم يرومون فتحه وولوجه وهو يعـظهم وينهاهم من وراء الباب وكل ما لهم في إلحاح وإنحاح فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال [ما قال][1]: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركـن شديـد » لأحللـت بكم النكال * قالت الملائكة ﴿ **يا لوط إنا رسـل ربـك لن يصلوا إليك** ﴾ [هـود : ٨١] وذكروا أن جبـريل عليـه السـلام خـرج عليهم فضـرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم حتى قيل إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر فرجعوا يتجسسون مع الحيطان . ويتوعدون رسول الرحمن ويقولون إذا كان الغد كان لنا وله شأن قال الله تعالى ﴿ **ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونـذر ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر** ﴾ فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط عليهم السلام آمرين له بأن يسري هـو وأهله من آخر الليل ولا يلتفت منكم أحد يعني عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه وأمروه أن يكون سيره في آخرهم كالساقة لهم * وقوله ﴿ **إلا امرأتك** ﴾ على قراءة النصب يحتمـل أن يكون مستثنى من قوله فأسر بأهلك كأنه يقول إلا امرأتك فلا تسر بها . ويحتمل أن يكون من قولـه ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك . أي فانها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم . ويقوي هذا الاحـتمال قراءة الرفع.ولكن الأول أظهر في المعنى والله أعلم .

قال السهيلي واسم امرأة لوط والهة واسم امرأة نوح والغة . وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة الملعونين النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفاً لكل خائن مريب ﴿ **إن موعـدهم الصبح أليس الصبح بقريب** ﴾ [هود : ٨١] فلما خرج لوط عليه السلام بأهله وهم ابنتاه ولم يتبعه منهم رجـل واحد ويقـال إن إمرأتـه خرجت معـه فالله أعلم . فلما خلصـوا من بلادهم وطلعت الشمس فكان عند شروقها جـاءهـم من أمر الله مـا لا يرد . ومن البـأس الشديـد ما لا يمكن أن يصد * وعند أهل الكتاب أن الملائكة أمروه أن يصعد إلى رأس الجبل الذي هناك فاستبعده وسأل منهم أن يذهب إلى قرية قريبة منهم فقالوا اذهب فإنا ننتظرك حتى تصير إليها وتستقر فيها ثم نحل بهم العذاب فذكروا أنه ذهب إلى قرية صغر التي يقول الناس غورزغر فلما أشرقت الشمس نزل بهم العذاب قال الله تعالى ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾ [هود : ٨٢ ـ ٨٣] قالوا اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن وكن سبع مدن[2] بمن فيهن من الأمم فقالوا إنهم كانوا أربع مائة نسمة . وقيل أربعة آلاف[3] نسمـة وما معهم من الحيـوانات ومـا يتبع تلك المـدن من الأراضي والأماكن

---

(١) سقطت من النسخ المطبوعة .

(٢) في الطبري والكامل والمسعودي : خمس قرى ، ذكر المسعودي المدائن الخمس وهي : سدوم ، وعمورا ، وادمونا ، وصاعورا ، وصابورا .

(٣) وفي نسخة : أربعة آلاف ألف نسمة .

والمعتملات فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها قال مجاهد فكان أول ما سقط منها شر فاتها ﴿ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ [الحجر : ٧٤] والسجيل فارسي معرب وهو الشديد الصلب القوي ﴿ منضود ﴾ أي يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم من السماء ﴿ مسومة ﴾ أي معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه كما قال ﴿ مسومة عند ربك للمسرفين ﴾ [الذاريات : ٣٤] وكما قال تعالى ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين ﴾ [الشعراء : ١٧٣] وقال تعالى ﴿ والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى ﴾ [النجم : ٥٣ ـ ٥٤ يعني قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها وغشاها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه من الحاضرين منهم في بلدهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها * ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها ويقال إنها خرجت مع زوجها وبنتيها ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة والتفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديماً وحديثاً وقالت واقوماه فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها إذ كانت على دينهم وكانت عيناً لهم على من يكون عند لوط من الضيفان كما قال تعالى ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾ [التحريم : ١٠] أي خانتاهما في الدين فلم يتبعاهما فيه . وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة حاشا وكلا ولما . فإن الله لا يقدر على نبي أن تبغي امرأته كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف ما بغت امرأة نبي قط * ومن قال خلاف هذا فقد اخطأ خطأ كبيراً . قال الله تعالى في قصة الإفك : لما انزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج رسول الله ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فعاتب الله المؤمنين وأنب وزجر ووعظ وحذر وقال فيما قال ﴿ إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ [النور : ١٥ ـ ١٦] أي سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة * وقوله ههنا ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ أي وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم في فعلهم . ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم سواء كان محصناً أو لا نص عليه الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة واحتجوا أيضاً بما رواه الإمام احمد وأهل السنن من حديث عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به »[1] وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٢/٤٦٨ والترمذي في سننه ١٥/٢٤/١٤٥٦ وابن ماجة .

وعمرو بن أبي عمرو مولى المطلب : لينه ابن معين ، وقال أحمد : ما به بأس . وقال أبو داود : ليس بالقوي . وفي تقريب التهذيب : ثقة ربما وهم ٢/٧٥/٦٤٢ .

لقوله تعالى: ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ . وجعل الله مكان تلك البلاد بحرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها لرداءتها ودناءتها فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه . ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين في انجائه إياهم من المهلكات . وإخراجه إياهم من النور الى الظلمات كما قال تعالى ﴿ ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وان ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ [الشعراء : ٨ ـ ٩] وقال تعالى ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم . ان في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ [الحجر : ٧٣ ـ ٧٧] أي من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم ، كيف غير الله تلك البلاد وأهلها ؟ وكيف جعلها بعدما كانت آهلة عامرة . هالكة غامرة ؟ كما روى الترمذي وغيره مرفوعاً : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »[1] ثم قرأ ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ . وقوله ﴿ وانها لبسبيل مقيم ﴾ [الحجر : ٧٦] أي لبطريق مهيع مسلوك إلى الآن كما قال ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ [الصافات : ١٣٧] وقال تعالى ﴿ ولقد تركناها آية بينة لقوم يعقلون ﴾ [العنكبوت : ٣٥] وقال تعالى ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ [الذاريات : ٣٥ ـ ٣٧] أي تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الأخرة وخشي الرحمن بالغيب وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فانزجر عن محارم الله وترك معاصيه وخاف أن يشابه قوم لوط ﴿ ومن تشبه بقوم فهو منهم ﴾ وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض الوجوه كما قال بعضهم :

فان لم تكونوا قوم لوط بعينهم ... فما قوم لوط منكم ببعيد

فالعاقل اللبيب الخائف من ربه الفاهم يمتثل ما أمره الله به عز وجل ويقبل ما أرشده اليه رسول الله من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال . والجواري من السراري ذوات الجمال . وإياه أن يتبع كل شيطان مريد . فيحق عليه الوعيد . ويدخل في قوله تعالى ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ .

---

(١) سنن الترمذي ٣١٢٧/١٦/٤٨ عن أبي سعيد الخدري وقال : هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه ، وقد روي عن بعض أهل العلم ، وقال في المتوسمين : المتفرسين .
ورواه ابن حجر في لسان الميزان (٥/ ١١٥٤) والقرطبي في أحكامه (١/ ٤٣) ورواه الأصفهاني في حلية الأولياء ٤/ ٩٤ والسيوطي في الدر المنثور ١٠٣/٤ والذهبي في الطب النبوي ص ١١٢ . والطبراني في المعجم الكبير ١٢١/٨ .

قصّة مدين قوم شعيب عليه السّلام[1]

قال الله تعالى في سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره قد جائتكم بينة من ربكم فاوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون . وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وان كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين . قد أفترينا على الله كذبا ان عدنا في ملتكم بعد اذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً . على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم اذا لخاسرون . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين . فتولى عنهم وقال يا قوم لقد ابلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ [الأعراف : ٨٣ ـ ٩٥] .

وقال في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضاً : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشيائهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين . وما أنا عليكم بحفيظ . قالوا يا شعيب أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء . إنك لأنت الحليم الرشيد . قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه إن ربي رحيم ودود . قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز . قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه ورائكم ظهريا إن ربي بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على

---

(١) ذكر شعيب في القرآن في : الأعراف : ٨٥ ـ ٨٨ ـ ٩٠ ـ ٩٢ وفي سورة هود : ٨٤ ـ ٨٧ ـ ٩٠ ـ ٩٥ ، وفي الشعراء : ١٧٧ وفي العنكبوت : ٣٦ .

مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب . ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾ [هود : ٨٤ ـ ٩٥]. وقال في الحجر بعد قصة قوم لوط أيضاً . ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وانهما لبامام مبين ﴾ [الحجر : ٧٨ ـ ٧٩] وقال تعالى في الشعراء بعد قصتهم ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين اذ قال لهم شعيب ألا تتقون إني لكم رسول امين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين . اوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . واتقوا الله الذي خلقكم والجبلة الأولين . قالوا انما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين . قال ربي أعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ [الشعراء : ١٧٦ ـ ١٩١].

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مدين التي هي قرية[١]من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط . وكانوا بعدهم بمدة قريبة . ومدين قبيلة عرفت بهم القبيلة[٢]وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل وشعيب نبيهم هو ابن ميكيل[٣]بن يشجن ذكره ابن اسحاق قال ويقال له بالسريانية بنزون[٤]وفي هذا نظر ويقال شعيب بن يشخر بن لاوي بن يعقوب ويقال شعيب بن نويب بن عيفا بن مدين بن ابراهيم ويقال شعيب بن ضيفور بن عيفا[٥]بن ثابت بن مدين بن ابراهيم وقيل غير ذلك في نسبه .

قال ابن عساكر ويقال جدته ويقال أمه بنت لوط . وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق وعن وهب ابن منبه أنه قال شعيب وملغم ممن آمن بإبراهيم يوم أحرق بالنار وهاجرا معه الى الشام فزوجهما بنتي لوط عليه السلام . ذكره ابن قتيبة * وفي هذا كله نظر أيضاً والله أعلم .

وذكر أبو عمر بن عبد البر في الإستيعاب في ترجمة سلمة بن سعد العنزي [انه] : قدم على رسول الله ﷺ فأسلم وانتسب إلى عنزة فقال : « نعم الحي عنزة مبغي عليهم منصورون قوم

---

(١) وفي نسخة قرية ، وهو الصواب .

(٢) وفي نسخة أخرى : مدينة عرفت بها القبيلة ، وهو الصواب .

(٣) في الطبري ١٦٧/١ : ميكائيل .

(٤) في الطبري : يثرون .

(٥) في الطبري : بن صيفون بن عنقا .

شعيب وأختان[1] موسى » . فلو صح هذا لدل على أن شعيباً من[2] موسى وأنه من قبيلة من العرب العاربة يقال لهم عنزة لا أنهم من عنـزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معـد بن عدنـان فإن هؤلاء بعده بدهر طويل والله أعلم .

وفي حديث أبي ذر الذي في صحيح ابن حبان في ذكـر الأنبياء والـرسل قـال : « أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر » وكان بعض السلف يسمي شعيباً خطيب الأنبياء يعني لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته * وقد روى ابن اسحاق بن بشر ، عن جويبر ومقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيباً قال : « ذاك خطيب الأنبياء » وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها وكانوا من أسوء الناس معاملة يبخسـون المكيال والميـزان ويطففون فيها يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشيائهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم حتى أحل الله بهم البأس الشديد وهو الولي الحميد . كما قال تعالى ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيباً . قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جائتكم بينة من ربكم** ﴾ [الشعراء : ٨٥] أي دلالة وحجة واضحة وبرهـان قاطـع على صـدق ما جئتكم بـه وإنه أرسلني وهـو ما أجـرى الله على يـديه من المعجزات التي لم تنقل إلينا تفصيلاً وان كان هذا اللفظ قد دل عليها إجمالاً ﴿ **فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشيائهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحهـا** ﴾ [الأعراف : ٨٥] أمـرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم وتوعدهم على خلاف ذلك فقال ﴿ **ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ولا تقعدوا بكل صراط** ﴾ [الاعراف : ٨٦] أي طريق ﴿ **توعـدون** ﴾ أي تتوعـدون الناس بـأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك وتخيفون السبل * قال السدي في تفسيره عن الصحابة ﴿ **ولا تقعدوا بكل صراط توعـدون** ﴾ أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة * وقال اسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال كانوا قوماً طغاة بغـاة يجلسون عـلى الطريق ﴿ **يبخسـون الناس** ﴾ يعني يعشرونهم وكانوا أول من سن ذلك ﴿ **وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا** ﴾ [الأعراف : ٨٦] فنهاهم عن قطع الطريـق الحسيـة الدنيوية والمعنوية الدينية ﴿ **واذكروا اذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عـاقبة المفسـدين** ﴾ ذكرهم بنعمـة الله تعالى عليهم في تكثيرهم بعد القلة وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم اليه ودلهم عليه كما قال لهم في القصة الأخرى ﴿ **ولا تنقصـوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخـاف عليكم عذاب يـوم**

---

(١) أختان موسى : أصهار موسى . وفي الإستيعاب : وأحبار موسى .

(٢) وفي نسخة : صهر موسى .

محيط ﴾ [هود : ٨٤] أي لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه فيمحق[1]الله بركة ما في أيديكم[2]ويفقركم ويذهب ما به يغنيكم . وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة ومن جمع له هذا وهذا فقد باء بالصفقة الخاسرة . فنهاهم أولاً عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم وعذابه الأليم في أخراهم وعنفهم أشد تعنيف . ثم قال لهم آمراً بعدما كان عن ضده زاجراً ﴿ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشيائهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ [هود : ٨٦] قال ابن عباس والحسن البصري ﴿ بقيت الله خير لكم ﴾ أي رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس * وقال ابن جرير ما فضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف . قال وقد روي هذا عن ابن عباس وهذا الذي قاله وحكاه حسن وهو شبيه بقوله تعالى ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو اعجبتك كثرة الخبيث ﴾ [المائدة : ١٠٠] يعني أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام فإن الحلال مبارك وإن قل والحرام ممحوق وإن كثر كما قال تعالى ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات ﴾ [البقرة : ٢٧٦] وقال رسول الله ﷺ : « إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلى قُل » رواه أحمد[3]أي إلى قلة ، وقال رسول الله ﷺ : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » * والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل والحرام لا يجدي وإن كثر ولهذا قال نبي الله شعيب ﴿ بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ وقوله ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أي افعلوا ما آمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه لا لأراكم أنا وغيري ﴿ قالوا يا شعيب أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء انك لأنت الحليم الرشيد ﴾ [هود : ٧٨] يقولون هذا على سبيل الإستهزاء والتنقص والتهكم أصلاتك هذه التي تصليها هي الآمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلاّ إلهك ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون[5]؟ أو أن لا نتعامل إلاّ على الوجه الذي ترتضيه أنت ونترك المعاملات التي تأباها وإن كنا نحن نرضاها ؟ ، ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج وزيد بن أسلم وابن جرير يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء . ﴿ قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسناً وما

---

(١) يمحق : يمحي .

(٢) وفي نسخة : ما بأيديكم .

(٣) مسند أحمد ج ١/٣٩٠ و ٤٢٤ .

(٤) ورواه الحاكم في المستدرك ٢/٣٧ ، ٤/٣١٧ ، وصححه ووافقه الذهبي . وابن ماجة في سننه رقم ٢٢٧٩ . وأحمد في مسنده ج ٢/١٨٣ .

(٥) رواه مسلم في ٢١/٤٣/٤٧ والبخاري في ٣٤/١٩ ـ ٤٢ ـ ٤٣ فتح الباري وأحمد في مسنده ٣/٤٠٢ ـ ٤٠٣ ـ ٤٣٤ ورواه أصحاب السنن : أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والدارمي . ورواه مالك في الموطأ .

أريد ان أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ [هود : ٨٨] هذا تلطف معهم في العبارة ، ودعوة لهم إلى الحق بنأبين إشارة . يقول لهم : « أرأيتم » أيها المكذبون ﴿ ان كنت على بينة من ربي ﴾ أي على أمر بيّن من الله تعالى أنه أرسلني إليكم ﴿ ورزقني منه رزقا حسناً ﴾ يعني النبوة والرسالة يعني وعمى عليكم معرفتها فأي حيلة لي بكم . وهذا كما تقدم عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه سواء . وقوله ﴿ وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ﴾ أي لست آمركم بالأمر إلاّ وأنا أول فاعل له وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه وهذه هي الصفة المحمودة العظيمة وضدها هي المردودة الذميمة كما تلبس بها علماء بني اسرائيل في آخر زمانهم وخطباؤهم الجاهلون * قال الله تعالى ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ [البقرة : ٤٤] وذكر عندها في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يؤتى بالرجل فيلقى النار فتندلق أقتاب بطنه ـ أي تخرج أمعاؤه من بطنه ـ فيدور بها كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى. كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه »* وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء فأما السادة من النجباء والألباء من العلماء ، الذين يخشون ربهم بالغيب ، فحالهم كما قال نبي الله شعيب ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ان أريد إلا الاصلاح ما استطعت ﴾ أي ما اريد في جميع أمري إلاّ الإصلاح في الفعال والمقال بجهدي وطاقتي ﴿ وما توفيقي ﴾ أي في جميع أحوالي ﴿ إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب ﴾ أي عليه أتوكل في سائر الأمور واليه مرجعي ومصيري في كل أمري وهذا مقام ترغيب . ثم انتقل إلى نوع من الترهيب فقال ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ [هود : ٨٩] أي لا تحملنكم مخالفتي وبغضكم ما جئتكم به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم فيحل الله بكم من العذاب والنكال نظير ما أحله بنظرائكم وأشباهكم من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين . وقوله ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ قيل معناه في الزمان أي ما بالعهد من قدم مما قد بلغكم ما أحل بهم على كفرهم وعتوهم * وقيل معناه وما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان . وقيل في الصفات والأفعال المستقبحات من قطع الطريق وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشبهات . والجمع بين هذه الأقوال ممكن فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زماناً ولا مكاناً ولا صفات ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه إن ربي رحيم ودود ﴾ [هود : ٩٠] أي أقلعوا عما أنتم فيه وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود فإنه من تاب إليه تاب عليه فإنه رحيم بعباده أرحم بهم من الوالدة بولدها ودود وهو الحبيب ولو بعد التوبة على عبده ولو من الموبقات العظام ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ [هود : ٩١] روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثوري أنهم قالوا كان ضرير

البصر * وقد رويَ في حديث مرفوع أنه بكى من حب الله حتى عمي فرد الله عليه بصره . وقال يا شعيب أتبكي خوفاً من النار أو من شوقك إلى الجنة فقال : بل من محبتك فإذا نظرت إليك فلا أبالي ماذا يصنع بي فأوحى الله اليه هنيئاً لك يا شعيب لقاني فلذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمي * رواه الواحدي عن أبي الفتح محمد بن علي الكوفي عن علي بن الحسن بن بندار عن أبي عبد الله محمد بن اسحق التربلي[1]، عن هشام بن عمار ، عن إسمعيل بن عباس عن يحيى بن سعيد ، عن شداد بن أمين[2]، عن النبي ﷺ بنحوه ، وهو غريب جداً ، وقد ضعفه الخطيب البغدادي * وقولهم ﴿ ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴾ [هود : ٩١] وهذا من كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع حيث قالوا ﴿ ما نفقه كثيراً مما تقول ﴾ أي ما نفهمه ولا نتعقله لأنا لا نحبه ولا نريده وليس لنا همة اليه ولا إقبال عليه وهو كما قال كفار قريش لرسول الله ﷺ : ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾ [فصلت : ٥] وقولهم ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفا ﴾ أي مضطهداً مهجوراً ﴿ ولولا رهطك ﴾ أي قبيلتك وعشيرتك فينا ﴿ لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴾. ﴿ قال يا قوم ارهطي أعز عليكم من الله ﴾ [هود : ٩٢] أي تخافون قبيلتي وعشيرتي وترعوني بسببهم ، ولا تخافون جنبة[3]الله ولا تراعوني لأني رسول الله فصار رهطي أعز عليكم من الله ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهريا ﴾ أي جانب الله وراء ظهوركم ﴿ إن ربي بما تعملون محيط ﴾ [هود : ٩٢] أي هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه ، محيط بذلك كله وسيجزيكم عليه يوم ترجعون اليه . ﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا اني معكم رقيب ﴾ [هود : ٩٣] وهذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد ، بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار . ومن يحل عليه الهلاك والبوار ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أي في هذه الحياة الدنيا ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ أي في الأخرى ﴿ ومن هو كاذب ﴾ أي مني ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر ﴿ وارتقبوا اني معكم رقيب ﴾ وهذا كقوله ﴿ وان كان طائفة منكم آمنوا بالذي ارسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾ [الأعراف : ٨٧]. ﴿ قال الملأ[4]الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ [الأعراف :

---

(١) وفي نسخة الرملي .

(٢) ابن امين تحريف ، وفي نسخة ابن أوس .

(٣) وفي نسخة : عذاب الله .

(٤) الملأ : أشراف القوم وسادتهم وكبراؤهم .

٨٨ ـ ٨٩] طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم الى ملتهم ، فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه فقال : ﴿ **أو لو كنا كارهين** ﴾ أي هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً وإنما يعودون اليه إن عادوا اضطراراً مكرهين ، وذلك لأن الايمان إذا خالطته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد ولا يرتد أحد عنه ولا محيد لأحد منه . ولهذا قال ﴿ **قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا** ﴾ أي فهو كافينا وهو العاصم لنا وإليه ملجاؤنا في جميع أمرنا ثم استفتح على قومه واستنصر ربه عليه في تعجيل ما يستحقونه اليهم فقال ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾ أي الحاكمين ، فدعا عليهم والله لا يرد دعاء رسله اذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه ورسوله خالفوه . ومع هذا صمموا على ما هم عليه مشتملون ، وبه متلبسون ﴿ **وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم اذاً لخاسرون** ﴾ [الأعراف : ٩٠] قال الله تعالى: ﴿ **فأخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ [الأعراف : ٩١] ذكر في سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة أي رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالاً شديداً أزهقت أرواحهم من أجسادها وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها وأصبحت جثثهم جاثية لا أرواح فيها ولا حركات بها ولا حواس لها * وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات وصنوفاً من المثلات وأشكالاً من البليات وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات . ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها في سباق قصة الأعراف ارجفوا نبي الله وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودن في ملتهم راجعين فقال تعالى ﴿ **فأخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ فقابل الإرجاف بالرجفة والاخافة بالخيفة وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق * وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والإستهزاء والتنقص ﴿ **أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد أباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء انك لأنت الحليم الرشيد** ﴾ [هود : ٨٧] فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة اسكنتهم . وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة . وكان ذلك إجابة لما طلبوا . وتقريباً إلى ما إليه رغبوا . فإنهم قالوا ﴿ **إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فاسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين . قال رب أعلم بما تعملون** ﴾ [الشعراء : ١٨٥ ـ ١٨٨] قال الله تعالى ﴿ **وهو السميع العليم فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم** ﴾ [الشعراء : ١٨٩] ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف . وإنما عمدتهم شيئان : أحدهما أنه قال : ﴿ **كذب**

أصحاب الأيكة المرسلين اذ قال لهم شعيب ﴾ ولم يقل أخوهم كما قال : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾. والثاني أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة والجواب عن الأول أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ﴾ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة فلا يناسب ذكر الأخوة ههنا ولما نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم * وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة * وأما إحتجاجهم بيوم الظلة فإن كان دليلاً بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان وهذا لا يقوله أحد يفهم شيأ من هذا الشأن * فأما الحديث الذي أورده الحافظ ابن عساكر في ترجمة النبي شعيب عليه السلام من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام عن هشام بن سعد عن شفيق بن أبي هلال عن ربيعة بن سيف عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله اليهما شعيباً النبي عليه السلام ». فإنه حديث غريب وفي رجاله من تكلم فيه * والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بني اسرائيل والله أعلم *

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان فدل على أنهم أمة واحدة أهلكوا بأنواع من العذاب * وذكر في كل موضع ما يناسب من الخطاب . وقوله ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ ذكروا أنهم أصابهم حر شديد وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ولا دخولهم في الأسراب فهربوا من محلتهم إلى البرية فأظلتهم سحابة ، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها ، فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب ، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة من السماء ، فأزهقت الأرواح ، وخربت الاشباح. ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾ [الأعراف : ٩١ - ٩٢]. . ﴿ ونجى الله شعيباً ومن معه من المؤمنين ﴾، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾ [هود : ٩٤ - ٩٥] . وقال تعالى ﴿ وقال الملأ من قومه لئن إتبعتم شعيبا إنكم اذا لخاسرون . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيبا كان لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾ [الأعراف : ٩٠ - ٩٢]. وهذا في مقابلة قولهم ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم اذا لخاسرون ﴾ [الأعراف : ٩٣] ثم ذكر تعالى عن نبيهم أنه نعاهم إلى أنفسهم موبخاً ومؤنباً ومقرعاً فقال تعالى ﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ﴾[الأعراف : ٩٣] أي أعرض عنهم مولياً عن محلتهم بعد هلكتهم قائلاً ﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ﴾ أي قد أديت ما كان واجباً عليّ من البلاغ التام والنصح

الكامل وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه فلم ينفعكم ذلك لأن الله لا يهدي من يضل ومالهم من ناصرين فلست أتأسف بعد هذا عليكم لانكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ولا تخافون يوم الفضيحة . ولهذا قال فكيف آسى أي أحزن على قوم كافرين أي لا تقبلون الحق ولا ترجعون اليه ولا تلتفون إليه فحل بهم من بأس الله الذي لا يرد ما لا يدافع ولا يمانع ولا محيد لأحد أريد به عنه ولا مناص منه .

وقد ذكر الحافظ بن عساكر في تاريخه عن ابن عباس أن شعيباً عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام . وعن وهب بن منبه أن شعيباً عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم .

باب ذرّيّة ابراهيم

قد قدمنا قصته مع قومه وما كان من أمرهم وما آل اليه أمره عليه السلام والتحية والأكرام وذكرنا ما وقع في زمانه من قصة قوم لوط . وأتبعنا ذلك بقصة مدين قوم شعيب عليه السلام لأنها قرينتها في كتاب الله عز وجل في مواضع متعددة فذكر تعالى بعد قصة قوم لوط قصة مدين وهم أصحاب الأيكة على الصحيح كما قدمنا فذكرناها تبعاً لها إقتداء بالقرآن العظيم * ثم نشرع الآن في الكلام على تفصيل ذرية ابراهيم عليه السلام لأن الله جعل في ذريته النبوة والكتاب فكل نبي أرسل بعده فمن ولده .

اسماعيل عليه السّلام

وقد كان للخليل بنون كما ذكرنا ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان أسنهما وأجلهما الذي هو الذبيح على الصحيح إسماعيل بكر ابراهيم الخليل من هاجر القبطية المصرية عليها السلام من العظيم الجليل * ومن قال إن الذبيح هو إسحق فإنما تلقاه من نقلة بني اسرائيل الذين بدلوا وحرفوا وأولوا التوراة والإنجيل وخالفوا ما بأيديهم في هذا من التنزيل * فإن إبراهيم أمر بذبح ولده البكر * وفي رواية الوحيد وأياماً كان فهو إسماعيل بنص الدليل ففي نص كتابهم إن إسماعيل ولد ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة * وإنما ولد اسحق بعد مضي مائة سنة من عمر الخليل فإسماعيل هو البكر لا محالة وهو الوحيد صورة ومعنى على كل حالة * أما في الصورة فلأنه كان وحده ولده أزيد من ثلاثة عشر سنة وأما أنه وحيد في المعنى فإنه هو الذي هاجر به أبوه ومعه أمه هاجر وكان صغيراً رضيعاً فيما قيل فوضعهما في وهاد جبال فاران وهي الجبال التي حول مكة نعم المقيل وتركهما هنالك ليس معهما من الزاد والماء إلاّ القليل وذلك ثقة بالله وتوكلاً عليه . فحاطهما الله تعالى بعنايته وكفايته فنعم الحسيب والكافي والوكيل والكفيل فهذا هو الولد الوحيد في الصورة والمعنى ولكن أين من يتفطن لهذا السر وأين من يحل بهذا المحل والمعنى لا يدركه

ويحيط بعلمه إلّا كل نبيه نبيل * وقد أثنى الله تعالى عليه ووصفه بالحلم[1] والصبر وصدق الوعد والمحافظة على الصلاة والأمر بها لأهله ليقيهم العذاب مع ما كان يدعو اليه من عبادة رب الأرباب * قال تعالى ﴿ فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى . قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ [الصافات : ١٠١ ـ ١٠٢] فطاوع أباه على ما إليه دعاه . ووعده بأن سيصبر فوفى بذلك وصبر على ذلك . وقال تعالى ﴿ واذكر في الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا ﴾ [مريم : ٥٤ ـ ٥٥] وقال تعالى ﴿ واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ﴾ [ص : ٤٥ ـ ٤٨] وقال تعالى ﴿ واسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾ [الأنبياء : ٨٥ ـ ٨٦] وقال تعالى ﴿ إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ﴾ [النساء : ١٦٣] الآية . وقال تعالى ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط ﴾ [البقرة : ١٣٦] الآية . ونظيرتها من السورة الأخرى. وقال تعالى ﴿ أم يقولون إن إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ [البقرة : ١٤٠] الآية. فذكر الله عنه كل صفة جميلة وجعله نبيه ورسوله ، وبرأه من كل ما نسب اليه الجاهلون ، وأمر بأن يؤمن بما أنزل عليه عباده المؤمنون . وذكر علماء النسب وأيام الناس أنه أول من ركب الخيل ، وكانت قبل ذلك وحوشاً فآنسها وركبها . وقد قال سعيد بن يحيى الأموي في مغازيه : حدثنا شيخ من قريش ، حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز ، عن عبد الله بن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « اتخذوا الخيل واعتبقوها فإنها مراث أبيكم اسماعيل » وكانت هذه العراب وحشا[2] فدعا لها بدعوته التي كان أعطى فأجابته وإنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة * وكان قد تعلمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جرهم والعماليق وأهل اليمن من الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل .

قال الأموي : حدثني علي بن المغيرة ، حدثنا أبو عبيدة ، حدثنا مسمع بن مالك ، عن محمد بن علي بن الحسين ، عن آبائه ، عن النبي ﷺ أنه قال « أول من فتق لسانه بالعربية البينة إسماعيل ، وهو ابن أربع عشرة سنة » فقال له يونس صدقت يا أبا سيار هكذا أبو جرى حدثني . وقد قدمنا أنه تزوج لما شب من العماليق امرأة وأن أباه أمره بفراقها ففارقها * قال الأموي هي

---

(١) وفي نسخة : بالعلم .

(٢) وفي نسخة : وحوشاً .

عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العماليقي * ثم نكح غيرها فأمره أن يستمر بها فاستمر بها وهي السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي وقيل هذه ثالثة فولدت له إثني عشر ولداً ذكراً . وقد سماهم محمد بن اسحق رحمه الله وهم نابت وقيذر[1] وازيل وميثى ومسمع وماش ودوصاوارر ويطور ونبش وطيما وقيذما * ومكذا ذكرهم أهل الكتاب في كتابهم . وعندهم أنهم الاثنا عشر عظيماً المبشر بهم المتقدم ذكرهم . وكذبوا في تأويلهم ذلك وكان إسماعيل عليه السلام رسولاً إلى أهل تلك الناحية وما والاها من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن صلوات الله وسلامه عليه * ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه اسحق وزوج ابنته نسمة[2] من ابن أخيه العيص بن اسحق فولدت له الروم . ويقال لهم بنو الاصفر لصفرة كانت في العيص * وولدت له اليونان في أحد الأقوال * ومن ولد العيص الاشبان قيل منهما أيضاً * وتوقف ابن جرير رحمه الله .

ودفن اسماعيل نبي الله بالحجر مع أمه هاجر وكان عمره يوم مات مائة وسبعاً وثلاثين سنة * وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال شكى اسماعيل عليه السلام إلى ربه عز وجل حر مكة فأوحى الله إليه اني سأفتح لك باباً إلى الجنة إلى الموضع الذي تدفن فيه تجري عليك روحها إلى يوم القيامة

وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه نابت وقيذار * وستكلم على أحياء العرب وبطونها وعمائرها وقبائلها وعشائرها من لدن اسماعيل عليه السلام إلى زمان رسول الله ﷺ * وذلك اذا انتهينا إلى أيامه الشريفة وسيرته المنيفة بعد الفراغ من أخبار أنبياء بني إسرائيل إلى زمان عيسى بن مريم خاتم انبيائهم ومحقق أنبائهم * ثم نذكر ما كان في زمن بني اسرائيل * ثم ما وقع في أيام الجاهلية ثم ينتهي الكلام إلى سيرة نبينا رسول الله إلى العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم من الأمم إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم العزيز الحكيم .

اسحاق بن إبراهيم عليهما الصلاة والتسليم

قد قدمنا أنه ولد ولأبيه مائة سنة[3] بعد أخيه اسماعيل بأربع عشر سنة . وكان عمر أمه سارة حين بشرت به تسعين[4] سنة قال الله تعالى ﴿ وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين وباركنا عليه وعلى

---

(١) قال الطبري : وقد ينطق أسماء أولاد إسماعيل بغير الألفاظ التي ذكرت عن ابن إسحاق فيقول بعضهم في قيذر قيدار وفي ادبيل ادبال وفي ميشا ميشام .

وانظر التعليق حول هذا الموضوع في أخبار العرب ؛ الجزء الثاني من البداية والنهاية .

(٢) في الطبري : بسمة .

(٣) في الطبري والكامل : مائة وعشرين سنة .

(٤) في الكامل لابن الأثير : سبعون سنة .

اسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ [الصافات : ١١٢ - ١١٣]* وقد ذكره الله تعالى بالثناء عليه في غير ما آية من كتابه العزيز * وقدمنا في حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « أن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن ابراهيم ». وذكر أهل الكتاب أن إسحق لما تزوج رفقا بنت بتوابيل في حياة أبيه ، كان عمره أربعين سنة ، وأنها كانت عاقراً فدعا الله لها فحملت فولدت غلامين توأمين أولهما سموه عيصو وهو الذي تسميه العرب العيص وهو والد الروم * والثاني خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسموه يعقوب وهو اسرائيل الذي ينتسب اليه بنو اسرائيل قالوا وكان إسحق يحب العيصو أكثر من يعقوب لانه بكره وكانت أمهما رفقا تحب يعقوب أكثر لأنه الأصغر قالوا فلما كبر إسحق وضعف بصره اشتهى على ابنه العيص طعاماً وأمره أن يذهب فيصطاد له صيداً ويطبخه له ليبارك عليه ويدعو له وكان العيص صاحب صيد فذهب يبتغي ذلك فأمرت رفقا ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه ويصنع منهما طعاماً كما اشتهاه أبوه ويأتي إليه به قبل أخيه ليدعو له فقامت فألبسته ثياب أخيه وجعلت على ذراعيه وعنقه من جلد الجديين لان العيص كان أشعر الجسد ويعقوب ليس كذلك فلما جاء به وقربه إليه قال من أنت قال ولدك فضمه اليه وجسه وجعل يقول أما الصوت فصوت يعقوب وأما الجس(١)والثياب فالعيص فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوته قدراً وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده وأن يكثر رزقه وولده .

فلما خرج من عنده جاء أخوه العيص بما أمره به والده فقربه اليه فقال له ما هذا يا بني قال هذا الطعام الذي اشتهيته فقال أما جئتني به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك فقال لا والله وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك فوجد في نفسه عليه وجداً كثيراً وذكروا أنه تواعده بالقتل إذا مات أبوهما وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى وأن يجعل لذريته غليظ الأرض وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها لابان الذي بأرض حران وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه عليه وأن يتزوج من بناته . وقالت لزوجها إسحق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له ففعل فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم(٢)فأدركه المساء في موضع فنام فيه أخذ حجرا فوضعه تحت رأسه ونام فرأى في نومه ذلك معراجاً منصوباً من السماء إلى الأرض وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون والرب تبارك وتعالى يخاطبه ويقول له إني سأبارك عليك وأكثر ذريتك وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك . فلما هب من نومه فرح بما رأى ونذر لله لئن رجع إلى أهله سالماً ليبنين في هذا الموضع معبد الله عز وجل وأن جميع ما يرزقه من شيء يكون لله عشره ثم عمد إلى ذلك الحجر

---

(١) في الطبري : المس .

(٢) في الطبري : فكان يسري بالليل ويكمن بالنهار ولذلك سمي إسرائيل

فجعل عليه دهنا يتعرفه به وسمي ذلك الموضع بيت إيل أي بيت الله وهو موضع بيت المقدس اليوم الذي بناه يعقوب بعد ذلك كما سيأتي قالوا فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران إذا له ابنتان اسم الكبرى ليا واسم الصغرى راحيل وكانت أحسنهما . وأجملهما [فطلب يعقوب الصغرى من خاله][1] فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى على غنمه سبع سنين فلما مضت المدة على خاله لابان صنع طعاماً وجمع الناس عليه وزف إليه ليلاً ابنته الكبرى ليا وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر . فلما أصبح يعقوب إذا هي ليا فقال لخاله لم غدرت بي وأنت إنما خطبت إليك راحيل فقال إنه ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى فان احببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وازوجكها فعمل سبع سنين وادخلها عليه مع أختها وكان ذلك سائغاً في ملتهم ثم نسخ في شريعة التوراة * وهذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ لان فعل يعقوب عليه السلام دليل على جواز هذا وإباحته لأنه معصوم * ووهب لابان لكل واحدة من إبنتيه جارية فوهب لليا جارية إسمها زلفى ووهب لراحيل جارية اسمها بلهى * وجبر الله تعالى ضعف ليا بأن وهب لها أولاداً فكان أول من ولدت ليعقوب روبيل ثم شمعون ثم لاوى ثم يهوذا فغارت عند ذلك راحيل وكانت لا تحبل فوهبت ليعقوب جاريتها بلهى فوطئها فحملت وولدت له غلاماً سمته دان وحملت وولدت غلاماً آخر سمته نيفتالي فعمدت عند ذلك ليا فوهبت جاريتها زلفى من يعقوب عليه السلام فولدت له جاد[2] وأشير غلامين ذكرين ثم حملت أيضاً فولدت غلاماً خامساً منها وسمته ايساخر[3] * ثم حملت وولدت غلاما سادساً سمته زابلون ثم حملت وولدت بنتا سمتها دينا فصار لها سبعة من يعقوب * ثم دعت الله تعالى راحيل وسألته أن يهب لها غلاماً من يعقوب فسمع الله ندائها وأجاب دعائها فحملت من نبي الله يعقوب فولدت له غلاماً[4] عظيماً شريفاً حسناً جميلاً سمته يوسف كل هذا وهم مقيمون بأرض حران[5] وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين ست سنين أخرى فصار مدة مقامه عشرين سنة فطلب يعقوب من خاله لابان أن يسرحه ليمر إلى أهله فقال له خاله اني قد بورك لي بسببك فسلني من مالي ما شئت فقال تعطيني كل حمل يولد من غنمك هذه السنة أبقع[6] وكل حمل ملمع أبيض بسواد وكل أملح[7] ببياض وكل أجلح[8] أبيض من المعز فقال نعم فعمد بنوه فابرزوا

---

(١) سقطت من النسخ المطبوعة واستدركت من الطبري وقصص الأنبياء لابن كثير .

(٢) كذا في الأصل وفي رواية للطبري ؛ وفي رواية أخرى عنده سماه : حادر .

(٣) في الطبري : يسحر .

(٤) في الطبري : ولدت راحيل ليعقوب بعد اليأس يوسف وأخاه بنيامين ، وفي رواية أخرى عنده ماتت راحيل في نفاسها ببنيامين .

(٥) في الطبري : بأرض بابل .

(٦) أبقع : ما فيه بقع بيض وسود .

(٧) الأملح : ما يخالط بياضه سواد .

(٨) اجلح : ما لا قرن له .

من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس لئلا يولد شيء من الحملان على هذه الصفات وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم قالوا فعمد يعقوب عليه السلام إلى قضبان رطبة بيض من لوز وولب فكان يقشرها بلقا وينصبها في مساقي الغنم من المياه لينظر الغنم اليها فتفزع وتتحرك أولادها في بطونها فتصير ألوان حملانها كذلك وهذا يكون من باب خوارق العادات وينتظم في سلك المعجزات فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة ودواب وعبيد وتغير له وجه خاله وبنيه وكأنهم انحصروا منه .

وأوحى الله تعالى إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه ووعده بأن يكون معه فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين إلى طاعته فتحمل بأهله وماله وسرقت راحيل[1] أصنام أبيها فلما جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم لحقهم لابان وقومه فلما اجتمع لابان بيعقوب عاتبه في خروجه بغير علمه وهلا أعلمه فيخرجهم في فرح ومزاهر وطبول وحتى يودع بناته وأولادهن ولم أخذوا أصنامه معهم ولم يكن عند يعقوب علم من أصنامه فأنكر أن يكون أخذوا له أصناماً فدخل بيوت بناته وامائهن يفتش فلم يجد شيئاً وكانت راحيل قد جعلتهن في بردعة الحمل وهي تحتها فلم تقم وأعتذرت بأنها طامث فلم يقدر عليهن فعند ذلك تواثقوا على رابية هناك يقال لها جلعاد على أنه لا يهين بناته ولا يتزوج عليهن ولا يجاوز هذه الرابية الى بلاد الآخر لا لابان ولا يعقوب وعملا طعاماً وأكل القوم معهم وتودع كل منهما من الآخر وتفارقوا راجعين إلى بلادهم فلما اقترب يعقوب من أرض ساعير تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم وبعث يعقوب البرد إلى أخيه العيصو يترفق له ويتواضع له فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك في اربعمائة راجل فخشي يعقوب من ذلك ودعا الله عز وجل وصلى له ونضرع إليه وتمسكن لديه وناشده عهده ووعده الذي وعده به وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص وأعد لاخيه هدية عظيمة وهي مائتا شاة وعشرون تيساً ومائتا نعجة وعشرون كبشاً وثلاثون لقحة وأربعون بقرة وعشرة من الثيران وعشرون أتاناً وعشرة من الحمر وأمر عبيده أن يسوقوا كلا من هذه الأصناف وحده وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة فإذا لقيهم العيص فقال للأول لمن أنت ولمن هذه معك فليقل لعبدك يعقوب أهداها لسيدي العيص وليقل الذي بعده كذلك وكذا الذي بعده ويقول كل منهم وهو جائي بعدنا وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر بعد الكل بليلتين وجعل يسير فيها ليلا ويكمن نهاراً فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية تبدا له ملك من الملائكة في صورة رجل فظنه يعقوب رجلا من الناس فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه فظهر عليه يعقوب فيما يرى إلا أن الملك أصاب وركه فعرج يعقوب فلما أضاء الفجر قال له الملك ما اسمك قال يعقوب قال لا ينبغي أن تدعى بعد اليوم إلا اسرائيل فقال له يعقوب ومن أنت وما أسمك فذهب عنه فعلم أنه ملك من الملائكة وأصبح يعقوب وهو يعرج من رجله فلذلك لا يأكل

---

(١) في الطبري : فقالت امرأة يعقوب ، ولم يذكر اسمها ، وعلى الأرجح فيما رواه الطبري انها ليا ؛ لانه اعتبر في نفس الرواية ان راحيل قد ماتت . ١/١٦٥ .

بنو اسرائيل عرق النساء ورفع يعقوب عينيه فاذا أخوه عيصـو قد أقبل في أربعمائة راجل فتقدم أمام أهله فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات وكانت هذه تحيتهم في ذلك الزمان وكان مشروعاً لهم كما سجدت الملائكة لآدم تحية له وكما سجد أخوه يوسف وأبواه له كـما سيأتي فلما رآه العيص تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى ورفع العيص عينيه ونظر إلى النساء والصبيان فقـال من أين لك هؤلاء فقـال هؤلاء الذين وهب الله لعبـدك فدنت الأمتـان وبنوهمـا فسجدوا له ودنت ليا وبنـوها فسجدوا له ودنت راحيل وابنها يوسف فخرّا سجداً له وعرض عليه أن يقبـل هديتـه وألح عليـه فقبلها ورجع العيص فتقـدم أمـامه ولحقـه يعقوب بـأهله وما معـه من الأنعام والمواشي والعبيد قاصدين جبال ساعير فلما مر بساحور ابتنى له بيتاً ولدوا به ظلالاً ثم مر على أورشليم قرية شخيم فنزل قبل القرية واشترى مزرعة شخيم بن جمور بمـائة نعجـة فضرب هنـالك فسـطاطه وابتنى ثم مذبحاً فسماه إيل إله اسرائيل وأمر الله ببنائه ليستعلن له فيه * وهو بيت المقدس اليوم الذي جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام وهو مكان الصخرة التي أعلمها بوضع الدهن عليها قبل ذلك كما ذكرنا أولاً .

وذكر أهل الكتاب هنا قصة دينا بنت يعقوب بنت ليا وما كان من أمرها مع شخيم بن جمور الذي قهرها على نفسها وأدخلها منزله ثم خطبها عن أبيها وأخوتها فقال إخوتها إلا أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا فإنا لا نصاهر قوماً غلفاً فأجابوهم إلى ذلك واختتنوا كلهم فلما كان اليـوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان مال عليهم بنـو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم وقتلوا شخيماً وأباه جمور لقبيح ما صنعوا اليهم مضافاً إلى كفرهم وما كانوا يعبـدونه من أصنـامهم فلهذ قتلـهم بنـو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة .

ثم حملت راحيل[1] فولدت غلاماً وهو بنيامين إلّا أنها جهـدت في طلقها بـه جهداً شـديداً وماتت عقيبه فدفنها يعقوب في أفرات وهي بيت لحم وصنع يعقوب على قبرها حجراً وهي الحجارة المعروفة بقبر راحيل إلى اليوم * وكان أولاد يعقوب الذكور اثنى عشر رجلاً فمن ليا روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وايساخر وزايلون ومن راحيل يوسف وبنيامين[2] ومن أمة راحيل دان ونفتالي ومن أمة ليا حاد واشير عليهم السلام وجاء يعقوب الى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التي في أرض كنعان حيث كان يسكن ابراهيم ثم مرض اسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة ودفنه ابناه العيص ويعقوب مع أبيه ابراهيم الخليل في المغارة التي اشتراها كما قدمنا .

---

(١) في رواية الطبري ان راحيل قد ولدت بنيامين وهم في ديار أبيهـا قبل خـروجهم إلى أرض فلسطين . راجـع التعليق قبل قليل .

(٢) زاد ابن قتيبة في المعارف : وأخوات لهما ، ولم يذكر اسماءهن .

ما وقع من الأمور العجيبة في حياة اسرائيل

فمن ذلك قصة يوسف[1] بن راحيل

وقد أنزل الله عز وجل في شأنه وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم ليتدبر ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم آلر تلك آيات الكتاب المبين إنا انزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ [يوسف : ١ ـ ٣] قد تكلمنا على الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة فمن أراد تحقيقه فلينظره ثم * وتكلمنا على هذه السورة مستقصى في موضعها من التفسير ونحن نذكر ههنا نبذاً مما هناك على وجه الايجاز والنجاز .

وجملة القول في هذا المقام أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذي انزله على عبده ورسوله الكريم بلسان عربي فصيح بيّن واضح جلي يفهمه كل عاقل ذكي زكي فهو أشرف كتاب نزل من السماء ، أنزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق في أشرف زمان ومكان . بأفصح لغة وأظهر بيان . فإن كان السياق في الأخبار الماضية أو الآتية ذكر أحسنها وأبينها وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه ودمغ الباطل وزيفه ورده . وإن كان في الأوامر والنواهي فأعدل الشرائع وأوضح المناهج وأبين حكماً[2] وأعدل حكماً . فهو كما قال تعالى ﴿ وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا ﴾ [الانعام : ١١٥] . يعني صدقاً في الأخبار ، عدلا في الأوامر والنواهي ولهذا قال تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ [يوسف : ٣] أي بالنسبة إلى ما أوحى اليك فيه كما قال تعالى ﴿ وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي الى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ [الشورى : ٥٢ ـ ٥٣] . وقال تعالى ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق . وقد آتيناك من لدنا ذكرا . من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا . خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا ﴾ [طه : ٩٩ ـ ١٠١] يعني من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد كما قال في الحديث المروي في المسند والترمذي عن أمير المؤمنين علي مرفوعاً وموقوفاً

---

(١) ذكر اسم يوسف في ٢٦ آية من الكتاب الكريم : ٢٤ آية في سورة يوسف وآية في الأنعام (٨٤) وآية في غافر (٣٤) وقد ذكرت قصته مطولة في سورة يوسف .

وقال النسفي في سبب نزول هذه السورة : ان كفار مكة لقي بعضهم اليهود وتباحثوا في ذكر محمد ﷺ فقال لهم اليهود : سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وعن قصة يوسف . فنزلت .

(٢) وفي نسخة : حكمة .

« من ابتغى الهدى في غيره أضله الله » . وقال الإمام أحمد حدثنا سريج بن النعمان حدثنا هشام أنبأنا خالد[1] عن الشعبي عن جابر : أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ قال فغضب وقال : « أتتهوكون[2] فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبرونكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني »[3] إسناد صحيح . ورواه أحمد من وجه آخر عن عمرو فيه فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين »[4] وقد أوردت طرق هذا الحديث وألفاظه في أول سورة يوسف . وفي بعضها أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال في خطبته : « أيها الناس إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه واختصر لي اختصاراً ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون . ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفاً حرفاً ﴿ اذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم واسحق ان ربك عليم حكيم ﴾ [يوسف : ٤ ـ ٦] قد قدمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولدا ذكراً وسميناهم وإليهم تنسب أسباط بني إسرائيل كلهم وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبي غيره وباقي إخوته لم يوح اليهم . وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول * ومن استدل على نبوتهم بقوله ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى إبراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والأسباط ﴾ [البقرة : ١٣٦] وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوي[5] لأن المراد بالأسباط شعوب بني اسرائيل وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء والله أعلم .

ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة أنه نص على واحد من إخوته سواه فدل على ما ذكرناه ويستأنس لهذا بما قال الامام أحمد : حدثنا : عبد الصمد ، حدثنا عبد الرحمن ، عن عبد الله بن دينار ، عن أبيه ، عن بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « الكريم بن الكريم ابن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن

---

(١) في المسند : عن هشيم عن مجالد .

(٢) في المسند : أمتهوكون ؛ والتهوك : التحير .

(٣) مسند أحمد : ج ٣/ ٣٨٨ .

(٤) مسند أحمد : ج ٣/ ٤٧١ .

(٥) وفي نسخة : بالقوي .

ابـراهيم »[1]» انفرد بـه البخاري ؛ فـرواه عن عبـد الله بـن محمـد وعبـدة عن عبـد الصمـد بن عبد الوارث به * وقد ذكرنا طرقه في قصة إبراهيم بما أغنى عن إعادته ههنا ولله الحمد والمنه * قال المفسرون وغيرهم رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم كـان ﴿ أحد عشر كـوكباً ﴾ وهم اشارة إلى بقية اخوته ﴿ والشمس والقمر ﴾ وهما عبارة عن أبويه قد سجدوا له فهاله ذلك فلما استيقظ قصها على أبيه فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الـدنيا والآخـرة بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر وهذا يدل على ما ذكرناه * ولهذا جاء في بعض الآثار : « استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانهـا ، فإن كل ذي نعمة محسود » ، وعند أهل الكتاب أنه قصها على أبيـه وإخوته معاً وهو غلط منهم ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ﴾ أي وكـما أراك هذه الـرؤيا العـظيمة فـاذا كتمتها ﴿ يجتبيك ربك ﴾ أي يخصك بأنواع اللطف والرحمة ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ أي يفهمك من معاني الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ أي بـالوحي إليك ﴿ وعلى آل يعقوب ﴾ أي بسببك ويحصل لهم بك خير الدنيا والأخرة ﴿ كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم وإسحق ﴾ أي ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة كما أعطاها أباك يعقـوب وجدك إسحق ووالد جدك إبـراهيم الخليل ﴿ إن ربـك عليم حكيم ﴾ كما قـال تعالى ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ .

لهذا قال رسول الله ﷺ لما سئل أي الناس أكرم قال : « يـوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله »[2] وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهـا وأبو يعـلى والبزار في مسنديهما من حديث الحكم بن ظهير[3]وقد ضعفه الأئمة ـ عن السدي عن عبد الرحمن بن سـابط عن جابر قال : أتى النبي ﷺ رجل من اليهود يقال له بستانة اليهودي فقال : يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها . قال فسكت النبي ﷺ فلم يجبه بشيء ونزل جبريل عليه السلام بـأسمائهـا قال فبعث إليـه رسول الله فقـال : « هل أنت مؤمن إن أخبـرتك بـأسمائهـا قال نعم فقـال هي جريـان والطارق . والـديال وذو الكتفـان . وقابس . ووثـاب . وعمردان[4]والفيلق . والمصبح . والضروح . وذو الفرع . والضياء . والنور » فقال اليهودي أي والله إنها لاسماؤها. وعند أبي يعلى فلما قصها على أبيه قال هذا أمر مشتت يجمعه الله والشمس أبوه والقمر أمه . ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا

---

(١) تقدم التعليق فلـراجع .

(٢) تقدم تخريجه فليراجع .

(٣) الحكم بن ظهير الفـزاري ، أبـو محمـد وكنيـة أبيـه أبـو ليـلى ؛ متـروك . اتهمـه ابن معـين تقريب التهـذيب ١٩١/٤٨٥/١ .

(٤) في نسخة : عمودان .

منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ [يوسف : ٧ - ١٠].

ينبه تعالى على ما في هذه القصة من الآيات والحكم والدلالات والمواعظ والبينات . ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه يعنون شقيقه لأمه بنيامين أكثر منهم وهم عصبة أي جماعة يقولون فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ أي بتقديمه حبهما علينا * ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها ليخلو لهم وجه أبيهم أي لتتمحض[1]محبته لهم وتتوفر عليهم وأضمروا التوبة بعد ذلك . فلما تمالؤا على ذلك وتوافقوا عليه ﴿ قال قائل منهم ﴾ قال مجاهد هو شمعون * وقال السدي هو يهودا * وقال قتادة ومحمد بن اسحق هو أكبرهم روبيل ﴿ لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ﴾ أي المارة من المسافرين ﴿ ان كنتم فاعلين ﴾ ما تقولون لا محالة فليكن هذا الذي أقول لكم فهو أقرب حالاً من قتله أو نفيه وتغريبه فأجمعوا رأيهم على هذا فعند ذلك ﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون . قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ﴾ [يوسف : ١١ - ١٤] طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم وأن يلعب وينبسط وقد أضمروا له ما الله به عليم فأجابهم الشيخ عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم . يا بني يشق علي أن أفارقه ساعة من النهار ومع هذا أخشى أن تشتغلوا في لعبكم وما أنتم فيه فيأتي الذئب فيأكله ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه . ﴿ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا اذا لخاسرون ﴾ أي لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة إنا اذا لخاسرون أي عاجزون هالكون .

وعند أهل الكتاب أنه أرسله وراءهم يتبعهم فضل عن الطريق حتى أرشده رجل إليهم . وهذا أيضاً من غلطهم وخطئهم في التعريب فإن يعقوب عليه السلام كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم فكيف يبعثه وحده ﴿ فلما ذهبوا به واجمعوا ان يجعلوه في غيابت[2]الجب وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون وجاؤا أباهم عشاء يبكون قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاؤا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل . والله المستعان على ما تصفون ﴾ [يوسف : ١٥ - ١٨] لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم فما كان إلاّ أن غابوا عن عينيه فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال

---

(١) تتمحض المحبة : تكون خالصة لهم .

(٢) غيابة الجب : غوره .

وأجمعوا على إلقائه في غيابت الجب أي في قعره على راعوفته وهي الصخرة التي تكون في وسطه يقف عليها المائح وهو الذي ينزل ليملي الدلاء إذا قل الماء والذي يرفعها بالحبل يسمى الماتح فلما ألقوه فيه أوحى الله إليه أنه لا بد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التي أنت فيها ولتخبرن أخوتك بصنيعهم هذا في حال أنت فيها عزيز وهم محتاجون إليك خائفون منك ﴿ وهم لا يشعرون ﴾.

قال مجاهد وقتادة وهم لا يشعرون بايحاء الله إليه ذلك * وعن ابن عباس وهم لا يشعرون أي لتخبرنهم بأمرهم هذا في حال لا يعرفونك فيها * رواه ابن جرير عنه * فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه أخذوا قميصه فلطخوه بشيء من دم ورجعوا إلى أبيهم عشاء وهم يبكون أي على أخيهم. ولهذا قال بعض السلف لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك وذكر بكاء إخوة يوسف وقد جاءوا أباهم عشاء يبكون أي في ظلمة الليل ليكون أمشى لغَدرِهم لا لعُذْرهم ﴿ **قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا** ﴾ أي ثيابنا ﴿ **فأكله الذئب** ﴾ أي في غيبتنا عنه في استباقنا وقولهم ﴿ **وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين** ﴾ أي وما أنت بمصدق لنا في الذي أخبرناك من أكل الذئب له ولو كنا غير متهمين عندك فكيف وأنت تتهمنا في هذا فإنك خشيت أن يأكله الذئب وضمنا لك أن لا يأكله لكثرتنا حوله فصرنا غير مصدقين عندك فمعذور أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه. ﴿ **وجاؤا على قميصه بدم كذب** ﴾ أي مكذوب مفتعل لأنهم عمدوا إلى سخلة[1] ذبحوها فأخذوا من دمها فوضعوه على قميصه ليوهموا أنه أكله الذئب قالوا ونسوا أن يخرقوه وآفة الكذب النسيان * ولما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يَرُجْ صنيعهم على أبيهم فإنه كان يفهم عداوتهم له وحسدهم إياه على محبته له من بينهم أكثر منهم لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التي كانت عليه في صغره لما يريد الله أن يخصه به من نبوته * ولما راودوه عن أخذه فبمجرد ما أخذوه وأعدموه وغيبوه عن عينيه جاؤا وهم يتباكون وعلى ما تمالؤا عليه يتواطؤن ولهذا ﴿ **قال بل سولت لكم انفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون** ﴾.

وعند أهل الكتاب: أن روبيل أشار بوضعه في الجب ليأخذه من حيث لا يشعرون ويرده إلى أبيه، فغافلوه وباعوه لتلك القافلة. فلما جاء روبيل من آخر النار ليخرج يوسف لم يجده، فصاح وشق ثيابه، وعمد أولئك الى جدي فذبحوه، ولطخوا من دمه جبة يوسف. فلما علم يعقوب شق ثيابه، ولبس مئزراً أسود وحزن على إبنه أياماً كثيرة. وهذه الركاكة جاءت من خطئهم في التعبير والتصوير

[وقال تعالى] : ﴿ وجاءت سيارة فارسلوا واردهم فادلى دلوه. قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون. وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين. وقال الذي اشتراه من مصر لأمرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً. وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث. والله غالب على أمره ولكن أكثر

(١) سخلة: ولد الشاة.

الناس لا يعلمون . ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلما وكذلك نجزي المحسنين ﴾ [يوسف : ١٩ - ٢٢] يخبر تعالى عن قصة يوسف حين وضع في الجب : أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به ، فجاءت سيارة أي مسافرون .

قال أهل الكتاب : كانت بضاعتهم من الفستق والصنوبر والبطم قاصدين ديار مصر من الشام ، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر ، فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه[1] يوسف فلما رآه ذلك الرجل ﴿ قال يا بشرى ﴾ أي يا بشارتي ﴿ هذا غلام وأسروه بضاعة ﴾ أي أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ أي هو عالم بما تمالأ عليه أخوته وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم ومع هذا لا يغيره تعالى لما له في ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر بما يجري الله على يدي هذا الغلام الذي يدخلها في صورة أسير رقيق ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور وينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم بما لا يحد ولا يوصف . ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم وقالوا هذا غلامنا أبق منا ، فاشتروه منهم * بثمن بخس أي قليل نزر وقيل هو الزيف ﴿ دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ . قال ابن مسعود وابن عباس ونوف البكالي والسدي وقتادة وعطية العوفي باعوه بعشرين درهماً اقتسموها درهمين درهمين . وقال مجاهد اثنان وعشرون درهماً . وقال عكرمة ومحمد بن اسحق أربعون درهماً فالله أعلم ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته اكرمي مثواه ﴾ أي أحسني إليه ﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ﴾ وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والأخرة . قالوا وكان الذي اشتراه من أهل مصر عزيزها وهو الوزير بها الذي [تكون] الخزائن مسلمة اليه * قال ابن اسحق واسمه اطفير[2] بن روحيب قال وكان ملك مصر يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق قال واسم امرأة العزيز راعيل بنت رعابيل . وقال غيره كان اسمها زليخا والظاهر أنه لقبها . وقيل فكا بنت ينوس رواه الثعلبي عن أبي هشام[3] الرفاعي . وقال محمد بن اسحق عن محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس كان اسم الذي باعه بمصر يعني الذي جلبه إليها مالك بن ذعر بن نويب بن عفقا[4] بن مديان بن ابراهيم فالله أعلم .

وقال ابن اسحق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود قال أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر حين قال لامرأته اكرمي مثواه والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت

---

(١) في نسخة : تعلق به .

(٢) في رواية للطبري عن ابن عباس اسمه قطفير ؛ وفي رواية أخرى قطين وكان عمره يوم اشتروه سبع عشرة سنة .

(٣) في نسخة : ابن هشام .

(٤) في الطبري : مالك بن دعر بن بويب بن عفقان .

القوي الأمين ﴾ [القصص : ٢٦] وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

ثم قيل اشتراه العزيز بعشرين ديناراً . وقيل بوزنه مسكاً ووزنه حريراً ووزنه ورقاً . فالله أعلم وقوله ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ أي وكما قيضنا هذا العزيز وامرأته يحسنان اليه ويعتنيان به مكنا له في أرض مصر ﴿ ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴾ أي فهمها . وتعبير الرؤيا من ذلك ﴿ والله غالب على أمره ﴾ أي إذا أراد شيئاً فإنه يقيض له أسباباً واموراً لا يهتدي إليها العباد ولهذا قال تعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴾. فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الاشد . وهو حد الأربعين الذي يوحي الله فيه إلى عبادة النبيين عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين .

وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الاشد : فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي : هو الحلم . وقال سعيد بن جبير : ثماني عشرة سنة . وقال الضحاك : عشرون سنة . وقال عكرمة : خمس وعشرون سنة . وقال السدي : ثلاثون سنة ، وقال ابن عباس ومجاهد : وقتادة ثلاث وثلاثون سنة . وقال الحسن : أربعون سنة ، ويشهد له قوله تعالى ﴿ حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ﴾ [الأحقاف : ١٥]. ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب . وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر والفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم . قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف اعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ [يوسف : ٢٣ ـ ٢٩]. يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه ، وهي في غاية الجمال والمال والمنصب والشباب ، وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه وتهيأت له ، وتصنعت ، ولبست أحسن ثيابها ، وأفخر لباسها ، وهي مع هذا كله امرأة الوزير * قال ابن اسحق : وبنت أخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر . وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء ، إلا أنه نبي من سلالة الأنبياء ، فعصمه ربه عن الفحشاء . وحماه عن مكر النساء . فهو سيد السادة النجباء السبعة الاتقياء . المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء . في قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل . ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه . ورجل معلق قلبه بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود اليه . ورجلان تحابا في الله إجتمعا عليه وتفرقا عليه . ورجل تصدق بصدقة فأخفاها

حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه وشاب نشأ في عبادة الله . ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله »[1].

والمقصود أنها دعته إليها وحرصت على ذلك أشد الحرص فقال ﴿ معاذ الله إنه ربي ﴾ يعني زوجها صاحب المنزل سيدي ﴿ أحسن مثواي ﴾ أي أحسن إليّ وأكرم مقامي عنده ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ وقد تكلمنا على قوله ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ بما فيه كفاية ومقنع في التفسير[2].

وأكثر أقوال المفسرين ههنا متلقى من كتب أهل الكتاب فالإعراض عنه أولى بنا * والذي يجب أن يعتقد أن الله تعالى عصمه وبرأه ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها * ولهذا قال تعالى ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب ﴾ أي هرب منها طالباً إلى الباب ليخرج منه فراراً منها فاتبعته في أثره ﴿ والفيا ﴾ أي وجدا ﴿ سيدها ﴾ أي زوجها لدى الباب فبدرته بالكلام وحرضته عليه ﴿ قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب اليم ﴾ . اتهمته وهي المتهمة وبرأت عرضها ونزهت ساحتها فلهذا قال يوسف عليه السلام ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ إحتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ قيل كان صغيراً في المهد قاله ابن عباس * وروي عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن البصري وسعيد بن جبير والضحاك واختاره ابن جرير . وروي فيه حديثاً مرفوعاً عن ابن عباس ووقفه غيره عنه * وقيل كان رجلاً قريباً إلى أطفير بعلها . وقيل قريباً إليها * وممن قال إنه كان رجلاً ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن اسحاق وزيد بن أسلم فقال ﴿ إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ﴾ أي لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قدت مقدم قميصه ﴿ وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ أي لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك وكذلك كان . ولهذا قال تعالى ﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾ أي هذا الذي جرى من مكركن أنت[3] راودته عن نفسه * ثم اتهمته بالباطل ثم ضرب بعلها عن هذا صفحاً فقال ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ أي لا تذكره لأحد لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن وأمرها بالاستغفار لذنبها الذي صدر منها والتوبة إلى ربها فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : فتح الباري ١٠/٣٦/٦٦٠ و ١٦/٢٤ و ٢٤/٨١ وأخرجه مسلم في صحيحه ١٢/٣٠/٩١ والترمذي في سننه ٣٧/٥٣/٢٣٩١ والنسائي ومالك في الموطأ ٥١/٥/١٤ وأحمد في مسنده ٢/٤٣٩ .

(٢) يراجع تفسير ابن كثير ؛ تفسير سورة يوسف .

(٣) في نسخة : أنت الذي راودتيه عن نفسه . ثم اتهمتيه بالباطل .

وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له في ذلك * ولهذا قال لها بعلها وعذرها من بعض الوجوه لأنها رأت ما لا صبر لها على مثله إلّا أنه عفيف نزيه بريء العرض سليم الناحية فقال ﴿ استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾[1]. ﴿ وقال[2]نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن . فلما رأينه أكبرنه وقطعن إيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم . قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين . قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ [يوسف : ٣٠ - ٣٤]* يذكر تعالى ما كان من قبل نساء المدينة، من نساء الأمراء وبنات الكبراء[3]في الطعن على إمرأة العزيز وعيبها ، والتشنيع عليها في مراودتها فتاها ، وحبها الشديد له ، وهو لا يساوي هذا لانه مولى من الموالي وليس مثله أهلاً لهذا ولهذا قلن ﴿ إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ أي في وضعها الشيء في غير محله ﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾ أي بتشنيعهن عليها والتنقص لها والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فتاها فأظهرن ذماً وهي معذورة في نفس الأمر ، فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن ، وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن ، ولا من قبيل ما لديهن . فأرسلت إليهن فجمعتهن في منزلها . واعتدت لهن ضيافة مثلهن ، وأحضرت في جملة ذلك شيئاً مما يقطع بالسكاكين ، كالاترج ونحوه ، وأتت كل واحدة منهن سكيناً ، وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام وألبسته أحسن الثياب وهو في غاية طراوة الشباب ، وأمرته بالخروج عليهن بهذه[4]الحالة . فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة . ﴿ فلما رأينه أكبرنه ﴾ أي اعظمنه وأجللنه وهبنه[5]وما ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم وبهرهن حسنه

---

(١) سورة يوسف الآية ٢٩ وفيها : (واستغفري . . .) رجح الرازي أن يكون القائل هو الشاهد ؛ ويحتمل أن يكون المراد طلب المغفرة من الزوج أي طلب العفو والصفح ، ويحتمل أن يكون المراد بالاستغفار من الله . لان أولئك الأقوام كانوا يثبتون الصانع ؛ إلا انهم كانوا يعبدون الأوثان .

(٢) قوله (وقال نسوة) قال الرازي في تفسيره : لم يقل : وقالت نسوة لوجهين : - إن النسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي فلذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث . الثاني - قال الواحدي تقديم الفعل يدعو إلى إسقاط علامة التأنيث على قياس إسقاط علامة التثنية والجمع .

(٣) قال في تفسير الرازي : قال الكلبي هن أربع : امرأة ساقي العزيز ، وامرأة خبازه ، وامرأة صاحب سجنه - وامرأة صاحب دوابه . وزاد مقاتل : وامرأة الحاجب .

(٤) في نسخة : في هلبه .

(٥) في قول للرازي : أكبرن بمعنى حضن ، قال الأزهري يقال : أكبرت المرأة إذا حاضت ؛ وهو أن المرأة إذا خافت وفزعت فربما اسقطت ولدها ؛ وربما حاضت . =

حتى اشتغلن عن أنفسهن وجعلن يحززن في إيديهن بتلك الساكين ولا يشعرن بالجراح ﴿ وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾. وقد جاء في حديث الاسراء : « فمررت بيوسف واذا هو قد أعطي شطر الحسن ».

قال السهيلي وغيره من الأئمة : معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام ، لأن الله تعالى خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه فكان في غاية نهايات الحسن البشرى ، ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه ، ويوسف كان على النصف من حسن آدم . ولم يكن بينهما أحسن منهما ، كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة إمرأة الخليل عليه السلام .

قال ابن مسعود : وكان وجه يوسف مثل البرق ، وكان اذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه * وقال غيره : كان في الغالب مبرقعاً لئلا يراه الناس . ولهذا لما قام عذر[1] امرأة العزيز في محبتها لهذا المعنى المذكور ، وجرى لهن وعليهن ما جرى ، من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين ، وما ركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته : ﴿ قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ﴾ ثم مدحته بالعصمة[2] التامة فقالت ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ أي امتنع ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين ﴾ وكان بقية النساء حرّضنه على السمع والطاعة لسيدته ، فأبى أشد الإباء . ونأى لأنه من سلالة الأنبياء ودعا فقال في دعائه لرب العالمين ﴿ رب السجن أحب اليّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين ﴾ يعني إن وكلتني إلى نفسي ، فليس لي من نفسي إلاّ العجز والضعف ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله فأنا ضعيف إلاّ ما قويتني وعصمتني وحفظتني وحطني بحولك وقوتك .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم . ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين . ودخل معه السجن فتيان . قال احدهما إني أراني أعصر خمرا . وقال الآخر إني أراني احمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين . قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي إبراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا

= وقال : وعندي يحتمل انهن إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة ، وآثار الخضوع والإحتشام . وحمل الآية على هذا الوجه أولى . ج ١٨ /١٢٧ ـ ١٢٨ .

(١) في نسخة عذرن ؛ وهومناسب أكثر .

(٢) في نسخة بالعفة . وفي نسخة أخرى : بالعصمة والعفة .

إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ [يوسف : ٣٤ ـ ٤١]. يذكر تعالى عن العزيز وامرأته أنهم بدا لهم أي ظهر لهم من الرأي بعدما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية وأخمد لأمرها وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها فسجنوه ظلماً وعدواناً . وكان هذا مما قدر الله له * ومن جملة ما عصمه به فإنه أبعد له عن معاشرتهم . ومخالطتهم * ومن ههنا استنبط بعض الصوفية ما حكاه عنهم الشافعي أن من العصمة أن لا تجد . قال الله ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ قيل كان أحدهما ساقي الملك واسمه فيما قيل « بنو »[1]. والآخر خبازه يعني الذي يلي طعامه وهو الذي يقول له الترك « الجاشنكير » واسمه فيما قيل « مجلث »[2]كان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما * فلما رأيا يوسف في السجن أعجبهما سمته وهديه ودله وطريقته وقوله وفعله وكثرة عبادته ربه وإحسانه إلى خلقه فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه * قال أهل التفسير رأياً في ليلة واحدة * أما الساقي فرأى كأن ثلاث قضبان من حَبلةٍ وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب فأخذها فاعتصرها في كأس الملك وسقاه ، ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز وضواري الطيور تأكل من السل الأعلى فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرهما لهما وقالا ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبير بأمرها و ﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ﴾* قيل معناه مهما رأيتما من حلم فأني أعبره لكم قبل وقوعه فيكون كما أقول * وقيل معناه إني أخبركما بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلواً أو حامضاً كما قال عيسى ﴿ وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ﴾ [آل عمران : ٤٩] وقال لهما إن هذا من تعليم الله إياي لأني مؤمن به موحد له متبع ملة آبائي الكرام إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا ﴾ أي بأن هدانا لهذا ﴿ وعلى الناس ﴾ أي بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشدهم وندلهم عليه وهو في فطرهم مركوز وفي جبلتهم مغروز ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾* ثم دعاهم إلى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله عز وجل وصغّر أمر الأوثان وحقّرها وضعف أمرها . فقال ﴿ يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله ﴾ [يوسف : ٣٩ ـ ٤٠] أي هو المتصرف في خلقه الفعال لما يريد الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ أي وحده لا شريك له و ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي المستقيم والصراط القويم ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي فهم لا يهتدون اليه مع وضوحه وظهوره وكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال لأن نفوسهما معظمة له منبعثة على تلقي ما يقول

---

(١) في نسخة نبوا وفي الطبري نبو .

(٢) في الطبري : مجلب .

بالقبول فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبـا منه * ثم لما قام بما وجب عليه وارشد الى ما أرشد اليه قال ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ﴾ قالوا وهو الساقي ﴿ وأمـا الآخر فيصلب فتـأكل الـطير من رأسه ﴾ قـالوا وهـو الخبـاز ﴿ قضي الأمـر الـذي فيـه تستفتيان ﴾ أي وقع هذا لا محالة ووجب كونه على حالة ولهذا جاء في الحديث : « الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فاذا عبرت وقعت ».

وقد روي عن بن مسعود ومجاهد وعبد الرحمن بن زيـد بن أسلم ﴿ أنهما قالا لم نـر شيئاً ﴾ فقال لهما ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان . وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فانساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين ﴾ [يوسف : ٤٢]. يخبر تعالى أن يـوسف عليه السلام قال للذي ظنه ناجياً منهما وهو السـاقي ﴿ أذكرني عند ربك ﴾ يعني اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك * وفي هذا دليل على جواز السعي في الأسباب * ولا ينافي ذلك التوكل على رب الأرباب . وقوله ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ أي فانسى الناجي منهما الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام * قاله مجاهد ومحمد بن اسحق وغير واحد وهو الصواب وهو منصـوص أهل الكتـاب ﴿ فلبث يوسف في السجن بضـع سنين ﴾ والبضـع ما بـين الثلاث الى التسع * وقيل الى السبع * وقيل الى الخمس * وقيل ما دون العشرة . حكاهـا الثعلبي * ويقال بضع نسوة وبضعة رجال * ومنع الفراء استعمال البضع فيما دون العشر قال وإنما يقال نيف . وقال الله تعالى ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ وقال تعالى ﴿ في بضع سنين ﴾ [الروم : ٢] وهذا رد لقوله * قال الفراء : ويقال بضعة عشر وبضعة وعشرون إلى التسعين ولا يقال بضع ومائة وبضع وألف وخالف الجوهري فيما زاد على بضعة عشر فمنع أن يقال بضعة وعشرون إلى تسعين * وفي الصحيح : « الإيمان بضع وستون » وفي رواية وسبعون شعبة ، أعلاها[1]قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق »[2]. ومن قال إن الضمير في قوله ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ عائد على يوسف فقد ضعف ما قاله وإن كان قـد روي عن ابن عباس وعكـرمة والحـديث الذي رواه ابن جرير[3]في هذا الموضع ضعيف من كل وجه * تفرد بإسناده إبراهيم بن يزيد الخوزي[4] المكي وهو

---

(١) في نسخة وأعلاها وفي نسخة أخرى وأرفعها .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : فتح الباري ٢ / ٣ ورواه مسلم في ١ / ٥٧ / ٥٨ وأبـو داود والنسائي في سننيهما وابن ماجة في المقدمة وأحمد في مسنده ٢ / ١٤٤ ـ ٣٧٩ ـ ٤٤٥ .

(٣) تـاريخ الـطبري ج ١ / ١٧٧ وفي إسناده : عن وكيـع عن عمـرو بن محمـد عن إبـراهيم بن يـزيـد عن عمـرو بن دينار . . .

(٤) في نسخة خوذي وفي نسخة الخوري والصـواب الخوزي . نسبـة إلى خوز وهـو هنا شعب مكـة يسمى شعب الخوز وليس منسوباً إلى خوزستان .

وهو أبو إسماعيل المكي ، مولى بني أمية ـ متروك تقريب التهذيب ١ / ٤٦ .

متروك . ومرسل الحسن وقتادة لا يقبل ولا ههنا بطريق الأولى والأخرى والله أعلم .

فأما قول ابن حبان في صحيحه ، [عند] ذكر السبب الذي من أجله لبث يوسف في السجن ما لبث ، أخبرنا الفضل بن الحباب الجمحي ، ثنا مسدد بن مسرهد ، ثنا خالد بن عبد الله ، ثنا محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها : اذكرني عند ربك ما لبث في السجن ما لبث ورحم الله لوطاً أن كان ليأوي إلى ركن شديد إذ قال لقومه لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد قال : فما بعث الله نبياً بعده إلا في ثروة من قومه » . فإنه حديث منكر من هذا الوجه ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها . والذي في الصحيحين يشهد بغلطها والله أعلم .

﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾ [يوسف : ٤٣ ـ ٤٩] هذا كان من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن على وجه الإحترام والإكرام ، وذلك أن ملك مصر ، وهو الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشه بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح ، رأى هذه الرؤيا . قال أهل الكتاب رأى كأنه على حافة نهر وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان فجعلن يرتعن في روضة هناك فخرجت سبع هزال ضعاف من ذلك النهر ، فرتعن معهن ، ثم ملن عليهن، فأكلنهن فاستيقظ مذعوراً . ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر في قصبة واحدة ، وإذا سبع أخر دقاق يابسات فأكلنهن ، فاستيقظ مذعوراً . فلما قصها على ملئه وقومه لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها بل ﴿ قالوا أضغاث أحلام ﴾ أي أخلاط أحلام من الليل لعلها لا تعبير لها ، ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك ، ولهذا قالوا ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ فعند ذلك تذكر الناجي منهما الذي وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فنسيه إلى حينه هذا . وذلك عن تقدير الله عز وجل وله الحكمة في ذلك فلما سمع رؤيا الملك ورأى عجز الناس عن تعبيرها تذكر أمر يوسف وما كان أوصاه به من التذكار . ولهذا قال تعالى ﴿ وقال الذي نجا منهما وادكر ﴾ أي تذكر ﴿ بعد أمة ﴾ أي بعد مدة من الزمان وهو بضع سنين وقرأ بعضهم كما حكي عن ابن عباس وعكرمة والضحاك ﴿ وأدكر بعد أمة ﴾ أي بعد نسيان وقرأها مجاهد ﴿ بعد أمة ﴾ باسكان الميم وهو النسيان أيضاً يقال أمه الرجل يأمه أمهاً وأمهاً إذا نسي قال الشاعر .

امهت وكنت لا أنسى حـديثـا   كـذاك الدهـر يزري بـالعقـول

· فقال لقومه وللملك ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ أي فأرسلوني إلى يوسف فجاءه فقال ﴿ يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع الى الناس لعلهم يعلمون ﴾ وعند أهل الكتاب أن الملك لما ذكره له الساقي إستدعاه الى حضرته وقص عليه ما رآه ففسره له وهذا غلط والصواب ما قصه الله في كتابه القرآن لا ما عرفه هؤلاء الجهلة الثيران ، من قراى وربان[1]. فبذل يوسف عليه السلام ما عنده من العلم بلا تأخر ولا شرط ولا طلب الخروج سريعاً بل أجابهم الى ما سألوا وعبّر لهم ما كان من منام الملك الدال علىَ وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدب[2]. ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس ﴾ يعني يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية ﴿ وفيه يعصرون ﴾ يعني ما كانوا يعصرونه من الاقصاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها فعبّر لهم . وعلى الخير دلهم وأرشدهم إلى ما يعتمدونه في حالتي خصبهم وجدبهم وما يفعلونه من ادخار حبوب سني الخصب في السبع الأول في سنبله إلاّ ما يرصد بسبب الأكل ومن تقليل البذر في سني الجدب في السبع الثانية إذ الغالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل ﴿ وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأي والفهم .

﴿ وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ان ربي بكيدهن عليم . قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاشا لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴿ وما أبرىء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم ﴾ [يوسف ٥٠ ـ ٥٣]. لما أحاط الملك علماً بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام وتمام عقله ورأيه السديد وفهمه أمر بإحضاره إلى حضرته ليكون من جملة خاصته فلما جاءه الرسول بذلك أحب أن لا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلماً وعدواناً وأنه بريء الساحة مما نسبوه إليه بهتاناً ﴿ قال ارجع إلى ربك ﴾ يعني الملك ﴿ فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ان ربي بكيدهن عليم ﴾ قيل معناه إن سيدي العزيز يعلم براءتي مما نسب إليّ أي فمر الملك فليسألهن كيف كان امتناعي الشديد عند مراودتهن إياي وحثهن لي على الأمر الذي ليس برشيد ولا سديد . فلما سئلن عن ذلك اعترفن بما وقع من الأمر وما كان منه من الأمر الحميد ﴿ وقلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ فعند ذلك ﴿ قالت امرأة العزيز ﴾ وهي زليخا﴿الآن حصحص الحق ﴾ أي ظهر وتبين ووضح والحق أحق أن يتبع ﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ أي فيما يقوله من أنه بريء وانه لم يراودني وإنه حبس ظلماً

---

(١) في نسخة : من فرى وهذيان وفي أخرى : من افتراء وهذيان ؛ وما في النسخ المطبوعة تحريف .

(٢) فالسمان المخاصيب والعجاف هن السنون المحول الجدوب .

وعدواناً وزوراً وبهتاناً . وقوله ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ قيل إنه من كلام يوسف أي إنما طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أني لم أخنه بظهر الغيب . وقيل إنه من تمام كلام زليخا أي إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر وإنما كان مراده لم يقع معها فعل فاحشة وهذا القول هو الذي نصره طائفة كثيرة من أئمة المتأخرين وغيرهم ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم سوى الأول . ﴿ وما ابرىء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴾ قيل إنه من كلام يوسف وقيل من كلام زليخا وهو مفرع على القولين الأولين . وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى والله أعلم ﴿ وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [يوسف : ٥٤ ـ ٥٧]. لما ظهر للملك براءة عرضه ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه ﴿ قال ائتوني به استخلصه لنفسي ﴾ أي أجعله من خاصتي ومن أكابر دولتي ومن أعيان حاشيتي فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله ﴿ قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ أي ذو مكانة وأمانة ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالاهراء لما يتوقع من حصول الخلل فيها[١] بعد مضي سبع سني الخصب لينظر فيها بما يرضي الله في خلقه من الاحتياط لهم والرفق بهم وأخبر الملك إنه حفيظ أي قوي على حفظ ما لديه أمين عليه عليم بضبط الأشياء ومصالح الاهراء وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة * وعند أهل الكتاب أن فرعون عظّم يوسف عليه السلام جداً وسلّطه على جميع أرض مصر وألبسه خاتمه وألبسه الحرير وطوقه الذهب وحمله على مركبه الثاني ونودي بين يديه أنت رب ومسلط وقال له لست أعظم منك إلا بالكرسي . قالوا وكان يوسف اذ ذاك ابن ثلاثين سنة وزوجه إمرأة عظيمة الشأن .

وحكى الثعلبي أنه عزل قطفير عن وظيفته وولاها يوسف . وقيل[٢] إنه لما مات زوجه إمرأته زليخا فوجدها عذراء لأن زوجها كان لا يأتي النساء فولدت ليوسف عليه السلام رجلين وهما أفرايم ومنشا قال واستوثق ليوسف ملك مصر وعمل فيهم بالعدل فأحبه الرجال والنساء .

وحكي أن يوسف كان يوم دخل على الملك عمره ثلاثين سنة وأن الملك خاطبه بسبعين لغة وكلٌ[٣] ذلك يجاويه بكل لغة منها فأعجبه ذلك مع حداثة سنه فالله أعلم * قال الله تعالى ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ أي بعد السجن والضيق والحصر صار مطلق

---

(١) في نسخة : فيها بعد .

(٢) في الطبري : أن اطفير (قطفير) مات في تلك الليالي أي بعد عزله مباشرة عن عمله .

(٣) في نسخة : وفي كلٍ .

الركاب بديار مصر ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ أي أين شاء حلّ منها مكرماً محسوداً معظماً ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ أي هذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن مع ما يدخر له في آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل . ولهذا قال ﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ ويقال إن أطفير زوج زليخا كان قد مات فولاه الملك مكانه وزوجه إمرأته زليخا فكان وزير صدق .

وذكر محمد بن اسحق أن صاحب مصر ـ الوليد بن الريان ـ أسلم على يدي يوسف عليه السلام فالله أعلم . وقد قال بعضهم .

وراءَ مضيقِ الخوفِ متّسع الأمن	وأولُ مفروحٍ به غايةُ الحزْن
فلا تيأسنْ فالله ملّك يوسُفاً	خزائنَه بعدَ الخلاصِ من السِّجن

﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوف الكيل وأنا خير المنزلين . فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون . قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه إجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ [يوسف : ٥٨ ـ ٦٢] يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه الى الديار المصرية يمتارون طعاماً وذلك بعد إتيان سُني الجدب وعمومها على سائر البلاد والعباد . وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية ديناً ودنياً . فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه لأنهم لم يخطر ببالهم(١) ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة فلهذا عرفهم وهم له منكرون .

وعند أهل الكتاب أنهم لما قدموا عليه سجدوا له فعرفهم وأراد أن لا يعرفوه فأغلظ لهم في القول : وقال : أنتم جواسيس ، جئتم [لنا] لتأخذوا خير بلادي . فقالوا معاذ الله إنما جئنا نمتار لقومنا من الجهد والجوع الذي أصابنا ، ونحن بنو أب واحد من كنعان ، ونحن اثنا عشر رجلاً ذهب منا واحد ، وصغيرنا عند أبينا ، فقال : لا بد أن أستعلم أمركم * وعندهم : أنه حبسهم ثلاثة أيام ثم أخرجهم ، وأحتبس شمعون عنده ليأتوه بالأخ الآخر . وفي بعض هذا نظر . قال الله تعالى ﴿ فلما جهزهم بجهازهم ﴾ أي أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته في إعطاء كل إنسان

---

(١) في عدم معرفتهم له وجوه : انه أمر حجابه أن يوقفوهم بعيداً عنه ولم يتكلم معهم إلا بالواسطة مع مهابة الملك وشدة الحاجة يوجبان كثرة الخوف .
ـ تغيره بعد إلقائه في الجب منذ زمن بعيد ـ قيل أربعون سنة .
ـ حصول العرفان والتذكر ، لعله تعالى ما خلق ذلك في قلوبهم تحقيقاً لما أخبره عنهم وهذا من معجزات يوسف عليه السلام .

حمل بعير لا يزيده عليه ﴿ قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ وكان قد سألهم عن حالهم وكم هم فقالوا كنا إثني عشر رجلاً فذهب منا واحد وبقي شقيقه عند أبينا فقال إذا قدمتم من العام المقبل فأتوني به معكم ﴿ ألا ترون أني أوف الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ أي قد أحسنت نزلكم وقراكم فرغبهم ليأتوه به ثم رهبهم إن لم يأتوه به قال: ﴿ فإن لم تأتون به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ أي فلست أعطيكم ميرة ولا أقربكم بالكلية عكس ما أسدي إليهم أولاً فاجتهد في إحضاره معهم ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب ﴿ قالوا سنراود عنه أباه ﴾ أي سنجتهد في مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن ﴿ وإنا لفاعلون ﴾ أي وإنا لقادرون على تحصيله. ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم وهي ما جاؤا به يتعوضون به عن الميرة في أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها ﴿ لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ قيل أراد أن يردوها إذا وجدوها في بلادهم. وقيل خشي أن لا يكون عندهم ما يرجعون به مرة ثانية. وقيل تذمم أن يأخذ منهم عوضاً عن الميرة.

وقد اختلف المفسرون في بضاعتهم على أقوال سيأتي ذكرها * وعند أهل الكتاب أنها كانت صرراً من ورق وهو أشبه والله أعلم ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون. قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين. ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم. قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير. قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم. فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل. وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون. ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [يوسف : ٦٣ - ٦٨].

يذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم * وقولهم له ﴿ منع منا الكيل ﴾ أي بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا فإن أرسلته معنا لم يمنع منا ﴿ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي ﴾ أي أي شيء نريد وقد ردت إلينا بضاعتنا ﴿ ونمير أهلنا ﴾ أي نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم في سنتهم ومحلهم ﴿ ونحفظ أخانا ونزداد ﴾ بسببه ﴿ كيل بعير ﴾ قال الله تعالى ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ أي في مقابلة ذهاب ولده الآخر وكان يعقوب عليه السلام أضن شيء بولده بنيامين لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه ويتسلى به عنه ويتعوض بسببه منه فلهذا قال ﴿ لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ﴾ أي إلا أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به[1] ﴿ فلما آتوه موثقهم قال الله على ما تقول وكيل ﴾ أكد المواثيق وقرر

(١) قال الرازي في تفسيره : قال الواحدي للمفسرين فيه قولان :

العهود واحتاط لنفسه في ولده ولن يغني حذر من قدر . ولولا حاجته[1] وحاجة قومه إلى الميرة لما بعث الولد العزيز ولكن الأقدار لها أحكام والرب تعالى يقدر ما يشاء ويختار ما يريد ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم . ثم أمرهم أن لا يدخلوا المدينة من باب واحد ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة . قيل أراد أن لا يصيبهم أحد بالعين وذلك لأنهم كانوا أشكالاً حسنة وصوراً بديعة قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والسدي والضحاك * وقيل أراد أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبراً ليوسف أو يحدثون عنه بأثر . قاله إبراهيم النخعي . والأول أظهر ولهذا قال ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ وقال تعالى ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾.

وعند أهل الكتاب أنه بعث معهم هدية إلى العزيز من الفستق واللوز والصنوبر والبطم والعسل وأخذوا الدراهم الأولى وعوضاً آخر[2] ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون . قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم . قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين . قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم . قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون . قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا اذا لظالمون ﴾ [يوسف : ٦٩ - ٧٩].

يذكر تعالى ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف وإيوائه إليه وإخباره له سراً عنهم بأنه أخوه وأمره بكتم ذلك عنهم وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه * ثم

= - معناه الهلاك : قال مجاهد : إلا أن تموتوا كلكم فيكون ذلك عذراً عندي .
- ما ذكره قتادة : إلا أن تصيروا مغلوبين مقهورين . فلا تقدرون على الرجوع .

(١) في بعثه بنيامين معهم ؛ وقصة يوسف لا تزال حية في ضميره ؛ وجوه :
- انهم كبروا ومالوا إلى الخير والصلاح .
- انه كان يشاهد انه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد ما كان بينهم وبين يوسف .
- ضرورة القحط أحوجته إلى ذلك .
- لعله تعالى أوحى إليه وضمن حفظه وإيصاله إليه . راجع الرازي ج ١٨ / ١٧٠ .

(٢) في نسخة : وعرضاً آخر وفي نسخة أخرى : وعوضوا آخر .

احتال على أخذه منهم وتركه[1] إياه عنده دونهم فأمر فتيانه بوضع سقايته . وهي التي كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام عن غرته[2] في متاع بنيامين . ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك ووعدهم جعالة على رده حمل بعير وضمنه المنادى لهم فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأنبوه وهجنوه فيما قاله لهم و ﴿ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ﴾ يقولون أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة ﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين ﴾. وهذه كانت شريعتهم أن السارق يدفع إلى المسروق[3] منه ولهذا قالوا ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾. قال الله تعالى ﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ في الحيلة ثم قال الله تعالى ﴿ كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ أي لولا إعترافهم بأن جزاءه من وجد في رحله فهو جزاؤه لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم في سياسة ملك مصر ﴿ إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء ﴾ أي في العلم ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم وأتم رأياً وأقوى عزماً وحزماً وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه فلما عاينوا إستخراج الصواع من حمل بنيامين ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ يعنون يوسف * قيل كان قد سرق صنم جده أبي أمه فكسره . وقيل كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقة كانت لإسحق ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعت وإنما أرادت أن يكون عندها وفي حضانتها لمحبتها له . وقيل كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء . وقيل غير ذلك فلهذا ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ﴾ وهي كلمته بعدها وقوله ﴿ وأنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴾ أجابهم سراً لا جهراً حلماً وكرماً وصفحاً وعفواً فدخلوا معه في الترقق والتعطف فقالوا ﴿ يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون ﴾ أي إن أطلقنا المتهم وأخذنا البرىء . هذا ما لا نفعله ولا نسمح به وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده .

وعند أهل الكتاب أن يوسف تعرف إليهم حينئذ وهذا مما غلطوا فيه ولم يفهموه جداً ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين .

---

(١) في نسخة : وتركهم إياه .

(٢) في نسخة : عن غرة .

(٣) قال ابن عباس : كانوا في ذلك الزمان يستعبدون كل سارق بسرقته وكان استعباد السارق في شرعهم يجري مجرى وجوب القطع في شرعنا ، والمعنى جزاء هذا الجرم هو استعباد الشخص الذي يوجد المسروق في رحله ، إلا أن العفو وأخذ الفداء كان أيضاً جائزاً .

إرجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون . قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم وقال يا أسفي على يوسف وأبيضت عيناه من الحزن فهو كظيم قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بني إذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ [يوسف : ٨٠ ـ ٨٧].

يقول تعالى مخبراً عنهم أنهم لما استيأسوا من أخذه منه خلصوا يتناجون فيما بينهم قال كبيرهم وهو روبيل ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ﴾ لقد أخلفتم عهده وفرطتم فيه كما فرطتم في أخيه يوسف من قبله فلم يبق لي وجه اقابله به ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ أي لا أزال مقيماً ههنا ﴿ حتى يأذن لي أبي ﴾ في القدوم عليه ﴿ أو يحكم الله لي ﴾ بأن يقدرني على رد أخي إلى أبي ﴿ وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن إبنك سرق ﴾ أي اخبروه بما رأيتم من الأمر في ظاهر المشاهدة ﴿ وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين. واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ﴾ أي فإن هذا الذي أخبرناك به من أخذهم أخانا لأنه سرق أمر اشتهر بمصر وعلمه العير التي كنا نحن وهم هناك ﴿ وإنا لصادقون قال بل سولت لكم أنفسكم أمر فصبر جميل ﴾ أي ليس الأمر كما ذكرتم لم يسرق فإنه ليس سجية له ولا [هو][1]خلقه وإنما سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل .

قال ابن اسحق وغيره لما كان التفريط منهم في بنيامين مترتباً على صنيعهم في يوسف قال لهم ما قال وهذا كما قال بعض السلف إن من جزاء السيئة السيئة بعدها ثم قال ﴿ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ﴾ يعني يوسف وبنيامين وروبيل ﴿ إنه هو العليم ﴾ أي بحالي وما أنا فيه من فراق الأحبة ﴿ الحكيم ﴾ فيما يقدره ويفعله وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة ﴿ وتولى عنهم ﴾ أي أعرض عن بنيه ﴿ وقال يا أسفى على يوسف ﴾ ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم وحرك ما كان كامناً كما قال بعضهم :

نَقّلْ فؤادَكَ حيثُ شئتَ منَ الهوى ... ما الحبّ إلاّ لِلحبيبِ الأوّلِ

وقال آخر[2]:

لَقَدْ لاَمَني عندَ القُبورِ عَلى البُكا ... رَفيقي لتَذرافِ الدّموعِ السّوافكِ[3]

---

(١) سقطت من النسخ المطبوعة .

(٢) القائل : متمم بن نويرة .

(٣) الدموع السوافك : المذروفة بغزارة .

فقـالَ أتبكي كـلَّ قبـرٍ رأيتَـهُ لقبرٍ ثوى بينَ اللّوى فالدكادِكِ[1]
فقلتُ له إن الأسَى يبعثُ الأسى فـدَعْني فهـذا كلّهُ قبرُ مـالِـكِ

وقوله ﴿ وابيضت عيناه من الحزن ﴾ أي من كثرة البكاء ﴿ فهو كظيم ﴾ أي مكظم[2] من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق ﴿ قالوا ﴾ له على وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه ﴿ تا لله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين﴾ يقولون لا تزال تتذكره حتى تنحل جسدك وتضعف قوتك فلو رفقت بنفسك كان أولى بك ﴿ قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمـون ﴾ يقول لبنيـه لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه إنما أشكو إلى الله عز وجل وأعلم أن الله سيجعل لي مما أنا فيه فرجاً ومخرجاً وأعلم أن رؤيا يوسف لا بد أن تقع ولا بد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى ولهذا قال : ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ ثم قال لهم محرضاً على تطلب يوسف وأخيه وأن يبحثوا عن أمرهما . ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ أي لا تيئسوا من الفـرج بعد الشـدة فإنـه لا ييأس من روح الله وفرجه وما يقدره من المخرج في المضايق إلا القوم الكافرون ﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضُّر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين . قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تـالله لقـد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين . قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . إذهبـوا بقميصي هـذا فـألقـوه عـلى وجـه أبي يـأت بصيـراً وأتـوني بـأهلكم أجمـعين ﴾ [يوسف : ٨٨ - ٩٣].

يخبر تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليه وقدومهم عليه ورغبتهم فيما لديه من الميرة والصدقة عليهم رد أخيهم بنيامين إليهم ﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ﴾ أي من الجدب وضيق الحال وكثرة العيال ﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴾ أي ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن يتجاوز عنا . قيل كانت دراهم رديئة . وقيل قليلة وقيل حب الصنوبر وحب البطم ونحو ذلك . وعن ابن عباس كانت خلق الغرائر والحبال ونحو ذلك ﴿ فأوف لنا الكيل وتصـدق علينا إن الله يجزي المتصدقين ﴾ قيل بقبولها قاله السـدي . وقيل برد أخينا إلينا قاله ابن جريج . وقال سفيان بن عيينة إنما حرمت الصدقة على نبينا محمد ﷺ ونزع بهذه الآية رواه ابن جرير . فلما رأى ما هم فيه من الحال وما جاؤوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال تعرف إليهم وعطف عليهم قائلاً لهم

(١) اللوى والدكادك : موضعان .
(٢) في نسخة : مكمد .

عن أمر ربه وربهم . وقد حسر لهم عن جبينه الشريف وما يحويه من الخال فيه الذي يعرفون ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا ﴾ وتعجبوا كل العجب وقد ترددوا إليه مراراً عديدة وهم لا يعرفون أنه هو ﴿ أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي ﴾ يعني أنا يوسف الذي صنعتم معه ما صنعتم وسلف من أمركم فيه ما فرطتم وقوله ﴿ وهذا أخي ﴾ تأكيد لما قال وتنبيه على ما كانوا أضمروا لهما من الحسد وعملوا في أمرهما من الإحتيال ولهذا قال ﴿ قد من الله علينا ﴾ أي بإحسانه إلينا وصدقته علينا وإيوائه لنا وشده معاقد عزنا وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا وصبرنا على ما كان منكم الينا وطاعتنا وبرنا لأبينا ومحبته الشديدة لنا وشفقته علينا ﴿ إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ أي فضلك وأعطاك ما لم يعطنا ﴿ وإن كنا لخاطئين ﴾ . أي فيما أسدينا إليك[1]وها نحن بين يديك ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم ﴾ أي لست أعاقبكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا ثم زادهم على ذلك فقال ﴿ اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ .

ومن زعم أن الوقف على قوله لا تثريب عليكم وابتدأ بقوله اليوم يغفر الله لكم فقوله ضعيف والصحيح الأول . ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه وهو الذي يلي جسده فيضعوه على عيني أبيه فانه يرجع إليه بصره بعدما كان ذهب بإذن الله وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات * ثم أمرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعين[2]إلى ديار مصر إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة على أكمل الوجوه وأعلى الأمور .

﴿ فلما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون . قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً . قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون . قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف استغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [يوسف : ٩٤ - ٩٨] .

قال عبد الرزاق أنبأنا اسرائيل عن أبي سنان عن عبد الله بن أبي الهذيل سمعت ابن عباس يقول : فلما فصلت العير قال : لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف ﴿ فقال إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ قال فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام[3] . وكذا رواه الثوري وشعبة وغيرهم عن أبي سنان[4]به . وقال الحسن البصري وابن جريج المكي كان بينهما

(١) قال أبو علي الجبائي : لم يعتذروا إليه من أقدامهم على إلقائه في الجب ، وإنما اعتذروا من حيث انهم أخطأوا لأنهم لم يظهروا لأبيهم ما فعلوه . . قال الرازي وهذا الكلام ضعيف تفسير الفخر الرازي ١٨/٥ ٢ .

(٢) قال الكلبي : كان أهله نحواً من سبعين إنساناً ، وقال مسروق : ثلاثة وتسعون بين رجل وامرأة . تفسير الرازي ١٨/٢٠٧ . وفي الطبري ١/١٨٧ : كان دخول يعقوب مصر في سبعين إنساناً من أهله .

(٣) في نسخة : ثلاثة أيام .

(٤) في نسخة : أبي سعد . وفي الطبري : ابن سنان .

مسيرة ثمانين فرسخاً وكان له منذ فارقه ثمانون سنة وقوله ﴿ لولا أن تفندون ﴾ أي تقولـون إنما قلت هذا من الفند وهو الخرف وكبر السن . قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة تفندون تسفهون . وقال مجاهد أيضاً والحسن تهرمون ﴿ قالوا تـالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ قال قتادة والسدي قالوا له كلمة غليظة[1]. قال الله تعالى ﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً ﴾ أي بمجرد ما جاء[2]القى القميص على وجه يعقوب فرجع من فوره بصيـراً بعدمـا كان ضريراً وقـال لبنيه عنـد ذلك ﴿ ألم أقـل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمـون ﴾ أي أعلم أن الله سيجمع شملي بيوسف وستقر عيني به وسيريني فيه ومنه ما يسرني فعند ذلك ﴿ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴾ طلبوا منه أن يستغفر لهم الله عز وجل عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه وما كانوا عزموا عليه . ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل وفقهم الله للإستغفار عند وقوع ذلك منهم فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا وما عليه عولوا قائلاً ﴿ سوف استغفر لكم ربي إنه هو الغفـور الرحيم ﴾.

قال ابن مسعود وإبـراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جـريج وغيـرهم أرجأهم إلى وقت السحر قال ابن جرير حدثني أبو السائب حدثنا ابن ادريس سمعت عبد الرحمن بن اسحق يذكر عن محـارب بن دثار قال كان عمر يأتي المسجـد فسمع إنسـاناً يقـول « اللهم دعوتني فـأجبت وامرتني فاطعت وهذا السـحر فاغفر لي » قال فاستمع الصوت فإذا هـو من دار عبد الله بن مسعـود فسأل عبد الله عن ذلك فقال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ وقد قـال الله تعـالى ﴿ والمستغفـرين بـالأسحـار ﴾ [آل عمـران : ١٧] وثبت في الصحيحـين[3]عن رسول الله ﷺ قال : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول هل من تائب فأتوب عليه هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فأغفر له »[4]وقد ورد في حديث : « أن يعقوب أرجأ بنيه إلى ليلة الجمعة » قال ابن جرير[5]حدثني المثنى . ثنا سليمان بن عبد الـرحمن بن أيوب الـدمشقي حدثنـا الوليد[6]أنبأنا ابن جريج عن عطاء وعكرمة عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ يقول حتى تأتي ليلة الجمعة وهو قول أخي يعقوب لبنيه . وهذا غريب من هذا الوجه . وفي

---

(١) زاد قتادة : ولم يكن يجوز أن يقولوها لنبي الله ، والمراد بقولهم : حبك القديم ليوسف لا تنساه ولا تذهل عنه ، وما تكابد من الأحزان والشقاء على يوسف .

(٢) جمهور المفسرين البشير هو : يهودا . وفي روايـة للطبري ١/ ١٨٥ : البشير : يعني البـريد الـذي أبرده يـوسف إلى يعقوب .

(٣) وفي النسخ المطبوعة : الصحيح وهو تحريف .

(٤) صحيح مسلم في ٦ كتاب صلاة المسافرين باب ٢٣/ح ١٦٦/ ٧٥٧ ص ١/ ٥٢١ عن جابر بن عبد الله .

(٥) تاريخ الطبري ج ١/ ١٨٦ .

(٦) وهو الوليد بن مسلم .

رفعه نظر والأشبه أن يكون موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه . ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين أخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم . رب قد آتيتني من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والاخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ [يوسف : ٩٩ - ١٠١] .

هذا إخبار عن حال إجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة التي قيل أنها ثمانون سنة وقيل ثلاث وثمانون سنة وهما روايتان عن الحسن . وقيل خمس وثلاثون سنة قاله قتادة . وقال محمد بن اسحاق ذكروا أنه غاب عنه ثماني عشرة سنة * قال وأهل الكتاب يزعمون[1] أنه غاب عنه أربعين سنة وظاهر سباق القصة يرشد إلى تحديد المدة تقريباً فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة فيما قاله غير واحد فامتنع فكان في السجن بضع سنين وهي سبع عند عكرمة وغيره . ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع ثم لما أمحل الناس في السبع البواقي جاء إخوتهم يمتارون في السنة الأولى وحدهم وفي الثانية ومعهم أخوه بنيامين . وفي الثالثة تعرف إليهم وأمرهم بإحضار أهلهم أجمعين فجاؤا كلهم ﴿فلما دخلوا عليه آوى إليه أبويه﴾ اجتمع بهما[2] خصوصاً وحدهما دون إخوته ﴿ وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ قيل هذا من المقدم والمؤخر تقديره ادخلوا مصر وآوى إليه أبويه . وضعفه ابن جرير وهو معذور * قيل تلقاهما وآواهما في منزل الخيام . ثم لما اقتربوا من باب مصر ﴿ قال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ قاله السدي . ولو قيل إن الأمر لا يحتاج إلى هذا أيضاً وأنه ضمن قوله أدخلوا معنى اسكنوا مصر أو اقيموا بها ﴿ إن شاء الله آمنين ﴾ لكان صحيحاً مليحاً أيضاً .

وعند أهل الكتاب أن يعقوب لما وصل إلى أرض جاشر وهي أرض بلبيس خرج يوسف لتلقيه وكان يعقوب قد بعث ابنه يهوذا بين يديه مبشراً بقدومه وعندهم أن الملك أطلق لهم أرض جاشر يكونون فيها ويقيمون بها بنعمهم ومواشيهم * وقد ذكر جماعة من المفسرين أنه لما أزف قدوم نبي الله يعقوب وهو اسرائيل أراد يوسف أن يخرج لتلقيه فركب معه الملك وجنوده خدمة ليوسف

---

(١) في نسخة : يدعون .

(٢) المراد بقوله أبويه : قولان : -

المراد أبوه وأمه ، وعلى هذا تكون أمه لا تزال حية إلى ذلك الوقت ، وقيل انها كانت قد ماتت وأن الله تعالى احياها من قبرها .

- المراد أبوه وخالته ، لأن أمه - كما مر - ماتت في النفاس بأخيه بنيامين وقد تزوج أبوه بخالته فسماها الله بأحد الأبوين . تفسير الرازي ١٨ / ٢١٠ .

وتعظيماً لنبي الله إسرائيل وأنه دعا للملك وأن الله رفع عن أهل مصر بقية سني الجدب ببركة قدومه إليهم فالله أعلم .

وكان جملة من قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم فيما قاله أبو إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة عن ابن مسعود ثلاثة وستين إنساناً * وقال موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب عن عبد الله بن شداد كانوا ثلاثة وثمانين إنساناً . وقال أبو اسحاق عن مسروق دخلوا وهم ثلثمائة وتسعون إنساناً . قالوا وخرجوا مع موسى وهم أزيد من ستمائة ألف مقاتل * وفي نص أهل الكتاب أنهم كانوا سبعين نفساً وسموهم[1]. قال الله تعالى ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ قيل كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة . وقال بعض المفسرين فأحياها الله تعالى وقال آخرون بل كانت خالته ليا والخالة بمنزلة الأم . وقال ابن جرير وآخرون بل ظاهر القرآن يقتضي بقاء حياة أمه إلى يومئذ فلا يعول على نقل أهل الكتاب فيما خالفه وهذا قوي والله أعلم[2]. ورفعهما على العرش أي اجلسهما معه على سريره ﴿ وخروا له سجداً ﴾ أي سجد له الأبوان والأخوة الأحد عشر تعظيماً وتكريماً وكان هذا مشروعاً لهم ولم يزل ذلك معمولاً به في سائر الشرائع حتى حرم في ملتنا[3]. ﴿ وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ أي هذا تعبير ما كنت قصصته عليك من رؤيتي الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر حين رأيتهم لي ساجدين وأمرتني بكتمانها ووعدتني ما وعدتني عند ذلك ﴿ قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن ﴾ أي بعد الهم والضيق جعلني حاكماً نافذ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ أي البادية وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخليل ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ﴾ أي فيما كان منهم إليّ من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره * ثم قال ﴿ إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ أي إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه ويسرها وسهلها من وجوه لا يهتدي إليها العباد بل يقدرها وييسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته ﴿ إنه هو العليم ﴾ أي بجميع الأمور ﴿ الحكيم ﴾ في خلقه وشرعه وقدره .

---

(١) تقدم التعليق فليراجع .

(٢) تقدم التعليق فليراجع .

(٣) قال الرازي : في سجود يعقوب ليوسف واستجازته له وجوه :

- لأجل وجدانه سجدا لله تعالى ، إن ذلك السجود كان سجوداً للشكر فالمسجود له هو الله .
- جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا لله شكراً لنعمة وجدانه كما يقال : صليت للكعبة .
- قد يسمى التواضع سجوداً ، إلا أن هذا شكل لأنه تعالى قال : (وخروا له سجدا) .
- الضمير في قوله (وخروا له) غير عائد للأبوين وإلا لقال : وخروا له ساجدين بل الضمير عائد إلى إخوته .
- لعل الفعل الدال على التحية والاكرام في ذلك الوقت هو السجود ، والمقصود التعظيم وهذا بعيد .
- لعل يعقوب علم أن إخوته لن يسجدوا له على سبيل التواضع ، ففعل هو ذلك السجود مع جلالة قدره وعظم حقه حتى يصير عمله سبباً لزوال الأنفة والنفرة عن قلوبهم .
- لعل الله تعالى أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية . بإختصار تفسير الرازي ١٨/٢١٢ - ٢١٣ .

وعند أهل الكتاب أن يوسف باع أهل مصر وغيرهم من الطعام الذي كان تحت يده ـ بأموالهم كلها من الذهب والفضة والعقار والأثاث وما يملكونه كله حتى باعهم بأنفسهم فصاروا أرقاء * ثم أطلق لهم أرضهم وأعتق رقابهم على أن يعملوا ويكون خمس ما يشتغلون من زرعهم وثمارهم للملك فصارت سنة أهل مصر بعده[1].

وحكى الثعلبي أنه كان لا يشبع في تلك السنين حتى لا ينسى الجيعان وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار قال فمن ثم اقتدى به الملوك في ذلك * قلت وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يشبع بطنه عام الرمادة[2] حتى ذهب الجدب وأتى الخصب.

وقال الشافعي قال رجل من الأعراب لعمر بعدما ذهب عام الرمادة لقد انجلت عنك وإنك لابن حرة. ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت وشمله قد إجتمع عرف أن هذه الدار لا يقربها قرار وأن كل شيء فيها ومن عليها فان. وما بعد التمام إلاّ النقصان فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله واعترف له بعظيم إحسانه وفضله. وسأل منه ـ وهو خير المسؤلين ـ أن يتوفاه أي حين يتوفاه على الإسلام. وأن يلحقه بعباده الصالحين. وهكذا كما يقال في الدعاء « اللهم احينا مسلمين وتوفنا مسلمين » أي حين تتوفانا. ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام كما سأل النبي ﷺ عند احتضاره أن يرفع روحه إلى الملأ الأعلى والرفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين كما قال: « اللهم في الرفيق الأعلى » ثلاثاً ثم قضى [3].

ويحتمل أن يوسف عليه السلام سأل الوفاة على الإسلام منجزاً في صحة بدنه وسلامته وأن ذلك كان سائغاً في ملتهم وشرعتهم كما روي عن ابن عباس أنه قال: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف. فأما في شريعتنا فقد نهي عن الدعاء بالموت إلاّ عند الفتن كما في حديث معاذ في الدعاء الذي رواه أحمد: « وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنا إليك غير مفتونين »[4] وفي الحديث الآخر: « ابن آدم، الموت خير لك من الفتنة » وقالت مريم عليها السلام ﴿ يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾ [مريم: ٢٣] وتمنى الموت علي بن أبي طالب لما تفاقمت الأمور وعظمت الفتن واشتد

---

(١) هو ما كانوا يسمونه في مصر نظام المزارعة، وقد بقي معمولاً بعقود هذا النظام إلى وقت متأخر.

(٢) عام الرمادة: لما صدر الناس عن الحج سنة ثماني عشرة أصاب الناس جهد شديد وأجدبت البلاد وأهلكت الماشية وجاع الناس وهلكوا. سمي ذلك العالم عام الرمادة لأن الأرض كلها صارت سوداء فشبهت بالرماد وكانت تسعة أشهر. طبقات ابن سعد ٣/ ٣١٠.

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل ج ٧/ ٢٠٨ عن عائشة ورواه البخاري في الصحيح عن بشر بن محمد بن مبارك ح ٤٤٣٥ في ٦٤ كتاب المغازي ٨٣ باب مرض رسول الله ﷺ عن عائشة فتح الباري ٨/ ١٣٦.

(٤) الحديث رواه الترمذي في سننه ٤٨/ ٣٩/ ٣٢٣٥ وقال: هذا الحديث حسن صحيح. ورواه أحمد في المسند ١/ ٣٦٨، ٤/ ٦٦، ٥/ ٢٤٣، ٥/ ٤٢٧.

القتال وكثر القيل والقال وتمنى ذلك البخاري أبو عبد الله صاحب الصحيح لما اشتد عليه الحال ولقي من مخالفيه الأهوال .

فأما في حال الرفاهية فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما[1] من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به إما محسناً فيزداد وإما مسيئاً فلعله يستعتب ولكن ليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » والمراد بالضر ههنا ما يخص العبد في بدنه من مرض ونحوه لا في دينه * والظاهر أن نبي الله يوسف عليه السلام سأل ذلك إما عند إختضاره أو إذا كان ذلك أن يكون كذلك .

وقد ذكر ابن اسحق عن أهل الكتاب أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة ثم توفي عليه السلام وكان قد أوصى إلى يوسف عليه السلام أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحق . قال السدي فصبر وسيره إلى بلاد الشام فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحق وجده الخليل عليهم السلام .

وعند أهل الكتاب أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة . وعندهم أنه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنة ومع هذا قالوا فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة * هذا نص كتابهم وهو غلط إما في النسخة أو منهم أو قد أسقطوا الكسر وليس بعادتهم فيما هو أكثر من هذا فكيف يستعملون هذه الطريقة ههنا وقد قال تعالى في كتابه العزيز ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة : ١٣٣] يوصي بنيه بالإخلاص وهو دين الإسلام الذي بعث الله به الأنبياء عليهم السلام .

وقد ذكر أهل الكتاب أنه أوصى بنيه واحداً واحداً وأخبرهم بما يكون من أمرهم وبشر يهوذا بخروج نبي عظيم من نسله تطيعه الشعوب وهو عيسى بن مريم والله أعلم .

وذكروا أنه لما مات يعقوب بكى عليه أهل مصر سبعين يوماً وأمر يوسف الأطباء فطيبوه بطيب ومكث فيه أربعين يوماً ثم إستأذن يوسف ملك مصر في الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله فأذن له وخرج معه أكابر مصر وشيوخها فلما وصلوا حبرون دفنوه في المغارة التي كان إشتراها إبراهيم الخليل من عفرون بن صخر الحيثي وعملوا له عزاء سبعة أيام قالوا ثم رجعوا إلى بلادهم وعزى إخوة يوسف ليوسف في أبيهم وترققوا له فأكرم وأحسن منقلبهم فأقاموا ببلاد مصر . ثم

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ١٩/٧٥ ، ٣٠/٨٠ ، ٧/٨١ ورواه مسلم في ٤٨/١٠ - ١٣ ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والدارمي في سننهم ؛ وأحمد في مسنده : ٢٦٣/٢ - ٣٠٩ - ٣١٦ - ٣٥٠ ، ١٠٠/٣ - ١٠٤ - ١٦٣ - ١٧١ - ١٩٥ - ٢٠٨ - ٢٤٧ ، ١٠٩/٥ - ١١٠ - ١١١ - ١١٢ ، ٣٣٩/٦ - ٣٩٥ .

حضرت يوسف عليه السلام الوفاة فأوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه فحنطوه ووضعوه في تابوت فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام فدفنه عند آبائه كما سيأتي . قالوا فمات وهو ابن مائة سنة وعشر سنين * هذا نصهم فيما رأيته وفيما حكاه ابن جرير أيضاً . وقال مبارك بن فضالة عن الحسن ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وغاب عن أبيه ثمانين سنة وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة . ومات وهو ابن مائة سنة وعشرين سنة * وقال غيره أوصى إلى أخيه يهوذا صلوات الله عليه وسلامه .

قصّة نبي الله ايّوب

قال ابن اسحق كان رجلاً من الروم وهو أيوب بن موص بن زراح[1] بن العيص بن إسحق ابن إبراهيم الخليل . وقال غيره هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن اسحق بن يعقوب وقيل غير ذلك في نسبه . وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام . وقيل كان أبوه ممن آمن بإبراهيم عليه السلام يوم ألقي في النار فلم تحرقه والمشهور الأول لأنه من ذرية إبراهيم كما قررنا عند قوله تعالى : ﴿ ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون ﴾ الآيات من أن الصحيح أن الضمير عائد على إبراهيم دون نوح عليهما السلام . وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النساء في قوله تعالى ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ﴾ الآية . فالصحيح أنه من سلالة العيص بن اسحق وإمرأته قيل اسمها ليا بنت يعقوب وقيل رحمه بنت أفرائيم[2]. وقيل منشا بن يوسف بن يعقوب . وهذا أشهر فلهذا ذكرناه ها هنا . ثم نعطف بذكر أنبياء بني إسرائيل بعد ذكر قصته إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان . قال الله تعالى ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ [الأنبياء : ٨٣ ـ ٨٤] وقال تعالى في سورة ص ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب . أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب . وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ [ص : ٤١ ـ ٤٤] وروى ابن عساكر من طريق الكلبي أنه قال : أول نبي بعث إدريس . ثم نوح . ثم إبراهيم . ثم إسماعيل . ثم إسحق . ثم يعقوب . ثم يوسف . ثم لوط . ثم هود . ثم صالح . ثم شعيب . ثم موسى وهرون . ثم إلياس . ثم اليسع . ثم عرفى بن سويلخ بن أفرائيم بن يوسف بن

(١) في الطبري : رازح . وفي المعارف لابن قتيبة : بن صوص بن رعويل .
(٢) في الطبري : افرائيم بن يوسف بن يعقوب .

يعقوب . ثم يونس بن متى من بني يعقوب . ثم أيوب بن زراح[1] بن آموص بن ليفرز بن العيص بن اسحق بن إبراهيم . وفي بعض هذا الترتيب نظر فإن هوداً وصالحاً المشهور أنهما بعد نوح . وقبل إبراهيم والله أعلم .

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض البثينة من أرض حوران[2].

وحكى ابن عساكر أنها كلها كانت له وكان له أولاد وأهلون كثير فسلب من ذلك جميعه وابتلي في جسده بأنواع البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه . يذكر الله عز وجل بها وهو في ذلك كله صابر محتسب ، ذاكر الله عز وجل في ليله ونهاره وصباحه ومسائه . وطال مرضه حتى عافه الجليس ، وأوحش منه الأنيس ، وأخرج من بلده وألقي على مزبلة خارجها ، وانقطع عنه الناس ، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته ، كانت ترعى له حقه ، وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها ، فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه ، وتعينه على قضاء حاجته وتقوم بمصلحته . وضعف حالها وقل ما لها حتى كانت تخدم الناس بالأجر ، لتطعمه وتقوم بأوده ، رضي الله عنها وأرضاها ، وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد وما يختص بها من المصيبة بالزوج وضيق ذات اليد وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة فإنا لله وإنا إليه راجعون . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « أشد الناس بلاء الأنبياء . ثم الصالحون . ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلي الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه »[3]. ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلاّ صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً حتى أن المثل ليضرب بصبره عليه السلام ويضرب المثل أيضاً بما حصل له من أنواع البلايا * وقد روى عن وهب بن منبه وغيره من علماء بني اسرائيل في قصة أيوب خبر طويل في كيفية ذهاب ماله وولده وبلائه في جسده والله أعلم بصحته * وعن مجاهد أنه قال كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدري وقد اختلفوا في مدة بلواه على أقوال فزعم وهب أنه ابتلى ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص . وقال أنس ابتلى سبع سنين وأشهراً وألقى على مزبلة[4] لبني اسرائيل تختلف الدواب في جسده حتى فرج الله عنه وعظم له الأجر وأحسن الثناء عليه .

---

(١) وفي نسخة : راذح ، وفي الطبري : رازح .

(٢) في الطبري : وكان لأيوب البثنية من الشام كلها بما فيها بين شرقها وغربها وكان له بها ألف شاة برعاتها وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد ولكل عبد امرأة وولد ومال ويحمل آلة كل فدان اتان لكل اتان ولد بين اثنين وثلاثة وأربعة وخمسة وفوق ذلك .

(٣) أحمد في مسنده ١/١٧٢ ـ ١٧٤ ـ ١٨٠ ـ ١٨٥ والترمذي في سننه ٢٣٩٨/٥٦/٣٧ وقال : هذا حديث حسن صحيح . ورواه الدارمي وابن ماجة في سننيهما .

(٤) في الطبري : كناسة خارج القرية لبني إسرائيل لا يقربه أحد إلا زوجته .

وقال حميد مكث في بلواه ثمانية عشرة سنة . وقال السدي تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته فلما طال عليها قالت ﴿ يا أيوب لو دعوت ربك لفرج عنك فقال قد عشت سبعين سنة صحيحاً فهو قليل لله أن أصبر له سبعين سنة ﴾ فجزعت من هذا الكلام وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام .

ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها لعلمهم أنها امرأة أيوب خوفاً أن ينالهم من بلائه أو تعديهم بمخالطته فلما لم تجد أحداً يستخدمها عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها بطعام طيب كثير فأتت به أيوب فقال من أين لك هذا وأنكره فقالت خدمت به أناساً فلما كان الغد لم تجد أحداً فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به فأنكره أيضاً وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام فكشفت عن رأسها خمارها فلما رأى رأسها محلوقاً قال في دعائه ﴿ إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ [الأنبياء ٨٣] .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة ، حدثنا جرير بن خازم ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : كان لأيوب أخوان فجاءا يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه فقاما من بعيد ، فقال أحدهما لصاحبه : لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط قال ﴿ اللهم ان كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعانا وأنا أعلم مكان جائع فصدقني ﴾ فصدق من السماء وهما يسمعان ثم قال ﴿ اللهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قميصان قط وأنا أعلم مكان عار فصدقني فصدق من السماء وهما يسمعان ﴾ ثم قال اللهم بعزتك وخرّ ساجداً فقال اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني فما رفع رأسه حتى كشف عنه .

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، انبئنا ابن وهب ، أخبرني نافع بن يزيد ، عن عقيل ، عن الزهري ، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : « إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له كانا يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه : يعلم الله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين ، قال له صاحبه : وما ذاك قال : منذ ثماني عشر سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به . فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب : لا أدري ما تقول ؟ غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان ، فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما ، كراهية أن يذكر الله إلا في حق » . قال وكان يخرج في حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع فلما كان ذات يوم أبطأت عليه فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن ﴿ أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ [ص : ٤٢] فاستبطأته فتلقته تنظر وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان فلما رأته قالت أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى فوالله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً قال فإني أنا هو . قال وكان له أندر

للقمح وأندر للشعير فبعث الله سحابتين فلما كانت أحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في أندر[1] الشعير الورق حتى فاض . هذا لفظ ابن جرير وهكذا رواه بتمامه إبن حبان في صحيحه عن محمد بن الحسن بن قتيبة عن حرملة عن ابن وهب به . هذا غريب رفعه جداً . والأشبه أن يكون موقوفاً . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي ثنا موسى بن اسمعيل حدثنا حماد أنبئنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال وألبسه الله حلة من الجنة فتنحى أيوب وجلس في ناحية وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت يا عبد الله هذا المبتلي الذي كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب وجعلت تكلمه ساعة قال ولعل أنا أيوب قالت أتسخر مني يا عبد الله فقال ويحك أنا أيوب قد رد الله عليَّ جسدي .

قال ابن عباس ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم . وقال وهب بن منبه . أوحى الله إليه قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك وقرب عن صحابتك[2] قرباناً واستغفر لهم فانهم قد عصوني فيك رواه ابن أبي حاتم . وقال ابن أبي حاتم ثنا أبو زرعة حدثنا عمرو بن مرزوق حدثنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لما عافى الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جراداً من ذهب فجعل يأخذ بيده ويجعل في ثوبه قال فقيل له يا أيوب أما تشبع . قال يا رب ومن يشبع من رحمتك »[3]. وهكذا رواه الإمام أحمد عن أبي داود الطيالسي وعبد الصمد عن همام عن قتادة به . ورواه ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن محمد الأزدي عن إسحق بن راهوية عن عبد الصمد به ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب وهو على شرط الصحيح فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : ثنا سفيان ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، أرسل على أيوب رجل من جراد من ذهب فجعل يقبضها في ثوبه فقيل يا أيوب الم يكفك ما أعطيناك ؟ قال : أي رب ومن يستغني عن فضلك؟[4]. هذا موقوف . وقد روى عن أبي هريرة من وجه آخر مرفوعاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام بن منبه ، قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب

---

(١) الأندر : الكدس من القمح خاصة .

(٢) ذكر الطبري ان ثلاثة نفر (فقط) قد اتبعوه على دينه يقال للأول : يلدد ،والآخر : اليفز ، والثالث : صافر . ووردت في التوراة : بلدد الشوحي ، أليفار اليماني ، صوفر النعماني . وفي تعليله لإشفائه : ان هؤلاء بكتوه في بلائه ؛ فأقبل على ربه يستغيثه ويتضرع إليه فرحمه ربه ورفع عنه البلاء ورد عليه أهله وماله ومثلهم معهم .

(٣) رواه أحمد في مسنده ٢ /٥١١ وأبو داود الطيالسي في مسنده ٢ /٨٣/ ٢٣٠٢ .

(٤) مسند أحمد ج ٢ /٢٤٣ ـ ٣٠٤ .

فجعل أيوب يحثي في ثوبه ، فناداه ربه عز وجل ﴿ يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ﴾ قال : بلى يا رب ، ولكن لا غنى لي عن بركتك »[1]. رواه البخاري من حديث عبد الرزاق به .

وقوله ﴿ أركض برجلك ﴾ أي اضرب الأرض برجلك فامتثل ما أمر به فانبع الله لـه عيناً باردة الماء وأمر أن يغتسل فيهـا ، ويشرب منهـا ، فأذهب الله عنـه ما كـان يجده من الألم والأذى والسقم والمرض ، الذي كان في جسده ظاهراً وباطناً وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة وجمالاً تاماً ومالاً كثيراً حتى صب له من المال صباً مطراً عظيماً جراداً[2] من ذهب وأخلف الله له أهله كما قال تعالى ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ [الأنبياء : ٨٤] . فقيـل أحيـاهم الله بأعيـانهم . وقيل آجره فيمن سلف وعوضه عنهم في الدنيا بدلهم وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة . وقوله ﴿ رحمة من عندنا ﴾ أي رفعنا عنه شدته ﴿ وكشفنا ما به من ضر ﴾ رحمة منا بـه ورأفة وإحسـاناً ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ أي تذكرة لمن ابتلى في جسده أو ماله أو ولده فله أسوة بنبي الله أيوب حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه .

ومن فهم من هـذا اسم امرأتـه فقال هي رحمـة من هذه الآيـة فقد أبعـد النجعـة وأغـرق النزع[3]. وقال الضحاك عن ابن عباس رد الله إليها شبابها وزادها حتى ولدت له ستـة وعشرون ولداً ذكراً .

وعاش أيوب بعـد ذلك سبعـين سنة بـأرض الروم عـلى دين الحنيفية ثم غيـروا بعده دين إبراهيم . وقوله ﴿ خذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ [ص : ٤٤] هـذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسـوله أيـوب عليه السـلام فيما كـان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط فقيل حلفه ذلك لبيعها ضفائرها . وقيل لأنه عرضها الشيطان في صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب فأتته فأخبرته فعرف أنه الشيطان فحلف ليضربها مـائة سـوط . فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضغثاً[4] وهو كالعثكال[5] الذي يجمع الشماريخ[6] فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة ويكون هذا منزلاً منزلة الضرب بمائة سـوط ويبر ولا يحنث . وهـذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولا سيما في حق امرأته الصابـرة المحتسبة المكـابدة الصـديقة البارة الراشدة رضي الله عنها . ولهذا عقب الله هذه الرخصة وعللها بقوله ﴿ إنا وجدناه صـابراً

---

(١) مسند أحمد ج ٢/٣١٤ والبخاري في صحيحه ٥/٢٠ ـ ٦٠/٢٠ و٩٧/٣٥ .
(٢) جراد : آنية .
(٣) النزع : النبت .
(٤) الضغث : قبضة من قضبان مختلفة ، يجمعها أصل واحد مثل الأسل .
(٥) العثكال : ما علّق من عهن أو صوف أو زينة فتذبذب في الهواء .
(٦) الشماريخ : واحدها شمراخ ، وشماريخ العثكال اغصانه . وأصله في العذق .

نعم العبد إنه أواب ﴾ وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة في باب الإيمان والنذور وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل في الخلاص من الإيمان وصدروه بهذه الآية الكريمة وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب * وسنذكر طرفاً من ذلك في كتاب الأحكام عند الوصول إليه إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ أن أيوب عليه السلام لما توفي كان عمره ثلاثاً وتسعين سنة . وقيل إنه عاش أكثر من ذلك . وقد روى ليث عن مجاهد ما معناه أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء وبيوسف عليه السلام على الأرقاء وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء رواه ابن عساكر بمعناه وأنه أوصى إلى ولده حومل وقام بالأمر بعده ولده بشر بن أيوب وهو الذي يزعم كثير من الناس أنه ذو الكفل فالله أعلم . ومات ابنه هذا وكان نبياً فيما يزعمون وكان عمره من السنين خمساً وسبعين * ولنذكر ههنا قصة ذي الكفل إذ قال بعضهم إنه ابن أيوب عليهما السلام .

قصة ذي الكفل(١)

الذي زعم قوم أنه ابن أيوب

قال الله تعالى بعد قصة أيوب في سورة الأنبياء ﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين . وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾ [الأنبياء : ٨٥ ـ ٨٦] وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضاً في سورة ص ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم واسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ﴾ [ص : ٤٥ ـ ٤٨] فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي عليه من ربه الصلاة والسلام وهذا هو المشهور . وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجلاً صالحاً وحكماً مقسطاً عادلاً * وتوقف ابن جرير في ذلك فالله أعلم .

وروى ابن جرير وابن أبي نجيح عن مجاهد أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجلاً صالحاً وكان قد تكفل لبني قومه أن يكفيه أمرهم ويقضي بينهم بالعدل فسمي ذا الكفل . وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق داود بن أبي هند عن مجاهد أنه قال لما كبر اليسع قال : لو أني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل ، فجمع الناس فقال : من يتقبل لي

(١) قال الزجاج : الكفل في اللغة الكساء الذي يجعل على عجز البعير ، والكفل أيضاً النصيب .

بثلاث استخلفه . يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب[1] . قال : فقام رجل تزدريه العين[2]، فقال : أنا . فقال : أنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب قال نعم . قال فردهم ذلك اليوم ، وقال مثلها اليوم الآخر ، فسكت الناس وقام ذلك الرجل فقال : أنا . فاستخلفه قال : فجعل إبليس يقول للشياطين عليكم بفلان فأعياهم ذلك ، فقال : دعوني وإياه فأتاه في صورة شيخ كبير فقير ، وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة ، وكان لا ينام الليل والنهار ، إلا تلك النومة فدق الباب ، فقال : من هذا ؟ قال : شيخ كبير مظلوم * قال : فقام ففتح الباب ، فجعل يقص عليه ، فقال : إن بيني وبين قومي خصومة وإنهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا حتى حضر الرواح[3]وذهبت القائلة ، وقال : إذا رحت فأتني آخذ لك بحقك . فانطلق وراح . فكان في مجلسه فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه . فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه ، أتاه فدق الباب فقال : من هذا فقال الشيخ الكبير المظلوم ففتح له فقال ألم أقل لك إذا قعدت فأتني فقال إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك وإذا قمت جحدوني قال : فانطلق فإذا رحت فأتني قال ففاتته القائلة فراح فجعل ينتظر فلا يراه وشق عليه النعاس فقال لبعض أهله لا تدعن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام فإني قد شق علي النوم . فلما كان تلك الساعة جاء فقال له الرجل وراءك وراءك فقال إني قد أتيته أمس فذكرت له أمري فقال : لا والله لقد أمرنا أن لا ندع أحداً يقربه فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها فإذا هو في البيت وإذا هو يدق الباب من داخل قال فاستيقظ الرجل فقال يا فلان ألم آمرك قال أما من قبلي والله فلم تؤت فأنظر من أين أتيت ؟ قال : فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه وإذا الرجل معه في البيت فعرفه فقال أعدو الله قال : نعم أعييتني في كل شيء ففعلت ما ترى لأغضبنك ، [فعصمك الله مني][4]فسماه الله ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به .

وقد روى ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عباس قريباً من هذا السياق . وهكذا روى عن عبد الله بن الحارث ومحمد بن قيس وابن حجيرة الأكبر وغيرهم من السلف نحو هذا . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الجماهر أنبئنا سعيد بن بشير حدثنا قتادة عن كنانة بن الأخنس قال سمعت الأشعري ـ يعني أبا موسى رضي الله عنه ـ وهو على هذا المنبر يقول : ما كان ذو الكفل نبياً ، ولكن كان رجلٌ صالحٌ يصلي كل يوم مائة صلاة ، فتكفل له ذو الكفل من بعده يصلي كل يوم مائة صلاة فسمي ذا الكفل . ورواه ابن جرير من طريق عبد الرزاق عن معمر عن قتادةُ .

---

(١) زاد في القرطبي : ولا يغضب وهو يقضي .

(٢) في القرطبي : رجل من ذرية العيص .

(٣) الرواح : قيل الرواح العشيّ ، وقيل : الرواح من لدن زوال الشمس إلى الليل .

(٤) الزيادة من القرطبي .

قال : قال أبو موسى الأشعري ، فذكره منقطعاً . فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد(١): حدثنا أسباط بن محمد ، حدثنا الأعمش ، عن عبد الله بن عبد الله . عن سعد مولى طلحة ، عن ابن عمر ، قال سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين ـ حتى عد سبع مرار ـ ولكن قد سمعته أكثر من ذلك قال : « كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت فقال لها ما يبكيك [أ] أكرهتك قالت لا ولكن هذا عمل لم أعمله قط وإنما حملتني عليه الحاجة قال فتفعلين هذا ولم تفعليه قط . ثم نزل فقال اذهبي بالدنانير لك . ثم قال والله لا يعصي الله الكفل أبداً فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه قد غفر الله لكفل »(٢) . ورواه الترمذي من حديث الأعمش به وقال حسن . وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر فهو حديث غريب جداً . وفي إسناده نظر فإن سعداً(٣) هذا قال أبو حاتم لا أعرفه إلاّ بحديث واحد ووثقه ابن حبان ولم يرو عنه سوى عبد الله بن عبد الله الرازي هذا فالله أعلم .

باب ذكر أمم أهلكوا بعامة

وذلك قبل نزول التوراة بدليل قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى الآية﴾ [القصص : ٤٣] . كما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والبزار من حديث عوف الأعرابي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال : ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء أو من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخوا قردة . ألم تر أن الله تعالى يقول : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ ورفعه البزار في رواية له . والأشبه والله أعلم وقفه فدل على أن كل أمة أهلكت بعامة قبل موسى عليه السلام : فمنهم :

أصحاب الرس

قال الله تعالى في سورة الفرقان ﴿ وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً . وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيراً ﴾ [الفرقان : ٣٨ ـ ٣٩] وقال تعالى في صورة قٓ ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة

(١) مسند أحمد ج ٢ / ٢٣ .

(٢) رواه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول . ورواه الترمذي أبو عيسى في سننه كتاب صفة القيامة (٣٨) باب ٤٨ ح / ٢٤٩٦ . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن قد رواه شيبان وغير واحد عن الأعمش ونحو هذا ورفعوه . وروى بعضهم عن الأعمش ولم يرفعه .

(٣) سعد ويقال طلحة ، عن ابن عمر ، وعنه عبدالله (الرازي) وثقه الكاشف (١ / ٢٨٠) أو سعيد ويقال طلحة مولى سعد مجهول من الرابعة تقريب التهذيب ١ / ٢٩٠ .

وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾ [ق : ١٢ - ١٤] وهذا السياق والذي قبله يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا وهو الهلاك . وهذا يرد اختيار ابن جرير من أنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج[١]، لأن أولئك عند ابن اسحق وجماعة كانوا بعد المسيح عليه السلام وفيه نظر أيضاً . وروى ابن جرير قال قال ابن عباس أصحاب الرس[٢]؛ أهل قرية من قرى ثمود . وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر في أول تاريخه عند ذكر بناء دمشق عن تاريخ أبي القاسم عبد الله بن عبد الله بن جرداد وغيره : أن أصحاب الرس كانوا بحضور فبعث الله إليهم نبياً يقال له حنظلة بن صفوان فكذبوه وقتلوه فسار عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح بولده من الرس فنزل الأحقاف وأهلك الله أصحاب الرس وانتشروا في اليمن كلها وفشوا مع ذلك في الأرض كلها حتى نزل جيرون بن سعد بن عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح دمشق وبنى مدينتها وسماها جيرون وهي إرم ذات العماد وليس أعمدة الحجارة في موضع أكثر منها بدمشق ، فبعث الله هود بن عبد الله بن رباح بن خالد بن الحلود بن عاد إلى عاد ، يعني أولاد عاد بالأحقاف ، فكذبوه وأهلكهم الله عز وجل ، فهذا يقتضي أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة فالله أعلم[٣]. وروى ابن أبي حاتم ، عن أبي بكر بن أبي عاصم عن أبيه عن شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس قال الرس بئر بآذربيجان . وقال الثوري عن أبي بكر عن عكرمة قال الرس بئر رسوا فيها نبيهم أي دفنوه فيها[٤]. وقال بن جريج قال عكرمة أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب ياسين . وقال قتادة فلج من قرى اليمامة قلت : فإن كانوا أصحاب ياسين كما زعمه عكرمة فقد أهلكوا بعامة قال الله تعالى في قصتهم ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ [يس: ٢٩] وستأتي قصتهم بعد هؤلاء وإن كانوا غيرهم وهو الظاهر فقد أهلكوا أيضاً وتبروا * وعلى كل تقدير فينافي ما ذكره ابن جرير .

وقد ذكر أبو بكر محمد ابن الحسن النقاش : أن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويهم وتكفي أرضهم جميعها وكان لهم ملك عادل حسن السيرة فلما مات وجدوا عليه وجداً عظيماً فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان في صورته وقال إني لم أمت ولكن تغيبت عنكم حتى أرى صنيعكم ففرحوا أشد الفرح وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه وأخبرهم أنه لا يموت أبداً فصدق به أكثرهم وافتتنوا به وعبدوه فبعث الله فيهم نبياً وأخبرهم[٥] أن هذا شيطان يخاطبهم من وراء الحجاب ونهاهم عن

---

(١) قال تعالى : (قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود) (٤ - ٦) .

(٢) الرَّسّ : في كلام العرب البئر التي تكون مطوية والجمع رساس . وفي الصحاح : الرس بئر كانت لبقية من ثمود . والرس أيضاً عند العرب : الدفن .

(٣) تاريخ ابن عساكر ١ / ١٥ تهذيب .

(٤) عن عكرمة : دفنوه حياً .

(٥) في نسخة : فأخبرهم ، وهو مناسب أكثر .

عبادته وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له

قال السهيلي وكان يوحي إليه في النوم وكان اسمه حنظلة بن صفوان فعدوا عليه فقتلوه وألقوه في البئر فغار ماؤها وعطشوا بعد ريهم ويبست أشجارهم وانقطعت ثمارهم وخربت ديارهم وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة وبعد الإجتماع بالفرقة وهلكوا عن آخرهم وسكن في مساكنهم الجن والوحوش(١) فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن وزئير الأسد(٢) وصوت الضباع . فأما ما رواه - أعني - ابن جرير عن محمد بن حميد عن سلمة عن ابن إسحق عن محمد بن كعب القرظي قال قال رسول الله ﷺ : « إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود » وذلك أن الله تعالى بعث نبياً إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك الأسود . ثم إن أهل القرية عدوا على النبي فحفروا له بئراً فألقوه فيها ثم أطبقوا عليه بحجر أصم قال : فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ثم يأتي بحطبه فيبيعه ويشتري به طعاماً وشراباً ثم يأتي به إلى ذلك(٣) البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله عليها ، ويدلي إليه طعامه وشرابه ثم يردها كما كانت ، قال : فكان كذلك ما شاء الله أن يكون * ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها ، فلما أراد أن يحتملها وجد سنة فاضطجع ينام(٤) فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً ثم إنه هب فتمطى وتحول لشقه الآخر فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى ثم إنه هب واحتمل حزمته، ولا يحسب أنه نام إلّا ساعة من نهار فجاء إلى القرية فباع حزمته ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع * ثم إنه ذهب إلى الحفرة إلى موضعها الذي كانت فيه فالتمسه فلم يجده وقد كان بدا لقومه فيه بداء فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه * قال فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل فيقولون له ما ندري حتى قبض الله النبي عليه السلام وأهب(٥) الأسود من نومه بعد ذلك فقال رسول الله ﷺ : « إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة » . فإنه حديث مرسل ومثله فيه نظر . ولعل بسط قصته من كلام محمد بن كعب القرظي والله أعلم .

ثم قد رده ابن جرير نفسه وقال لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس المذكورون في القرآن قال لأن الله أخبر عن أصحاب الرس أنه أهلكهم وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم(٦) .

---

(١) في نسخة : والوحش .

(٢) في نسخة : والأسود .

(٣) في نسخة : تلك .

(٤) في نسخة : فنام .

(٥) في الرازي والقرطبي : وهب .

(٦) قال الرازي : واعلم أن القول ما قاله أبو مسلم وهو أن شيئاً من هذه الروايات غير معلوم بالقرآن . ولا بخبر قوي الإسناد ، ولكنهم كيف كانوا فقد أخبره الله تعالى عنهم انهم أهلكوا بسبب كفرهم ٢٤ / ٨٣ .

اللهم إلا أن يكون حدثت لهم أحداث آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم والله أعلم . ثم اختار أنهم أصحاب الأخدود وهو ضعيف لما تقدم ولما ذكر في قصة أصحاب الأخدود حيث توعدوا بالعذاب في الآخرة إن لم يتوبوا ولم يذكر هلاكهم وقد صرح بهلاك أصحاب الرس والله أعلم .

قصّة قوم يس

وهم[1] اصحاب القرية

قال الله تعالى ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين . قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم . قالوا طائركم معكم أإن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون . أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغني عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون . إني إذا لفي ضلال مبين . إني آمنت بربكم فاسمعون . قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين . وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ [يس : ١٣ - ٢٩].

اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية أنطاكية. رواه ابن اسحق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه ، وكذا روى عن بريدة بن الحصيب وعكرمة وقتادة والزهري وغيرهم ، قال ابن اسحق فيما بلغه عن ان ابن عباس وكعب ووهب انهم قالوا : وكان لها ملك اسمه انطيخس بن انطيخس وكان يعبد الأصنام . فبعث الله اليه ثلاثة من الرسل وهم صادق وصدوق وشلوم فكذبهم .

وهذا ظاهر أنهم رسل من الله عز وجل . وزعم قتادة أنهم كانوا رسلاً من المسيح . وكذا قال ابن جرير عن وهب ، عن ابن سليمان ، عن شعيب الجبائي : كان اسم المرسلين[2] الأوليين

= وفي القرطبي تعليقاً على قول ابن جرير . قال الثعلبي : هؤلاء آمنوا بنبيهم فلا يجوز أن يكونوا أصحاب الرس ، لان الله تعالى أخبر عن أصحاب الرس ، أنه دمرهم . ج ١٣/٣٣ .

(١) في نسخة : ومنهم أصحاب القرية .

(٢) في نسخة : الرسولين . قال القرطبي هذا قول الطبري وقال غيره : شمعون ويوحنا ، وحكى النقاش : سمعان ويحيى ولم يذكرا صادقاً وصدوقاً .

شمعون ، ويوحنا ، واسم الثالث بولس ، والقرية أنطاكية .

وهذا القول ضعيف جداً : لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح في ذلك الوقت ولهذا كانت إحدى المدن الأربع التي تكون فيها بتاركة النصارى وهن أنطاكية والقدس واسكندرية ورومية ثم بعدها إلى القسطنطينية ولم يهلكوا وأهل هذه القرية المذكورة في القرآن أهلكوا كما قال في آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ [يس : ٢٩] لكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن بعثوا إلى أهل أنطاكية قديماً فكذبوهم وأهلكهم الله ثم عمرت بعد ذلك . فلما كان في زمن المسيح آمنوا برسله إليهم فلا يمنع هذا والله أعلم .

فأما القول بأن هذه القصة المذكورة في القرآن هي قصة أصحاب المسيح فضعيف لما تقدم ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضي أن هؤلاء الرسل من عند الله . قال الله تعالى ﴿ واضرب لهم مثلاً ﴾ يعني لقومك يا محمد ﴿ أصحاب القرية ﴾ يعني المدينة ﴿ إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ أي أيدناهما بثالث في الرسالة ﴿ فقالوا إنا إليكم مرسلون ﴾ فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم كما قالت الأمم الكافرة لرسلهم يستبعدون أن يبعث الله نبياً بشرياً فأجابوهم بأن الله يعلم أنا رسله إليكم ولو كنا كذبنا عليه لعاقبنا وأنتقم منا أشد الإنتقام ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ أي إنما علينا أي نبلغكم ما أرسلنا به إليكم والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ قالوا إنا تطيرنا بكم ﴾ أي تشائمنا بما جئتمونا به[1] ﴿ لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ﴾ بالمقال وقيل بالفعال ويؤيد الأول قوله ﴿ وليمسنكم منا عذاب أليم ﴾ فوعدوهم بالقتل والإهانة . ﴿ قالوا طائركم معكم ﴾ أي مردود عليكم ﴿ أَأَن ذكرتم ﴾ أي بسبب أنا ذكرناكم بالهدى ودعوناكم إليه توعدتمونا بالقتل والإهانة ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ أي لا تقبلون الحق ولا تريدونه . وقوله تعالى ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ﴾ يعني لنصرة الرسل وأظهار الإيمان بهم ﴿ قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون ﴾ أي يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجرة ولا جعالة . ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع شيئاً لا في الدنيا[2] ولا في الآخرة ﴿ أني إذا لفي ضلال مبين ﴾ أي إن تركت عبادة الله وعبدت معه ما سواه * ثم قال مخاطباً للرسل ﴿ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ قيل فاستمعوا مقالتي واشهدوا لي بها عند ربكم . وقيل معناه فاسمعوا يا قومي ايماني برسل الله جهرة . فعند ذلك

---

(١) قال مقاتل : حبس عنهم المطر ثلاث سنين فقالوا هذا بشؤمكم ، القرطبي ١٥/١٦ .

(٢) قال وهب : وكان حبيب مجذوماً ، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : كان ينحت الأصنام وكان عكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم ، لعلهم يرحمونه ويكشفون ضره فما استجابوا له ؛ فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله ؛ وأن هذه لا تنفع شيئاً ولا تضر . فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به . القرطبي ١٥/١٨

قتلوه . قيل رجماً . وقيل عضاً وقيل وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه * وحكى ابن اسحق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود قال وطئوه بأرجلهم حتى أخرجوا قصبته [من دبره][1].

وقد روى الثوري عن عاصم الأحول عن أبي مجلز كان اسم هذا الرجل حبيب بن مري * ثم قيل كان نجاراً وقيل حبالاً . وقيل إسكافاً . وقيل قصاراً وقيل كان يتعبد في غار هناك فالله أعلم .

وعن ابن عباس كان حبيب النجار قد أسرع فيه الجذام وكان كثير الصدقة قتله قومه . ولهذا قال تعالى : ﴿ إدخل الجنة ﴾ يعني لما قتله قومه أدخله الله الجنة فلما رأى فيها من النضرة والسرور ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ يعني ليؤمنوا بما آمنت به فيحصل لهم ما حصل لي .

قال ابن عباس نصح قومه في حياته ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ وبعد مماته ﴿ يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾رواه ابن أبي حاتم وكذلك قال قتادة لا يلقى المؤمن إلاّ ناصحاً لا يلقي غاشاً لما عاين ما عاين من كرامة الله ﴿ يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هو عليه قال قتادة فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ﴾ أي ما احتجنا في الإنتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم . هذا معنى ما رواه ابن اسحق عن بعض أصحابه[2]عن ابن مسعود * قال مجاهد وقتادة وما أنزل عليهم جنداً أي رسالة أخرى قال ابن جرير والأول أولى . قلت : وأقوى ، ولهذا قال ﴿ وما كنا منزلين ﴾ أي وما كنا نحتاج[3]في الإنتقام إلى هذا حين كذبوا رسلنا وقتلوا ولينا ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فاذا هم خامدون ﴾ .

قال المفسرون بعث الله إليهم جبريل عليه السلام فأخذ بعضادتي الباب الذي لبلدهم ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون أي قد أخمدت أصواتهم وسكنت حركاتهم ولم يبق منهم عين تطرف .

وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية لأن هؤلاء أهلكوا بتكذيبهم رسل الله إليهم وأهل أنطاكية آمنوا واتبعوا رسل المسيح من الحواريين إليهم فلهذا قيل إن أنطاكية أول مدينة

---

(١) من القرطبي . وقصبته : أمعاؤه .
وقيل في قتله : عن الحسن : حرقوه حرقاً .

(٢) في نسخة : أشياخه .

(٣) في نسخة : محتاجين .

آمنت بالمسيح * فأما الحديث الذي رواه الطبراني من حديث حسين الأشقري[1] عن سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « السبق ثلاثة فالسابق إلى موسى يوشع بن نون والسابق إلى عيسى صاحب يس والسابق إلى محمد علي بن أبي طالب »[2] فإنه حديث لا يثبت لأن حسيناً هذا متروك وشيعي من الغلاة وتفرده بهذا مما يدل على ضعفه بالكلية والله أعلم .

قصّة يونس

قال الله تعالى في سورة يونس ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ [يونس : ٩٨] وقال تعالى في سورة الأنبياء ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ [الأنبياء : ٨٧ ـ ٨٨] وقال تعالى في سورة والصافات ﴿ وإن يونس لمن المرسلين إذْ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ [الصافات : ١٣٩ ـ ١٤٨]. وقال تعالى في سورة نون ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم * لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾ [القلم : ٤٧ ـ ٥٠] .

قال أهل التفسير بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل نينوى ، من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله عز وجل فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم ، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم ، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث[3].

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد من السلف والخلف فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجوا[4] إلى الله عز وجل وصرخوا وتضرعوا

---

(١) في نسخة : الأشقر وفي أخرى : الأصفر وهو تحريف .

(٢) رواه الطبراني في ٣/١١١/٢ . قال البخاري في الأشقري : ضعيف جداً .
وقال العقيلي : عن البخاري قال فيه : فيه نظر (الضعفاء ٩٠) .

(٣) في تفسير الرازي بعد أربعين ليلة . وعند القرطبي فكالأصل .

(٤) عجوا : معناها هنا : تضرعوا .

إليه وتمسكنوا لديه وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات[1] وجأرت الأنعام والدواب والمواشي فرغت الأبل وفصلانها وخارت البقر وأولادها وثغت الغنم وحملانها وكانت ساعة عظيمة هائلة فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم بسببه ودار على رؤسهم كقطع الليل المظلم ولهذا قال تعالى ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ﴾ أي هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها فدل على أنه لم يقع ذلك بل كما قال تعالى ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ [سبأ : ٣٤]. وقوله ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ [يونس : ٩٨] أي آمنوا بكمالهم .

وقد اختلف المفسرون هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة فينقذهم من العذاب الأخروي كما أنقذهم من العذاب الدنيوي على قولين ؛ الأظهر من السياق نعم . والله أعلم . كما قال تعالى ﴿ لما آمنوا ﴾ وقال تعالى ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾. وهذا المتاع إلى حين لا ينفي أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروي والله أعلم .

وقد كانوا مائة ألف لا محالة واختلفوا في الزيادة فعن مكحول عشرة آلاف * وروى الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث زهير عمن سمع أبا العالية : حدثني أبي بن كعب أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ [الصافات : ١٤٧] قال : « يزيدون عشرين ألفاً فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلاً في هذا الباب * وعن ابن عباس كانوا مائة ألف وثلاثين ألفاً وعنه وبضعة وثلاثين ألفاً . وعنه وبضعة وأربعين ألفاً وقال سعيد بن جبير كانوا مائة ألف وسبعين ألفاً .

واختلفوا هل كان ارساله إليهم قبل الحوت أو بعده أو هما أمتان على ثلاثة أقوال : هي مبسوطة في التفسير * والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضباً بسبب قومه ركب سفينة في البحر فلجت بهم واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون * قالوا فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتحفظوا منه . فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس فلم يسمحوا به فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضاً فشمر[2] ليخلع ثيابه ويلقي بنفسه فأبوا عليه ذلك . ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضاً لما يريده الله به من الأمر العظيم . قال الله تعالى : ﴿ وإن يونس لمن المرسلين . اذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم ﴾ [الصافات : ١٣٩ ـ ١٤٢]. وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقي في البحر وبعث الله عز وجل

---

(١) في النسخ المطبوعة : الأمهاب وهو تحريف .
(٢) في نسخة : فتشمر .

حوتاً عظيماً من البحر الأخضر فالتقمه وأمره الله تعالى أن لا يأكل له لحماً ولا يهشم له عظماً فليس لك برزق فأخذه فطاف به البحار كلها وقيل إنه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه * قالوا ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات فحرك جوارحه فتحركت فإذا هو حي فخر لله ساجداً وقال يا رب اتخذت لك مسجداً لم يعبدك أحد في مثله .

وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه . فقال مجالد عن الشعبي التقمه ضحى ولفظه عشية * وقال قتادة مكث فيه ثلاثاً وقال جعفر الصادق سبعة أيام ويشهد له شعر أمية بن أبي الصلت :

وأنتَ بفضلٍ منكَ نجّيتَ يُونساً ... وقدْ باتَ في أضعافِ حُوتٍ لياليا

وقال سعيد بن أبي الحسن وأبو مالك مكث في جوفه أربعين يوماً والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه[١].

والمقصود أنه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجية ويقتحم به لجج الموج الأجاجي[٢]فسمع تسبيح الحيتان للرحمن وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى ورب السموات السبع والأرضين السبع وما بينها وما تحت الثرى * فعند ذلك وهنالك قال ما قال : بلسان الحال والمقال ، كما أخبر عنه ذو العزة والجلال الذي يعلم السر والنجوى ، ويكشف الضر والبلوى ، سامع الأصوات وإن ضعفت ، وعالم الخفيات وإن دقت ، ومجيب الدعوات وإن عظمت ، حيث قال في كتابه المبين المنزل على رسوله الأمين ، وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين ﴿ **وذا النون إذ ذهب** ﴾ إلى أهله ﴿ **مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾ [الأنبياء : ٨٧ ـ ٨٨] ﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ أن نضيق * وقيل معناه نقدر من التقدير وهي لغة مشهورة قدرَ وقدّر كما قال الشاعر .

فَلاَ عائدٌ ذاكَ الزمانُ الّذي مضَى ... تباركْتَ ما يقدَرْ يكُن فلَكَ الأمرُ[٣]

﴿ **فنادى في الظلمات** ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والضحاك ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل وقال سالم بن أبي الجعد ابتلع الحوت حوت آخر فصار ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر[٤]. وقوله تعالى ﴿ **فلولا أنه**

---

(١) في القرطبي : قال السدي والكلبي ومقاتل بن سليمان : أربعين يوماً . الضحاك : عشرين يوماً . عطاء سبعة أيام . مقاتل بن حبان : ثلاثة أيام وقيل ساعة واحدة . ١٥/ ١٢٣ .

(٢) الأجاجي : نسبة إلى الأجاج : الملح .

(٣) في القرطبي : أنشد ثعلب :

ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى ... تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر

(٤) قال الماوردي : انه يحتمل أن يعبر بالظلمات عن ظلمة الخطيئة ، وظلمة الشدة ، وظلمة الوحدة .

كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ [الصافات : ١٤٣ - ١٤٤] قيل معناه لولا أنه سبح الله هنالك وقال ما قال من التهليل والتسبيح والإعتراف لله بالخضوع والتوبة إليه والرجوع إليه للبث هنالك إلى يوم القيامة . ولبعث من جوف ذلك الحوت . هذا معنى ما روي عن سعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه . وقيل معناه ﴿ فلولا أنه كان ﴾ من قبل أخذ الحوت له ﴿ من المسبحين ﴾ أي المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيراً قاله الضحاك بن قيس وابن عباس وأبو العالية ووهب بن منبه وسعيد بن جبير والضحاك والسدي وعطاء بن السائب والحسن البصري وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لي : « يا غلام إني معلمك كلمات إحفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة »[1]وروى ابن جرير في تفسيره والبزار في مسنده من حديث محمد بن اسحاق عمن حدثه عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة [قالت] سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ « لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذ [ه] ولا تخدش لحماً ولا تكسر عظماً [فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه من البحر] فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً فقال في نفسه ما هذا فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر » قال فسبح وهو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا إنا نسمع صوتاً [ضعيفاً] بأرض غريبة، قال ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر » قالوا العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح قال : نعم » قال فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه في الساحل » كما قال الله ﴿ وهو سقيم ﴾ هذا لفظ ابن جرير إسناداً ومتناً[2]» ثم قال البزار لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلاّ بهذا الإسناد كذا قال . وقد قال ابن أبي حاتم في تفسيره : حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن ، أخي ابن وهب ، حدثنا عمي ، حدثني أبو صخر أن يزيد الرقاشي حدثه سمعت أنس بن مالك ولا أعلم إلاّ أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ : « أن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال : ﴿ اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فأقبلت الدعوة تحن بالعرش فقالت الملائكة يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة فقال أما تعرفون ذاك ؟ قالوا : يا رب ومن هو ؟ قال : عبدي يونس ، قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عملاً متقبلاً ودعوة مجابة ، قالوا : يا ربنا أولا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ قال : بلى ، فأمر الحوت فطرحه في العراء » ورواه ابن جرير ، عن يونس ، عن ابن وهب به ، زاد ابن أبي حاتم » قال : أبو صخر حميد بن زياد فأخبرني ابن قسيط وأنا احدثه هذا الحديث أنه سمع أبا هريرة يقول : طرح بالعراء وأنبت الله عليه اليقطينة قلنا يا أبا هريرة وما اليقطينة قال شجرة

---

(١) مسند أحمد ج ٢٩٣/٢ - ٣٠٧ .

(٢) ما بين معكوفين من الطبري ٤٥/٢ .

الدباء قال أبو هريرة وهيأ الله له أروية[1] وحشية تأكل من خشاش[2] الأرض أو قال هشاش الأرض. قال فتنفشخ[3] عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك بيتاً من شعره :

فأنبتَ يقطيناً عَليهِ برحمةٍ   منَ اللهِ لولا اللهُ أصبحَ ضَاوِيا

وهذا غريب أيضاً من هذا الوجه ويزيد الرقاشي ضعيف ولكن يتقوى بحديث أبي هريرة المتقدم كما يتقوى ذاك بهذا والله أعلم . وقد قال الله تعالى ﴿ فنبذناه ﴾ أي القيناه ﴿ بالعراء ﴾ وهو المكان القفر الذي ليس فيه شيء من الأشجار بل هو عار منها ﴿ وهو سقيم ﴾ أي ضعيف البدن * قال ابن مسعود كهيئة الفرخ ليس عليه ريش * وقال ابن عباس والسدي وابن زيد كهيئة الضبي حين يولد وهو المنفرش ليس عليه شيء وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ، قال ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ووهب بن منبه وهلال بن يساف وعبد الله بن طاوس والسدي وقتادة والضحاك وعطاء الخرساني وغير واحد : هو القرع .

قال بعض العلماء في إنبات القرع عليه حكم جمة ؛ منها أن ورقه في غاية النعومة ، وكثير وظليل ، ولا يقربه ذباب ، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره ، نياً ومطبوخاً وبقشره وببزره أيضاً . وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك[4]. وتقدم كلام أبي هريرة في تسخير الله تعالى له تلك الأروية التي كانت ترضعه لبنها وترعى في البرية وتأتيه بكرة وعشية . وهذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه إليه ولهذا قال تعالى ﴿ فاستجبنا له فنجيناه من الغم ﴾ أي الكرب والضيق الذي كان فيه ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ أي وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا * قال ابن جرير حدثني عمران بن بكار الكلاعي حدثنا يحيى بن صالح حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن حدثني بشر بن منصور عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال سمعت سعد بن مالك وهو ابن أبي وقاص يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى » قال : فقلت : يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : « هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها . ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ فهو شرط من الله لِمنْ دعاه به ». وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن كثير بن زيد ، عن المطلب بن حنطب قال : * قال أبو خالد : أحسبه

---

(١) أروية : جمع أروى وهي أنثى الوعل الحيوان للجاحظ ٣/٤٩٨ .

(٢) خشاش : حشرات .

(٣) في نسخة : فتفسح ؛ وفي الطبري : فتفسح .

(٤) يحتوي اليقطين على الحديد والكلس ، يستفاد منه في تناول بذوره لطرد الدودة الوحيدة من الأمعاء .

عن مصعب يعني ابن سعد عن سعد . قال : قال رسول الله ﷺ : « من دعا بدعاء يونس أستجيب له » قال أبو سعيد الأشج يريد به ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ وهذان طريقان عن سعد . وثالث أحسن منهما .

قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن عمر ، حدثنا يونس بن أبي اسحق الهمذاني ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد ، حدثني والدي محمد ، عن أبيه سعد ، وهو ابن أبي وقاص قال مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه ، فملأ عينيه مني ثم لم يردد عليّ السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب ، فقلت : يا أمير المؤمنين هل حدث في السلام شيء قال : لا ، وما ذاك قلت لا إلا أني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يردد عليّ السلام . قال : فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه ، فقال : ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام . قال ما فعلت . قال سعد : قلت : بلى حتى حلف وحلفت. قال ثم إن عثمان ذكر فقال : بلى واستغفر الله وأتوب إليه إنك مررت بي آنفاً وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة قال سعد : فأنا أنبئك بها إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض فالتفت إليّ رسول الله ﷺ فقال من هذا أبو اسحق ؟ قال : قلت : نعم يا رسول الله قال فمه قلت لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة . ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك . قال نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له »(1) ورواه الترمذي والنسائي من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد به .

فضل يونس

قال الله تعالى ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ وذكره تعالى في جملة الأنبياء الكرام في سورتي النساء والأنعام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام * وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن الأعمش ، عن أبي وائل ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى »(2) ورواه البخاري من حديث سفيان الثوري به * وقال البخاري أيضاً حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أبي العالية ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى ونسبه إلى أبيه »(3). ورواه

---

(1) مسند أحمد ج ١ / ١٧٠ والترمذي في جامعه ٤٩/ ٨٢/ ٣٥٠٥ وقال أبو عيسى : وقد روى غير واحد هذا الحديث عن إبراهيم بن محمد بن سعد عن سعد ولم يذكر فيه عن أبيه .

(2) مسند أحمد ج ١ / ٢٠٥ وأخرجه البخاري في صحيحه : فتح الباري ٦٥/ ٣٧/ ١/ ٤٨٠٤ .

(3) صحيح البخاري (فتح الباري ٦٥/ ٤٦/ ٤٦٣٠) وأخرجه أحمد في المسند ١ / ٢٤٢ ، ٣٤٢ ومسلم في صحيحه

أحمد ومسلم وأبو داود من حديث شعبة به قال شعبة فيما حكاه أبو داود عنه : لم يسمع قتادة من أبي العالية سوى أربعة أحاديث هذا أحدها * وقد رواه الإمام أحمد عن عفان عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « وما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى »[1]تفرد به أحمد . ورواه الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن الحسن بن كيسان ، حدثنا عبد الله بن رجاء ، أنبأنا اسرائيل ، عن أبي يحيى العتاب ، عن مجاهد ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لا ينبغي لأحد أن يقول أنا عند الله خير من يونس بن متى » إسناده جيد ولم يخرجوه .

وقال البخاري : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة ، عن سعد بن إبراهيم ، سمعت حميد بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى »[2]وكذا رواه مسلم من حديث شعبة به وفي البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن الفضل عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج عن أبي هريرة في قصة المسلم الذي لطم وجه اليهودي حين قال : لا والذي اصطفى موسى على العالمين[3]. قال البخاري في آخره : « ولا أقول إن أحداً خير من يونس بن متى » أي ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس * والقول الآخر لا ينبغي لأحد أن يفضلني على يونس بن متى كما قد ورد في بعض الأحاديث لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى * وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين .

قصّة موسى الكليم

وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر[4]بن لاوى بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليهم السلام . قال تعالى ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا ﴾ [مريم : ٥١ ـ ٥٣] وقد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن * وذكر قصته في مواضع متعددة مبسوطة مطولة وغير مطولة وقد تكلمنا على ذلك كله في مواضعه من التفسير وسنورد سيرته ههنا من إبتدائها

= ١٦٧/٤٣/٤٣ ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده وأبو داود السجستاني في سننه . والبيهقي في الدلائل ج ٤٩٥/٥ وفيه : ونسبه إلى أمه بدل أبيه .

(١) مسند أحمد ٢٩١/١ .

(٢) صحيح البخاري ح ٤٦٣١ ومسلم ح ١٦٦ (المرجع السابق) أحمد في مسنده ٤٠٥/٢ .

(٣) رواه أبو داود في سننه ـ كتاب السنة ح ٤٦٧١ ص ٢١٧/٤ .

(٤) سقط عازر من عمود نسب موسى عند الطبري وابن قتيبة في المعارف . وزاد ابن قتيبة ولم يكن بين آل يعقوب وأيوب نبي حتى كان موسى . .

إلى آخرها من الكتاب والسنة وما ورد في الآثار المنقولة من الإسرائيليات التي[1] ذكرها السلف وغيرهم إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان * قال الله تعالى ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ [القصص : ١ - ٦] يذكر تعالى ملخص القصة ثم يبسطها بعد هذا فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق أي بالصدق الذي كأن سامعه مشاهد للأمر معاين له ﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا ﴾ أي تجبر وعتا وطغى وبغى وآثر الحياة الدنيا وأعرض عن طاعة الرب الأعلى وجعل أهلها شيعاً أي قسم رعيته إلى أقسام وفرق وأنواع يستضعف طائفة منهم وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الله وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض * وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأردأها وأدناها ومع هذا ﴿ يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾ [القصص : ٤] وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه[2] عن إبراهيم عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه ، وذلك والله أعلم حين كان جرى على سارة إمرأة الخليل من ملك مصر من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها * وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل فتحدث بها القبط فيما بينهم ، ووصلت إلى فرعون ، فذكرها له بعض أمرائه وأساورته ، وهم يسمرون عنده ، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل ، حذراً من وجود هذا الغلام ، ولن يغني حذر من قدر .

وذكر السدي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس وعن مرة[3] عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة : أن فرعون رأى في منامه كأن ناراً قد أقبلت من نحو[4] بيت المقدس ، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بني إسرائيل * فلما استيقظ هاله ذلك ، فجمع الكهنة ، والحزأة ، والسحرة ، وسألهم عن ذلك فقالوا : هذا غلام يولد من هؤلاء ، يكون سبب هلاك

---

(١) في نسخة : كما .
(٢) يأثرونه : يحفظونه .
(٣) وهو مرة بن شراحيل الهمداني ، أبو إسماعيل الكوفي ثقة عابد تقريب التهذيب ٢ / ١٠٠٧ ذكره ابن معين والعجلي في الثقات روى عن ابن مسعود وعمر الكاشف ج ١١٦/٣ .
(٤) في نسخة : من جهة بيت المقدس ، وفي الطبري : من بيت المقدس .

أهل مصر. على يديه فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان[1] ولهذا قال الله تعالى ﴿ ونريد أن نمن على الذين أستضعفوا في الأرض ﴾ [القصص : ٥] وهم بنو إسرائيل ﴿ ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ أي الذين يؤل ملك مصر وبلادها إليهم ﴿ ونمكن لهم في الأرض ونُرِيَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ [القصص : ٦] أي سنجعل الضعيف قوياً والمقهور قادراً والذليل عزيزاً وقد جرى هذا كله لبني اسرائيل كما قال تعالى ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ [الأعراف : ١٣٧] الآية * وقال تعالى ﴿ كم تركوا من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ [الشعراء : ٥٧ ـ ٥٩] وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله .

والمقصود أن فرعون احترز كل الإحتراز أن لا يوجد موسى حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى ويعلمون ميقات وضعهن فلا تلد إمرأة ذكراً إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته * وعند أهل الكتاب أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان[2] لتضعف شوكة بني إسرائيل فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم . وهذا فيه نظر بل هو باطل وإنما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى كما قال تعالى : ﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ﴾ ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً حذراً من وجود موسى . هذا والقدر يقول يا أيها ذا[3] الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه وإتساع سلطانه قد حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف أقداره إن هذا المولود الذي تحترز منه وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتعداه ولا تطلع على سر معناه ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين وتكذيبك ما أوحى إليه لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد وأنه هو القوي الشديد ذو البأس العظيم والحول والقوة والمشيئة التي لا مرد لها .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بني إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور وخشي أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون فأمر فرعون بقتل الأبناء عاماً وأن يتركوا عاماً فذكروا أن هرون عليه السلام ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء وأن موسى عليه السلام ولد في عام قتلهم فضاقت أمه به ذرعاً

---

(١) رواه الطبري (ج ١ / ٢٠٠ القاموس الحديث) .

(٢) في نسخة : كان يقتل الغلمان أولاً .

(٣) في نسخة : يا أيها .

واحترزت من أول ما حبلت ولم يكن يظهر عليها مخائيل الحبل . فلما وضعت الهمت أن اتخذت له تابوتاً فربطته في حبل وكانت دارهما متاخمة للنيل فكانت ترضعه فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت فأرسلته في البحر وأمسكت طرف الحبل عندها فإذا ذهبوا استرجعته إليها به[1]. قال الله تعالى ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون ﴾ [القصص : ٧ ـ ٩] هذا الوحي وحي إلهام وإرشاد كما قال تعالى ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا الآية ﴾ [النحل : ٦٨ ـ ٦٩] وليس هو بوحي نبوة كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين بل الصحيح الأول كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة .

قال السهيلي واسم أم موسى أيارخا . وقيل أياذخت[2]* والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الذي ذكرناه وألقي في خلدها وروعها أن لا تخافي ولا تحزني ، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك . وإن الله سيجعله نبياً مرسلا ، يعلي كلمته في الدنيا والآخرة ، فكانت تصنع ما أمرت به فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط في طرف الحبل عندها فذهب مع النيل فمر على دار فرعون ﴿ فالتقطه آل فرعون ﴾ قال الله تعالى ﴿ ليكون لهم عدواً وحزنا ﴾ قال بعضهم : هذه لام العاقبة ، وهو ظاهر إن كان متعلقاً بقوله فالتقطه * وأما إن جعل متعلقاً بمضمون الكلام ، وهو أن آل فرعون قيضوا لإلتقاطه ليكون لهم عدواً وحزناً ، صارت اللام معللة كغيرها ، والله أعلم * ويقوى هذا التقدير الثاني قوله ﴿ إن فرعون وهامان ﴾ [القصص : ٨] وهو الوزير السوء ﴿ وجنودهما ﴾ المتابعين لهما ﴿ كانوا خاطئين ﴾ أي كانوا على خلاف الصواب ، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة .

وذكر المفسرون أن الجواري التقطنه من البحر في تابوت مغلق عليه ، فلم يتجاسرن على فتحه ، حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد ، الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف * وقيل إنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى * وقيل بل كانت عمته ، حكاه السهيلي فالله أعلم .

وسيأتي مدحها والثناء عليها في قصة مريم بنت عمران وأنهما يكونان يوم القيامة من أزواج

---

(١) انظر تاريخ الطبري ١/٢٠٠ .

(٢) في الطبري : يوخابد وقيل كان اسمها أناحيد ؛ وفي القرطبي : لوخا بنت هاند بن لاوى بن يعقوب . وفي المعارف لابن قتيبة : أباحشة ، وفي التوراة اسمها : يوخابث بنت لاوى بن يعقوب .

رسـول الله ﷺ في الجنة * فلما فتحت البـاب وكشفت الحجاب رأت وجهـه يتـلألأ بتلك الأنـوار النبوية ، والجلالة الموسوية ، فلما رأته ، ووقع نظرها عليه أحبته حباً شديداً جدا * فلما جاء فرعون قال ما هذا وأمر بذبحه فاستوهبته منه ودفعت عنه ﴿ وقالت قرة عين لي ولك ﴾ فقال لها فرعون أما لك فنعم وأما لي فـلا أي لا حاجـة لي به والبـلاء موكـل بالمنـطق . وقولها ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ [القصص : ٩] وقد أنالها الله مارجت من النفـع أما في الـدنيا فهـداها الله بـه وأما في الآخـرة فأسكنها جنته بسببه ﴿ أو تتخذه ولداً ﴾ وذلك أنهما تبنياه لأنه لم يكن يولد لهما ولد . قال الله تعالى ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي لا يدرون ماذا يريد الله بهم حين قيضهم[1] لإلتقاطه من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده [وعند أهـل الكتاب : أن التي التقطت موسـى « دربتـة » إبنة فـرعون ، وليس لامرأته ذكر بالكلية ، وهذا من غلطهم على كتاب الله عز وجل][2] ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ [القصص : ١٠ ـ ١٣] قال ابن عباس ومجاهـد وعكرمـة وسعيد بن جبير وأبو عبيـدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغـاً ﴾ أي من كل شيء من أمـور الدنيا إلا من موسى إن كادت لتبدي به أي لتظهر أمره وتسأل عنـه جهرة ﴿ لـولا أن ربطنـا على قلبها ﴾ أي صبرناها وثبتناها ﴿ لتكون من المؤمنين ﴾ وقالت لأخته وهي ابنتها الكبيرة[3] قصيه أي اتبعي أثره واطلبي له خبره فبصرت به عن جنب * قال مجاهد عن بعد * وقال قتادة جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده * ولهذا قال ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ وذلك لأن موسى عليه السـلام لمـا استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذوه برضاعة فلم يقبل ثدياً ولا أخذ طعاماً فحاروا في أمره واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل . كما قال تعـالى ﴿ وحرمنـا عليه المـراضع من قبـل ﴾ فأرسلوه مـع القوابل والنساء إلى السوق لعل يجدون من يوافق رضاعته فبينما هم وقوف بـه والناس عكوف عليه إذ بصرت به أخته فلم تظهر أنها تعرفه بل قالت ﴿ هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ * قال ابن عباس لما قالت ذلك قالوا لها ما يدريـك بنصحهم وشفقتهم عليه فقـالت رغبة في صهر الملك ورجاء منفعته فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم فأخذته أمه فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه ففرحوا بذلك فـرحاً شـديداً وذهب البشـير إلى آسية يعلمهـا بذلـك فاستدعتها إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها وأن تحسن إليها فأبت عليها وقالت إن لي بعلاً وأولاداً ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معي فأرسلته معها ورتبت لها رواتب وأجرت عليها

---

(١) في النسخ المطبوعة : أن قيضهم وهو تحريف .

(٢) سقطت من النسخ المطبوعة . واستدركت من قصص الأنبياء لابن كثير .

(٣) جاء في تفسير القرطبي : اسمها : مريم بنت عمران ؛ وقال الضحاك : كلثمة . وقال السهيلي : كلثوم .

النفقات والكساوي والهبات فرجعت به تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها . قال الله تعالى ﴿ فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ﴾ أي كما وعدناها برده ورسالته فهذا رده وهو دليل على صدق البشارة برسالته ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ وقد امتن الله على موسى بهذا ليلة كلمه فقال له فيما قال له ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ﴾ [طه : ٣٧ ـ ٣٩] [وذلك أنه كان لا يراه أحد إلا أحبه][1] ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ اذ قال قتادة وغير واحد من السلف أي تطعم وترفه وتغذى بأطيب المآكل وتلبس أحسن الملابس بمرأى مني وذلك كله بحفظي وكلاتي لك فيما صنعت بك لك وقدرته من الأمور التي لا يقدر عليها غيري ﴿ إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرددناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً ﴾ [طه : ٤٠] وسنورد حديث الفتون في موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان .

﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين * قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم * قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ [القصص : ١٤ ـ ١٧] لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها وإحسانه بذلك وإمتنانه عليها شرع في ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى وهو إحتكام الخلق والخلق وهو سن الأربعين في قول الأكثرين آتاه الله حكماً وعلماً وهو النبوة والرسالة التي كان بشر بها أمه حين قال ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ ثم شرع في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك حتى كمل الأجل وانقضى الأمد وكان ما كان من كلام الله له وإكرامه بما أكرمه به كما سيأتي . قال تعالى ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدي وذلك نصف النهار * وعن ابن عباس بين العشائين ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان ﴾ أي يتضاربان ويتهاوشان ﴿ هذا من شيعته ﴾ أي إسرائيلي ﴿ وهذا من عدوه ﴾ أي قبطي . قاله ابن عباس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق ﴿ فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ﴾ وذلك، أن موسى عليه السلام كانت له بديار مصر صولة بسبب نسبته إلى تبني فرعون له وتربيته في بيته وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاها وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه وهم أخواله أي من الرضاعة فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى عليه السلام على ذلك القبطي أقبل إليه موسى ﴿ فوكزه ﴾ * قال مجاهد أي طعنه بجمع كفه *

---

(١) سقطت من النسخ المطبوعة واستدركت من قصص الأنبياء لابن كثير .

وقال قتادة بعصا كانت معه ﴿ فقضى عليه ﴾ أي فمات منها * وقد كان ذلك القبطي كافراً مشركاً بالله العظيم ولم يرد موسى قتله بالكلية وإنما أراد زجره وردعه مع هذا ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت علي ﴾ أي من العز والجاه ﴿ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ ﴿ فأصبح في المدينة خائفاً يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين . فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى . أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين . وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين ﴾[القصص : ١٨ ـ ٢١] .

يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً ـ أي من فرعون وملائه ـ أن يعلموا أن هذا القتيل الذي رفع إليه أمره إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل فتقوى ظنونهم أن موسى منهم ويترتب على ذلك لأمر عظيم فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم ﴿ خائفاً يترقب ﴾ أي يلتفت فبينما هو كذلك إذا ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه أي يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته قال له ﴿ إنك لغوي مبين ﴾ * ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي فيردعه عنه ويخلصه منه فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي ﴿ قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد الا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ قل بعضهم إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذي إطلع على ما كان صنع موسى بالأمس وكأنه لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطي إعتقد أنه جاء إليه لما عنفه قبل ذلك بقوله إنك لغوي مبين فقال ما قال لموسى وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس فذهب القبطي فاستعدى موسى إلىٰ فرعون . وهذا الذي لم يذكر كثير من الناس سواه . ويحتمل أن قائل هذا هو القبطي وأنه لما رآه مقبلاً إليه خافه ورأى من سجيته إنتصاراً جيداً للإسرائيلي فقال ما قال من باب الظن والفراسة إن هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي حين أستصرخه عليه ما دله على هذا والله أعلم .

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس فأرسل في طلبه وسبقهم رجل ناصح عن طريق أقرب ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة ﴾ ساعياً إليه مشفقاً عليه[1]فقال ﴿ يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج ﴾ أي من هذه البلدة ﴿ إني لك من الناصحين ﴾ أي فيما أقوله لك ة ل الله تعالى ﴿ فخرج منها خائفاً يترقب ﴾ أي فخرج من مدينة مصر من فوره

---

(١) قال في تفسير القرطبي : قال أكثر أهل التفسير : هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون وكان ابن عم فرعون .

على وجهه لا يهتدي إلى طريق ولا يعرفه قائلاً ﴿ رب نجني من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ [القصص : ٢١ - ٢٤].
يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفا يترقب أي يتلفت خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون وهو لا يدري أين يتوجه ولا إلى أين يذهب وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها ﴿ ولما توجه تلقاء مدين ﴾ أي اتجه له طريق يذهب فيه ﴿ قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾. أي عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود * وكذا وقع أو صلته إلى مقصود وأي مقصود ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ وكانت بئراً يستقون منها * ومدين هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب عليه السلام * وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام في أحد قول العلماء * ﴿ ولما ورد الماء ﴾ المذكور ﴿ وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان ﴾ أي تكفكفان [عنها] غنمهما أن تختلط بغنم الناس * وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات . وهذا أيضاً من الغلط وكأنه كن سبعاً ولكن إنما كان تسقى إثنتان منهن . وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظاً وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتان ﴿ قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ﴾ أي لا نقدر على ورود الماء إلاّ بعد صدور الرعاء[1] لضعفنا وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكبره قال الله تعالى ﴿ فسقى لهما ﴾ .

قال المفسرون وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده . ثم استقى لهما وسقى غنمهما ثم رد الحجر. كما كان * قال أمير المؤمنين عمر وكان لا يرفعه إلا عشرة [رجال] وإنما استقى ذنوباً واحداً فكفاهما . ثم تولى إلى الظل قالوا وكان ظلّ شجرة من السمر[2] * روى ابن جرير عن ابن مسعود أنه رآها خضراء ترف ﴿ قال رب إني لما أنزلت اليّ من خير فقير ﴾ قال ابن عباس سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر وكان حافياً فسقطت نعلاً قدميه من الحفاء وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع وإن خضرة البقل لترى من داخل[3] جوفه وأنه لمحتاج إلى شق تمرة * قال عطاء بن السائب لما ﴿ قال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ اسمع المرأة ﴿ فجاءته إحداهما

---

(١) الرعاء : جمع راعٍ .
(٢) السمر : جمع السمرة وهي شجرة صغيرة الورق ، قصيرة الشوك ، لها برمة صفراء يأكلها الناس .
(٣) معنى العبارة ركيك وغير مقبول عقلياً ؛ وفي تفسير القرطبي عن ابن عباس : ـ ولعله أقرب للواقع ـ وكان قد بلغ به الجوع ، واخضر لونه من أكل البقل في بطنه .

تمشي على استحياء قالت ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قالت إحداهما يـا أبت إستأجـره إن خير من إستأجرت القوي الأمين . قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شـاء الله من الصالحـين . قال ذلـك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل ﴾ [القصص : ٢٥ ـ ٢٨] لما جلس مـوسى عليه السـلام في الـظل و﴿ قـال رب إني لمـا أنـزلت الي من خـير فقـير ﴾ سمعتـه المرأتان[1]فيما قيل فذهبتا إلى أبيهما فيقال إنه استنكر سرعة رجوعهما فأخبرتاه ما كان من أمر موسى عليه السلام فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتـدعوه فجـاءته إحـداهما تمشي عـلى استحياء أي مشي الحراير قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا * صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة . وهذا من تمام حيائها وصيانتها ، فلما جاءه وقص عليه القصص وأخبره خبره وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فراراً من فـرعونها ﴿ قـال له ﴾ ذلـك الشيخ ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ أي خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم .

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو فقيل هو شعيب عليه السلام . وهذا هـو المشهور عنـد كثيرين وممن نص عليه الحسن البصري ومالك بن أنس . وجاء مصـرحاً بـه في حديث ولكن في إسناده نظر وصرح طائفة بأن شعيباً عليه السلام عاش عمراً طويـلاً بعد هـلاك قومـه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بـابنته . وروى ابن أبي حـاتم وغيره عن الحسن البصـري أن صاحب موسى عليه السلام هذا إسمه شعيب وكان سيد الماء ولكن ليس بالنبي صاحب مدين * وقيل إنه ابن أخي شعيب * وقيل ابن عمه * وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب * وقيل رجل إسمه يثرون هكذا هو في كتب أهـل الكتاب يثـرون كاهن مـدين أي كبيرهـا وعالمهـا * قال ابن عبـاس وأبو عبيدة بن عبد الله إسمه يثرون . زاد أبو عبيدة وهـو ابن أخي شعيب . زاد ابن عباس صـاحب مدين .

والمقصود أنه لما أضافه وأكرم مثواه وقص عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها ﴿ يا أبت إستأجره ﴾ أي لرعي[2]غنمك ثم مدحته بأنه قـوي أمين قـال عمرو بن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحق وغير واحد لما قالت ذلك قال لها أبوها وما علمك بهذا ؟ فقالت إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشـرة . وأنه لـما جئت معه

---

(١) قيل إحداهما : ليا . والأخرى صفوريا ابنتا يثرون ، ويثرون هو شعيب عليه السّلام وقيل غير ذلك .

(٢) إشـارة إلى مشروعية نـظام الإجارة ، وانها كـانت عندهم في نـظام حياتهم الإقتصـادية ، وإشـارة إلى انها ضـرورة للخليقة ومصلحة التعامل بين الناس .

تقدمت أمامه فقال كوني من ورائي فإذا اختلف الطريق فأخذ في لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق(1).

قال ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة : صاحب يوسف حين قال لامرأته أكرمي مثواه ، وصاحبة موسى حين قالت يا أبت إستأجره إن خير من إستأجرت القوي الأمين * وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب ﴿ قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فان أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ [القصص : ٢٧] استدل بهذا جماعة من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله على صحة ما إذا باعه أحد هذين العبدين أو الثوبين ونحو ذلك أنه يصح لقوله إحدى ابنتي هاتين * وفي هذا نظر لأن هذه مراوضة لا معاقدة والله أعلم .

واستدل أصحاب أحمد على صحة الإيجار بالطعمة والكسوة كما جرت به العادة وأستأنسوا بالحديث الذي رواه ابن ماجة في سننه مترجماً [عليه](2) في كتابه « باب إستئجار الأجير على طعام بطنه » حدثنا محمد بن المصفي الحمصي ، حدثنا بقية بن الوليد ، عن مسلمة بن عُليّ ، عن سعيد بن أبي أيوب ، عن الحارث بن يزيد ، عن علي بن رباح قال : سمعت عتبة بن الدر(3) يقول : كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ طس حتى إذا بلغ قصة موسى قال : « إن موسى عليه السلام آجر نفسه ثماني سنين أو عشر سنين على عفة فرجه وطعام بطنه »(4) وهذا من هذا الوجه لا يصح لأن مسلمة بن عُلَي الخشني الدمشقي البلاطي ضعيف عند الأئمة لا يحتج بتفرده ولكن قد روى من وجه آخر فقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكر ، حدثني ابن لهيعة (ح) وحدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح اللخمي ، قال سمعت عتبة بن النُدّر السلمي صاحب رسول الله ﷺ يحدث أن رسول الله قال : « إن موسى عليه السلام آجر نفسه لعفة

---

(1) إشارة إلى خلق موسى وتحرجه من النظر إلى أدبار النساء . قال في تفسير القرطبي : فهبت ريح ضمت قميصها فوصفت عجيزتها ، فتحرج موسى من النظر إليها ؛ فقال : ارجعي وارشديني إلى الطريق بصوتك . . . ودليني على الطريق يميناً ويساراً . وكان هذا سبب وصفها له بالأمانة .

(2) سقطت من النسخ المطبوعة .

(3) الدر تحريف ، وفي ابن ماجة الندر .

(4) سنن ابن ماجة في : ١٦/٥/٢٤٤٤ . وفيه : أو عشراً في إسناده ضعف لأن فيه بقية (الزوائد)

بقية بن الوليد الحمصي المحدث المشهور قال أحمد : له مناكير وقال ابن حجر : كان كثير التدليس عن الضعفاء والمجهولين .

ـ مسلم بن علي الخشني الشامي قال فيه البخاري : منكر الحديث وقال ابن عدي : عامة أحاديثه غير محفوظة ـ الضعفاء والمتروكين (٧٠) تقريب التهذيب (١/١٠٧) ميزان الإعتدال (٤/١٠٩) .

فرجه وطعمة بطنه » ثم قال تعالى ﴿ ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل ﴾ [القصص : ٢٨] يقول إن موسى قال لصهره الأمر على ما قلت فأيهما قضيت فلا عدوان عليّ والله على مقالتنا سامع ومشاهد ، ووكيل عليّ وعليك ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامة .

قال البخاري : حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مروان بن شجاع ، عن سالم الأفطس[1]، عن سعيد بن جبير قال : سألني يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت فسألت ابن عباس فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل . تفرد به البخاري من هذا الوجه ، وقد رواه النسائي في حديث الفتون ، كما سيأتي من طريق القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير . وقد رواه ابن جرير عن أحمد بن محمد الطوسي وابن أبي حاتم عن أبيه كلاهما عن الحميدي[2]عن سفيان بن عيينة ، حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : « سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى قال أتمهما وأكملهما[3]» وإبراهيم هذا غير معروف إلا بهذا الحديث . وقد رواه البزار ، عن أحمد بن أبان القرشي ، عن سفيان بن عيينة ، عن إبراهيم بن أعين ، عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ فذكره . وقد رواه سنيد ، عن حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد مرسلاً أن رسول الله سأل عن ذلك جبريل فسأل جبريل إسرافيل فسأل إسرافيل الرب عز وجل فقال : أبرهما وأوفاهما . وبنحوه رواه ابن أبي حاتم من حديث يوسف بن سرح مرسلاً ورواه ابن جرير من طريق محمد بن كعب أن رسول الله ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى قال : « أوفاهما وأتمهما » . وقد رواه البزار وابن أبي حاتم من حديث عويد بن أبي عمران الجوني وهو ضعيف عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى قال : « أوفاهما وأبرهما » قال : « وإن سئلت أي المرأتين تزوج ؟ فقل الصغرى منهما » . وقد رواه البزار وابن أبي

---

(١) سالم الأفطس وهو ابن عجلان الجزري ؛ أبو محمد الحراني قال ابن حجر : شامي ثقة ليس له في الصحيح سوى حديثين : هذا الحديث وآخر في الطب . فتح الباري ٥٢/٢٨/٢٦٨٤ من السادسة قتل صبراً سنة اثنتين وثلاثين / تقريب التهذيب ١/٢٨١ .

(٢) الحميدي : عبدالله بن الزبير بن عيسى القرشي الحميدي المكي ، أبو بكر ثقة حافظ فقيه . قال الحاكم كان البخاري إذا وجد الحديث عند الحميدي لا يعدوه إلى غيره تقريب التهذيب أحد الأعلام . قال الفسوي : ما لقيت أنصح للإسلام وأهله منه مات سنة ٢١٩ تقريب التهذيب ١/٤١٥ الكاشف للذهبي ٧٧/٢ .

(٣) تاريخ الطبري : ١/٢٠٦ .

حاتم من طريق عبد الله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح عن عتبة بن النُّذر أن رسول الله قال : « إن موسى آجر نفسه بعفة فرجه وطعام بطنه » * فلما وفى الأجل قيل يا رسول الله أي الأجلين قال : « أبرهما وأوفاهما » * فلما أراد فراق شعيب سأل إمرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت من غنمه من قالب لون[1] من ولد ذلك العام وكانت غنمه سوداً حساناً فانطلق موسى عليه السلام إلى عصا قسمها من طرفها * ثم وضعها في أدنى الحوض ثم أوردها فسقاها ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة قال فأتمت وآنثت[2] ووضعت كلها قوالب ألوان إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش ولا ضبوب ولا عزوز ولا ثعول ولا كموش تفوت الكف قال النبي ﷺ : « لو أقتحمتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السامرية » . قال ابن لهيعة الفشوش : واسعة الشخب[3]، والضبوب ؛ طويلة الضرع تجره ، والعزوز : ضيقة الشخب[4] ، والثعول : الصغيرة الضرع كالحلمتين ، والكموش : التي لا يحكم الكف على ضرعها لصغره ، وفي صحة رفع هذا الحديث نظر * وقد يكون موقوفاً كما قال ابن جرير : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبي ، عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك قال : لما دعا نبي الله موسى صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما قال له صاحبه كل شاة ولدت على لونها فلك ولدها فعمد فوضع خيالاً على الماء فلما رأت الخيال[5] فزعت فجالت جولة فولدن كلهن بلقاً إلّا شاة واحدة فذهب بأولادهن [كلهن][6] ذلك العام وهذا إسناد [جيد][6] رجاله ثقات والله أعلم .

وقد تقدم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حين فارق خاله لابان أنه أطلق له ما يولد من غنمه بلقاً ففعل نحو ما ذكر عن موسى عليه السلام فالله أعلم . [قال الله تعالى][6] .

﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله أمكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين . وأن ألق عصاك

---

(١) أي على غير لون أمها .

(٢) في نسخة فأغنت وانثت . وفي اخرى اتأمت والبنت .

المثت : ولدت توأما . انثت : ولدت انثى . والبنت : أي كثر لبنها .

(٣) الشخب : اللبن الذي ينزل ، والمقصود انها تشخب كثيراً عند حلبها في المرة الواحدة .

(٤) أي تحلب حلباً قصيراً .

(٥) في نسخة : في الموضعين : الحبال .

(٦) ما بين معكوفين سقطت من النسخ المطبوعة .

فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين. أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ [القصص : ٢٩ ـ ٣٢]. تقدم أن موسى قضى أتم الأجلين وأكملهما وقد يؤخذ هذا من قوله ﴿فلما قضى موسى الأجل ﴾ وعن مجاهد أنه أكمل عشرا وعشراً بعدها . وقوله ﴿ وسار بأهله ﴾ أي من عند صهره زاعياً[1] فيما ذكره غير واحد من المفسرين ـ وغيرهم أنه اشتاق إلى أهله فقصد زيارتهم ببلاد مصر في صورة مختفٍ فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه قالوا واتفق ذلك في ليلة مظلمة باردة وتاهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألوف وجعل يوري زناده فلا يرى[2] شيئاً واشتد الظلام والبرد ، فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد ناراً تأجج في جانب الطور وهو الجبل الغربي منه عن يمينه ، فقال لأهله : امكثوا إني آنست ناراً وكأنه ، ـ والله أعلم ـ رآها دونهم لأن هذه النار هي نور في الحقيقة ولا يصلح رؤيتها لكل أحد ﴿ لعلي آتيكم منها بخبر ﴾ أي لعلي أستعلم من عندها عن الطريق ﴿ أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلة باردة ومظلمة لقوله في الآية الأخرى ﴿ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ [طه : ٩ ـ ١٠] فدل على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق * وجمع الكل في سورة النمل في قوله ﴿ إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ [النمل : ٧]. وقد أتاهم منها بخبر وأي خبر ووجد عندها هدى وأي هدى واقتبس منها نوراً وأي نور . قال الله تعالى ﴿ فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾ [القصص : ٣٠] . وقال في النمل ﴿ فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ﴾ [النمل : ٨] أي سبحان الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ [النمل : ٩] وقال في سورة طه ﴿ فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾ [طه : ١١ ـ ١٦] . قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فانتهى إليها وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج[3] وكل ما لتلك النار في اضطرام وكل ما لخضرة تلك الشجرة

---

(١) في نسخة ذاهباً وما أثبتناه مناسب أكثر .

(٢) في النسخ المطبوعة : فلا يورى وما أثبتناه مناسب للسياق . وفي تفسير القرطبي عن وهب بن منبه : فقدح موسى النار فلم تور المقدحة شيئاً .

(٣) العوسج : الشوك .

في ازدياد فوقف متعجباً وكانت تلك الشجرة في لحف جبل غربي منه عن يمينه كما قال تعالى ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾ [القصص : ٤٤] وكان موسى في واد اسمه طوى فكان موسى مستقبل القبلة وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب فناداه ربه بالواد المقدس طوى فأمر أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة ولا سيما في تلك الليلة المباركة .

وعند أهل الكتاب أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور مهابة له وخوفاً على بصره ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلاً له ﴿ إني أنا الله رب العالمين ﴾ [القصص : ٣٠] ﴿إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ [طه : ١٤] أي أنا رب العالمين الذي لا إله إلّا هو الذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له . ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار وإنما الدار الباقية يوم القيامة التي لا بد من كونها ووجودها ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ [طه : ١٥] أي من خير وشر . وحضه وحثه على العمل لها ومجانبة من لا يؤمن بها ممن عصى مولاه واتبع هواه ثم قال له مخاطباً ومؤانساً ومبيناً له أنه القادر على كل شيء الذي يقول للشيء كن فيكون . ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ [طه : ١٧] أي أما هذه عصاك التي نعرفها منذ صحبتها ﴿ قال هي عصاي أتوكؤ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى ﴾ [طه : ١٨] أي بل هذه عصاي التي أعرفها وأتحققها ﴿ قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى ﴾ [طه : ١٩ ـ ٢٠]. وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذي يكلمه [هو الذي] يقول للشيء كن فيكون وأنه الفعال بالإختيار .

وعند أهل الكتاب أنه سأل برهاناً [صادقاً][1]على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر فقال له الرب عز وجل ما هذه التي في يدك قال عصاي قال ألقها إلى الأرض ﴿ فألقاها فإذا هي حية تسعى ﴾ [طه : ٢٠] فهرب موسى من قدامها فأمره الرب عز وجل أن يبسط يده ويأخذها بذنبها فلما استمكن منها ارتدت عصا في يده . وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى ﴿ وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب ﴾ [النمل : ١٠] أي قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصك[2]وهي مع ذلك في سرعة حركة الجان وهو ضرب من الحيات * يقال الجان والجنان وهو لطيف ولكن سريع الإضطراب والحركة جداً فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة فلما عاينها موسى عليه السلام ﴿ ولى مدبراً ﴾ أي هارباً منها لأن طبيعته البشرية تقتضي ذلك ﴿ ولم يعقب ﴾ أي ولم يلتفت[3] ﴿ فناداه ربه ﴾ قائلاً له ﴿ يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾

---

(١) ما بين معكوفين سقطت من النسخ المطبوعة .
(٢) في نسخة : تصطك .
(٣) في تفسير القرطبي : عن مجاهد : لم يرجع .

[القصص : ٢١] فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها . ﴿ قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ [طه : ٢١] فيقال إنه هابها شديداً فوضع يده في كم مدرعته ثم وضع يده في وسط فمها * وعند أهل الكتاب بذنبها فلما استمكن منها إذا هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين(١) فسبحان القدير العظيم رب المشرقين والمغربين ثم أمره تعال بإدخال يده في جيبه . ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضاً من غير سوء أي من غير برص ولا بهق . ولهذا قال ﴿ اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ [القصص : ٣٢] قيل معناه إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك . وهذا وإن كان خاصاً به إلّا أن بركة الإيمان به حق بأن ينفع من استعمل ذلك على وجه الإقتداء بالأنبياء وقال في سورة النمل ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ [النمل : ١٢] أي هاتان الآيتان وهما العصا واليد وهما البرهانان المشار إليهما في قوله ﴿ فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ [القصص : ٣٢] ومع ذلك سبع آيات أخر فذلك تسع آيات بينات وهي المذكورة في آخر سورة سبحان حيث يقول تعالى ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً . قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلّا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾ [الإسراء : ١٠١ ـ ١٠٢] وهي المبسوطة في سورة الأعراف في قوله ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ [الأعراف : ١٣٠ ـ ١٣٣] كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه وهذه التسع آيات غير العشر الكلمات فإن التسع من كلمات الله القدرية والعشر من كلماته الشرعية وإنما نبهنا على هذا لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة فظن أن هذه هي هذه كما قررنا ذلك في تفسير آخر سورة بني إسرائيل .

والمقصود أن الله سبحانه لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون ﴿ قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون . وأخي هرون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردأ يصدقني إني أخاف أن يكذبون . قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ [القصص : ٣٣ ـ ٣٥]. يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام في جوابه لربه عز وجل حين أمره بالذهاب إلى عدوه الذي خرج من ديار مصر

---

١) في الطبري عن وهب بن منبه : ذات شعبتين في رأسها ومحجن في طرفها .
٢) في تفسير الرازي : قال العزيزي في غريب القرآن : اسلك يدك في جيبك : أدخلها فيه .

فرارا من سطوته وظلمه حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي ولهذا ﴿ قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون . وأخي هرون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي رداً يصدقني إني أخاف أن يكذبون ﴾. أي اجعله معي معيناً ورداً ووزيراً يساعدني ويعينني على أداء رسالتك إليهم فإنه أفصح مني لساناً وأبلغ بياناً * قال الله تعالى مجيباً له إلى سؤاله ﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا ﴾ أي برهاناً ﴿ فلا يصلون إليكما ﴾ أي فلا ينالون منكما مكروهاً بسبب قيامكما بآياتنا . وقيل ببركة آياتنا ﴿ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ وقال في سورة طه ﴿ اذهب إلى فرعون انه طغى . قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾ [طه : ٢٤ - ٢٨] قيل إنه أصابه في لسانه لثغة بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه التي كان فرعون أراد إختبار عقله حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله فخافت عليه آسية وقالت إنه طفل فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه فهم بأخذ التمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة فأخذها فوضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله ولم يسأل زوالها بالكلية .

قال الحسن البصري والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة ولهذا بقيت في لسانه بقية ولهذا قال فرعون قبحه الله فيما زعم أنه يعيب به الكليم ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ [الزخرف : ٥٢] أي يفصح عن مراده ويعبر عما في ضميره وفؤاده * ثم قال موسى عليه السلام ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً . قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ [طه : ٣٢ - ٣٦] أي قد أجبناك إلى جميع ما سألت وأعطيناك الذي طلبت وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل حين شفع أن يوحي الله إلى أخيه فأوحى إليه وهذا جاه عظيم قال الله تعالى ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ [الأحزاب : ٦٩] وقال تعالى ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً ﴾ [مريم : ٥٣] وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرون طريق الحج (أي أخ أمَنّ على أخيه) فسكت القوم فقالت عائشة لمن حول هودجها هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هرون فأوحى إليه قال الله تعالى ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً ﴾ قال تعالى في سورة الشعراء ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون . قال رب إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هرون ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون . قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني إسرائيل . قال ألم نر بك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ﴾ [الشعراء : ١٠ - ١٩] تقدير الكلام فأتياه فقالا له ذلك وبلغاه ما أرسلا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وأن يفك أسارى بني إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته وتركهم يعبدون ربهم حيث شاؤا ويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه فتكبر فرعون في نفسه وعتا

وطغى ونظر إلى موسى بعين الإزدراء والتنقص قائلاً له ﴿ ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ﴾ [الشعراء : ١٨] أي أما أنت الذي ربيناه في منزلنا وأحسنا إليه وأنعمنا عليه مدة من الدهر[1] وهذا يدل على أن فرعون الذي بعث إليه هو الذي فر منه خلافاً لما عند أهل الكتاب من أن فرعون الذي فر منه مات في مدة مقامه بمدين وأن الذي بعث إليه فرعون آخر . وقوله ﴿ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ﴾ [الشعراء ؛ ١٩] أي وقتلت الرجل القبطي وفررت منا وجحدت نعمتنا[2] ﴿ قال فعلتها اذا وأنا من الضالين ﴾ [الشعراء : ٢٠] أي قبل أن يوحى إليّ وينزل عليّ ﴿ ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين ﴾ [الشعراء : ٢١] ثم قال مجيباً لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه ﴿ وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ﴾ [الشعراء : ٢٢] أي وهذه النعمة التي ذكرت من أنك أحسنت إليّ وأنا رجل واحد من بني إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله واستعبدتهم في أعمالك وخدمك وأشغالك ﴿ قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ [الشعراء : ٢٣ ـ ٢٨].

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة والمحاجة والمناظرة وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية . وذلك أن فرعون قبحه الله أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى . وزعم أنه الإله ﴿ فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : ٢٣ ـ ٢٤] ﴿ وقال يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص : ٣٨]. وهو في هذه المقالة معاند يعلم أنه عبد مربوب وأن الله هو الخالق البارىء المصور الإله الحق كما قال تعالى ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كانت عاقبة المفسدين ﴾ [النمل : ١٤] ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته والإظهار أنه ماثم رب أرسله ﴿ وما رب العالمين ﴾ [الشعراء : ٢٣] لانهما قالا له ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ [الشعراء : ١٦] فكأنه يقول لهما ومن رب العالمين الذي تزعمان أنه أرسلكما وابعثكما فأجابه موسى قائلاً ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ [الشعراء : ٢٤] يعني رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة وما بينهما من المخلوقات المتعددة[3] من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها ولا بد لها من موجد

(١) كان بين خروج موسى حين قتل القبطي وبين رجوعه نبياً احد عشر عاماً غير أشهر القرطبي ١٣/٩٥ .
(٢) نعمتنا : أي نعمتي التي كانت لنا عليك من التربية والإحسان إليك .
(٣) في النسخ المطبوعة « المتجددة » وما أثبتناه مناسب للمعنى .

ومحدث وخالق . وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين . ﴿ قال ﴾ أي فرعون لمن حوله من أمرائه ومرازبته ووزرائه على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام ألا تسمعون يعني كلامه هذا قال موسى مخاطباً له ولهم ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ [الشعراء : ٢٦] أي هو الذي خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون السالفة في الآباد فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ولا أبوه ولا أمه ولم يحدث من غير محدث وإنما أوجده وخلقه رب العالمين . وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ [فصلت : ٥٣] ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته ولا نزع عن ضلالته بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه ﴿ قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ [الشعراء : ٢٧ ـ ٢٨] أي هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة[١]. المسير للأفلاك الدائرة . خالق الظلام والضياء . ورب الأرض والسماء رب الأولين والآخرين خالق الشمس والقمر والكواكب السائرة والثوابت الحائرة خالق الليل بظلامه والنهار بضيائه والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون وفلك يسبحون يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون فهو تعالى الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء . فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه ولم يبق له قول سوى العناد عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته[٢]﴿ قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين . قال أولو جئتك بشيء مبين . قال فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ [الشعراء : ٢٩ ـ ٣٣] وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما وهما العصا واليد . وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم الذي بهر به العقول والأبصار حين ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . أي عظيم الشكل بديع في الضخامة والهول والمنظر العظيم الفظيع الباهر حتى قيل إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه أخذه رهب شديد[٣]وخوف عظيم بحيث إنه حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة في يوم وكان قبل ذلك لا يتبرز في كل أربعين يوماً إلا مرة واحدة فانعكس عليه الحال * وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده في جيبه واستخرجها أخرجها وهي كفلقة القمر تتلألأ نوراً يبهر الأبصار فإذا أعادها إلى جيبه [واستخرجها][٤]رجعت إلى صفتها الأولى . ومع هذا كله لم ينتفع

---

(١) في نسخة : المنيرة . وفي أخرى : النيرة .

(٢) قطع فرعون المحاورة مع موسى ، لما انقطعت عنده الحجة ؛ ولم يقل له ما دليلك على أن هذا الإله أرسلك لأن فيه الإعتراف بأن ثم إلهاً آخر غيره ؛ فتوعده بالسجن ، وفي ذلك ضعف منه وتراجع ؛ ولم يخفه موسى بل كان في منتهى اللطف به والطمع في إيمانه قال : أولو جئتك بشيء مبين . لكنه كما قال مالك : دعاه إلى الإسلام أربعين سنة .

(٣) في نسخة : أخذته رجفة شديدة . وفي أخرى : أخذه رعبه .

(٤) سقطت من النسخ المطبوعة .

فرعون ـ لعنه الله ـ بشيء من ذلك بل استمر على ما هو عليه، وأظهر أن هذا كله سحر، وأراد معارضته بالسحرة ، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن [هم][1] في رعيته وتحت قهره ودولته ، كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه ، من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملائه ، وأهل دولته وملته ، ولله الحمد والمنة .

وقال تعالى في سورة طه ﴿ فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسي إذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري إذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ [طه : ٤٠ ـ ٤٦].

يقول تعالى مخاطباً لموسىٰ فيما كلمه به ليلة أوحىٰ إليه ، وأنعم بالنبوة عليه ، وكلمه منه إليه : قد كنت مشاهداً لك وأنت في دار فرعون وأنت تحت كنفي وحفظي ولطفي ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين بمشيئتي وقدرتي وتدبيري فلبثت فيها سنين **﴿ ثم جئت على قدر ﴾** أي مني لذلك ، فوافق ذلك تقديري وتسييري **﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾** أي اصطفيتك لنفسي برسالتي وبكلامي **﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري ﴾** [طه : ٤٥] يعني ولا تفترا في ذكري إذ قَدِمتما عليه ووفدتما إليه[2] فإن ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته وإهداء[3] النصيحة إليه وإقامة الحجة عليه . وقد جاء في بعض الأحاديث يقول الله تعالى : « إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه »[4] وقال تعالى **﴿ يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتُوا واذكروا الله كثيراً الآية ﴾** [الأنفال : ٤٥] ثم قال تعالى **﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾** [طه : ٤٣] وهذا من حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره وهو إذ ذاك أردى خلقه وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعواه إليه بالتي هي أحسن برفق ولين ويعاملاه معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى كما قال لرسوله **﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾**

---

(١) سقطت من النسخ المطبوعة .

(٢) في نسخة : عليه .

(٣) في نسخة : وأداء .

(٤) الحديث أخرجه الترمذي في ٤٩ كتاب الدعوات ١١٩ باب ح ٣٥٨٠ عن الوليد بن مسلم عن عفير بن معدان عن أبي دوس اليحصبي عن ابن عائذ اليحصبي عن عمارة بن زعكرة عن الرسول ﷺ . . . وفيه زيادة (يعني عند القتال) .

وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ليس اسناده بالقوي .

وعفير : ضعيف . قال ابن أبي حاتم : لا يشتغل به / تقريب التهذيب ٢ / ٢٥

[النحل : ١٤٥] وقال تعالى ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم الآية ﴾ [العنكبوت : ٤٦] قال الحسن البصري ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ أعذرا إليه قولا له وإن لك رباً ولك معاداً وإن بين يديك جنة وناراً . وقال وهب بن منبه : قولا له إني لي العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة . قال يزيد الرقاشي عند هذه الآية يا من ينحبب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه ﴿ قالا ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ [طه : ٢٠١] وذلك أن فرعون كان جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً له سلطان في بلاد مصر طويل عريض وجاه وجنود وعساكر وسطوة فهاباه من حيث البشرية وخافا أن يسطو عليهما في باديء الأمر فثبتهما تعالى وهو العلي الأعلى فقال ﴿ لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ [طه : ٤٦] كما قال في الآية الأخرى ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾ [الشعراء : ١٥]. ﴿ فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ [طه : ٤٧ ـ ٤٨] يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون فيدعواه إلى الله تعالى أن يعبده وحده لا شريك له وأن يرسل معهم بني إسرائيل ويطلقهم من أسره وقهره ولا يعذبهم[١]. ﴿ قد جئناك بآية من ربك ﴾ [طه : ٤٧] وهو البرهان العظيم في العصى واليد ﴿ والسلام على من إتبع الهدى ﴾ تقيد مفيد بليغ عظيم . ثم تهدداه وتوعداه على التكذيب فقالا ﴿ إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ أي كذب بالحق بقلبه وتولى عن العمل بقالبه .

وقد ذكر السدي وغيره أنه لما قدم من بلاد مدين دخل على أمه وأخيه هرون وهما يتعشيان من طعام فيه الطفشيل وهو اللفت فأكل معهما * ثم قال : يا هرون إن الله أمرني وأمرك أن ندعو فرعون إلى عبادته فقم معي، فقاما يقصدان باب فرعون ، فإذا هو مغلق فقال : موسى للبوابين والحجبة : أعلموه أن رسول الله بالباب فجعلوا يسخرون منه ويستهزؤن به[٢].

وقد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لهما عليه إلا بعد حين طويل . وقال محمد بن اسحق أذن لهما بعد سنتين لأنه لم يك أحد يتجاسر على الإستئذان لهما فالله أعلم * ويقال إن موسى تقدم إلى الباب فطرقه بعصاه فانزعج فرعون وأمر بإحضارهما فوقفا بين يديه فدعواه إلى الله عز وجل كما أمرهما .

---

(١) أي لا يعذبهم بالسخرة والتعب في العمل ، وكانت بنو إسرائيل عند فرعون في عذاب شديد ، يذبح أبناءهم ويستخدم نساءهم ويكلفهم من العمل في الطين واللبن وبناء المدائن ما لا يطيقونه .

(٢) الخبر رواه الطبري في تاريخه ١/٢٠٨ وفيه : فانطلقا إليه ليلاً ، فأتيا الباب فضرباه ففزع فرعون وفزع البواب ، وقال فرعون : من هذا الذي يضرب بابي في هذه الساعة ؟ فأشرف عليهما البواب فكلمهما فقال له موسى : إنا رسول رب العالمين ، ففزع البواب ، فأتى فرعون ، فأخبره ان ههنا إنساناً مجنوناً يزعم انه رسول رب العالمين ، قال : فأدخله . فدخل . . .

وعند أهل الكتاب أن الله قال لموسى عليه السلام إن هرون اللاوي يعني من نسل لاوى بن يعقوب سيخرج ويتلقاك وأمره أن يأخذ معه مشايخ بني إسرائيل إلى عند فرعون وأمره أن يظهر ما أتاه من الآيات * وقال له سأقسي قلبه فلا يرسل الشعب وأكثر آياتي وأعاجيبي بأرض مصر * وأوحى الله إلى هرون أن يخرج إلى أخيه يتلقاه بالبرية عند جبل حوريب فلما تلقاه أخبره موسى بما أمره به ربه * فلما دخلا مصر جمعا شيوخ بني إسرائيل وذهبا إلى فرعون فلما بلّغاه رسالة الله قال: من هو الله لا أعرفه ولا أرسل بني إسرائيل . وقال الله مخبراً عن فرعون ﴿ **قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ [طه : ٤٩ - ٥٥].

يقول تعالى مخبراً عن فرعون إنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلاً ﴿ **فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾ أي هو الذي خلق الخلق وقدر لهم أعمالاً وأرزاقاً و آجالا * وكتب ذلك عنده في كتابه اللوح المحفوظ ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له فطابق عمله فيهم على الوجه الذي قدره وعلمه لكمال علمه وقدرته وقدره وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى** ﴾ [الأعلى : ١ - ٣] أي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه . ﴿ **قال فما بال القرون الأولى** ﴾ [طه : ٥١] يقول فرعون لموسى : فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادي الخلائق لما قدّره ، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه ، فلِمَ عبد الأولون غيره وأشركوا به من الكواكب والأنداد ، ما قد علمت فهلا إهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى ﴿ **قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى** ﴾ [طه : ٥٢] أي هم وإن عبدوا غيره فليس ذلك بحجة لك ولا يدل على خلاف ما أقول لأنهم جهلة مثلك ، كل شيء فعلوه مستطر عليهم في الزبر ، من صغير وكبير ، وسيجزيهم على ذلك ربي عز وجل ولا يظلم أحداً مثقال ذرة ، لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتاب لا يضل عنه شيء ولا ينسى ربي شيئاً . ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء وجعله الأرض مهاداً[1] والسماء سقفاً محفوظاً وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم كما قال : ﴿ **كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى** ﴾ [طه : ٥٤] أي لذوي العقول الصحيحة المستقيمة والفطر القويمة غير السقيمة فهو تعالى الخالق الرازق . وكما قال تعالى ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ [البقرة : ٢١ - ٢٢] ولما

---

(١) مهاداً : جمع مهد ، وقيل جاز أن يكون مفرداً كفراش ، أي فراشاً وقراراً تستقرون عليها .

ذكر أحياء الأرض بالمطر واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبه به على المعاد فقال ﴿ منها ﴾ أي من الأرض خلقناكم ﴿ وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ كما قال تعالى ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾.

قال تعالى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الروم : ٢٧] ثم قال تعالى ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى . قال موعدكم يوم الزينة وإن يحشر الناس ضحى ﴾ [طه : ٥٦ : ٥٨].

يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله في تكذيبه بآيات الله واستكباره عن إتباعها وقوله لموسى إن هذا الذي جئت به سحر ونحن نعارضك بمثله ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس ولهذا قال ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ أي من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس فيكون الحق أظهر وأجلى ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلام كيما يروج عليهم محالاً وباطلاً بل طلب أن يكون نهاراً جهرة لأنه على بصيرة من ربه ويقين أن الله سيظهر كلمته ودينه وإن رغمت أنوف القبط . قال الله تعالى ﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم أئتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ [طه : ٦٠ - ٦٤].

يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده[١]من السحرة وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء ،في فنهم غاية ، فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان فاجتمع منهم خلق كثير وجم غفير ، فقيل : كانوا ثمانين ألفاً قاله محمد بن كعب * وقيل سبعين ألفاً قاله القاسم بن أبي بردة . وقال السدي بضعة وثلاثين ألفاً[٢]. وعن أبي أمامة تسعة عشر ألفاً وقال محمد بن اسحاق خمسة عشر ألفاً . وقال كعب الأحبار كانوا إثني عشر ألفاً * وروي ابن أبي حاتم عن ابن عباس كانوا سبعين رجلاً وروى عنه أيضاً أنهم كانوا أربعين غلاماً من بني إسرائيل أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء فيتعلموا السحر ولهذا قالوا وما أكرهتنا عليه من السحر وفي هذا نظر .

---

(١) في نسخة : من كان في بلاده .

(٢) في نسخة بضعة وثمانين ألفاً . وفي أخرى وأربعين ألفاً .

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم . وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم فخرجوا وهم يقولون ﴿ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ [الشعراء : ٤٠]. وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل الذي فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال ﴿ ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم ﴾ [طه : ٦١ ـ ٦٢] قيل معناه : أنهم اختلفوا[1]فيما بينهم ، فقائل يقول : هذا كلام نبي وليس بساحر ، وقائل منهم يقول : بل هو ساحر فالله أعلم * وأسروا التناجي بهذا وغيره ﴿ قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ﴾ [طه :٦٣] يقولون إن هذا وأخاه هرون ساحران عليمان مطبقان متقنان لهذه الصناعة ومرادهم أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته ويستأصلاكم عن آخركم ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة ﴿ فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾* وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان . وهيهات كذبت والله الظنون واخطأت الآراء . أنى يعارض البهتان . والسحر والهذيان . خوارق العادات التي أجراها الديان . على يدي عبده الكليم . ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان الذي يبهر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان وقولهم ﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ أي جميع[2]ما عندكم ﴿ ثم اتوا صفاً ﴾ أي جملة واحدة ثم حضوا بعضهم بعضاً على التقدم في هذا المقام لأن فرعون كان قد وعدهم ومنّاهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى قال بل القوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ [طه ٦٥ ـ ٦٩].

لما اصطف السحرة ، ووقف موسى وهرون عليهما السلام تجاههم قالوا له : إما أن تلقي قبلنا[3]، وإما أن نلقي قبلك ﴿ قال بل القوا ﴾ أنتم وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصي فاودعوها الزئبق وغيره من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطراباً يخيل للرائي أنها تسعى باختيارها * وإنما تتحرك بسبب ذلك . فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم وألقوا حبالهم وعصيهم وهم يقولون ﴿ بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ [الشعراء : ٤٤]. قال الله تعالى ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ [الأعراف : ١١٦]. وقال تعالى ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس في نفسه خيفة موسى ﴾

---

(١) في القرطبي : تشاوروا .

(٢) أي جميع ما عندكم من كيد وحيلة واعزموا وجدوا واحكموا أمركم .

(٣) في قولهم (إما أن تلقي) فيه أدب تجاه موسى وكان ذلك إشارة إلى ـ قرب إيمانهم ـ وأحد أسبابه .

أي خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم ومحالهم قبل أن يلقي ما في يده فإنه لا يضع شيئاً قبل أن يؤمر فأوحى الله إليه في الساعة الراهنة ﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال ﴿ ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ [يونس : ٨١ ـ ٨٢] وقال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهرون ﴾ [الأعراف: ١١٧ ـ ١٢٢].

وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها صارت حية عظيمة ذات قوائم، فيما ذكره غير واحد من علماء السلف ، وعنق عظيم وشكل هائل مزعج بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سراعاً وتأخروا عن مكانها وأقبلت هي على ما ألقوه[1] من الحبال والعصي فجعلت تلقفه واحداً واحداً في أسرع ما يكون من الحركة والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها . وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم واطلعوا على أمر لم يكن في خلدهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم . فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعبذة[2] ولا محال ولا خيال ولا زور ولا بهتان ولا ضلال بل حق لا يقدر عليه إلا الحق الذي ابتعث هذا المؤيد به بالحق وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة ، وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها القسوة ، وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين ، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى ﴿ آمنا برب موسى وهرون ﴾ كما قال تعالى ﴿ فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هرون وموسى قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى . قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾ [طه : ٧٠ ـ ٧٦].

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبي بردة والاوزاعي وغيرهم لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تهيأ لهم وتزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده . وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا واشهروا ذكر موسى وهرون في الناس على هذه الصفة الجميلة ، أفزعه ذلك ، ورأى أمراً بهره ، وأعمى بصيرته وبصره ، وكان فيه كيد

---

(١) في نسخة : على ما ألقوا ـ وفي أخرى : على ما أقبلت .

(٢) في نسخة : شعوذة .

ومكر وخداع ، وصنعة بليغة في الصد عن سبيل الله ، فقال مخاطباً للسحرة بحضرة الناس : ﴿ آمنتم له قبل أن آذن لكم ﴾ [الأعراف : ١٢٣] أي هلا شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتي ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد وكذب فأبعد قائلاً ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ وقال في الآية الأخرى ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ﴾ [الأعراف : ١٢٣]. وهذا الذي قاله من البهتان [الذي] يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان بل لا يروج مثله على الصبيان فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يوماً من الدهر فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر * ثم هو لم يجمعهم ولا علم بإجتماعهم حتى كان فرعون هو الذي إستدعاهم واجتباهم من كل فج عميق ووادٍ سحيق ومن حواضر بلاد مصر والأطراف ومن المدن والأرياف .

قال الله تعالى في سورة الأعراف ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين . وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل قال إن كنت جئت بآية فات بها إن كنت من الصادقين فألقى . عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين . قال القوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس وأسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهرون قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين . قالوا إنا إلى ربنا منقلبون . وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ [الأعراف : ١٠٣ ـ ١٢٦].

وقال تعالى في سورة يونس ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين . قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون . قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين . وقال فرعون إئتوني بكل ساحر عليم . فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ [يونس : ٧٥ ـ ٨٢] وقال تعالى في سورة الشعراء ﴿ قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من

المسجونين . قال أو لو جئتك بشيء مبين . قال فأت به إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم . فجمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس هل أنتم مجتمعون . لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين . فلما جاء السحرة قالوا لفرعون إن لنا لأجراً ان كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون . فالقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون * قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين . قالوا لا ضير إنا الى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾ . [الشعراء : ١٩ ـ ٥١] .

والمقصود أن فرعون كذب وافترى وكفر غاية الكفر في قوله ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ وأتى ببهتان يعلمه العالمون بل العالمون في قوله ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ﴾ [الأعراف : ١٢٣] وقوله ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ يعني يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه ﴿ ولأصلبنكم أجمعين ﴾ أي ليجعلهم[١] مثلة ونكالاً لئلا يقتدي بهم أحد من رعيته وأهل ملته ولهذا قال ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ أي على جذوع النخل لأنها أعلى وأشهر ﴿ ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾ يعني في الدنيا ﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴾ أي لن نطيعك ونترك ما وقر في قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات ﴿ والذي فطرنا ﴾ قيل معطوف . وقيل قسم ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ أي فافعل ما قدرت عليه ﴿ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ أي إنما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له واتبعنا رسله ﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾ أي وثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب[٢] والترغيب وأبقى أي وأدوم من هذه الدار الفانية وفي الآية الأخرى ﴿ قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ﴾ [الشعراء : ٥٠ ـ ٥١] أي[٣] ما اجترمناه من المآثم والمحارم ﴿ أن كنا أول المؤمنين ﴾ أي من القبط ، بموسى وهرون عليهما السلام * وقالوا له أيضاً ﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ﴾ أي

---

١) في نسخة : أي ليجعلنهم .
٢) في نسخة : الترهيب .
٣) في القرطبي : أي الشرك الذي كانوا عليه .

ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا ، وإتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ أي ثبتنا على ما أبتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد والسلطان الشديد بل الشيطان المريد ﴿ وتوفنا مسلمين ﴾ وقالوا أيضاً يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم ﴿ إنه من يأت ربه مجرماً(١)فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾يقولون له فإياك أن تكون منهم فكان منهم ﴿ ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ﴾ أي المنازل العالية ﴿ جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾ فاحرص أن تكون منهم فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التي لا تغالب ولا تمانع وحكم العلي العظيم بأن فرعون لعنه الله من أهل الجحيم ليباشر العذاب الأليم يصب من فوق رأسه الحميم * ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ وهو المقبوح المنبوح والذميم اللئيم ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾[الدخان : ٤٩].

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم رضي الله عنهم . قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير كانوا من أول النهار سحرة فصاروا من آخره شهداء بررة * ويؤيد هذا قولهم ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾.

فصل

ولما وقع ما وقع من الأمر العظيم وهو الغَلَب الذي غُلبته القبط في ذلك الموقف الهائل وأسلم السحرة الذين استنصروا ربهم لم يزدهم ذلك إلاّ كفراً وعناداً وبعداً عن الحق . قال الله تعالى بعد قصص ما تقدم في سورة الأعراف : ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك . قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون . قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا . قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعلمون ﴾[الأعراف : ١٢٧ ـ ١٢٩].

يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون وهم الأمراء والكبراء أنهم حرضوا ملكهم فرعون على أذية نبي الله موسى عليه السلام ومقابلته بدل التصديق بما جاء به بالكفر والرد والأذى قالوا ﴿ أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك ﴾ يعنون ـ قبحهم الله ـ أن دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له والنهي عن عبادة ما سواه فساد بالنسبة إلى إعتقاد القبط لعنهم الله . وقرأ بعضهم ﴿ويذرك وآلهتك﴾ أي وعبادتك ويحتمل شيئين أحدهما ويذر دينك وتقويه القراءة الأخرى . الثاني ويذر أن يعبدك فإنه كان يزعم أنه إله لعنه الله ﴿ قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم ﴾ أي لئلا يكثر مقاتلتهم ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ أي غالبون ﴿ وقال موسى لقومه

---

(١) المجرم : المراد به المشرك .

استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ أي إذا هموا هم بأذيتكم والفتك بكم فاستعينوا أنتم بربكم واصبروا على بليتكم ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة لمتقين ﴾ أي فكونوا أنتم المتقين لتكون لكم العاقبة كما قال في الآية الأخرى ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ [يونس : ٨٤ - ٨٦] وقولهم ﴿ قالوا أوذينا[1] من قبل أن تأتينا ومن بعدما جئتنا ﴾ أي قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا ﴿ قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ [الأعراف: ١٢٩] وقال الله تعالى في سورة حم المؤمن ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا[2] وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ﴾ [غافر : ٢٣ - ٢٤] وكان فرعون الملك وهامان الوزير . وكان قارون إسرائيلياً من قوم موسى إلا أنه كان على دين فرعون وملائه وكان ذا مال جزيل جداً كما ستأتي قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى . ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴾ [غافر : ٢٥] وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنما كان على وجه الإهانة والإذلال[3]، والتقليل لملأ بني إسرائيل ، لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها ، ويصولون على القبط بسببها وكانت القبط منهم يحذرون ، فلم ينفعهم ذلك ولم يردّ عنهم قدر الذي يقول للشيء كن فيكون ﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ [غافر : ٢٦]. ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم : صار فرعون مذكراً ، وهذا منه ، فإن فرعون في زعمه يخاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام . ﴿ وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ [غافر : ٢٧] أي عذت بالله ولجأت اليه [واستجرت][4] بجنابه أن يسطو فرعون وغيره عليّ بسوء وقوله ﴿ من كل متكبر ﴾ أي جبار عنيد لا يرعوي ولا ينتهي ولا يخاف عذاب الله وعقابه لأنه لا يعتقد معاداً ولا جزاء . ولهذا قال ﴿ من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب . وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً

---

(١) قيل في الأذى : - في ابتداء ولادته ﷺ كان الأذى قتل الأبناء واسترقاق النساء .
- تسخير بني إسرائيل في الأعمال نصف النهار .
- الأذى بعد مجيئه : تسخيرهم جميع النهار كله .
- قال الحسن : الأذى قبل وبعد : واحد هو الجزية . (القرطبي ٢٦٣/٧) .

(٢) وهي الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ قيل هي : العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . وقيل وفيها : السنين والنقص من الثمرات .

(٣) زاد القرطبي : ليمتنعوا من الإيمان ولئلا يكثر جمعهم .

(٤) سقطت من النسخ المطبوعة .

أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب . يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ [غافر : ٢٨ ـ ٢٩] وهذا الرجل هو ابن عم فرعون[١] وكان يكتم إيمانه من قومه خوفاً منهم على نفسه * وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيلياً وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظاً ومعنى والله أعلم .

قال ابن جريج قال ابن عباس لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا والذي جاء من أقصى المدينة[٢] وامرأة فرعون . رواه ابن أبي حاتم * قال الدارقطني لا يعرف من اسمه شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون * حكاه السهيلي * وفي تاريخ الطبراني أن اسمه خير فالله أعلم . والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه فلما هم فرعون لعنه الله بقتل موسى عليه السلام وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى فتلطف في رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب فقال على وجه المشورة والرأي وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر »[٣]. وهذا من أعلى مراتب هذا المقام فإن فرعون لأشد جوراً منه وهذا الكلام لا أعدل منه لأن فيه عصمة نبي * ويحتمل أنه [كاشفهم][٤] بإظهار إيمانه وصرح لهم بما كان يكتمه والأول أظهر . والله أعلم . قال ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ﴾ أي من أجل أنه قال ربي الله فمثل هذا لا يقابل بهذا بل بالإكرام والاحترام والموادعة وترك الإنتقام يعني لأنه ﴿ قد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ أي بالخوارق التي دلت على صدقه ، فيما جاء به عمن أرسله ، فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامة لأنه ﴿ إن يك كاذباً فعليه كذبه ﴾ ولا يضركم ذلك ﴿ وإن يك صادقاً ﴾ وقد تعرضتم له ﴿ يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾ أي وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به فكيف بكم إن حل جميعه عليكم .

وهذا الكلام في هذا المقام من أعلى مقامات التلطف والإحتراز والعقل التام . وقوله

---

(١) اختلفوا في اسمه : قيل حبيب وقيل شمعان . وقال الطبري : خبرك وقيل حزقيل . والأكثر من العلماء على انه : قبطي ؛ ابن عم فرعون .

(٢) والمراد به : الرجل الذي ذكر اسمه في قوله تعالى : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) . وقد تقدم التعليق . فليراجع .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ج ١٩/٣ عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ . وفيه علي بن زيد بن جدعان ؛ وفيه : كلمة حق بدل من كلمة عدل . ورواه ابن ماجة ، وأبو داود في سننه في كتاب الملاحم باب الأمر والنهي . والترمذي في ٣٤،كتاب الفتن (١٣) باب ما جاء في أفضل الجهاد ح ٢١٧٤ ولفظة : إن من أعظم الجهاد قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

(٤) في بعض النسخ : كاشرهم وهو تحريف .

﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ﴾ [غافر : ٢٩] يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز فإنه ما تعرض الدول للدين إلّا سلبوا ملكهم وذلوا بعد عزهم وكذا وقع لآل فرعون ما زالوا في شك وريب ، ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور ، والنعمة والحبور ، ثم حولوا إلى البحر مهانين ، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين. ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق ، البار الراشد التابع للحق ، الناصح لقومه الكامل العقل : ﴿يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ﴾ أي عالين على الناس حاكمين عليهم ﴿ فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا ﴾ أي لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة والقوة والشدة لما نفعنا ذلك ولا رد عنا بأس مالك الممالك . ﴿ قال فرعون ﴾ أي في جواب هذا كله ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ أي ما أقول لكم إلا ما عندي ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ وكذب في كلٍ من هذين القولين وهاتين المقدمتين فإنه قد كان يتحقق في باطنه وفي نفسه أن هذا الذي جاء به موسى من عند الله لا محالة وإنما كان يظهر خلافه بغياً وعدواناً وعتواً وكفراناً قال الله تعالى إخباراً عن موسى ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لا أظنك يا فرعون مثبوراً فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً . وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ﴾ [الإسراء : ١٠٢ ـ ١٠٤] وقال تعالى ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ [النمل : ١٣ ـ ١٤] وأما قوله ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾. فقد كذب أيضاً فإنه لم يكن على رشاد من الأمر بل كان على سفه وضلال وخبل وخيال فكان أولاً ممن يعبد الأصنام والأمثال . ثم دعا قومه الجهلة الضلال إلى أن اتبعوه وطاوعوه[1]وصدقوه فيما زعم من الكفر المحال في دعواه أنه ربٌ تعالى الله ذو الجلال . قال الله تعالى ﴿ ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر . وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه أنهم كانوا قوماً فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ [الزخرف : ٥١ ـ ٥٦] وقال تعالى : ﴿ فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ [النازعات : ٢٠ ـ ٢٦] وقال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد يقدم قومه يوم القيمة فأوردهم النار وبئس الورد المورود . وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيمة بئس الرفد المرفود ﴾ [هود : ٩٦ ـ ٩٩].

---

(١) في نسخة : وأطاعوه ؛ وفي أخرى : وطاعوه .

والمقصود بيان كذبه في قوله ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ وفي قوله ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ . ﴿وقال الذين آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد . ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ [غافر : ٣٠ ـ ٣٥] يحذرهم ولي الله إن كذبوا برسول الله موسى أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم من النقمات والمثلات مما تواتر عندهم وعند غيرهم ما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة في صدق ما جاءت به الأنبياء لما أنزل من النقمة بمكذبيهم من الأعداء وما أنجى[1] الله من اتبعهم من الأولياء وخوفهم يوم القيمة وهو يوم التناد أي حين ينادي الناس بعضهم بعضاً حين يولون [مدبرين][2] إن قدروا على ذلك ولا إلى ذلك سبيل ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر ـ إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ [القيامة : ١٠ ـ ١٢] وقال تعالى ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان . فبأي آلاء ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ [الرحمن : ٣٣ ـ ٣٦] وقرأ بعضهم ﴿ يوم التنادّ ﴾ بتشديد الدال ، أي يوم الفرار . ويحتمل أن يكون يوم القيامة ، ويحتمل أن يكون يوم يحل الله بهم البأس ، فيودون الفرار ولات حين مناص . ﴿ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ، لا تركضوا وارجعوا إلى ما اترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ﴾ [الأنبياء : ١٢ ـ ١٣] ثم أخبرهم عن نبوة يوسف في بلاد مصر ما كان منه من الإحسان إلى الخلق في دنياهم وأخراهم وهذا من سلالته وذريته ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته وأن لا يشركوا به أحداً من بريته وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان أي من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل ولهذا قال ﴿ فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ [غافر : ٣٤] أي وكذبتم في هذا ولهذا قال ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾ [غافر : ٣٤ ـ ٣٥] أي يريدون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده بلا حجة ولا دليل عندهم من الله فإن هذا أمر يمقته الله غاية المقت أي يبغض من تلبس به من الناس ومن اتصف به من الخلق ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ [غافر : ٣٥] قرىء بالإضافة وبالنعت وكلاهما

---

(١) في نسخة : ونجى .

(٢) سقطت من النسخ المطبوعة .

متلازم أي هكذا إذا خالفت القلوب الحق ـ ولا تخالفه إلا بلا برهان ـ فإن الله يطبع عليها ، أي يختم عليها [بما فيها][1].

﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فاطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾ [غافر : ٣٦ ـ ٣٧] كذب فرعون موسى عليه السلام في دعواه أن الله أرسله وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه في قوله لهم ﴿ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً ﴾ [القصص : ٣٣] وقال ههنا ﴿ لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات ﴾ أي طرقها ومسالكها ﴿ فاطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً ﴾ ويحتمل هذا معنيين أحدهما وإني لأظنه كاذباً في قوله إن للعالم رباً غيري والثاني في دعواه أن الله أرسله . والأول أشبه بظاهر حال فرعون فإنه كان ينكر ظاهر إثبات الصانع والثاني أقرب إلى اللفظ حيث قال ﴿ فاطلع إلى إله موسى ﴾ أي فاسأله هل أرسله أم لا ﴿ وإني لأظنه كاذباً ﴾ أي في دعواه ذلك . وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام وأن يحثهم على تكذيبه قال الله تعالى ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل ﴾ [غافر : ٣٧] وقرىء ﴿ وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾ قال ابن عباس ومجاهد يقول إلا في خسار أي باطل لا يحصل له شيء من مقصوده الذي رامه فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبداً . أعني السماء الدنيا فكيف بما بعدها من السموات العلى ، وما فوق ذلك من الارتفاع ، الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل . وذكر غير واحد من المفسرين أن هذا الصرح ، وهو القصر الذي بناه وزيره هامان له ، لم ير بناء أعلى منه وإن كان مبنياً من الآجر المشوي بالنار ولهذا قال ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً ﴾ [القصص : ٣٨] .

وعند أهل الكتاب أن بني إسرائيل كانوا يسخرون في ضرب اللبن وكان مما حملوا من التكاليف الفرعونية أنهم لا يساعدون على شيء مما يحتاجون إليه فيه بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه وتبنه وماءه ، ويطلب منهم كل يوم قسط معين ، إن لم يفعلوه وإلا[2] ضربوا وأهينوا غاية الإهانة وأوذوا غاية الأذية . ولهذا قالوا لموسى ﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعدما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط وكذلك وقع وهذا من دلائل النبوة .

ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه ، قال الله تعالى ﴿ وقال الذي آمن يا قوم

---

(١) سقطت من النسخ المطبوعة ؛ واستدركت من مطبوعة السعادة مصر .

(٢) في نسخة : ضربوا وأهينوا ـ بدون إلا ـ وفي أخرى ـ ضربوهم وأهانوهم .

اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ [غافر : ٣٨ ـ ٤٠] يدعوهم رضي الله عنه إلى طريق الرشاد والحق وهي متابعة نبي الله موسى وتصديقه فيما جاء به من ربه ، ثم زهدهم في الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة ، ورغبهم في طلب الثواب عند الله الذي لا يضيع عمل عامل لديه . القدير الذي ملكوت كل شيء بيديه ، الذي يعطي على القليل كثيراً ، ومن عدله لا يجازي على السيئة إلاّ مثلها . وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار التي من وافاها ـ مؤمناً قد عمل الصالحات ـ فلهم الجنات[1] العاليات ، والغرف[2] الآمنات ، والخيرات الكثيرة الفائقات ، والأرزاق الدائمة التي لا تبيد . والخير الذي كل ما لهم منه في مزيد .

ثم شرع في إبطال ما هم عليه وتخويفهم مما يصيرون إليه فقال ﴿ ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ [غافر : ٤١ ـ ٤٦] كان يدعوهم إلى عبادة رب السموات والأرض الذي يقول للشيء كن فيكون وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون ، ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار ﴿ ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾ ثم بيّن لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان وأنها لا تملك من نفع ولا إضرار[3] فقال ﴿ لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ أي لا تملك تصرفاً ولا حكماً في هذه الدار فكيف تملكه يوم القرار * وأما الله عز وجل فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجار وهو الذي أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم فيدخل طائعهم الجنة وعاصيهم إلى النار .

ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله ﴿ فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾ قال الله ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ أي بإنكاره سلم[4] مما أصابهم

(١) في نسخة : الدرجات العاليات .

(٢) في نسخة : والغرف والخيرات .

(٣) في نسخة : لا تملك لا نفعاً ولا ضراً .

(٤) بعد تهديده ووعيده لهم ، تآمروا عليه لقتله ـ أي لمؤمن آل فرعون ـ ففوض أمره لله . قال مقاتل: فهرب إلى الجبل ولم يقدروا عليه ، وقال قتادة : نجاه الله مع بني إسرائيل .

من العقوبة على كفرهم بالله ومكرهم في صدهم عن سبيل الله مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات التي لبسوا[1] بها على عوامهم وطغامهم ولهذا قال ﴿ وحاق ﴾ أي أحاط ﴿ بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ أي تعرض أرواحهم في برزخهم[2] صباحاً ومساء على النار ﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ [غافر : ٤٥ ـ ٤٦] وقد تكلمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر في التفسير ولله الحمد .

والمقصود أن الله تعالى لم يهلكهم إلاّ بعد إقامة الحجج عليهم وإرسال الرسول إليهم وإزاحة الشبه عنهم ، وأخذ الحجة عليهم منهم ، بالترهيب[3] تارة والترغيب أخرى كما قال تعالى . ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ [الأعراف : ١٣٠ ـ ١٣٣] .

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون وهم قومه من القبط بالسنين وهي أعوام الجدب التي لا يستغل فيها زرع ولا ينتفع بضرع وقوله ﴿ ونقص من الثمرات ﴾ وهي قلة الثمار من الأشجار ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ أي فلم ينتفعوا ولم يرعوا بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾ والخصب ونحوه ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ أي هذا الذي نستحقه وهذا الذي يليق بنا ﴿ وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾ أي يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا ، ولا يقولون في الأول أنه ببركتهم وحسن مجاورتهم [لهم][4] ولكن قلوبهم منكرة مستكبرة نافرة عن الحق إذا جاء الشر أسندوه إليه ، وإن رأوا خيراً ادعوه لأنفسهم . قال الله تعالى ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ أي الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ [الأعراف: ١٣٢] ﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ [الأعراف : ١٣٣] أي مهما جئتنا به من الآيات ـ وهي الخوارق للعادات[5] فلسنا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك ولو جئتنا بكل اية[6] وهكذا أخبر الله عنهم في قوله ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا

---

(١) في النسخ المطبوعة : ألبسوا .

(٢) في نسخة : في البرزخ .

(٣) في النسخ المطبوعة : فبالترغيب .

(٤) سقطت من النسخ المطبوعة .

(٥) في نسخة : وهي خوارق العادات

(٦) قال القرطبي في تفسيره : بقي موسى في القبط بعد إلقاء السحرة سجداً عشرين سنة يرميهم الآيات إلى أن أغرق الله فرعون : وعن نوف قال : أربعين سنة .

العذاب الأليم ﴾ [يونس : ٩٦ ـ ٩٧] قال الله تعالى ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ [الأعراف : ١٣٣] أما الطوفان فعن ابن عباس هو كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار . وبه قال سعيد بن جبير وقتادة والسدي والضحاك * وعن ابن عباس وعطاء هو كثرة الموت * وقال مجاهد الطوفان الماء والطاعون على كل حال * وعن ابن عباس أمر طاف بهم * وقد روى ابن جرير وابن مردويه من طريق يحيى بن يمان ، عن المنهال بن خليفة ، عن الحجاج عن الحكم بن مينا، عن عائشة عن النبي ﷺ [أنه قال][1]: « الطوفان الموت »[2]وهو غريب * وأما الجراد فمعروف * وقد روى أبو داود عن أبي عثمان عن سلمان الفارسي قال سئل رسول الله عن الجراد فقال : « أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه »[3]وترك النبي ﷺ أكله إنما هو على وجه التقذر له ، كما ترك أكل الضب ، وتنزه عن أكل البصل والثوم والكراث ، لما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى قال غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد[4]. وقد تكلمنا على ما ورد فيه من الأحاديث والآثار في التفسير .

والمقصود أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعاً ولا ثماراً ولا سبداً ولا لبداً[5]. وأما القمل فعن ابن عباس : هو السوس الذي يخرج من الحنطة وعنه : أنه الجراد الصغار الذي لا أجنحة له . وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة . وقال سعيد بن جبير والحسن هو دواب سود صغار * وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم [القمل][6]هي البراغيث * وحكى ابن جرير عن أهل العربية : أنها الحمنان[7]وهو صغار القردان ـ فوق القمقامة ـ فدخل معهم البيوت والفرش فلم يقر لهم قرار ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش . وفسره عطاء بن السائب بهذا القمل المعروف . وقرأها الحسن البصري كذلك بالتخفيف . وأما الضفادع فمعروفة لبستهم حتى كانت

---

(١) سقطت من النسخ المطبوعة .

(٢) رواه السيوطي في الفتح الكبير ٢/٢٠٩ .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ـ في كتاب الاطعمة ـ باب في أكل الجراد . ح ٣٨١٣ ص ج ٣/٣٥٧ بيروت . وفيه محمد بن الفرج البغدادي . صدوق .

(٤) أخرجه مسلم في ٥٢/٨/٣٤ والبخاري في ١٣/٧٢ وأبو داود في سننه باب في أكل الجراد ح ٣٨١٢ وفيه : ست أو سبع غزوات نأكله معه .

(٥) لا سبداً ولا لبداً : اي لا قليلاً ولا كثيراً .

(٦) سقطت من النسخ المطبوعة .

(٧) الحمنان : جمع حمنانة فالقراد أول ما يكون ـ قمقامة ثم يصير حمنانة ـ ثم يصير قراداً ثم يصير حلمة .
قال والقمّل واحدتها قملة وهي من جنس القردان ، وهي أصغر منها ، وهو يتخلق من عرق البعير ومن الوسخ والتلطخ بالثلوط والأبوال كتاب الحيوان للجاحظ ج ٥/٤٣٨ وما بعدها .

تسقط في أطعماتهم وأوانيهم حتى إن أحدهم إذا فتح فمه (١) لطعام أو شراب سقطت في فيه ضفدعة من تلك الضفادع . وأما الدم فكان قد مزج ماؤهم كله به فلا يستقون من النيل شيئاً إلا وجدوه دماً عبيطاً ولا من نهر ولا بئر ولا شيء إلا كان دماً في الساعة الراهنة . هذا كله لم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكلية . وهذا من تمام المعجزة الباهرة والحجة القاطعة أن هذا كله يحصل لهم من فعل موسى عليه السلام فينالهم عن آخرهم ، ولا يحصل هذا لأحد من بني إسرائيل وفي هذا أدل دليل . قال محمد بن اسحق فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مفلولاً ثم أبى إلّا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر وتابع الله عليه بالآيات : فأخذه بالسنين فأرسل عليه الطوفان ، ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم ، آيات مفصلات(٢) فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض ثم ركد . لا يقدرون على أن يخرجوا ولا أن يعملوا شيئاً حتى جهدوا جوعاً فلما بلغهم ذلك ﴿ **قالوا يا موسى أدع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل** ﴾ [الأعراف : ١٣٤] فدعا موسى ربه فكشفه(٣) عنهم فلما لم يفوا له بشيء فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغني حتى أن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم ، فقالوا مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم القمل. فذكر لي أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملاً حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له فدعا ربه فكشف عنهم فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا أرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلم يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلب عليه فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دماً لا يستقون من بئر ولا نهر يغترفون من إناء إلّا عاد دماً عبيطاً وقال زيد بن أسلم اراد بالدم الرعاف رواه ابن أبي حاتم . قال الله تعالى ﴿ **ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى أدع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين** ﴾ [الأعراف : ١٣٤ ـ ١٣٦] .

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل والإستكبار عن إتباع

---

(١) في نسخة : فاه .

(٢) قال القرطبي : قال مفصلات لأنه كان بين الآية والآية ثمانية أيام ، وقيل : أربعون يوماً . وقيل : شهر .

(٣) أي العذاب ، وقال ابن جبير : كان العذاب بالطاعون . والسياق يقتضي أن الرجز قد يكون ما تقدم من إظهار الآيات .

آيات الله وتصديق رسوله مع ما أيد به من الآيات العظيمة الباهرة والحجج البليغة القاهرة التي أراهم الله إياها عياناً وجعلها عليهم دليلاً وبرهاناً * وكلما شاهدوا آية وعاينوها وجهدهم وأضنكهم حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به وليرسلن معه من هو من حزبه فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى فيقولون فيكذبون . ويعدون ولا يفون لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك، ولنرسلن معك بني إسرائيل فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل . ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل هذا والعظيم الحليم القدير ينظرهم ، ولا يعجل عليهم ، ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد اليهم ، ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم والإنذار إليهم أخذ عزيز مقتدر فجعلهم عبرة ونكالاً وسلفاً لمن أشبههم من الكافرين ومثلاً لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين، كما قال تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين في سورة حم والكتاب المبين ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فقال إني رسول رب العالمين . فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون . وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالوا يا أيها الساحر أدع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون . ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ [الزخرف : ٤٦ - ٥٦].

يذكر تعالى إرساله عبده الكليم الكريم ، إلى فرعون الخسيس اللئيم وأنه تعالى أيد رسوله بآيات بينات واضحات ، تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق ، وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر ، ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم ، فإذا هم منها يضحكون ، وبها يستهزئون وعن سبيل الله يصدون ، وعن الحق ، [ينصرفون][1] فأرسل الله عليهم الآيات تترى يتبع بعضها بعضاً ، وكل آية أكبر من التي تتلوها ، لأن التوكيد أبلغ مما قبله ﴿ وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالوا يا أيها الساحر أدع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون ﴾ لم يكن لفظ الساحر في زمنهم نقصاً ولا عيباً لأن علماءهم في ذلك الوقت هم السحرة ولهذا خاطبوه به في حال احتياجهم إليه وضراعتهم لديه قال الله تعالى. ﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾ ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه وعظمة بلده وحسنها وتخرق الأنهار فيها * وهي الخلجانات التي يكسرونها أمام زيادة النيل ثم تبجح بنفسه وحليته وأخذ يتنقص رسول الله موسى عليه السلام ويزدريه بكونه ﴿ لا يكاد يبين ﴾ يعني كلامه بسبب ما كان في لسانه من بقية تلك اللثغة التي هي شرف له وكمال

---

(١) في النسخ المطبوعة : يصدون .

وجمال . ولم تكن مانعة له أن كلمه الله تعالى وأوحى إليه ، وأنزل بعد ذلك التوراة عليه ، وتنقصه فرعون لعنه الله بكونه لا أساور في بدنه ولا زينة عليه ، وإنما ذلك من حلية النساء ، لا يليق بشهامة الرجال ، فكيف بالرسل الذين هم أكمل عقلاً وأتم معرفة وأعلى همة وأزهد في الدنيا وأعلم بما أعد الله لأوليائه في الأخرى وقوله ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ لا يحتاج الأمر إلى ذلك إن كان المراد أن تعظمه الملائكة فالملائكة يعظمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير كما جاء في الحديث : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضي بما يصنع »[1] فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة والتسليم والتكريم * وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعاً لذوي الألباب ولمن قصد إلى الحق والصواب ويعمى عما جاء به من البينات والحجج الواضحات من نظر إلى القشور وترك لب اللباب وطبع على قلبه رب الأرباب وختم عليه بما فيه من الشك والإرتياب كما هو حال فرعون القبطي العمى الكذاب قال الله تعالى ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ أي استخف عقولهم ودرجهم من حال إلى حال إلى أن صدقوه في دعواه الربوبية ، لعنه الله وقبحهم ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين فلما آسفونا ﴾ أي أغضبونا ﴿ انتقمنا منهم ﴾ أي بالغرق والإهانة وسلب العز والتبدل بالذل وبالعذاب بعد النعمة والهوان بعد الرفاهية والنار بعد طيب العيش عياذاً بالله العظيم وسلطانه القديم من ذلك ﴿ فجعلناهم سلفا ﴾ أي لمن اتبعهم في الصفات ﴿ ومثلا ﴾ أي لمن اتعظ بهم وخاف من وبيل مصرعهم ممن بلغه جلية خبرهم وما كان من أمرهم كما قال الله تعالى. ﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين . وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون . وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أطلع إلى آله موسى وإني لأظنه من الكاذبين واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيمة لا ينصرون وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيمة هم من المقبوحين ﴾ [القصص : ٣٦ - ٤٢] يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق وادعى ملكهم الباطل ، ووافقوه عليه ، وأطاعوه فيه ، اشتد غضب الرب القدير العزيز الذي لا يغالب ، ولا يمانع عليهم ، فانتقم منهم أشد الانتقام ، واغرقه هو وجنوده في صبيحة واحدة ، فلم يفلت منهم أحد ، ولم يبق منهم ديار ، بل كل قد غرق فدخل النار وأتبعوا في هذه الدار لعنة بين العالمين ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ويوم القيامة هم من المقبوحين .

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه والبيهقي . عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ . وقال الترمذي : لا يعرف إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة ، وليس إسناده عندي بمتصل .

وقد روي عن الأوزاعي عن كثير بن يزيد بن سمرة عنه . قال البخاري : وهذا أصح (الترغيب والترهيب للمنذري ج ١/ ٩٤) .

هلاك فرعون وجنوده

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم ، متابعة لملكهم فرعون ، ومخالفة لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام ، وأقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة ، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول ، وهم مع ذلك لا يرعون ولا ينتهون ولا ينزعون ولا يرجعون . ولم يؤمن منهم إلا القليل . قيل ثلاثة وهم إمرأة فرعون ، ولا علم لأهل الكتاب بخبرها ، ومؤمن آل فرعون ، الذي تقدمت حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم ، والرجل الناصح ، الذي جاء يسعى من أقصى المدينة فقال : ﴿ **يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين** ﴾ قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم عنه ومراده غير السحرة فإنهم كانوا من القبط * وقيل بل آمن طائفة من القبط من قوم فرعون والسحرة كلهم وجميع شعب بني إسرائيل . ويدل على هذا قوله تعالى ﴿ **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين** ﴾ [يونس : ٨٣] فالضمير في قوله ﴿ **إلا ذرية من قومه** ﴾ عائد على فرعون[1] لأن السياق يدل عليه . وقيل على موسى لقربه والأول أظهر كما هو مقرر في التفسير وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته وجبروته وسلطته ومن ملائهم أن ينموا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم قال الله تعالى مخبراً عن فرعون وكفى بالله شهيداً ﴿ **وإن فرعون لعال في الأرض** ﴾ أي جبار عنيد مستعل بغير الحق ﴿ **وإنه لمن المسرفين** ﴾[2] أي في جميع أموره وشئونه وأحواله ولكنه جرثومة قد حان إنجعافها[3] وثمرة خبيثة قد آن قطافها ومهجة ملعونة قد حتم اتلافها . وعند ذلك قال موسى ﴿ **يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين** ﴾ [يونس : ٨٤ ـ ٨٦] يأمرهم بالتوكل على الله والإستمالة به والإلتجاء إليه فأتمروا بذلك فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجاً ومخرجاً . ﴿ **وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين** ﴾ [يونس : ٨٧] أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذوا لقومهما بيوتاً متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط ليكونوا على أهبة في الرحيل إذا أمروا به ليعرف بعضهم بيوت بعض وقوله ﴿ **واجعلوا**

---

(١) قال القرطبي : عن ابن عباس : من قومه : يعني من قوم فرعون ، منهم مؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأته وماشطة ابنته وامرأة خازنه . وقيل : هم أقوام آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل فسموا ذرية . قال الفراء : وعلى هذا فالكفاية في قومه : ترجع إلى موسى للقرابة من جهة الأمهات ، وإلى فرعون إذا كانوا من القبط .

(٢) قال القرطبي : أي المجاوزين الحد في الكفر ، لأنه كان عبداً فادعى الربوبية .

(٣) انجعافها : استئصالها وإهلاكها .

بيوتكم قبلة ﴾ قيل مساجد ، وقيل معناه كثرة الصلاة فيها ، قاله مجاهد وأبو مالك وإبراهيم النخعي والربيع والضحاك وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم . ومعناه على هذا الإستعانة على ما هم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة كما قال تعالى ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [البقرة : ٤٥] وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى . وقيل معناه أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم فأمروا أن يصلوا في بيوتهم عوضاً عما فاتهم من إظهار شعار الدين الحق في ذلك الزمان الذي اقتضى حالهم اخفاءه خوفاً من فرعون وملائه . والمعنى الأول أقوى لقوله ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ وإن كان لا ينافي الثاني أيضاً والله أعلم . وقال سعيد بن جبير ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ أي متقابلة ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ [يونس : ٨٨ ـ ٨٩] هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون غضباً عليه لتكبره عن اتباع الحق ، وصده عن سبيل الله ، ومعاندته وعتزه وتمرده واستمراره على الباطل ، ومكابرته الحق الواضح الجلي الحسي والمعنوي والبرهان القطعي فقال ﴿ ربنا إنك آتيت فرعون وملأه ﴾ يعني قومه من القبط ومن كان على ملته ودان بدينه ﴿ زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ أي وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا ، فيحسب الجاهل أنهم على شيء لكون هذه الأموال وهذه الزينة من اللباس والمراكب الحسنة الهنية ، والدور الأنيقة ، والقصور المبنية ، والمآكل الشهية ، والمناظر البهية ، والملك العزيز ، والتمكين والجاه العريض في الدنيا لا الدين ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ قال ابن عباس ومجاهد أي أهلكها [حتى لا ترى][3]وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت ، وقال قتادة : بلغنا أن زروعهم [وأموالهم][1]صارت حجارة . وقال محمد بن كعب : جعل سكرهم حجارة وقال أيضاً صارت أموالهم كلها حجارة. ذكر ذلك لعمر بن عبدالعزيز فقال عمر ابن عبدالعزيز لغلام له : قم ايتني بكيس ، فجاءه بكيس[2] فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة ❁ رواه ابن أبي حاتم . وقوله ﴿واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس : ٨٨] قال ابن عباس : أي أطبع عليها[3]، وهذه دعوة غضب لله تعالى، ولدينه، ولبراهينه. فاستجاب الله تعالى لها وحققها وتقبلها ، كما استجاب لنوح في قومه حيث قال ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفاراً ﴾ [نوح : ٢٦ ـ ٢٧]

---

(١) ما بين معكوفين زيادة من القرطبي .

(٢) في الطبري : بخريطة ، والخريطة : كيس .

(٣) أطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان ، وبمعنى آخر أي أمنعهم الإيمان .

ولهذا قال تعالى مخاطباً لموسى حين دعا على فرعون وملائه وأمّن[1] أخوه هارون على دعائه فنزل ذلك منزلة الداعي أيضاً ﴿ قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ [يونس : ٨٩] قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيدٍ لهم ، فأذن لهم وهو كاره ، ولكنهم تجهزوا للخروج ، وتأهبوا له وإنما كان في نفس الأمر ، مكيدة بفرعون وجنوده ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم وأمرهم الله تعالى فيما ذكره أهل الكتاب أن يستعيروا حلياً منهم فأعاروهم شيئاً كثيراً فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم طالبين بلاد الشام فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق واشتد غضبه عليهم ، وشرع في استحثاث جيشه ، وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم ، قال الله تعالى ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون . فأرسل فرعون في المدائن حاشرين . إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني اسرائيل فاتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا إن معي ربي سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ [الشعراء : ٥٢ ـ ٦٨] قال علماء التفسير : لما ركب فرعون في جنوده طالباً[2] بني إسرائيل يقفو أثرهم كان في جيش كثيف عرمرم حتى قيل كان في خيوله مائة ألف فحل[3] أدهم ، وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف فالله أعلم . وقيل إن بني إسرائيل كانوا نحواً من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى عليه السلام ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وستاً وعشرين سنة شمسية .

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود فأدركهم عند شروق الشمس وتراءى الجمعان ولم يبق ثم ريب ولا لبس وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه ولم يبق إلا المقاتلة والمجاولة[4] والمحاماة فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون إنا لمدركون وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلاّ سلوكه وخوضه . وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهي شاهقة منيفة وفرعون قد غالقهم وواجههم وعاينوه في جنوده وجيوشه وعُدده وعَدده وهم منه في غاية الخوف والذعر لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمنكر فشكوا إلى نبي

---

(١) كان الذي دعا موسى ، وأمن هارون ، والتأمين على الدعاء أن يقول : آمين . فقولك آمين دعاء أي رب استجب لي .

(٢) في نسخة : في طلب بني إسرائيل .

(٣) هنا : من الخيل ، ولم يكن معه من الخيل أنثى بل ذكورها .

(٤) وفي النسخ المطبوعة : المجادلة ، وما أثبتناه مناسب للسياق .

الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه فقال لهم الرسول الصادق المصدوق ﴿ كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ وكان في الساقة فتقدم إلى المقدمة ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ويتزايد زبد أجاجه وهو يقول : ههنا أمرت ومعه أخوه هرون ويوشع بن نون ، وهو يومئذ من سادات بني إسرائيل ، وعلمائهم ، وعبادهم الكبار ، وقد أوحى الله إليه وجعله نبياً بعد موسى وهرون عليهما السلام، كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله * ومعهم أيضاً مؤمن آل فرعون وهم وقوف وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف * ويقال إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مراراً في البحر هل يمكن سلوكه ، فلا يمكن ويقول لموسى عليه السلام : يا نبي الله أههنا أمرت ؟ فيقول نعم . فلما تفاقم الأمر ، وضاق الحال ، واشتد الأمر ، واقترب فرعون وجنوده في جدهم : وحدهم وحديدهم وغضبهم وحنقهم ، وزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، فعند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير رب العرش الكريم إلى موسى الكليم ﴿ أن أضرب بعصاك البحر ﴾ فلما ضربه يقال إنه قال له : انفلق باذن الله ، ويقال : إنه كناه بأبي خلد فالله أعلم ، قال الله تعالى: ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ [الشعراء : ٦٣] ويقال : إنه انفلق اثنتي عشرة طريقاً لكل سبط(١)طريق يسيرون فيه حتى قيل إنه صار أيضاً شبابيك ليرى بعضهم بعضاً وفي هذا نظر ، لأن الماء جرم شفاف إذا كان من ورائه ضياء حكاه . وهكذا كان ماء البحر قائماً مثل الجبال مكفوفاً بالقدرة العظيمة الصادرة من الذي يقول للشيء كن فيكون . وأمر الله ريح الدبور(٢)فلفحت حال(٣)البحر فأذهبته حتى صار يابساً لا يعلق في سنابك الخيول والدواب . قال الله تعالى ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى . فاتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ [طه : ٧٧ - ٧٩] والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الرب العظيم ، الشديد المحال ، أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببني اسرائيل فانحدروا فيه مسرعين ، مستبشرين مُبادرين ، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ، ويهدي قلوب المؤمنين ، فلما جاوزوه وجاوزه وخرج آخرهم منه ، وانفصلوا عنه ، كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ووفودهم عليه ، فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول اليه . ولا سبيل عليه فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال ، كما قال وهو الصادق في المقال ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم أن أدوا إلى عباد الله إني لكم رسول أمين . وان لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين . واني عذت بربي وربكم أن ترجمون . وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون . فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون . فأسر بعبادي

---

(١) سبط : كان بنو إسرائيل اثني عشر سبطاً . والجمع أسباط .

(٢) ريح الدبور : الريح الغربية .

(٣) حال البحر : الطين الأسود الذي يكون في أرضه .

ليلا إنكم متبعون واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون . كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين . ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ﴾ [الدخان : ١٧ ـ ٢٣] فقوله تعالى ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ أي ساكناً على هيئته لا تغيره عن هذه الصفة . قاله عبد الله بن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع والضحاك وقتادة وكعب الأحبار وسماك بن حرب وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم * فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون فرأى ما رأى وعاين ما عاين . هاله هذا المنظر العظيم ، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك ، من أن هذا من فعل رب العرش الكريم فأحجم[1] ولم يتقدم ، وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه ، حيث لا ينفعه الندم لكنه أظهر لجنوده تجلداً[2] وعاملهم معاملة العدا ، وحملته النفس الكافرة ، والسجية الفاجرة ، على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه ، وعلى باطله تابعوه ، أنظروا كيف انحسر البحر لي لأدرك عبيدي الأبقين من يدي ، الخارجين عن طاعتي ، وبلدي ، وجعل يوري في نفسه أن يذهب خلفهم ، ويرجو أن ينجو ، وهيهات ويقدم تارة ويحجم تارات . فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدى في صورة فارس راكب على رمكة[1] حايل فمر بين يدي فحل فرعون لعنه الله ، فحمحم إليها ، وأقبل عليها ، وأسرع جبريل بين يديه ، فاقتحم البحر واستبق الجواد وقد أجاد فبادر مسرعاً ؛ هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضراً ولا نفعاً فلما رأته الجنود قد سلك البحر ، اقتحموا وراءه مسرعين ، فحصلوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين ، حتى همَّ أولهم بالخروج منه ، فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه ، فيما أوحاه إليه أن يضرب البحر بعصاه فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان ، فلم ينج منهم إنسان قال الله تعالى ﴿ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ [يونس : ٩٠ ـ ٩٢] أي في انجائه أولياءه فلم يغرق منهم أحد ، وإغراقه أعداءه ، فلم يخلص منهم أحد ، آية عظيمة ، وبرهان قاطع ، على قدرته ـ تعالى ـ العظيمة . وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة ، والمناهج المستقيمة ، وقال تعالى ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعه فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وأن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ [الشعراء : ٦٥ ـ ٦٨] يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون ، زعيم كفرة القبط ، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة ، وترفعه أخرى ،

---

(١) في نسخة : فخاف .

(٢) قوله تجلداً في نسخة الجلد .

(٣) رمكة حايل : الفرس التي لم تلد .

وبنو إسرائيل ينظرون إليه ، وإلى جنوده ، ماذا أحل الله به ، وبهم من البأس العظيم ، والخطب الجسيم ، ليكون أقر لأعين/بني إسرائيل ، وأشفى لنفوسهم ، فلما عاين فرعون الملكة وأحيط به ، وباشر سكرات الموت أناب حينئذ وتاب ، وآمن حين لا ينفع نفساً إيمانها كما قال تعالى ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ [يونس : ٩٦ - ٩٧] وقال تعالى ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ [غافر : ٨٤ - ٨٥] وهكذا دعا موسى على فرعون وملئه أن يطمس على أموالهم ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ أي حين لا ينفعهم ذلك ويكون حسرة عليهم وقد قال تعالى لهما أي لموسى وهرون حين دعوا بهذا ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾ فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هرون عليهما السلام . ومن ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد[1] عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لما قال فرعون ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾ قال : « قال لي جبريل لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة » ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم عند هذه الآية من حديث حماد بن سلمة وقال الترمذي حديث حسن . وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة ، عن عدي بن ثابت[2] وعطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « قال لي جبريل لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن تدركه[3] الرحمة » . ورواه الترمذي وابن جرير من حديث شعبة وقال الترمذي حسن غريب صحيح . وأشار ابن جرير في رواية إلى وقفه . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما أغرق الله فرعون أشار بإصبعه ورفع صوته ﴿ آمنت انه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾ قال : فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه ، فجعل يأخذ الحال بجناحيه ، فيضرب به وجهه فيرمسه[4]* ورواه ابن جرير من حديث أبي خالد

(١) وهو علي بن زيد بن عبدالله بن زهير بن عبدالله بن جدعان التيمي البصري الضرير . ضعيف من الرابعة ، ليس بالثبت سمع سعيد بن المسيب وجماعة . قال الدارقطني : لا يزال عندي فيه لين مات سنة ١٣١ تقريب التهذيب ٢/٣٧/٣٤٢ الكاشف ٢/٢٤٨ والحديث أخرجه أحمد في مسنده ج ١/٣٤٥ .

(٢) هو عدي بن ثابت الأنصاري تابعي كوفي في نسبه اختلاف روى عن أبيه والبراء وابن أبي أوفى ، ثقة قاضي الشيعة وإمام مسجدهم بالكوفة توفي سنة ١١٦ . الكاشف ٢/٢٢٦ ؛ تقريب التهذيب ٢/١٦/١٣٥ والحديث أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ٢/٥٤/٢٣٠٧ .

(٣) في النسخ المطبوعة : أن تناله ، وأثبتنا ما في مسند الطيالسي : أن تدركه .

(٤) يرمسه : يدفنه ؛

به . وقد رواه ابن جرير من طريق كثير بن زاذان[1] وليس بمعروف ، وعن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال قال لي جبريل يا محمد لو رأيتني وأنا أغطه وأدس من الحال في فيه مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له » . يعني فرعون . وقد أرسله غير واحد من السلف كـإبراهيم التيمي ، وقتادة ، وميمون بن مهران ، ويقال : إن الضحاك بن قيس خطب به الناس . وفي بعض الروايات : إن جبريل قال : ما بغضت أحداً بغضي لفرعون حين قـال : أنا ربكم الأعلى ولقد جعلت أدس في فيه الطين حين قال مـا قال . وقـوله تعـالى ﴿ آلآن وقد عصيت قبـل وكنت من المفسدين ﴾ إستفهام إنكار ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك لأنه ـ والله أعلم : لو رد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه ، كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون ﴿ يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ [الأنعام : ٢٧] قال الله ﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنـه وإنهم لكاذبـون ﴾ [الأنعام : ٢٨] وقـوله ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ﴾ [يونس : ٩٢] قال ابن عبـاس وغير واحـد : شك بعض بني إسرائيل في موت فرعون حتى قال بعضهم : إنه لا يموت ، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع . قيل على وجه الماء وقيل على نجوة من الأرض وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه ليتحققوا بذلك هلاكه ويعلموا قدرة الله عليه . ولهذا قال ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك ﴾ أي مصاحباً درعك المعروفة بك ﴿ لتكون ﴾ أي أنت آية ﴿ لمن خلفك ﴾ أي من بني إسرائيل[2] دليلاً على قدرة الله الذي أهلكه . ولهذا قرأ بعض السلف لتكون لمن خلقك آية . ويحتمل أن يكون المارد ننجيك مصاحباً لتكون درعك علامة لمن وراءك من بني إسرائيل على معرفتك وإنك هلكت والله أعلم .

وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء . كما قال الإمام البخاري في صحيحه : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء . فقالـوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . قال النبي ﷺ « أنتم أحق بموسى منهم فصوموا » وأصل هذا الحديث في الصحيحين[3] وغيرهما . والله أعلم .

---

(١) كثير بن زاذان النخعي الكوفي . عن عاصم بن ضمرة وعنه عنبسة قـاضي الري ، لا يثبت حـديثه أبـو حاتم وأبـو زرعة جهلاه . الكاشف ج ٣/٤ تقريب التهذيب ٢/١٣١/٩ .

(٢) زاد في القرطبي : ولمن بقي من قوم فرعون ممن لم يدركه الغرق ولم ينته إليه هذا الخبر .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٦٥/١٠/٢/٤٦٨٠ فتح الباري .

وأخرجه مسلم في صحيحه ١٣/١٩/١٢٧ وفيه : « نحن أولى بموسى منكم » فأمر بصومه .

وأخرجه ابن ماجة بنحوه : وفيه « نحن أحق بموسى منكم » ، فصامه ، وأمر بصيامه .

[فصل فيما كان من][1]أمر بني اسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله تعالى : ﴿ فانتقمنا منهم فاغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون . وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم. قالوا يا موسى اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة. قال إنكم قوم تجهلون. إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون. قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين . وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ [الأعراف : ١٣٦ ـ ١٤١] يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون وجنوده في غرقهم وكيف سلبهم عزهم وما لهم وأنفسهم وأورث بني إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم كما قال ﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ [الشعراء : ٥٩] وقال ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ وقال ههنا ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ [الأعراف : ١٣٧] أي أهلك ذلك جميعه وسلبهم عزهم العزيز العريض في الدنيا وهلك الملك وحاشيته وأمراؤه وجنوده ولم يبق ببلد مصر سوى العامة والرعايا . فذكر ابن عبد الحكم في تاريخ مصر أنه من ذلك الزمان تسلط نساء مصر على رجالها بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهن من العامة فكانت لهن السطوة عليهم واستمرت هذه سنة نساء مصر إلى يومنا هذا[2].

وعند أهل الكتاب : أن بني إسرائيل لما أمروا بالخروج من مصر ، جعل الله ذلك الشهر أول سنتهم ، وأمروا أن يذبح كل أهل بيت حملاً من الغنم ، فإن كانوا لا يحتاجون إلى حمل فليشترك الجار وجاره فيه فإذا ذبحوه فلينضحوا من دمه على أعتاب أبوابهم ليكون علامة لهم على بيوتهم ولا يأكلونه مطبوخاً ولكن مشوياً برأسه وأكارعه وبطنه ولا يبقوا منه شيئاً ولا يكثروا له عظماً ولا يخرجوا منه شيئاً إلى خارج بيوتهم ، وليكن خبزهم فطيراً سبعة أيام ، ابتداؤها من الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم ، وكان ذلك في فصل الربيع ، فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودة ، وخفافهم في أرجلهم ، وعصيهم في أيديهم ، وليأكلوا بسرعة قياماً . ومهما فضل عن عشائهم فما بقي إلى الغد فليحرقوه بالنار ، وشرع لهم هذا عيداً لأعقابهم ما دامت التوراة معمولاً بها . فإذا نسخت بطل شرعها وقد وقع . قالوا وقتل الله عز وجل في تلك الليلة أبكار القبط وأبكار دوابهم ليشتغلوا

---

(١) ما بين معكوفين سقط من النسخ المطبوعة .

(٢) في النسخ المطبوعة : يومك ؛ وما أثبتناه الصواب .

عنهم وخرج بنو إسرائيل حين انتصف النهار وأهل مصر في مناحة عظيمة على أبكار أولادهم ، وأبكار أموالهم ، ليس من بيت إلاّ وفيه عويل . وحين جاء الوحي إلى موسى خرجوا مسرعين ، فحملوا العجين قبل اختماره ، وحملوا الأزواد في الأردية ، وألقوها على عواتقهم * وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حلياً كثيراً فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوى الذراري بما معهم من الأنعام وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة . هذا نص كتابهم . وهذه السنة عندهم تسمى سنة الفسخ وهذا العيد عيد الفسخ . ولهم عيد الفطير وعيد الحمل وهو أول السنة * وهذه الأعياد الثلاثة آكد أعيادهم منصوص عليها في كتابهم . ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف[1] عليه السلام وخرجوا على طريق بحر سوف . وكانوا في النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم فيه عامود نور وبالليل أمامهم عامود نار فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر فنزلوا هنالك وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين وهم هناك حلول على شاطىء اليم فقلق كثير من بني إسرائيل حتى قال قائلهم : كان بقاؤنا بمصر أحب إلينا من الموت بهذه البرية . وقال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة : لا تخشوا فإن فرعون وجنوده لا يرجعون إلى بلدهم بعد هذا . قالوا : وأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه وأن يقسمه ليدخل بنو إسرائيل في البحر واليبس . وصار الماء من ههنا وههنا كالجبلين وصار وسطه يبساً لان الله سلط عليه ريح الجنوب والسموم فجاز بنو إسرائيل البحر ، واتبعهم فرعون وجنوده ، فلما توسطوه أمر الله موسى فضرب البحر بعصاه ، فرجع الماء كما كان عليهم . لكن عند أهل الكتاب أن هذا كان في الليل وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح وهذا من غلطهم وعدم فهمهم في تعريبهم والله أعلم . قالوا ولما أغرق الله فرعون وجنوده حينئذ سبّح موسى وبنو إسرائيل بهذا التسبيح للرب وقالوا : نسبح الرب البهي ، الذي قهر الجنود ، ونبذ فرسانها في البحر المنيع المحمود : وهو تسبيح طويل . قالوا وأخذت مريم[2] النبية ـ أخت هارون ـ دفاً بيدها وخرج النساء في أثرها كلهن بدفوف وطبول وجعلت مريم ترتل لهن ، وتقول سبحان الرب القهار ، الذي قهر الخيول وركبانها إلقاء في البحر . هكذا رأيته في كتابهم . ولعل هذا هو من الذي حمل محمد بن كعب القرظي على زعمه أن مريم بنت عمران أم عيسى هي أخت هرون وموسى مع قوله يا أخت هرون * وقد بينا غلطه في ذلك وأن هذا لا يمكن أن يقال ولم يتابعه أحد عليه بل كل واحد خالفه فيه، ولو قدر أن هذا محفوظ فهذه مريم بنت عمران أخت موسى وهرون عليها السلام وأم عيسى عليها السلام وافقتها في الاسم واسم الأب واسم الأخ لأنهم كما قال رسول الله ﷺ للمغيرة بن شعبة لما سأله أهل نجران عن قوله يا أخت هرون فلم يدر ما يقول لهم، حتى سأل رسول الله ﷺ

---

(١) روى الطبري عن عروة بن الزبير عن أبيه أن الله أمر موسى أن يحتمل معه يوسف حتى يضعه بالأرض ، فاستخرج موسى تابوت يوسف ـ في ناحية من النيل ـ صندوقاً من مرمر . ١/٢١٦ .

(٢) وهي مريم بنت عمران أخت موسى ، وليست مريم بنت عمران أم عيسى عليهم السلام .

امن ذلك فقال: «أما علمت أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم»، رواه مسلم[1]. وقولهم النبية كما يقال للمرأة من بيت الملك ملكة ومن بيت الإمرة أميرة وإن لم تكن مباشرة شيئاً من ذلك فكذا هذه استعارة لها لا أنها نبية حقيقة يوحى إليها وضربها بالدف في مثل هذا اليوم الذي هو أعظم الأعياد عندهم ، دليل على أنه قد كان شرع من قبلنا ضرب الدف في العيد * وهذا مشروع لنا أيضاً في حق النساء لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة يضربان بالدف في أيام منىً ورسول الله ﷺ مضطجع مولى ظهره إليهم ووجهه إلى الحائط فلما دخل أبو بكر زجرهن[2]، وقال : أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ فقال : « دعهن يا أبا بكر فإن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا » . وهكذا يشرع عندنا في الأعراس ، ولقدوم الغياب ، كما هو مقرر في موضعه والله أعلم . وذكروا أنهم لما جاوزوا البحر وذهبوا قاصدين إلى بلاد الشام مكثوا ثلاثة أيام لا يجدون ماء فتكلم من تكلم منهم بسبب ذلك فوجدوا ماء زعاقاً أجاجاً[3] لم يستطيعوا شربه فأمر الله موسى فأخذ خشبة فوضعها فيه فحلا وساغ شربه وعلمه الرب هنالك فرائض وسنناً ووصاه وصايا كثيرة . وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز المهيمن على ما عداه من الكتب **﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا الهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾** [الأعراف : ١٣٨] . قالوا هذا الجهل والضلال وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ما دلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذي الجلال والإكرام ، وذلك أنهم مروا على قوم[4] يعبدون أصناماً قيل كانت على صور البقر فكأنهم سألوهم لم يعبدونها فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضرورات فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم في ذلك فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة فقال لهم مبيناً لهم أنهم لا يعقلون ولا يهتدون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . ثم ذكرهم نعمة الله عليهم في تفضيله إياهم على عالمي زمانهم بالعلم والشرع والرسول الذي بين أظهرهم وما أحسن به إليهم وما امتن به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد وإهلاكه إياه وهم ينظرون وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملاؤه يجمعونه من الأموال والسعادة ، وما كانوا يعرشون[5]، وبيّن لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له ، لأنه الخالق الرازق القهار ، وليس كل بني إسرائيل سأل هذا السؤال

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٣٨ كتاب الآداب (١) باب النهي عن التكني بأبي القاسم ٩/٢١٣٥ ص ٣/١٦٨٥ وفيه : انهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم .

(٢) زجرهن : صرخ بهن وصاح .

(٣) زعاقاً أجاجاً : المر الغليظ ، والمالح الذي لا يطاق شربه .

(٤) قال قتادة : كانوا قوماً من لخم ، وكانوا نزولاً بالريف .

(٥) يعرشون : قال الزجاج : عرش يعرش إذا بنى . هنا : يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء كصرح هامان وفرعون .

بل هذا الضمير عائد على الجنس في قوله ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ [الأعراف : ١٣٨] أي قال بعضهم[١] كما في قوله ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ﴾ [الكهف : ٤٧ ـ ٤٨] فالذين زعموا هذا ، بعض الناس ، لا كلهم ، وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري عن سنان بن أبي سنان الديلي ، عن أبي واقد[٢] الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين ، فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط وكان الكفار ينوطون[٣] سلاحهم بسدرة ، ويعكفون حولها فقال نبي الله ﷺ : « الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة انكم تركبون سنن الذين من قبلكم »[٤]. ورواه النسائي عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به . ورواه الترمذي عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي عن سفيان بن عيينة عن الزهري به . ثم قال حسن صحيح . وقد روى ابن جرير من حديث محمد بن اسحق ومعمر وعقيل عن الزهري عن سنان بن أبي سنان عن أبي واقد الليثي ، أنهم خرجوا من مكة ، مع رسول الله ﷺ إلى خيبر ، قال وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط[٥] قال فمررنا بسدرة خضراء عظيمة قال : فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط قال : « قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ ».

والمقصود أن موسى عليه السلام لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوماً من الجبارين من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس ، فإن الله كتبه لهم ، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل ، وموسى الكليم الجليل ، فأبوا ، ونكلوا عن الجهاد ، فسلط الله عليهم

---

(١) قال الرازي في تفسيره : قال بعضهم ، لأنه كان مع موسى عليه السلام السبعون المختارون وكان فيهم من يرتفع عن مثل هذا السؤال الباطل ؛ قال : والأقرب انهم طلبوا من موسى عليه السلام أن يعين لهم أصناماً وتماثيل يتقربون بعبادتها إلى الله تعالى . وقولهم كفر لأن الأنبياء اجمعوا على أن عبادة غير الله تعالى كفر سواء اعتقد في ذلك الغير كونه إلهاً للعالم ، أو اعتقدوا فيه أن عبادته تقربهم إلى الله تعالى .

(٢) أبو واقد الليثي المدني صحابي قيل اسمه الحارث بن مالك وقيل ابن عوف وقيل عوف بن الحارث . روى عنه أبناه وابن المسيب وعروة مات سنة ٦٨ هـ . الكاشف ج ٣/٣٤٣ ـ تقريب التهذيب ٢/٢/٤٨٦ .

(٣) ينوطون : يعلقون بها سلاحهم .

(٤) مسند أحمد : ج ٥/٢١٨ ورواه الترمذي في ٣٤/١٨/٢١٨٠ .

(٥) ذات انواط : أي ينوطون بها ، يعلقون بها سلاحهم .

الخوف ، وألقاهم في التيه ، يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون ، في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون . كما قال الله تعالى ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فانا داخلون قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما أدخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ [المائدة : ٢٠ - ٢٦] . يذكرهم نبي الله نعمة الله عليهم ، إحسانه عليهم بالنعم الدينية والدنيوية ، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ، ومقاتلة أعدائه فقال ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة(١) التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم ﴾ أي تنكصوا على أعقابكم وتنكلوا على قتال أعدائكم ﴿ فتنقلبوا خاسرين ﴾ أي فتخسروا بعد الربح وتنقصوا بعد الكمال ﴿ قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ﴾ أي عتاة كفرة متمردين ﴿ وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا فانا داخلون ﴾ خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون ، وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأساً وأكثر جمعاً وأعظم جنداً وهذا يدل على أنهم ملومون في هذه المقالة ومذمومون على هذه الحالة من الذلة عن مصاولة الأعداء ومقاومة المردة الأشقياء .

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا آثاراً فيها مجازفات كثيرة باطلة ، يدل العقل والنقل على خلافها ، من أنهم كانوا أشكالاً هائلة ضخاماً جداً حتى إنهم ذكروا أن رسل بني اسرائيل لما قدموا عليهم ، تلقاهم رجل من رسل الجبارين ، فجعل يأخذهم واحداً واحداً ويلفهم في أكمامه وحجزة سراويله ، وهم إثنا عشر رجلاً فجاء بهم ، فنثرهم بين يدي ملك الجبارين ، فقال : ما هؤلاء ؟ ولم يعرف أنهم من بني آدم حتى عرفوه وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها(٢). وأن الملك بعث معهم عنباً كل عنبة تكفي الرجل ، وشيئاً من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم وهذا ليس بصحيح . وذكروا ههنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بني إسرائيل ليهلكهم وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع هـ ذكره البغوي وغيره ، وليس بصحيح ، كما قدمنا بيانه عند قوله ﷺ : « إن الله خلق آدم

---

(١) تظاهرت الأخبار في الأرض المقدسة ؛ قيل دمشق كانت قاعدة الجبارين ؛ والمقدسة : المطهرة قال قتادة : هي الشام وقال مجاهد : الطور وقال ابن زيد : اريحياء وقال الزجاج : دمشق وفلسطين وبعض الأردن .

(٢) قال الألوسي : هذه الأخبار عندي كأخبار (عوج بن عوق) وهي حديث خرافة .

طوله ستون ذراعاً ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » . قالوا فعمد عوج إلى قمة جبل فاقتلعها ثم أخذها بيديه ليلقيها على جيش موسى فجاء طائر فنقر تلك الصخرة ، فخرقها فصارت طوقاً في عنق عوج بن عنق[1]. ثم عمد موسى إليه فوثب في الهواء عشرة أذرع وطوله عشرة أذرع وبيده عصاه ، وطولها عشرة أذرع ، فوصل إلى كعب قدمه فقتله . يروى هذا عن عوف البكالي ونقله ابن جرير عن ابن عباس وفي اسناده اليه نظر * ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات وكل هذه من وضع جهال بني اسرائيل ، فإن الأخبار الكذبة قد كثرت عندهم ولا تميز لهم بين صحتها وباطلها . ثم لو كان هذا صحيحاً لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول عن قتالهم ، وقد ذمهم الله على نكولهم ، وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم ، ومخالفتهم رسولهم ، وقد أشار عليهم رجلان صالحان ، منهم بالإقدام ونهياهم عن الاحجام * ويقال إنهما يوشع بن نون وكالب بن يوقنا[2] قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسدي والربيع بن أنس وغير واحد ﴿ **قال رجلان من الذين يخافون** ﴾ أي يخافون الله وقرأ بعضهم يُخافون أي يُهابون ﴿ **أنعم الله عليهما** ﴾ أي بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة ﴿ **ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي إذا توكلتم على الله ، واستعنتم به ، ولجأتم إليه ، نصركم على عدوكم ، وأيدكم عليهم وأظفركم بهم . ﴿ **قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون** ﴾ فصمم ملاؤهم على النكول عن الجهاد ، ووقع أمر عظيم ووهن كبير . فيقال إن يوشع وكالب لما سمعا هذا الكلام شقا ثيابهما ، وإن موسى وهرون سجدا إعظاماً لهذا الكلام وغضباً لله عز وجل ، وشفقة عليهم من وبيل هذه المقالة ﴿ **قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين** ﴾ [المائدة : ٣٥] قال ابن عباس ﴿ **اقض بيني وبينهم** ﴾ . ﴿ **قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾ [المائدة : ٣٠] عوقبوا على نكولهم بالتيهان[3] في الأرض يسيرون إلى غير مقصد ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساء ويقال إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله بل ماتوا كلهم في مدة أربعين سنة ولم يبق إلاّ ذراريهم سوى يوشع وكالب عليهما السلام . لكن أصحاب محمد ﷺ يوم بدر لم يقولوا

---

(١) عوج بن عنق هكذا في الأصول . قال صاحب القاموس مادة (عوق) : « وعوق كنوح والدعوج الطويل ومن قال : عوج بن عنق فقد أخطأ » وقال في شرحه : هذا الذي خطأه هو المشهور على الألسنة ؛ قال شيخنا : وزعم قوم من حفاظ التواريخ ان عنق هي أم عوج وعوج أباه فلا خطأ ولا غلط .

(٢) كانا من النقباء الاثني عشر الذين أرسلهم موسى - من أسباط بني إسرائيل - إلى اريحاء من بلاد فلسطين يتجسسون الأخبار .

(٣) التيهان : من التيه وأصل التيه في اللغة الحيْرة فيها .
فكانوا سيارة لا قرار لهم يسيرون في فراسخ قليلة .

له كما قال قوم موسى لموسى ، بل لما استشارهم في الذهاب إلى النفير تكلم الصدّيق فأحسن [وتكلم غيره][1]من المهاجرين ثم جعل يقول : « أشيروا عليّ » حتى قال سعد بن معاذ : كأنك تعرض بنا يا رسول الله ، فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته ، لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن يلقى بنا عدونا غداً إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقرّبه عينك ، فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله ﷺ بقول سعد وبسطه ذلك . وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن مخارق بن عبد الله الأحمسي ، عن طارق ـ وهو ابن شهاب ـ أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر : يا رسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون[2]» وهذا إسناد جيد من هذا الوجه وله طرق أخرى . قال أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا إسرائيل ، عن مخارق ، عن طارق بن شهاب ، قال : قال عبد الله بن مسعود : لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إليّ مما عدل به أتى رسول الله ﷺ : وهو يدعو على المشركين فقال[3]: والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ ولكنا نقاتل عن يمينك ، وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك . فرأيت وجه رسول الله ﷺ : يشرق لذلك وسر بذلك ، رواه البخاري في التفسير والمغازي من طرق عن مخارق به[4]. وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه : حدثنا علي بن الحسن بن علي ، حدثنا أبو حاتم الرازي ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري ، حدثنا حميد ، عن أنس أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين فأشار عليه عمر ، ثم استشارهم فقالت الأنصار : يا معشر الأنصار[5]إياكم يريد رسول الله ﷺ قالوا : إذاً لا نقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى ﴿ إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ والذي بعثك بالحق إن ضربت أكبادها[6]إلى برك الغماد[7]لاتبعناك رواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد، عن حميد

---

(١) في النسخ المطبوعة وغيره بحذف تكلم وما أثبتناه الصواب .

(٢) مسند أحمد ج ٤/٣١٤ .

(٣) في النسخ المطبوعة : قال .

(٤) أخرجه البخاري في ٦٤ كتاب المغازي (٤) باب فتح الباري ٧/٢٨٧ وأعاد في التفسير مرتين : مرة عن أبي نعيم ومرة عن حمدان بن عمر (تفسير سورة المائدة) .
وأخرجه أحمد في مسنده ج ١/٣٩٠ ، ٤٢٨ - ٤/١٨٤ ، ٣١٤) .

(٥) قال العلماء : إنما قصد ﷺ اختيار الأنصار ، لأنه لم يكن بايعهم على أن يخرجوا معه للقتال وطلب العدو ، وإنما بايعهم على أن يمنعوه ممن يقصده ، فلما عرض الخروج لعير أبي سفيان أراد أن يعلم انهم يوافقون على ذلك . فأجابوه أحسن جواب .

(٦) كناية عن ركضها ، فالفارس يركض بركوبه بتحريك رجليه على جانبيه ويضرب على موضع كبده .

(٧) برك الغماد : موضع بناحية الساحل من وراء مكة ، وقيل موضع بأقاصي حجر .

الطويل ، عن أنس به ورواه النسائي عن محمد بن المثنى عن خالد بن الحارث عن حميد ، عن أنس به نحوه ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلى عن عبد الأعلى بن حماد عن معتمر عن حميد ، عن أنس به نحوه[1] .

[فصل في][2] دخول بني اسرائيل التيه ومَا [جرى لهم][2]فيه من الأمور العجيبة

قد ذكرنا نكول بني اسرائيل عن قتال الجبارين ، وأن الله تعالى عاقبهم بالتيه ، وحكم بأنهم لا يخرجون منه إلى أربعين سنة ، ولم أر في كتاب أهل الكتاب قصة نكولهم عن قتال الجبارين ، ولكن فيها : أن يوشع جهزه موسى لقتال طائفة من الكفار ، وأن موسى وهرون وخور جلسوا على رأس أكمة ، ورفع موسى عصاه ، فكلما رفعها انتصر يوشع عليهم ، وكلما مالت يده بها من تعب أو نحوه غلبهم أولئك وجعل هرون وخور يدعمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم إلى غروب الشمس ، فانتصر حزب يوشع عليه السلام . وعندهم أن «يثرون» كاهن مدين وختن موسى عليه السلام بلغه ما كان من أمر موسى وكيف أظفره الله بعدوه فرعون ، فقدم على موسى مسلماً ومعه ابنته صفورا زوجة موسى وابناها منه ، جرشون وعازر فتلقاه موسى وأكرمه ، واجتمع به شيوخ بني اسرائيل وعظموه وأجلوه . وذكروا أنه رأى كثرة اجتمع بني اسرائيل على موسى في الخصومات التي تقع بينهم ، فأشار على موسى أن يجعل على الناس رجالاً أمناء أتقياء أعفاء ، يبغضون الرشاء والخيانة ، فيجعلهم على الناس رؤس مئين ، ورؤس خمسين ، ورؤس عشرة ، فيقضوا بين الناس ، فإذا أشكل عليهم أمر جاؤك ففصلت بينهم ما أشكل عليهم ، ففعل ذلك موسى عليه السلام . قالوا ودخل بنو اسرائيل البرية عند سيناء في الشهر الثالث من خروجهم من مصر وكان خروجهم في أول السنة التي شرعت لهم وهي أول فصل الربيع فكأنهم دخلوا التيه في أول فصل الصيف والله أعلم . قالوا ونزل بنو اسرائيل حول طور سيناء وصعد موسى الجبل فكلمه ربه وأمره أن يذكر بني إسرائيل ما أنعم الله به عليهم من إنجائه إياهم من فرعون وقومه ، وكيف حملهم على مثل جناحي نسر من يده ، وقبضته ، وأمره أن يأمر بني اسرائيل بأن يتطهروا ، ويغتسلوا ويغسلوا ثيابهم ، وليستعدوا إلى اليوم الثالث ، فإذا كان في اليوم الثالث ، فليجتمعوا حول الجبل ، ولا يقتربن أحد منهم إليه ، فمن دنا منه قتل حتى ولا شيء من البهائم ، ما داموا يسمعون صوت القرن[3]، فإذا سكن القرن ، فقد حل لكم أن ترتقوه فسمع بنو إسرائيل ذلك

---

(١) وأخرجه مسلم بنحوه في ٣٢ كتاب الجهاد والسير ٣٠ باب غزوة بدر ح ٨٣ ص ١٤٠٣/٣ ـ ١٤٠٤ وأخرجه البيهقي في الدلائل بنحوه ج ٤٧/٣ .

(٢) سقطت من النسخ المطبوعة .

(٣) القرن : البوق .

وأطاعوا واغتسلوا وتنظفوا وتطيبوا ، فلما كان اليوم الثالث ركب[1] الجبل غمامة عظيمة وفيها أصوات وبروق وصوت الصور شديد جداً ففزع بنو إسرائيل من ذلك فزعاً شديداً ، وخرجوا فقاموا في سفح الجبل ، وغشي الجبل دخان عظيم ، في وسطه عمود [من][2] نور ، وتزلزل الجبل كله ، زلزلة شديدة واستمر صوت الصور وهو البوق واشتد وموسى عليه السلام فوق الجبل والله يكلمه ويناجيه ، وأمر الرب عز وجل موسى أن ينزل ، فأمر بني اسرائيل أن يقتربوا من الجبل ليسمعوا وصية الله ويأمر الأحبار ـ وهم علمائهم ـ أن يدنوا فيصعدوا الجبل ليتقدموا بالقرب وهذا نص في كتابهم على وقوع النسخ لا محالة فقال موسى: يا رب إنهم لا يستطيعون أن يصعدوه ، وقد نهيتهم عن ذلك ، فأمره الله تعالى أن يذهب ، فيأتي معه بأخيه هرون وليكن الكهنة ـ وهم العلماء ـ والشعب ـ وهم بقية بني إسرائيل غير بعيد ـ ففعل موسى وكلمه ربه عز وجل فأمره حينئذ بالعشر كلمات .

وعندهم أن بني إسرائيل سمعوا كلام الله ولكن لم يفهموا حتى فهّمهم موسى وجعلوا يقولون لموسى بلغنا أنت عن الرب عز وجل فإنا نخاف أن نموت ، فبلغهم عنه ، فقال : هذه العشر الكلمات : وهي الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، والنهي عن الحلف بالله كاذباً ، والأمر بالمحافظة على السبت، ومعناه تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة * وهذا حاصل بيوم الجمعة الذي نسخ الله به السبت . أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض ، الذي يعطيك الله ربك ، لا تقتل . لا تزن . لا تسرق . لا تشهد على صاحبك شهادة زور ، لا تمد عينك إلى بيت صاحبك ، ولا تشته إمرأة صاحبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً من الذي لصاحبك . ومعناه النهي عن الحسد . وقد قال كثير من علماء السلف وغيرهم مضمون هذه العشر الكلمات في آيتين من القرآن وهما قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده. وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه الآية** ﴾ [الأنعام ـ ١٥١ ـ١٥٣] وذكروا بعد العشر الكلمات وصايا كثيرة ، وأحكاماً متفرقة عزيزة ، كانت فزالت ، وعُمل بها حيناً من الدهر * ثم طرأ عليها عصيان من المكلفين بها ثم عمدوا إليها فبدلوها وحرفوها ، وأوّلوها . ثم بعد ذلك كله سُلبوها فصارت منسوخة مبدلة ، بعدما كانت مشروعة مكملة ، فلله الأمر من قبل ومن بعد ،

---

(١) في نسخة : ركبت الجبل .

(٢) سقطت من النسخ المطبوعة . وفي نسخة عمود نار .

وهو الذي يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

وقد قال الله تعالى ﴿ **يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى . وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى** ﴾ [طه : ٨٠ ـ ٨٢] يذكر تعالى منته وإحسانه إلى بني إسرائيل ، بما أنجاهم من أعدائهم وخلصهم من الضيق والحرج وأنه وعدهم صحبة نبيهم إلى جانب الطور الأيمن ، أي منهم لينزل عليه أحكاماً عظيمة[١] فيها مصلحة لهم ، في دنياهم وأخراهم وأنه تعالى أنزل عليهم في حال شدتهم[٢] وضرورتهم في سفرهم في الأرض . التي ليس فيها زرع ولا ضرع ، مناً من السماء ، يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم ، فيأخذون منه قدر حاجتهم في ذلك اليوم إلى مثله من الغد ، ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد . ومن أخذ منه قليلاً . كفاه ، أو كثيراً لم يفضل عنه ، فيصنعون منه مثل الخبز ، وهو في غاية البياض والحلاوة فإذا كان من آخر النهار غشيهم طير السلوى فيقتنصون منه بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشاهم * وإذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم الغمام وهو السحاب الذي يستر عنهم حر الشمس وضوأها الباهر . كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿ **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون** ﴾ [البقرة : ٤٠ ـ ٤١] إلى أن قال ﴿ **وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم . وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون . وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون . واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون . وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم . وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون . وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ [البقرة : ٤٩ ـ ٥٧] إلى أن قال ﴿ **وإذ إستسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه إثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين . وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها**

---

(١) أي التوراة ؛ وكان موسى قد خرج إلى الطور ـ طور سيناء ـ في سبعين من خيار بني إسرائيل وصعدوا الجبل .

(٢) أي خلال وقوعهم في التيه ثم رحمهم فمنّ عليهم بالسلوى .

وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ [البقرة : ٦٠ - ٦١] فذكر تعالى إنعامه عليهم وإحسانه إليهم بما يسر لهم من المن والسلوى طعامين شهيين بلا كلفة ولا سعي لهم فيه بل ينزل الله المن باكراً[١] ويرسل عليهم طير السلوى عشياً وأنبع الماء لهم بضرب موسى عليه السلام حجراً كانوا يحملونه معهم بالعصا فتفجر منه اثنتا عشرة عيناً لكل سبط عين منه تنبجس * ثم تتفجر ماءاً زلالا فيستقون ويسقون دوابهم ويدخرون كفايتهم . وظلل عليهم الغمام من الحر * وهذه نعم من الله عظيمة وعطيات جسيمة فما رعوها حق رعايتها ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها ثم ضجر كثير [منهم][٢] منها وتبرموا بها وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها[٣] وعدسها وبصلها . فقرعهم الكليم ووبخهم وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلاً ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم ﴾ [البقرة : ٦١] أي هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التي أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها وإذا هبطتم إليها أي ونزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها تجدوا بها ما تشتهون وما ترومون مما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية[٤] ولكني لست أجيبكم إلى سؤال ذلك ههنا ولا أبلغكم ما تعنتم به من المنى وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدل على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه كما قال تعالى ﴿ ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد

---

(١) قال القرطبي : المنّ : هو الترنجبين : (وهو طلل يقع من السماء وهو ندى شبيه بالعسل جامد متحبب قاله ابن البيطار) وقيل صمغة حلوة وقيل عسل . وروي انه كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . كالثلج . فيأخذ الرجل ما يكفيه ليومه ، فإن ادخر منه شيئاً فسد عليه ، إلا في يوم الجمعة ، فانهم كانوا يدخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم لأن يوم السبت يوم عبادة ، وما كان ينزل عليهم يوم السبت شيء .

(٢) سقطت من النسخ المطبوعة .

(٣) فوم : اختلف في الفوم فقيل هو الثوم : وقيل : الفوم الحنطة وقال ابن دريد : السنبلة وقال عطاء وقتادة : الفوم كل حب يختبز .

(٤) قال القرطبي في تعليله فضل المن والسلوى على الأشياء التي طلبوها . قال وجوه خمسة توجب فضلها :

١ - إن البقول لما كانت لا خطر لها بالنسبة إلى المن والسلوى كانا أفضل ؛ قاله الزجاج .

٢ - لما كان المن والسلوى طعاماً منّ الله به عليهم وأمرهم بأكله وكان في استدامة أمر الله وشكر نعمته أجر وذخر في الآخرة ، والذي طلبوه عارٍ من هذه الخصال ، كان أدنى في هذا الوجه .

٣ - لما كان الله ما منّ به عليهم أطيب وألذ من الذي سألوه ، كان ما سألوه أدنى من هذا الوجه لا محالة .

٤ - لما كان ما أُعطوه لا كلفة فيه ولا تعب ، والذي طلبوه لا يجيء إلا بالحرث والزراعة والتعب ، كان أدنى .

٥ - لما كان ما ينزل عليهم لا مرية في حله وخلوصه لنزوله من عند الله ، والحبوب والأرض يتخللها البيوع والغصب وتدخلها الشبه ، كانت أدنى من هذا الوجه .

هوى ﴾ [طه : ٨١ . أي فقد هلك وحق له والله الهلاك والدمار وقد حل عليه غضب الملك الجبار ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد بالرجاء لمن أناب وتاب[1] ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد فقال ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ [طه : ٨٢].

سؤال الرؤية

قال تعالى ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هرون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين . ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا . فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق . وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ [الأعراف : ١٤٢ ـ ١٤٧]. قال جماعة من السلف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد : الثلاثون ليلة هي شهر ذي القعدة بكماله ، وأتمت أربعين ليلة بعشر ذي الحجة . فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر ، وفي مثله أكمل الله عز وجل لمحمد ﷺ دينه وأقام حجته وبراهينه . والمقصود أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات . وكان فيه صائماً يقال إنه لم يستطعم الطعام ، فلما كمل الشهر أخذ لحا[2] شجرة فمضغه ليطيب ريح فمه ، فأمر الله أن يمسك عشراً أخرى ، فصارت أربعين ليلة . ولهذا ثبت في الحديث : « أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك »[3]. فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بني إسرائيل أخاه هرون ، المحبب المبجل الجليل ، وهو ابن أمه وأبيه ، ووزيره في الدعوة إلى مصطفيه ، فوصاه ، وأمره وليس في هذا لعلو منزلته في نبوته منافاة . قال الله تعالى ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾ أي في الوقت الذي أمر بالمجيء فيه ﴿ وكلمه ربه ﴾ أي كلمه الله من وراء حجاب ، إلا أنه أسمعه الخطاب ، فناداه وناجاه ، وقربه وأدناه ، وهذا مقام رفيع ومعقل منيع ، ومنصب شريف ومنزل منيف ، فصلوات الله عليه تترى ، وسلامه عليه في الدنيا

---

(١) أي تاب من الشرك . وأقام على إيمانه حتى مات عليه دون شك فيه .

(٢) قال القرطبي : بعود خرنوب .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصوم (٩) باب : هل يقول إني صائم (ج ٢ /٢٢٨ دار الفكر) من طريق ابن جريج عن عطاء عن أبي صالح الزيات عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : ولفظه : لخُلُوف فم الصائم . . .

والأخرى * ولما أعطى هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية ، وسمع الخطاب ، سأل رفع الحجاب ، فقال للعظيم الذي لا تدركه الأبصار القوي البرهان : ﴿ رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ﴾ . ثم بيّن تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى لأن الجبل الذي هو أقوى وأكبر ذاتاً وأشد ثباتاً من الإنسان ، لا يثبت عند التجلي من الرحمان ولهذا قال ﴿ ولكن أنظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ﴾ .

وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال له : يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده[1] وفي الصحيحين[2] عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ أنه قال « حجابه النور . وفي رواية النار[3] لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[4] . وقال ابن عباس في قوله تعالى ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ ذاك نوره الذي هو نوره إذا تجلى لشيء لا يقوم له شيء ولهذا قال تعالى ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ . قال مجاهد ﴿ ولكن أنظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ﴾ فإنه أكبر منك وأشد خلقاً فلما تجلى ربه للجبل فنظر إلى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخرّ صعقا * وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه ابن جرير والحاكم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت . زاد ابن جرير وليث عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأ : ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ﴾ قال هكذا بإصبعه ووضع النبي ﷺ الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر ، فساخ الجبل لفظ ابن جرير . وقال السدي عن عكرمة وعن ابن عباس ما تجلى يعني من العظمة إلّا قدر الخنصر ، فجعل الجبل دكا قال تراباً ﴿ وخر موسى صعقا ﴾ أي مغشياً عليه وقال قتادة ميتاً . والصحيح الأول لقوله ﴿ فلما أفاق ﴾ فإن الإفاقة إنما تكون عن غشي قال ﴿ سبحانك ﴾ تنزيه وتعظيم وإجلال أن يراه بعظمته أحد ﴿ تبت إليك ﴾ أي فلست أسأل بعد هذا الرؤية ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ أنه لا يراك حي إلّا مات ولا يابس إلا

---

(١) تدهده : خسف به وتدحرج .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١/ ٧٩/ ٢٩٣ ورواه أحمد في مسنده ٤/ ٤٠١ ـ ٤٠٥ وابن ماجة في سننه المقدمة ١٣/ ١٩٥ .

(٣) وهي رواية أبي بكر ـ انظر المرجع السابق .

(٤) السبحات جمع سبحة . قال صاحب العين والهروي معنى سبحات وجهه : نوره وجلاله وبهاؤه . والحجاب : المنع والستر . وحقيقة الحجاب إنما تكون للأجسام المحدودة ، والله تعالى منزه عن الحد والجسم ، والمراد هنا المانع من رؤيته ، ولذلك سمي المانع نوراً أو ناراً لأنهما يمنعان من الإدراك في العادة لشعاعهما . والوجه ـ هنا ـ الذات .

(٥) البخاري في ٤٤ كتاب الخصومات ١ باب ما يذكر في الأشخاص . . .
ومسلم في ٤٣ كتاب الفضائل (ح ١٦٣) ص ٤/ ١٨٤٥ .
ورواه أحمد في مسنده من طريق أبي هريرة . ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجة والبيهقي في الدلائل ج ٥/ ٤٩٣ .

تدهده . وقد ثبت في الصحيحين من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي حسن المازني الأنصاري عن أبيه عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تخيروني من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أو جوزي بصعقة الطور » لفظ البخاري وفي أوله قصة اليهودي الذي لطم وجهه الأنصاري حين قال لا والذي اصطفى موسى على البشر فقال رسول الله : « لا تخيروني من بين الأنبياء »[1]. وفي الصحيحين من طريق الزهري عن أبي سلمة وعبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه وفيه : « لا تخيروني على موسى »[2]وذكر تمامه . وهذا من باب الهضم والتواضع أو نهي عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية أو ليس هذا إليكم بل الله هو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات وليس ينال هذا بمجرد الرأي بل بالتوقيف . ومن قال : إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل ثم نسخ باطلاعه على أفضليته عليهم كلهم ففي قوله نظر ، لأن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة وما هاجر أبو هريرة إلّا عام حنين متأخراً فيبعد أنه لم يعلم بهذا ، إلّا بعد هذا ، والله أعلم ، ولا شك أنه صلوات الله وسلامه عليه أفضل البشر ، بل الخليقة . قال الله تعالى ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾] آل عمران : ١١٠] وما كملوا إلّا بشرف نبيهم . وثبت بالتواتر عنه ، صلوات الله وسلامه عليه ، أنه قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر »[3]ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ، الذي تحيد عنه الأنبياء والمرسلون ، حتى أولو العزم الأكملون ، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم .
وقوله ﷺ : « فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش ﴾ أي آخذاً بها ، « فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور »[4]دليل على أن هذا الصعق الذي يحصل للخلائق في عرصات القيامة ، حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده ، فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلاء[5]فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الأنبياء ، ومصطفى رب الأرض والسماء على سائر الأنبياء ، فيجد موسى باطشاً بقائمة العرش قال الصادق المصدوق : « لا أدري أصعق فأفاق قبلي ؟ » أي وكانت صعقته خفيفة ، لأنه قد ناله بهذا السبب في الدنيا صعق « أو جوزي بصعقة الطور ؟ » يعني فلم يصعق بالكلية . وهذا فيه شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحيثية . ولا يلزم تفضيله بها مطلقاً من كل وجه * ولهذا نبه رسول الله ﷺ على شرفه وفضيلته بهذه الصفة ،

---

(١) صحيح البخاري ٣٤٠٨/١٣/٦٠ فتح الباري .
(٢) في صحيح مسلم (ح ١٦٠) والبخاري كتاب الخصومات (٤٤) (١) باب .
(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل ج ٤٨١/٥ عن ابن عباس من طريق علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف ، تقدم التعليق..
(٤) تقدم التعليق وتخريج الحديث ؛ فليراجع .
(٥) في نسخة مطبوعة : « والجلال » وهو تحريف .

لأن المسلم لما ضرب وجه اليهودي حين قال : لا والذي اصطفى موسى على البشر ، قد يحصل في نفوس المشاهدين لذلك هضم بجناب موسى عليه السلام فبين النبي ﷺ فضيلته وشرفه . وقوله تعالى ﴿ قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ [الأعراف : ١٤٤] أي في ذلك الزمان ، لا ما قبله ، لأن إبراهيم الخليل أفضل منه ، كما تقدم بيان ذلك في قصة إبراهيم ، ولا ما بعده ، لأن محمداً ﷺ أفضل منهما ، كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء ، وكما ثبت أنه قال : « سأقوم مقاماً يرغب إلى الخلق حتى إبراهيم» وقوله تعالى ﴿ فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ [الأعراف : ١٤٤] أي فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ، ولا تسأل زيادة عليه ، وكن من الشاكرين على ذلك . قال الله تعالى ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴾ [الأعراف : ١٤٥] وكانت الألواح من جوهر نفيس ، ففي الصحيح : أن الله كتب له التوراة بيده وفيها مواعظ من الآثام ، وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام . ﴿ فخذها بقوة ﴾ أي بعزم ونية صادقة قوية ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ [الأعراف : ١٤٥] أي يضعوهما على أحسن وجوهها وأجمل محاملها ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ أي ستر وعاقبة الخارجين عن طاعتي ، المخالفين لأمري ، المكذبين لرسلي . ﴿ سأصرف عن آياتي ﴾ عن فهمها وتدبرها ، وتعقل معناها ، الذي أريد منها ودل عليه مقتضاها ﴿ الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ [الأعراف : ١٤٦] أي ولو شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات لا ينقادوا لاتباعها ﴿ وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ﴾ أي لا يسلكوه ولا يتبعوه ﴿ وإن يرو سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾ أي صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا ، وتغافلهم عنها ، وإعراضهم عن التصديق بها ، والتفكر في معناها وترك العمل بمقتضاها ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ [الأعراف : ١٤٧].

قصة عبادتهم العجل في غيبة [كليم الله عنهم][1]

قال الله تعالى ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين . ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه قال يا ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لي ولأخي وادخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين . إن الذين اتخذوا العجل سينالهم

---

(١) في نسخة : موسى .

غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين . والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ [الأعراف : ١٤٨ - ١٥٤] .

وقال تعالى ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فاخلفتم موعدي قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعا * وقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى . قال يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أفعصيت أمري قال يا بن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي فما خطبك يا سامري قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي . قال فاذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما ﴾ [طه : ٩٣ - ٩٨] يذكر تعالى ما كان من أمر بني إسرائيل حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه ، فمكث على الطور يناجيه ربه ، ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة ، وهو تعالى يجيبه عنها ، فعمد رجل منهم يقال له : هرون السامري[1]فأخذ ما كان استعاره من الحلي فصاغ منه عجلاً ، وألقى فيه قبضة من التراب ، كان أخذها من اثر فرس جبريل حين رآه - يوم أغرق الله فرعون على يديه ، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي . ويقال إنه استحال عجلاً جسداً أي لحماً ودماً حياً يخور . قاله قتادة وغيره ، وقيل : بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة ، فيرقصون حوله ويفرحون : ﴿ فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴾ أي فنسي موسى ربه عندنا ، وذهب يتطلبه وهو ههنا ! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وتقدست أسماؤه وصفاته ، وتضاعفت آلاؤه وهباته[2]. قال الله تعالى مبيناً بطلان ما ذهبوا إليه ، وما عولوا عليه من إلهية هذا الذي قصاراه أن يكون حيواناً بهيماً وشيطاناً رجيماً ﴿ أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾ وقال ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم

---

(١) السامري واسمه موسى بن ظفر ، ينسب الى قرية تدعى سامرة ، ولد عام قتل الأبناء - بعد مجيء موسى مصر - وأخفته أمه في كهف جبل فغذاه جبريل فعرفه لذلك . انظر القرطبي أحكام القرآن ٧/ ٢٨٤ .

(١) في النسخ المطبوعة : وعداته . وهو تحريف .

سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ [الأعراف : ١٤٨] فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم ولا يرد جواباً ، ولا يملك ضراً ولا نفعاً ، ولا يهدي إلى رشد ، اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم ، عالمون في أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل ، والضلال . ﴿ ولما سقط في أيديهم ﴾ أي ندموا على ما صنعوا ﴿ ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ .

ولما رجع موسى عليه السلام إليهم ، ورأى ما هم عليه من عبادة العجل ، ومعه الألواح المتضمنة التوراة ألقاها فيقال إنه كسرها . وهكذا هو عند أهل الكتاب وإن الله أبدله غيرها ، وليس في اللفظ القرآني ما يدل على ذلك ، إلا أنه ألقاها حين عاين ما عاين . وعند أهل الكتاب : أنهما كانا لوحين ، وظاهر القرآن أنها ألواح متعددة ، ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل فأمره بمعاينة ذلك . ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان عن ابن عباس قال قال رسول الله : « ليس الخبر كالمعاينة »[1] ثم أقبل عليهم فعنفهم ووبخهم وهجنهم في صنيعهم هذا القبيح فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح قالوا إنا ﴿ حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري ﴾ [طه : ٨٧] تحرجوا من تملك حلي آل فرعون ، وهم أهل حرب ، وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ، ولم يتحرجوا بجهلهم ، وقلة علمهم ، وعقلهم ، من عبادة العجل الجسد الذي له خوار مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار . ثم أقبل على أخيه هرون عليهما السلام قائلاً له ﴿ يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن ﴾ [طه : ٩٢] أي هلا لما رأيت ما صنعوا اتبعتني فأعلمتني بما فعلوا فقال ﴿ إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ﴾ أي تركتهم وجئتني وأنت قد استخلفتني فيهم ﴿ قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴾ [الأعراف : ١٥١]. وقد كان هرون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهي ، وزجرهم عنه ، أتم الزجر قال الله تعالى ﴿ ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به ﴾ أي إنما قدر الله أمر هذا العجل ، وجعله يخور فتنة واختباراً لكم ﴿ وإن ربكم الرحمن ﴾ أي لا هذا ﴿ فاتبعوني ﴾ أي فيما أقول لكم ﴿ وأطيعوا أمري . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾ [طه : ٩٠ - ٩١] يشهد الله لهرون عليه السلام ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوه ولم يتبعوه ثم أقبل موسى على السامري ﴿ قال ما خطبك يا سامري ﴾ أي ما حملك على ما صنعت ﴿ قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾ أي رأيت جبرائيل وهو راكب فرساً ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ [طه : ٩٦] أي من أثر فرس جبريل . وقد ذكر بعضهم أنه رآه وكلما وطئت بحوافرها على موضع اخضر وأعشب فأخذ من أثر حافرها فلما ألقاه في هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان ولهذا قال ﴿ فنبذتها

---

(١) مسند أحمد ج ١/٢١٥ - ٢٧١ ورواه الحاكم في مستدركه مطولاً ٢/٣٢١ وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي .

وكذلك سولت لي نفسي . قال فاذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس ﴾ [طه : ٩٦ ـ ٩٧] وهذا دعاء عليه بأن لا يمس أحداً معاقبة له على مسه ما لم يكن له مسه . هذا معاقبة له في الدنيا ثم توعده في الأخرى فقال ﴿ وإن لك موعداً لن تخلفه ﴾ وقرىء لن نخلفه ﴿ وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً ﴾ [طه : ٩٧] قال فعمد موسى عليه السلام إلى هذا العجل فحرقه[قيل][1] بالنار كما قاله قتادة وغيره . وقيل بالمبارد[2] كما قاله علي وابن عباس وغيرهما وهو نص أهل الكتاب ثم ذراه في البحر وأمر بني إسرائيل فشربوا فمن كان من عابديه علق على شفاههم من ذلك الرماد منه ما يدل عليه ، وقيل بل اصفرت ألوانهم ثم قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لهم ﴿ إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً ﴾ [طه : ٩٨] وقال تعالى ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين ﴾ [الأعراف : ١٥٢] وهكذا وقع وقد قال بعض السلف ﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ مسجلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيامة . ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه وإحسانه على عبيده في قبوله توبة من تاب إليه بتوبته عليه فقال ﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ [الأعراف : ١٥٣] لكن لم يقبل الله توبة عابدي العجل إلّا بالقتل كما قال تعالى ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾ [البقرة : ١٥٤] فيقال إنهم أصبحوا يوماً وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف وألقى الله عليهم ضباباً[3] حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه . ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم فيقال إنهم قتلوا في صبيحة واحدة سبعين ألفاً . ثم قال تعالى ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ [الأعراف : ١٥٤] إستدل بعضهم بقوله وفي نسختها على أنها تكسرت وفي هذا الإستدلال نظر وليس في اللفظ ما يدل على أنها تكسرت والله أعلم . وقد ذكر ابن عباس في حديث الفتون كما سيأتي أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم من البحر وما هو ببعيد لأنهم حين خرجوا ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ [الأعراف : ١٣٨] .

وهكذا عند أهل الكتاب فإن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم بلاد بيت المقدس وذلك أنهم لما أمروا بقتل من عبد العجل قتلوا في أول يوم ثلاثة آلاف . ثم ذهب موسى يستغفر لهم فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة . ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة

---

(١) سقطت من النسخ المطبوعة .

(٢) يقال للمبرد : المحرق .

(٣) عند القرطبي : ظلاماً .

قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ [الأعراف : ١٥٥ ـ ١٥٧] ذكر السدي وابن عباس وغيرهما أن هؤلاء السبعين كانوا علماء بني إسرائيل ومعهم موسى وهرون ويوشع[1] وناذاب وابيهو ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بني إسرائيل في عبادة من عبد منهم العجل . وكانوا قد أمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا ، فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع وصعد موسى الجبل . فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله . وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين وحملوا عليه قوله تعالى ﴿ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ [البقرة : ٧٥] وليس هذا بلازم لقوله تعالى ﴿ فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ أي مبلغاً . وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغاً من موسى عليه السلام وزعموا أيضاً أن السبعين رأوا الله وهذا غلط منهم لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفة كما قال تعالى ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾ [البقرة : ٥٥] وقال ههنا ﴿ فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي الآية ﴾ [الأعراف : ١٥٥] قال محمد بن اسحق اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً الخير فالخير . وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم فخرج بهم إلى طور سيناء لميقاتٍ وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا باذن منه وعلم فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله فقال : أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى فدخل في الغمام وقال للقوم : أدنوا وكان موسى إذا كلمة الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى اذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى يأمر وينهاه افعل ولا تفعل * فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فالتقت أرواحهم فماتوا جميعاً فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول ﴿ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾

(١) ذكر الرازي ان موسى اختار من قومه اثني عشر سبطاً من كل سبط ستة ، فصاروا اثنان وسبعين ، فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاجروا : فقال إن لمن قعد منكم مثل أجر من تخلف ؛ فقعد كالب ويوشع .

أي لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء[1] الذين عبدوا العجل منا فإنا براء مما عملوا . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل وقوله ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾ أي اختبارك وابتلاؤك وامتحانك قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وغير واحد من علماء السلف والخلف . يعني أنت الذي قدرت هذا وخلقت ما كان من أمر العجل إختباراً تختبرهم به كما ﴿ قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به ﴾ [طه : ٩٠] أي اختبرتم ولهذا قال ﴿ تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ﴾ أي من شئت أضللته باختبارك إياه ومن شئت هديته * لك الحكم والمشيئة ولا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت ﴿ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك ﴾ [الأعراف : ١٥٥ - ١٥٦] أي تبنا إليك ورجعنا وأنبنا قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو العالية وإبراهيم التيمي والضحاك والسدي وقتادة وغير واحد وهو كذلك في اللغة . ﴿ قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ أي أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التي أخلقها وأقدرها ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي »[2] ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ [الأعراف : ١٥٦] أي فسأوجبها حتماً لمن يتصف بهذه الصفات ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الآية ﴾ [الأعراف : ١٥٧] وهذا فيه تنويه بذكر محمد ﷺ وأمته من الله لموسى عليه السلام في جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلعه عليه * وقد تكلمنا على هذه الآية وما بعدها في التفسير بما فيه كفاية ومقنع ولله الحمد والمنة . وقال قتادة قال موسى يا رب أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت الناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر رب اجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد . قال رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون في الخلق السابقون في دخول الجنة رب اجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونها وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظراً حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه وإن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً عن الأمم قال رب اجعلهم أمتي قال : تلك أمة أحمد قال : رب إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال رب إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ويؤجرون عليها وكان من قبلهم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها ناراً فأكلتها وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير وإن الله أخذ صدقاتكم من

---

(١) قال القرطبي : قيل المراد بالسفهاء : السبعون ؛ والمعنى أتهلك بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء في قولهم « أرنا الله جهرة » .

(٢) تقدم تخريجه في هذا الجزء فليراجع .

غنيكم لفقيركم قال رب فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال رب فإني أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعماية ضعف قال رب اجعلهم أمتي قال : تلك أمة أحمد . قال ربي إني أجد في الألواح أمة هم المشفعون المشفوع لهم فاجعلهم أمتي قال : تلك أمة أحمد * قال قتادة فذكر لنا أن موسى عليه السلام نبذ الألواح وقال اللهم اجعلني من أمة أحمد . وقد ذكر كثير من الناس ما كان من مناجاة موسى عليه السلام وأوردوا أشياء كثيرة لا أصل لها ونحن نذكر ما تيسر ذكره من الأحاديث والآثار بعون الله وتوفيقه وحسن هدايته ومعونته وتأييده .

قال الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم بن حبان في صحيحه : ذكرُ سؤال كليم الله ربه عز وجل عن أدنى أهل الجنة وأرفعهم منزلة ، أخبرنا عمر بن سعيد الطائي ببلخ[1] حدثنا حامد بن يحيى البلخي ، حدثنا سفيان ، حدثنا مطرف بن طريف وعبد الملك بن أبجر شيخان صالحان [قالا] : سمعنا الشعبي يقول : سمعت المغيرة بن شعبة يقول على المنبر عن النبي ﷺ : « إن موسى عليه السلام سأل ربه عز وجل : أي أهل الجنة أدنى منزلة ؟ فقال : رجل يجيء بعدما يدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال [له] أدخل الجنة . فيقول : كيف أدخل الجنة وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخاذاتهم[2]؟ فيقال له : [أ] ترضى أن يكون لك من الجنة مثل ما كان للملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : نعم أي رب ، فيقال : لك هذا ومثله ومثله فيقول : أي رب رضيت ، فيقال له : لك مع هذا ما اشتهت نفسك ولذت عينك . وسأل ربه : أي أهل الجنة أرفع منزلة ؟ قال : سأحدثك عنهم ، غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » * ومصداق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين الآية ﴾ وهكذا رواه مسلم والترمذي[3] كلاهما عن ابن أبي عمر عن سفيان ـ وهو ابن عيينة ـ به ولفظ مسلم : « فيقال له أترضى أن يكون لك مثل مُلك مَلكٍ من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب فيقول[4] : لك ذلك ومثله ومثله ومثله، فيقول في الخامسة: رضيت رب فيقال: هذا لك وعشرة أمثاله . ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك ، فيقول رضيت رب . قال : رب فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت غرس[5] كرامتهم بيدي وختمت عليها ، فلم تر عين

---

(١) في النسخ المطبوعة : بمنيج وهو تحريف .

(١) أخاذاتهم : قال القاضي : هو ما أخذوه من كرامة مولاهم ، وحصلوه .

(٣) أخرجه مسلم في ١ كتاب الإيمان ٨٤ باب أدنى أهل الجنة حـ ٣١٢ / ١٨٩ ص ١ / ١٧٦ والترمذي في ٤٨ كتاب تفسير القرآن باب ٣٣ ومن سورة السجدة حـ ٣١٩٨ .

(٤) في نسخة : فيقال له ، وأثبتنا ما جاء عند مسلم .

(٥) أردت : اخترت واصطفيت .

غرس : وعند مسلم غرستُ معناه : اصطفيتهم وتوليتهم فلا يتطرق إلى كرامتهم تغيير .

ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر[1]» قال ومصداقه[2]من كتاب الله ﴿ فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ [السجدة : ١٧] وقال الترمذي حسن صحيح . قال : ورواه بعضهم عن الشعبي عن المغيرة فلم يرفعه ، والمرفوع أصح . وقال ابن حبان : « ذكر سؤال الكليم ربه عن خصال سبع »: حدثنا عبد الله بن محمد بن مسلم ببيت المقدس ، حدثنا حرملة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، أن أبا السمح حدثه عن ابن حجيرة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « سأل موسى ربه عز وجل عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة ، والسابعة لم يكن موسى يحبها : قال : يا رب أي عبادك اتقى ؟ قال : الذي يذكر ولا ينسى . قال : فأي عبادك أهدى ؟ قال : الذي يتبع الهدى . قال : فأي عبادك أحكم ؟ قال : الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه . قال : فأي عبادك أعلم ؟ قال : عالم لا يشبع من العلم ، يجمع علم الناس إلى علمه . قال : فأي عبادك أعز ؟ . قال : الذي إذا قدر غفر . قال : فأي عبادك أغنى ؟ قال : الذي يرضى بما يؤتى . قال : فأي عبادك أفقر ؟ قال : صاحب منقوص » . قال رسول الله ﷺ : « ليس الغنى عن ظهر إنما الغنى غنى النفس » ، وإذا أراد الله بعبد خيراً جعل غناه في نفسه وتقاه في قلبه ، وإذا أراد بعبد شراً جعل فقره بين عينيه »[3] . قال ابن حبان قوله « صاحب منقوص » يريد به منقوص حالته يستقل ما أوتي ويطلب الفضل . وقد رواه ابن جرير في تاريخه عن ابن حميد عن يعقوب [القمي عن هارون بن عنترة][4]عن أبيه عن ابن عباس قال : سأل موسى ربه عز وجل فذكر نحوه وفيه : « قال : أي رب فأي عبادك أعلم ؟ قال : الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يجد[5]كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى . قال : أي رب فهل في الأرض أحد أعلم مني ؟ قال : نعم [قال : رب فمن هو ؟ قال] :[6] الخضر سأل السبيل إلى لقيه . فكان ما سنذكره بعد إن شاء الله وبه الثقة .

---

(١) لم يخطر على قلب بشر : أي لم يخطر على قلب بشر ما أكرمتهم به وأعددته لهم .

(٢) مصداقه : دليله وما يصدقه .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٨١/٥/٦٤٤٦ فتح الباري من طريق أبي هريرة ولفظه فيه : « ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس » وبلفظه أخرجه مسلم في ١٢ كتاب الزكاة ٤٠ باب ليس الغنى عن كثرة العرض ١٢٠/١٠٥ ص ٧٢٦/٢ عن أبي هريرة وأخرجه أحمد في مسنده ج ٢٤٣/٢ ـ ٢٦١ .

(٤) ما أثبتناه من الطبري ١/ ١٩١ وما في الأصول يعقوب التميمي ، وهارون بن عبيرة تحريف .

ـ ويعقوب القمي : بن عبدالله بن سعد الأشعري ، أبو الحسن القمي صدوق من الثامنة مات سنة أربع وسبعين وقيل ١٧٢ . تقريب التهذيب ٣٧٦/٢ الكاشف ٢٥٥/٣ .

ـ وهارون بن عنترة : ابن عبد الرحمن الشيباني ، أبو عبد الرحمن ثقة تقريب التهذيب ٣١٢/٣ الكاشف ٦٠١٨/٣/١٨٩ .

(٥) في الطبري : يصيب .

(٦) زيادة من الطبري .

حديث آخر بمعنى ما ذكره ابن حبان

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن اسحق ، حدثنا ابن لهيعة ، عن دراج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ ، أنه قال : « إن موسى قال : أي رب عبدك المؤمن مقتر عليه في الدنيا . قال : ففتح له باب من الجنة فنظر إليها قال يا موسى : هذا ما أعددت له . فقال موسى : يا رب وعزتك وجلالك لو كان مقطع اليدين والرجلين يسحب على وجهه ، منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير بوءساً قط . قال : ثم قال : أي رب عبدك الكافر موسع عليه في الدنيا . قال : ففتح له باب إلى النار فيقول : يا موسى هذا ما أعددت له فقال : أي رب وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير خيراً قط »[1] تفرد به أحمد من هذا الوجه . وفي صحته نظر والله أعلم . وقال ابن حبان : « ذكر سؤال كليم الله ربه جل وعلا أن يعلمه شيئاً يذكره به » حدثنا ابن سلمة ، حدثنا حرملة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث إن دراجاً حدثه عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : « قال موسى : « يا رب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به » قال : قل يا موسى (لا إله إلا الله) قال : يا رب كل عبادك يقول هذا . قال : قل لا إله إلا الله . قال : إنما أريد شيئاً تخصني به . قال : يا موسى لو أن أهل السموات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهم لا إله إلا الله »[2]. ويشهد لهذا الحديث حديث البطاقة . وأقرب شيء إلى معناه الحديث المروي في السنن عن النبي ﷺ أنه : « قال أفضل الدعاء دعاء عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي ﴿ لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ﴾[3] وقال ابن أبي حاتم عند تفسير آية الكرسي : حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدسكي ، حدثني أبي عن أبيه ، حدثنا أشعث بن اسحق ، عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أن بني إسرائيل قالوا لموسى : هل ينام ربك ؟ قال : أتقوا الله فناداه ربه : يا موسى سألوك هل ينام ربك ؟ فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل ، ففعل موسى ، فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه ثم انتعش فضبطهما ، حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا . فقال : يا موسى لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان في يديك . قال : وأنزل الله على رسوله آية الكرسي . وقال ابن

---

(١) مسند الإمام أحمد ج ٣٢٢/٤ - ٣٤٥-٣٤٦ .

(٢) رواه النسائي والحاكم من طريق دراج عن أبي الهيثم عنه وقال الحاكم صحيح الإسناد .
مالت بهم : رجع ثوابها وزاد أجرها. الترغيب والترهيب كتاب الدعاء ـ فضل لا إله إلا الله ج ٢/ ٤١٥ .

(٣) أخرجه المنذري في الترهيب كتاب الدعاء ـ الترغيب في قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له : عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رفعه : ورواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب . ج ٢/ ٤١٩ .

جرير حدثنا اسحق بن أبي إسرائيل حدثنا هشام بن يوسف عن أمية بن شبل عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال : « وقع في نفس موسى عليه السلام هل ينام الله عز وجل ؟ فأرسل الله إليه ملكاً فأرقه ثلاثاً ثم أعطاه قارورتين . في كل يد قارورة ، وأمره أن يحتفظ بهما قال : فجعل ينام وكادت يداه تلتقيان ـ فيستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه ، فانكسرت القارورتان قال : ضرب الله له مثلاً أن لو كان ينام لم يستمسك السماء والأرض » . وهذا حديث غريب رفعه . والأشبه أن يكون موقوفاً . وأن يكون أصله إسرائيلياً . وقال الله تعالى ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون . ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾ [البقرة : ٦٣ ـ ٦٤] وقال تعالى ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ [الاعراف ١٧١] قال ابن عباس وغير واحد من السلف لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم فقالوا: أنشرها علينا ، فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها ، فقال : بل اقبلوها بما فيها ، فراجعوه مراراً فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤوسهم حتى صار كأنه ظلة أي غمامة على رؤوسهم ، وقيل لهم : إن لم تقبلوها بما فيها وإلا سقط هذا الجبل عليكم ، فقبلوا ذلك وأمروا بالسجود ، فسجدوا فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم ، فصارت سنة لليهود إلى اليوم ، يقولون لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب . وقال سنيد بن داود ، عن حجاج بن محمد ، عن أبي بكر بن عبد الله قال : فلما نشرها لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز ، فليس على وجه الأرض يهودي صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه . قال الله تعالى ﴿ ثم توليتم من بعد ذلك ﴾ أي ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمر الجسيم نكثتم عهودكم ومواثيقكم ﴿ فلولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ بأن تداركتم بالارسال إليكم وإنزال الكتب عليكم ﴿ لكنتم من الخاسرين ﴾ .

قصّة بقرة بني اسرائيل

قال الله تعالى ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون. قالوا دع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها . قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون . وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم

تعقلون ﴾ [البقرة : ٦٧ ـ ٧٣] قال ابن عباس وعبيدة السلماني وأبو العالية ومجاهد والسدي وغير واحد من السلف : كان رجل[١] في بني إسرائيل كثير المال ، وكان شيخاً كبيراً ، وله بنو أخ وكانوا يتمنون موته ليرثوه ، فعمد أحدهم فقتله في الليل وطرحه في مجمع الطرق ، ويقال على باب رجل منهم ، فلما أصبح الناس اختصموا فيه ، وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم ، فقالوا ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله ، فجاء ابن أخيه فشكى أمر عمه إلى[٢] رسول الله موسى عليه السلام فقال موسى عليه السلام : أنشد الله رجلاً عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به فلم يكن عند أحد منهم علم منه ، وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربه عز وجل فسأل ربه عز وجل في ذلك فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة ، فقال : ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً﴾ يعنون نحن نسأل عن أمر هذا القتيل ، وأنت تقول هذا ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ أي أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إليّ . وهذا هو الذي أجابني حين سألته عما سألتموني عنه أن أسأله فيه . قال ابن عباس وعبيدة ومجاهد وعكرمة والسدي وأبو العالية وغير واحد فلو أنهم عمدوا إلى أي بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها ، ولكنهم شددوا ، فشدد عليهم ، وقد ورد فيه حديث مرفوع . وفي إسناده ضعف فسألوا عن صفتها ثم عن لونها ثم عن سنها فأجيبوا بما عز وجوده عليهم ، وقد ذكرنا في تفسير ذلك كله في التفسير . والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان وهي الوسط بين النصف[٣] ، الفارض وهي الكبيرة[٤] ، والبكر وهي الصغيرة ، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والحسن وقتادة وجماعة . ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها فأمروا بصفراء فاقع لونها أي مشرب بحمرة تسر الناظرين * وهذا اللون عزيز . ثم شددوا أيضاً ﴿ فقالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ ففي الحديث المرفوع الذي رواه ابن أبي حاتم وابن مردوية : « لولا أن بني إسرائيل إستثنوا لما أعطوا[٥] وفي صحته نظر ، والله أعلم ﴿ قال انه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها . قالوا ألآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ وهذه الصفات أضيق مما تقدم حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول وهي المذللة بالحراثة وسقي الأرض بالسانية مسلّمة وهي

---

(١) اسمه عاميل كما في أحكام القرآن .

(٢) وكان هذا الأمر قبل نزول القسامة في التوراة ، والقسامة أن يبدأ المدّعون بالإيمان فإن حلفوا استحقوا ، وإن نكلوا حلف المدعي عليهم خمسين يميناً وبرءوا .

(٣) عوان : النّصف التي ولدت بطناً أو بطنين .

(٤) الفارض : أي المسنة ، وقيل التي ولدت بطوناً كثيرة فيتسع جوفها لذلك .

(٥) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ٣١٤/٦ وقال : رواه البزار وفيه عباد بن منصور وهو ضعيف وبقية رجاله ثقات .

عباد بن منصور : الناجي ، قال النسائي ليس بالقوي / الكاشف ج ٥٦/٢ . أبو سلمة البصري صدوق رمي بالقدر وكان يدلس تغير بآخره تقريب التهذيب ٣٩٣/١٠٧/٢ .

الصحيحة ، التي لا عيب فيها ؛ قاله أبو العالية وقتادة . وقوله ﴿ لا شية فيها ﴾ أي ليس فيها لون يخالف لونها بل هي مسلمة من العيوب ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها فلما حددها بهذه الصفات وحصرها بهذه النعوت والأوصاف ﴿ قالوا الآن جئت بالحق ﴾ ويقال إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان باراً بأبيه فطلبوها منه ، فأبى عليهم ، فأرغبوه في ثمنها حتى أعطوه فيما ذكره السدي بوزنها ذهباً فأبى عليهم حتى أعطوه بوزنها عشر مرات، فباعها منهم فأمرهم نبي الله موسى بذبحها ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ أي وهم يترددون في أمرها . ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها . قيل بلحم فخذها . وقيل بالعظم الذي يلي الغضروف . وقيل بالبضعة التي بين الكتفين فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى فقام وهو يشخب أوداجه فسأله نبي الله من قتلك قال قتلني ابن أخي . ثم عاد ميتاً كما كان ، قال الله تعالى ﴿ كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ [البقرة : ٧٣] أي كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له كذلك أمره في سائر الموتى إذا شاء إحياءهم أحياهم في ساعة واحدة كما قال ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة الآية ﴾ [لقمان : ٢٨].

قصّة موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى ﴿ وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا . فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا . قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا . فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما . قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً . قال إنك لن تستطيع معي صبراً . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً . قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً . قال فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً . فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها . قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً أمراً . قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً . قال لا تؤآخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا . فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عزراً فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً . قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنزلهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من

ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا ﴾ [الكهف : ٦٠ - ٨٢] .

قال بعض أهل الكتاب إن موسى هذا الذي رحل إلى الخضر هو موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم الخليل وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم وينقل عن كتبهم منهم نوف بن فضالة الحميري الشامي البكالي . ويقال إنه دمشقي وكانت أمه زوجة كعب الأحبار * والصحيح[١] الذي دل عليه ظاهر سياق القرآن ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه أنه موسى بن عمران صاحب بني إسرائيل . قال البخاري : حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو بن دينار ، أخبرني سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس : إن نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل . قال ابن عباس كذب عدو الله . حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا فعتب الله عليه ، إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يا رب وكيف لي به ؟ قال تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل[٢] فحيثما فقدت الحوت فهو ثم . فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤسهما فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه ، فسقط في البحر واتخذ سبيله في البحر سرباً . وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاقُ فلما استيقظ . نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد ﴿ قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ [الكهف : ٦٢] ولم يجد موسى النصب[٣] حتى جاوز المكان الذي أمره الله به [قال] له فتاه : ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا ﴾ [الكهف : ٦٣] قال فكان للحوت سرباً ولموسى ولفتاه عجباً ﴿ قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ قال فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر وإني بأرضك السلام قال أنا موسى فقال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً ﴿ قال إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه فقال ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾ قال له الخضر ﴿ فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر [ليس لهما سفينة] فمرت

---

(١) قال الطبري في معرض تشكيكه : ويزعم أهل التوراة أن الذي طلب الخضر موسى بن ميشا ، ويتابع في رواية أخرى : وكان الخضر في أيام موسى بن عمران .

(٢) مكتل : زنبيل يسع خمسة عشر صاعاً .

(٣) في البخاري : مسّاً من النصب .

[بهما] سفينة فكلمهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر [فحملوهما] بغير نول . فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى قوم حملونا بغير نول[1] عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً امرا . قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا ﴾ قال : وقال رسول الله ﷺ وكانت الأولى من موسى نسياناً قال : « وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر ما علمي وعلمك في علم الله إلاّ مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فاخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى ﴿ أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معي صبرا ﴾ قال وهذه أشد من الأولى ﴿ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴾ قال : مائل . فقال الخضر بيده ﴿ فأقامه ﴾ فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴾ قال رسول الله ﷺ : « وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما »[2]. قال سعيد بن جبير فكان ابن عباس يقرأ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين . ثم رواه البخاري أيضاً عن قتيبة عن سفيان بن عيينة بإسناده نحوه . وفيه فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة فنزلا عندها قال فوضع موسى رأسه فنام قال سفيان وفي حديث غير عمرو قال : وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شيء إلا حيي ، فأصاب الحوت من ماء تلك العين ، قال : فتحرك وانسل من المكتل ، ودخل البحر فلما استيقظ ﴿ قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا ﴾ وساق الحديث وقال ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر فقال الخضر لموسى ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره وذكر تمام الحديث . وقال البخاري : حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال : أخبرني يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار عن سعيد بن جبير يزيد أحدهما على صاحبه . وغيرهما قد سمعته يحدثه عن

---

(١) نول : أجر .

(٢) في البخاري : أمرهما وفي الطبري : قصصهم .

أخرجه البخاري في (٣) كتاب العلم ٤٤ باب ما يستحب للعالم إذا سئل حـ : ٢٢ فتح الباري وأخرجه مسلم في صحيحه ٤٣/٤٦/١٧٠ والترمذي في سننه ٤٨/١٩/٣١٤٩ ورواه الطبري بإسناده في تاريخه ج ١/١٨٩ - ١٩٠ .

ما بين معكوفين في الحديث زيادة من البخاري .

سعيد بن جبير قال : إنا لعند ابن عباس في بيته إذ قال : سلوني فقلت : أي أبا عباس جعلني الله فداك بالكوفة رجل قاصّ يقال له نوف يزعم أنه ليس بموسى بني إسرائيل أما عمرو فقال لي : قال : قد كذب عدو الله ، وأما يعلى فقال لي : قال ابن عباس حدثني أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « موسى رسول الله قال : ذكر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب ولى ، فأدركه رجل فقال أي رسول الله هل في الأرض أحد أعلم منك ؟ قال : لا . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله * قيل : بلى قال : أي رب فأين قال بمجمع البحرين ، قال : أي رب اجعل لي علماً أعلم ذلك به قال لي عمرو قال : حيث يفارقك الحوت وقال لي يعلى قال خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح ، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل فقال لفتاه لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت ، قال : ما كلفت كبيراً فذلك قوله ﴿ وإذ قال موسى لفتاه ﴾ يوشع بن نون . ليست عن سعيد بن جبير قال فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان إذ تضرّب الحوت وموسى نائم فقال فتاه : لا أوقظه حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره ، وتضرّب الحوت حتى دخل البحر فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كأن أثره في حجر قال لي عمرو ، هكذا كان أثره في حجر وحلق بين إبهاميه واللتين تليان ﴿ لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ قال وقد قطع الله عنك النصب ليست هذه عن سعيد أخبره فرجعا فوجدا خضراً قال لي عثمان بن أبي سليمان على طنفسة خضراء على كبد البحر قال سعيد : مسجى بثوبه قد جعل طرفه تحت رجليه ، وطرفه تحت رأسه ، فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه وقال : هل بأرض من سلام من أنت ؟ قال : أنا موسى قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم . قال فما شأنك ؟ قال : جئتك ﴿ لتعلمني مما علمت رشداً ﴾ قال أما يكفيك أن التوراة بيديك ؟ وأن الوحي يأتيك يا موسى ؟ إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه فأخذ طائر بمنقاره من البحر ، فقال : والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر ﴿ حتى إذا ركبا في السفينة ﴾ وجدا معابر صغاراً تحمل أهل هذا الساحل إلى أهل هذا الساحل الآخر عرفوه فقالوا عبد الله الصالح . قال فقلنا لسعيد « خضر » قال نعم . لا نحمله بأجر ﴿ فخرقها ﴾ ووتد فيها وتداً ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا ﴾ قال مجاهد مُنْكَراً[1] ﴿ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ كانت الأولى نسيانا والوسطى شرطاً والثالثة عمداً ﴿ قال لا تؤآخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا . فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ﴾ قال يعلى قال سعيد وجد غلماناً يلعبون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فاضجعه ثم ذبحه بالسكين ﴿ قال أقتلت نفساً زكية ﴾ لم تعمل بالخبث[2] * ابن عباس قرأها زكية زاكية مسلمة كقولك غلاماً زكياً ﴿ فانطلقا فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ﴾ قال بيده هكذا ورفع يده فاستقام قال يعلى : حسبت أن سعيداً قال :

---

(١) قال القتبي : إمراً : معناه عجباً ، وقال أبو عبيدة : الإمر : الداهية العظيمة .

(٢) وقيل : بالحنث : لأنها لم تبلغ الحلم ، وهو تفسير لقوله نفساً زكية .

فمسحه بيده فاستقام ﴿ قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا ﴾ قال سعيد : أجراً نأكله ﴿ وكان وراءهم ﴾ وكان أمامهم قرأها ابن عباس أمامهم[1] . ملك يزعمون ـ عن غير سعيد ـ أنه هدد بن بدد والغلام المقتول يزعمون جيسور[2] ﴿ ملك يأخذ كل سفينة غصبا ﴾ فإذا هي مرت به يدعها بعيبها فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها . منهم من يقول سدوها بقارورة ومنهم من يقول بالقار ﴿ كان أبواه مؤمنين ﴾ وكان كافراً ﴿ فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ﴾ أي يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة ﴾ لقوله أقتلت نفساً زكية ﴿ وأقرب رحما ﴾ هما به أرحم منهما بالأول الذي قتل خضر * وزعم سعيد بن جبير أنه ابن لا جارية وأما داود بن أبي عاصم فقال عن غير واحد إنها جارية * وقد رواه عبد الرزاق عن معمر عن أبي إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خطب موسى بني اسرائيل فقال : ما أحد أعلم بالله ويأمره مني فأمر أن يلقى هذا الرجل . فذكر نحو ما تقدم وهكذا رواه محمد بن اسحق عن الحسن بن عمارة عن الحكم بن عيينة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ كنحو ما تقدم أيضاً . ورواه العوفي عنه موقوفاً * وقال الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى فقال ابن عباس : هو خضر فمر بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال : إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه فهل سمعت من رسول الله فيه شيئاً قال : نعم . وذكر الحديث وقد تقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه في تفسير سورة الكهف ولله الحمد . وقوله ﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة ﴾ قال السهيلي وهما أصرم وصريم ابنا كاشح . ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ قيل كان ذهباً قاله عكرمة ، وقيل علماً قاله ابن عباس[3]. والأشبه أنه كان لوحاً من ذهب مكتوباً

---

(١) قال الماوردي : اختلف أهل العربية في استعمال وراء موضع أمام على ثلاثة أقوال :
ـ أحدها : يجوز استعمالها بكل حال وفي كل مكان وهو من الأضداد قال الله تعالى : ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ أي من أمامهم .
ـ الثاني : أن وراء تستعمل في موضع أمام في المواقيت والأزمان .
ـ الثالث : انه يجوز في الأجسام التي لا وجه لها كحجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر ولا يجوز في غيرهما .

(٢) قال الكلبي : شمعون وقال الضحاك : حيسون ، وقال وهب : اسم أبيه سلاس واسم أمه رحمى أما السهيلي فقال : اسم أبيه : كازير واسم أمه : سهوى .
واسم الملك : قيل هود بن بدد ـ كما في البخاري ـ وقيل الجلندي قاله السهيلي وقيل جيسور راجع أحكام القرآن ج ٣٦/١١ .

(٣) قال القرطبي : وعن ابن عباس أيضاً : قال : كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه :
بسم الله الرحمن الرحيم ، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، عجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، عجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن لها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله . ج ٣٨/١١ .

فيه علم . قال البزار : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ، حدثنا بشر بن المنذر ، حدثنا الحرث بن عبد الله اليحصبي ، عن عياش بن عباس الغساني ، عن بن حجيرة ، عن أبي ذر رفعه قال إن الكنز الذي ذكر الله في كتابه لوح من الذهب مصمت : عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك ، وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل لا إله إلا الله . وهكذا روي عن الحسن البصري وعمر مولى عفرة وجعفر الصادق نحو هذا وقوله ﴿ وكان أبوهما صالحا ﴾ وقد قيل إنه كان الأب السابع وقيل العاشر . وعلى كل تقدير فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته فالله المستعان . وقوله ﴿ رحمة من ربك ﴾ دليل على أنه كان نبياً وأنه ما فعل شيئاً من تلقاء نفسه بل بأمر ربه فهو نبي وقيل رسول وقيل ولي وأغرب من هذا من قال كان ملكاً قلت وقد أغرب جداً من قال هو ابن فرعون وقيل إنه ابن ضحاك الذي ملك الدنيا ألف سنة . قال ابن جرير[1]: والذي عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان في زمن أفريدون ويقال : إنه كان على مقدمة ذي القرنين الذي قيل إنه كان أفريدون ، وذو الفرس هو الذي كان في زمن الخليل . وزعموا أنه شرب من ماء الحيوة فخلد وهو باق إلى الآن . وقيل إنه من ولد بعض من آمن بإبراهيم وهاجر معه من أرض بابل وقيل إسمه ملكان وقيل أرميا بن خلقيا وقيل كان نبياً في زمن سباسب بن لهراسب قال ابن جرير وقد كان بين أفريدون وبين سباسب[2]دهور طويلة لا يجهلها أحد من أهل العلم بالأنساب. قال ابن جرير: والصحيح أنه كان في زمن أفريدون واستمر حياً إلى أن أدركه موسى عليه السلام وكانت نبوة موسى في زمن منو شهر الذي هو من ولد ايرج بن أفريدون أحد ملوك الفرس وكان إليه الملك بعد جده أفريدون لعهده وكان عادلاً[3]وهو أول من خندق الخنادق وأول من جعل في كل قرية دهقاناً[4]وكانت مدة ملكه قريباً من مائة وخمسين سنة ويقال إنه كان من سلالة إسحاق بن إبراهيم[5]وقد ذكر عنه من الخطب الحسان والكليم البليغ النافع الفصيح ما يبهر العقل ويحير السامع وهذا يدل على أنه من سلالة الخليل . والله أعلم . وقد قال الله تعالى ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمه ثم جائكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أءقررتم الآية ﴾ [آل عمران : ٨٤].

فأخذ الله ميثاق كل نبي على أن يؤمن بمن يجيء بعده من الأنبياء وينصره [واستلزم ذلك الإيمان وأخذ الميثاق لمحمد ﷺ لأنه خاتم الأنبياء فحق على كل نبي أدركه أن يؤمن به

---

(١) تاريخ الطبري : ١/١٨٨ .

(٢) في الطبري : يشتاسب في المكانين .

(٣) زاد الطبري ١/١٩٥ : وكان منوشهر يوصف بالعدل والإحسان وهو أول من جمع آلة الحرب .

(٤) زاد الطبري : وجعل أهلها له خولاً وعبيداً والبسهم لباس المذلة وأمرهم بطاعته .

(٥) قال الطبري : وقد زعم بعض أهل الأخبار أنه : منوشهر بن منشخرنر بن افريقيس بن إسحاق بن إبراهيم وقد أنكر الفرس هذا النسب ، ولم تقر بالملك لغيرهم .

وينصره][1]. فلو كان الخضر حياً في زمانه ، لما وسعه إلاّ اتباعه والإجتماع بـه والقيام بنصـره ، ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدر ، كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكـة . وقصارى الخضر عليه السلام أن يكون نبياً ، وهو الحق ، أو رسولاً كـما قيل أو ملكـاً فيما ذكـر وأياماً كان فجبريل رئيس الملائكة ، وموسى أشرف من الخضر ، ولو كان حياً لوجب عليه الإيمان بمحمـد ونصرته فكيف إن كان الخضر ولياً كما يقوله طوائف كثيـرون ؟ فأولى أن يـدخل في عمـوم البعثة وأحرى . ولم ينقل في حديث حسن بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يوماً واحداً إلى رسول الله ﷺ ، ولا اجتمع به وما ذكر من حديث التعزية فيه ، وإن كان الحاكم قد رواه فإسناده ضعيف والله أعلم وسنفرد لخضر ترجمة على حدة بعد هذا .

[ذكر الحديث الملقب][2] بحديث الفنون المتضمن قصّة موسى من أوّلها إلى آخرها

قال الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في « كتاب التفسير » من سننه عند قوله تعالى في سورة طه ﴿ وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً ﴾ [طه : ٤٠]

حديث الفتون[3]

حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا اصبغ بن زيد ، حدثنا القاسم بن أبي أيوب ، أخبرني سعيد بن جبير قال : سألت عبد الله بن عباس عن قـول الله تعالى [لموسى][4] ﴿ وفتناك فتونا ﴾ فسألته عن الفتون ما هو ؟ فقال : استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها حديثاً طويلاً فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتـون ، فقال : تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً فقال بعضهم : إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكون فيه ، وكانوا يظنون أنـه يوسف بن يعقوب ، فلما هلك قالوا : ليس هكذا كان وعد إبراهيم ، فقال فرعون : فكيف ترون ؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلاّ

---

(١) سقطت من النسخ المطبوعة ومن نسخة مطبعة السعادة واستدركت من النسخة المحفوظة بدار الكتب الوطنية مصر ـ مصور عن نسخة الاستانة ـ رقم (تاريخ ١١١٠) .

(٢) سقطت من النسخ المطبوعة .

(٣) رواه ابن كثير في تفسيره مطولاً (ج ٣/٢٤٥ ـ ٢٥٢ احياء التراث ـ بيروت) وقال في نهايته معقباً : هكذا رواه النسائي في السنن الكبرى وأخرجه أبو جعفر بن جرير (الطبري) وابن أبي حاتم في تفسيريهما ، كلهم من حديث يزيد بن هارون به ، وهو موقوف من كلام ابن عباس وليس فيه مرفوع إلا قليل منه وكأنه تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار ، أو غيره ، والله أعلم . وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك أيضاً .

(٤) سقطت من النسخ المطبوعة واستدركت من النسائي .

ذبحوه ، ففعلوا ذلك ، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم ، والصغار يذبحون قالوا : توشكون أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي[١]كانوا يكفونكم ، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر واتركوا[٢]بناتهم ، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً ، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار ، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم ، فتخافوا مكاثرتهم إياكم ، ولن تفتنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم ، فأجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح[٣]فيه الغلمان فولدته علانية آمنة . فلما كان من قابل ، حملت بموسى عليه السلام فوقع في قلبها الهم والحزن ، وذلك من الفتون ـ يا ابن جبير ـ ما دخل عليه في بطن أمه مما يراد [به][٤] فأوحى الله إليها أن لا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين، فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت وتلقيه في اليم ، فلما ولدت فعلت ذلك ، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت في نفسها : ما فعلت بابني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إليّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه . فانتهى الماء به حتى أوفى عند فرضة مستقي[٥]جواري امرأة فرعون ، فلما رأينه أخذنه فهممن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن : إن في هذا مالاً وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه ، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئاً حتى دفعنه اليها ، فلما فتحته رأت فيه غلاماً ، فألقى عليه منها محبة لم تلق منها على احد قط ﴿ أصبح فؤاد أم موسى فارغاً ﴾ [من][٦]ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى . فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه ، وذلك من الفتون ـ يا ابن جبير ـ فقالت لهم أقروه فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستوهبه منه ، فإن وهبه مني كنتم قد أحسنتم وأجملتم ، وإن أمر بذبحه لم ألمكم فأتت فرعون فقالت : ﴿ قرة عين لي ولك ﴾ فقال فرعون : يكون لك ، فأما لي فلا حاجة لي فيه ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له ، كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها ، ولكن حرمه ذلك » فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها لأن تختار [له][٧]ظئراً فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها ، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك فأمرت به ، فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها ، فلم يقبل . وأصبحت أم موسى والهاً ، فقالت لأخته : قصي أثره واطلبيه

---

(١) في نسخة الذي . وما أثبتناه المناسب .
(٢) في نسخة : فتقل .
(٣) في نسخة : لا تقتل .
(٤) سقطت من النسخ المطبوعة .
(٥) في نسخة : تستقي منها .
(٦) سقطت من النسخ المطبوعة .
(٧) سقطت من النسخ المطبوعة .

هل تسمعين له ذكراً ؟ أحي إبني أم قد أكلته الدواب ؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه ﴿ فبصرت به ﴾ أخته ﴿ عن جنب وهم لا يشعرون ﴾ والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه لا يشعر به . فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات أنا ﴿ أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ [فأخذوها][1] فقالوا ما يدريك ما نصحهم [له][2] هل [تعرفينه][3] حتى شكوا في ذلك . وذلك من الفتون ـ يا ابن جبير ـ فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه ورغبتهم في صهر الملك ورجاء منفعة الملك . فأرسلوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر ، فجاءت أمه ، فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه رياً ، وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئراً . فأرسلت إليها فأتت بها وبه . فلما رأت ما يصنع بها قالت : أمكثي ترضعي ابني هذا ، فإني لم أحب شيئاً حبه قط ، قالت أم موسى : لا أستطيع أن أترك بيتي وولدي فيضيع ، فإن طابت نفسك أن تعطينيه ، فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آلوه خيراً ، فعلت ، فإني غير تاركة بيتي وولدي وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها ، فتعاسرت على امرأة فرعون ، وأيقنت أن الله منجزٌ موعوده ، فرجعت إلى بيتها من يومها وأنبته الله نباتاً حسناً وحفظه لما قد قضى فيه .

فلم يزل بنو اسرائيل وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم . ما كان فيهم ، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى : أزيريني ابني فوعدتها يوماً [تزيرها][4] إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظئورها وقهارمتها ، لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك فيه ، وأنا باعثة أميناً يحصي كل ما يصنع كل إنسان منكم فلم تزل الهدايا والكرامة والنِحَل[5] تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون . فلما دخل عليها نحلته وأكرمته وفرحت به ونحلت أمه بحسن أثرها عليه . ثم قالت لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه ، فلما دخلت به عليه جعله في حجره ، فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض ، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه ؟ أنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك ، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه . وذلك من الفتون ـ يا بن جبير ـ بعد كل بلاء ابتلى به وأريد به ، فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون . فقالت ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي ؟ فقال : ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني ؟ فقالت : اجعل بيني وبينك أمراً تعرف فيه الحق ، ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه ! فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه

---

(١) سقطت من النسخ المطبوعة .

(٢) سقطت من النسخ المطبوعة .

(٣) في نسخة : يعرفونه .

(٤) في نسخة : أريني ابني فوعدتها يوماً تريها .

(٥) النحل : العطايا .

يعقل ، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين، علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل ، فقرب إليه فتناول الجمرتين ، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده ، فقالت المرأة ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعدما كان هم به ، وكان الله بالغاً فيه أمره . فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة ، حتى امتنعوا كل الإمتناع . فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي . فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فغضب موسى غضباً شديداً لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم [لا يعلم الناس إلا أنه من الرضاع إلا أم موسى، إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على][1]ما لم يطلع عليه غيره . فوكز موسى الفرعوني فقتله ، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي فقال موسى حين قتل الرجل ﴿ **هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين** ﴾ [القصص : ١٥] ثم قال ﴿ **رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين فأصبح في المدينة خائفاً يترقب** ﴾ [القصص : ١٦] الأخبار فأتي فرعون ، فقيل له : إن بني اسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون ، فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم ، فقال : ابغوني قاتله من يشهد عليه فإن الملك وإن كان صفوة مع قومه ، لا ينبغي له أن يقتل بغير بينة ، ولا ثبت ، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم ، فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة ، إذا موسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر ، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فصادف موسى قد ندم على ما كان منه وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم ﴿ **إنك لغوى مبين** ﴾ فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعدما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني فخاف أن يكون بعدما قال له إنك لغوي مبين أن يكون إياه أراد ، ولم يكن أراده ، إنما أراد الفرعوني فخاف الإسرائيلي * وقال : ﴿ **يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس** ﴾ وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله ، فتتاركا وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول : ﴿ **أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس** ﴾ فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى ، فأخذ رسل فرعون الطريق الأعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى ، وهم لا يخافون أن يفوتهم فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة ، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره . وذلك من الفتون ـ يا ابن جبير ـ فخرج موسى متوجهاً نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك ، وليس له بالطريق علم ، إلا حسن ظنه بربه عز وجل ، فإنه قال ﴿ **عسى ربي ان يهديني سواء السبيل** . ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان ﴾ يعني بذلك حابستين غنمهما فقال لهما ﴿ **ما خطبكما** ﴾ معتزلتين

---

(١) سقطت من النسخ المطبوعة ، واستدركت من مخطوطه بدار الكتب المصرية رقم ٢٤٤٢ وقورنت على حديث النسائي ورواية ابن كثير في التفسير .

لا تسقيان مع الناس ؟ قالتا : ليس لنا قوة تزاحم القوم وإنما ننتظر فضول حياضهم ، فسقى لهما فجعل يغترف[1] من الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما ، وانصرف موسى فاستظل بشجرة وقال : ﴿ رب إني لما انزلت الي من خير فقير ﴾ واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلاً[2] بطاناً فقال : إن لكما اليوم لشأناً ، فأخبرتاه بما صنع موسى فأمر إحداهما أن تدعوه ، فأتت موسى فدعته فلما كلمه ﴿ قال : لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ ليس لفرعون ولا قومه علينا من سلطان ولسنا في مملكته فقالت احداهما : ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ [القصص : ٢٧] فاحتملته الغيرة على أن قال لها : ما يدريك ما قوته وما أمانته ؟ فقالت : أما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه . وأما الأمانة فإنه نظر إليّ حين أقبلت إليه وشخصت له ، فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك . ثم قال لي : امشي خلفي وانعتي لي الطريق فلم يفعل هذا إلا وهو أمين . فسرى عن أبيها وصدقها ، وظن به الذي قالت . فقال له هل لك ﴿ إن أنكحك احدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن اتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ [القصص : ٢٧] ففعل فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة ، وكانت السنتان عدة منه ، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشراً . قال سعيد ـ هو ابن جبير ـ فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم ، قال : هل تدري أي الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا . وأنا يومئذ لا أدري . فلقيت ابن عباس فذكرت ذلك له ، فقال : أما علمت أن ثمانية كانت على نبي الله واجبة ، لم يكن نبي الله لينقص منها شيئاً ؟ وتعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التي وعده ؛ فإنه قضى عشر سنين . فلقيت النصراني فأخبرته ذلك ، فقال : الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك ؟ قلت : أجل وأولى . فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصى ويده ، ما قص الله عليك في القرآن . فشكا إلى الله تعالى ما يتخوف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه ، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هرون ، يكون له رداً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه ، فأتاه الله عز وجل [سؤله][3] وحل عقدة من لسانه ، وأوحى الله إلى هرون فأمره أن يلقاه . فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هرون ، فانطلقا جميعاً إلى فرعون ، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما . ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقالا : ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ فقال : فمن ربكما ؟ فأخبره بالذي قص الله عليك في القرآن . قال : فما تريدان ؟ وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت ، قال : أريد أن تؤمن بالله وترسل معي بني إسرائيل ، فأبى عليه وقال ﴿ أئت بآية إن كنت من الصادقين ﴾ فألقى عصاه فإذا هي [حية

(١) في نسخة : يغرف .
(٢) حفلا بطاناً : درت ضروعها وشبعت بطونها .
(٣) سقطت من النسخ المطبوعة .

تسعى][1] عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها[2] فرعون قاصدة إليه خافها فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل . ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء ، يعني من غير برص . ثم ردها فعادت إلى لونها الأول . فاستشار الملأ حوله فيما رأى فقالوا له ﴿ **هذان ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى** ﴾ يعني ملكهم الذي هم فيه والعيش ، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب ، وقالوا له : إجمع السحرة فإنهم بأرضك كثير، حتى تغلب بسحرك سحرهما. فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم[2] فلما أتوا فرعون قالوا : بم يعمل [هذا الساحر]؟[3] قالوا : يعمل بالحيات ، قالوا : فلا والله ما أحد [في[4] الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل ، وما أجرنا إن نحن غلبنا ؟ قال : لهم : أنتم أقاربي وخاصتي ، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم فتواعدوا ﴿ **يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى** ﴾ قال سعيد : فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة ، وهو يوم عاشوراء. فلما اجتمعوا في صعيد قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا فلنحضر هذا الأمر لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين يعنون موسى وهرون استهزاء بهما فقالوا يا موسى بعد تريثهم بسحرهم ﴿ **إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين** ﴾ [الأعراف : ١١٥] قال بل ألقوا ﴿ **فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون** ﴾ فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة فأوحى الله إليه ﴿ **أن ألق عصاك** ﴾ فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاها فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جُرَزا على الثعبان أن تدخل فيه[5] حتى ما أبقت عصا ولا حبلاً إلا ابتلعته . فلما عرف السحرة ذلك ، قالوا : لو كان هذا سحراً لم يبلغ[6] من سحرنا كل هذا ، ولكنه أمر من الله تعالى ، آمنا بالله وبما جاء به موسى ، ونتوب إلى الله مما كنا عليه . فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وامرأة فرعون بارزة مبتذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه ، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه ، وإنما كان حزنها وهمها لموسى فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة ، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل ، فإذا مضت أخلف من غده ، وقال : هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟ فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد

---

(١) في نسخة : ثعبان .
(٢) في نسخة : رأى .
(٣) في نسخة : السحر .
(٤) في نسخة : من .
(٥) في نسخة : صارت حرزاً للثعابين تدخل فيه .
(٦) في النسخ المطبوعة : يبلع .

والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات . كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه ويوافقه[1] على أن يرسل معه بني إسرائيل ، فإذا كف ذلك عنه أخلف بوعده ونكث عهده حتى أمر موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً ، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك موسى عبدي بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه * ثم التق على من بقي بعد من فرعون وأشياعه . فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصى وانتهى إلى البحر وله قصيف[2] مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصياً لله عز وجل فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى : ﴿ إنا لمدركون ﴾ إفعل ما أمرك به ربك فإنه لم يكذب ولم تكذب قال : وعدني ربي إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه ، ثم ذكر بعد ذلك العصى فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى ، فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى فلما [أن][3] جاوز موسى وأصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه ، التقى عليهم البحر كما أمر ، فلما جاوز موسى [البحر][4] قال أصحابه : إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه ، فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه . ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم **﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾** [الأعراف : ١٣٨] قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم . ومضى فأنزلهم موسى منزلاً وقال : أطيعوا هارون فإن الله قد استخلفه عليكم ، فإني ذاهب إلى ربي ، وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها . فلما أتى ربه عز وجل وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوماً ، وقد صامهن ليلهن ونهارهن ، وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم ، فتناول موسى شيئاً من نبات[5] الأرض فمضغه ، فقال له ربه حين أتاه : لم أفطرت ؟ ـ وهو أعلم بالذي كان ـ قال : يا رب إني كرهت أن أكلمك إلاّ وفمي طيب الريح . قال : أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب [عندي] من ريح المسك ؟ إرجع فصم عشراً ثم ائتني ، ففعل موسى ما أمره به ربه . فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل ساءهم ذلك ، وكان هارون قد خطبهم فقال : إنكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع[6] ولكم فيها مثل ذلك ، وأنا

---

(١) في نسخة : ليوافقه ، وعند النسائي : ويوائقه .

(٢) قصيف : هشيم الشجر ، هنا : صليل البحر وهديره .

(٣) سقطت من النسخ المطبوعة واثبتت من النسائي وتفسير ابن كثير .

(٤) سقطت من النسخ المطبوعة . واستدركت من النسائي وتفسير ابن كثير .

(٥) عود من خرنوب .

(٦) كان بنو إسرائيل قد استعاروا حلي وزينة من آل فرعون ليلة خروجهم من مصر بحجة التزين بها في عيد لهم ـ عيد الزينة .

أرى أن تحتسبوا ما لكم عندهم ، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية ، ولسنا برادين إليهم شيئاً من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا ، فحفر حفيراً وأمر كل قوم عندهم من ذلك متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير . ثم أوقد عليه النار فأحرقه ، فقال : لا يكون لنا ولا لهم .

وكان السامري من قوم يعبدون البقر ، جيران لبني إسرائيل ، ولم يكن من بني إسرائيل فاحتمل مع موسى وبني اسرائيل حين احتملوا فقضي له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة فمر بهارون ، فقال له هارون : يا سامري ألا تلقي ما في يديك[1]؟ وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك ، فقال هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر ، ولا ألقيها لشيء ، إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد ، فألقاها ودعا له هارون . فقال أريد أن تكون عجلاً فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد ، فصار عجلاً أجوف ، ليس فيه روح له خوار . قال ابن عباس لا والله ما كان فيه صوت قط ، إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه ، فكان ذلك الصوت من ذلك ؛ فتفرق بنو اسرائيل فرقاً فقالت فرقة : يا سامري ما هذا وأنت أعلم به ؟ قال : هذا ربكم ، ولكن موسى أضل الطريق . وقالت فرقة : لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى ، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا[2] فيه حتى رأيناه وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى ؛ وقالت فرقة : هذا من عمل الشيطان ، وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق ، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق : بما قال السامري في العجل وأعلنوا التكذيب به . فقال لهم هارون عليه السلام ﴿ يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن ﴾ [طه : ٩٠] ليس هذا . قالوا فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا . هذه أربعون يوماً قد مضت ، قال سفهاؤهم : أخطأ ربه فهو يطلبه ويبتغيه . فلما كلم الله موسى وقال له ما قال ، أخبره بما لقي قومه من بعده ، ﴿ فرجع إلى قومه غضبان أسفاً ﴾ فقال لهم : ما سمعتم ما في القرآن ؟ ﴿ وأخذ برأس أخيه يجره اليه ﴾ وألقى الألواح من الغضب ، ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له فانصرف إلى السامري فقال له ما حملك على ما صنعت ؟ قال : قبضت قبضة من أثر الرسول ، وفطنت لها وعميت عليكم فقذفتها ﴿ وكذلك سولت لي نفسي قال فاذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى الهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا ﴾ [طه : ٩٦ ـ ٩٧] ولو كان إلهاً لم يخلص إلى ذلك منه فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة ، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هرون ، فقالوا لجماعتهم : يا موسى سل لنا [ربك] أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فتكفر عنا ما عملنا ، فاختار موسى [من] قومه سبعين رجلاً لذلك ، لا يألوا الخير خيار بني إسرائيل ، ومن لم يشرك في الحق ، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة فرجفت بهم الأرض .

---

(١) في سنن النسائي وتفسير ابن كثير : يدك .

(٢) في نسخة : وعكفنا ؛ وفي النسائي وتفسير ابن كثير فكالأصل .

فاستحيا نبي الله عليه السلام من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال : ﴿ رب لو شئت لأهلكتهم من قبل وإياي ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به . فلذلك رجفت بهم الأرض فقال ﴿ رحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ فقال يا رب سألتك التوبة لقومي ، فقلت : إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي فليتك أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحوم[1] فقال له : إن توبتهم أن يقتل كل رجل [منهم] من لقي من والد وولد ، فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن . وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهرون [أمرهم] واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها ، وفعلوا ما أمروا وغفر الله للقاتل والمقتول . ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجهاً نحو الأرض المقدسة ، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب ، فأمرهم بالذي أمر به من الوظائف فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يقروا بها وفتق[2] الله عليهم الجبل كأنه ظلة ، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم ، وأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم . ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة ، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون ، خلقهم خلق منكر ، وذكر من ثمارهم أمراً عجباً[3] من عظمها ، فقالوا : ﴿ يا موسى إن فيها قوماً جبارين ﴾ لا طاقة لنا بهم ، ولا ندخلها ما داموا فيها ﴿ فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾ . ﴿ قال رجلان من الذين يخافون ﴾ قيل ليزيد : هكذا قرأه ؟ قال : نعم ، من الجبارين ، آمنا بموسى وخرجنا إليه ، فقالوا : نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم ، فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ويقول أناس : إنهم من قوم موسى . فقال الذين يخافون من بني إسرائيل ﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ فاغضبوا موسى ، فدعا عليهم وسماهم فاسقين ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم ، حتى كان يومئذ فاستجاب الله له ، وسماهم كما سماهم [موسى] فاسقين فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار ثم ظلل عليهم الغمام في التيه ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعاً ، وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، في كل ناحية ثلاثة أعين وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها ، فلا يرتحلون من محلة ـ إلا وجدوا

---

(١) في تفسير ابن كثير : المرحومة .

(٢) في نسخة : ونتق .

(٣) في تفسير ابن كثير : عجيباً .

ذلك الحجر [بينهم] بالمكان الذي كان فيه [بالمنزل الأول][1] بالأمس * رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ وصدق ذلك عندي أن معاوية سمع ابن عباس [يحدث] هذا الحديث فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتيل الذي قتل . فقال : كيف يفشي عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلاّ الإسرائيلي الذي حضر ذلك ؟ فغضب ابن عباس ، فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري فقال له : يا أبا اسحق ، هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون ؟ الإسرائيلي الذي أفشى عليه أم الفرعوني ؟ قال : إنما أفشى عليه الفرعوني بما سمع [من] الإسرائيلي الذي شهد ذلك وحضره . هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيرهما من حديث يزيد بن هرون والأشبه والله أعلم أنه موقوف وكونه مرفوعاً فيه نظر . وغالبه متلقى من الإسرائيليات وفيه شيء يسير مصرح برفعه في أثناء الكلام . وفي بعض ما فيه نظر ونكارة ، والأغلب أنه [من] كلام كعب الأحبار وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك [أيضاً]، والله أعلم[2] .

[ذكر][3] بناء قبّة الزمان

قال أهل الكتاب وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشمشاز وجلود الأنعام وشعر الأغنام وأمر بزينتها بالحرير المصبغ والذهب والفضة على كيفيات مفصلة عند أهل الكتاب ، ولها عشر سرادقات ، طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعاً وعرضه أربعة أذرع ولها أربعة أبواب وأطناب من حرير ودمقس مصبغ ، وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضة ولكل زاوية بابان وأبواب أخر كبيرة، وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره . ويعمل تابوت من خشب الشمشاز يكون طوله ذراعين ونصفاً ، وعرضه ذراعين وارتفاعه ذراعاً ونصفاً ، ويكون مضبباً بذهب خالص من داخله وخارجه ، وله أربع حلق في أربع زواياه ، ويكون على حافتيه كروبيان من ذهب ـ يعنون صفة ملكين بأجنحة ، وهما متقابلان صنعه[4] رجل اسمه بصليال . وأمراه أن يعمل مائدة من خشب الشمشاز طولها ذراعان وعرضها ذراعان ونصف لها ضباب ذهب وإكليل ذهب ، بشفة مرتفعة بإكليل من ذهب ، وأربع حلق من نواحيها من ذهب ، مغرزة في مثل الرمان من خشب ملبس ذهباً [وأن يعمل] صحافاً ومصافى وقصاعاً على المائدة ، [وأن

---

(١) سقطت من النسخ المطبوعة .

(٢) ما ذكر بين معكوفين في حديث الفتون سقط بجمله من نسخ البداية والنهاية المطبوعة واستدرك بمقارنته بنص النسائي وتفسير ابن كثير .

(٣) سقطت من النسخ المطبوعة .

(٤) في نسخة : صفة وهو تحريف .

يصنع][1]منارة من الذهب دلى فيها ست قصبات من ذهب ، من كل جانب ثلاثة . على كل قصبة ثلاث سرج ، وليكن في المنارة أربع قناديل ، ولتكن هي وجميع هذه الآنية من قنطار من ذهب صنع ذلك بصليال أيضاً ، وهو الذي عمل المذبح أيضاً . ونصب هذه القبة أول يوم من سنتهم ، وهو أول يوم من الربيع ونصب تابوت الشهادة وهو ـ والله أعلم ـ المذكور في قوله تعالى ﴿ **ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ان في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ [البقرة : ٢٤٨] وقد بسط هذا الفصل في كتابهم مطولاً جداً[2]، وفيه شرائع لهم وأحكام وصفة قربانهم ، وكيفيته وفيه إن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذي هو متقدم على مجيء بيت المقدس ، وأنها كانت لهم كالكعبة يصلون فيها وإليها ، ويتقربون عندها ، وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها ، وينزل عمود الغمام على بابها ، فيخرون عند ذلك سجداً لله عز وجل . ويكلم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذي هو نور ويخاطبه ويناجيه ، ويأمره وينهاه وهو واقف عند التابوت صامد إلى ما بين الكروبيين فإذا فصل الخطاب يخبر بني إسرائيل بما أوحاه الله عز وجل إليه من الأوامر والنواهي . وإذا تحاكموا إليه في شيء ليس عنده من الله فيه شيء يجيء إلى قبة الزمان ، ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكروبيين فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة وقد كان هذا مشروعاً لهم في زمانهم أعني استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلىء في معبدهم وعند مصلاهم فأما في شريعتنا فلا بل قد نهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها لئلا تشغل المصلين كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وسع في مسجد رسول الله ﷺ للذي وكله على عمارته : ابنِ للناس ما يكنهم وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس * وقال ابن عباس لنزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه فهذه الأمة غير مشابهة من كان قبلهم من الأمم ، إذ جمع الله هممهم في صلاتهم على التوجه إليه والإقبال عليه ، وصان أبصارهم وخواطرهم عن الإشتغال والتفكر في غير ما هم بصدده ، من العبادة العظيمة . فلله الحمد والمنة .
وقد كانت قبة الزمان هذه مع بني اسرائيل في التيه ، يصلون إليها وهي قبلتهم وكعبتهم وإمامهم كليم الله موسى عليه السلام ، ومقدم القربان أخوه هارون عليه السلام * فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام استمر بنو هارون في الذي كان يليه أبوهم ، من أمر القربان وهو فيهم إلى الآن . وأقام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده فتاه يوشع بن نون عليه السلام ، وهو الذي دخل بهم بيت المقدس كما سيأتي بيانه . والمقصود هنا أنه لما استقرت يده على البيت المقدس نصب هذه القبة على صخرة بيت المقدس فكانوا يصلون إليها ، فلما بادت صلوا إلى محلتها وهي الصخرة ، فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله ﷺ ، وقد صلى إليها رسول الله ﷺ

---

(١) في نسخة : واعمل صحافاً ؛ واصنع منارة .
(٢) التوراة المتداولة ـ سفر التثنية الذي تذكر فيه شرائعهم وأحكامهم .

قبل الهجرة ، وكان يجعل الكعبة بين يديه * فلما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقدس فصلى إليه ستة عشر - وقيل سبعة عشر - شهراً * ثم حولت القبلة إلى الكعبة وهي قبلة إبراهيم في شعبان سنة ثنتين في وقت صلاة العصر وقيل الظهر ، كما بسطنا ذلك في التفسير عند قوله تعالى ﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها - إلى قوله - قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ الآيات [البقرة ١٤٢ - ١٤٣ وما بعدها] .

قصة قارون مع موسى عليه السلام

قال الله تعالى ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ [القصص : ٧٦ - ٨٣]

قال الأعمش عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان قارون ابن عم موسى ، وكذا قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن الحرث بن نوفل ، وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار ، وابن جريج وزاد فقال : هو قارون بن يصهر بن قاهث ، وموسى بن عمران بن قاهث[1] : . قال ابن جريج[2] وهذا قول أكثر أهل العلم : أنه كان ابن عم موسى . ورد قول ابن اسحاق إنه كان عم موسى ، قال قتادة : وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة ، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري ، فأهلكه البغي لكثرة ماله . وقال شهر بن حوشب زاد في ثيابه شبراً طولاً ترفعاً على قومه . وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه ، حتى أن مفاتيحه كان يثقل حملها

---

(١) في نسخة : هافت وهو تحريف والصواب ما أثبتناه .

(٢) هكذا في الأصول : ابن جريج وهو تحريف والصواب ابن جرير ، ولعل هناك سهواً في النسخ والعبارة كما في الطبري ، وأما أهل العلم من سلف أمتنا ومن أهل الكتابين فعلى ما قال ابن جريج .

على الفئام(١) من الرجال الشداد ، وقد قيل إنها كانت من الجلود وإنها كانت تحمل على ستين(٢) بغلاً ، فالله أعلم . وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين « لا تفرح » أي لا تبطر بما أعطيت وتفخر على غيرك ﴿ ان الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ﴾ يقولون لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة ، فإنه خير وأبقى ، ومع هذا ﴿ لا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ أي وتناول منها بمالك ما أحل الله لك ، فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال ﴿ وأحسن كما أحسن الله اليك﴾ أي وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم، وبارئهم إليك ﴿ ولا تبغ الفساد في الأرض ﴾ أي ولا تسيء اليهم ، ولا تفسد فيهم، فتقابلهم ضد ما أمرت فيهم فيعاقبك ويسلبك ما وهبك ﴿ إن الله لا يحب المفسدين ﴾ فما كان جواب قومه . لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن ﴿ قال إنما أوتيته على علم عندي ﴾ يعني أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم ولا إلى ما إليه أشرتم فإن الله إنما أعطاني هذا لعلمه أني أستحقه وأني أهل له ولولا أني حبيب إليه وحظي عنده لما أعطاني ما أعطاني قال الله تعالى رداً عليه ما ذهب إليه ﴿ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ أي قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فلو كان ما قال صحيحاً لم نعاقب أحداً ممن كان أكثر مالاً منه ولم يكن ماله دليلاً على محبتنا له واعتنائنا به كما قال تعالى ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً ﴾ [سبأ : ٥٦] وقال تعالى ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ [المؤمنون : ٥٥ - ٥٦] وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله في جمع الأموال فليس بصحيح لأن الكيمياء تخييل وصبغة لا تحيل الحقائق ولا تشابه صنعة الخالق والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر به ، وقارون وكان كافراً في الباطن منافقاً في الظاهر . ثم لا يصح جوابه لهم بهذا على هذا التقدير ولا يبقى بين الكلامين تلازم وقد وضحنا هذا في كتابنا التفسير ولله الحمد . قال الله تعالى ﴿ فخرج على قومه في زينته ﴾ ذكر كثير من المفسرين أنه خرج في تجمل عظيم من ملابس(٣) ومراكب وخدم وحشم فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن لو كانوا مثله وغبطوه بما عليه وله فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح الزهاد الألباء قالوا لهم : ﴿ ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ﴾ أي ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى قال الله تعالى ولا يلقاها الا الصابرون ، أي وما

---

(١) الفئام : جمع فئة وهي الجماعة .

(٢) في رواية للطبري : أربعين بغلاً . وذكر القشيري : سبعين بغلاً .

(٣) قال الغزنوي : خرج يوم السبت ، وكان أول من صبغ له الثياب المعصفرة .

وقال مجاهد : كان ذلك أول يوم رؤى فيه المعصفر .

يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية إلا من هدى الله قلبه ، وثبت فؤاده ، وأيد لبه ، وحقق مراده ، وما أحسن ما قال بعض السلف إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند حلول الشهوات .

قال الله تعالى فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين لما ذكر تعالى خروجه في زينته واختياله فيها ، وفخره على قومه بها ، قال : فخسفنا به وبداره الأرض كما روى البخاري من حديث الزهري ، عن سالم عن أبيه ، عن النبي ﷺ قال : « بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل[1] في الأرض إلى يوم القيامة[2] ». ثم رواه البخاري من حديث جرير بن زيد عن سالم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ نحوه . وقد ذكر ابن عباس والسدي أن قارون أعطى امرأة بغياً مالاً على أن تقول لموسى عليه السلام وهو في ملأ من الناس إنك فعلت بي كذا وكذا فيقال إنها قالت له ذلك ، فأرعد من الفرق[3] وصلى ركعتين . ثم أقبل عليها فاستحلفها من ذلك على ذلك وما حملك عليه ، فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك ، واستغفرت الله وتابت إليه ، فعند ذلك خر موسى لله ساجداً ودعا الله على قارون ، فأوحى الله إليه إني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك فالله أعلم . وقد قيل إن قارون لما خرج على قومه في زينته مر بجحفله وبغاله وملابسه على مجلس موسى عليه السلام ، وهو يذكر قومه بأيام الله فلما رآه الناس ، انصرفت وجوه كثير من الناس ينظرون إليه فدعا موسى عليه السلام فقال له : ما حملك على هذا فقال : يا موسى أما لئن كنت فضلت عليّ بالنبوة فلقد فضلت عليك بالمال ، ولئن شئت لتخرجن فلتدعون عليّ ولأدعون عليك فخرج وخرج قارون في قومه فقال له موسى : تدعو أو أدعو ؟ قال : ادعو أنا ، فدعى قارون ، فلم يجب في موسى ، فقال موسى أدعو ؟ قال : نعم . فقال موسى : اللهم مر الأرض فلتطغى اليوم فأوحى الله إليه إني قد فعلت فقال موسى : يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى أقدامهم ، ثم قال خذيهم ، فأخذتهم إلى ركبهم ثم إلى مناكبهم ثم قال اقبلي بكنوزهم وأموالهم فأقبلت بها حتى نظروا إليها ثم أشار موسى بيده فقال : اذهبوا بني لاوي فاستوت بهم الأرض . وقد روي عن قتادة أنه قال يخسف بهم كل يوم قامة إلى يوم القيامة . وعن ابن عباس أنه قال خسف بهم إلى الأرض السابعة . وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا إسرائيليات كثيرة اضربنا عنها صفحاً وتركناها قصداً . وقوله تعالى ﴿ فما

---

(١) يتجلجل : أي يغوص في الأرض حين يخسف به . والجلجلة : حركة مع الصوت .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٥٧٩٠/٥/٧٧ فتح الباري وأخرجه مسلم في ٣٧ كتاب اللباس ١٠ باب تحريم التبختر في المشي ٢٠٨٨/٤٩ بنحوه عن أبي هريرة .

ورواه النسائي في سننه ١٠١/٤٨ والدارمي في سننه المقدمة ٤٤٣/٤٠ وأحمد في مسنده ٦٦/٢ ـ ٢٦٧ ـ ٣١٥ ـ ٣٩٠ ـ ٤٥٦ .

(٣) الفرق : بالفتح : الخوف والفزع .

كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ لم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره كما قال ﴿ فما له من قوة ولا ناصر ﴾ [الطارق : ١٠] ولما حل به ما حل من الخسف وذهاب الأموال وخراب الدار وإهلاك النفس والأهل والعقار ندم من كان تمنى مثل ما أوتي ، وشكروا الله تعالى الذي يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون ولهذا قالوا ﴿ لولا أن من الله علينا لخسف بنا وبك انه لا يفلح الكافرون ﴾ وقد تكلمنا على لفظ ويك في التفسير وقد قال قتادة ويكأن بمعنى ألم تر أن وهذا قول حسن من حيث المعنى والله أعلم . ثم أخبر تعالى ﴿ أن الدار الآخرة ﴾ وهي دار القرار وهي الدار التي يغبط من أعطيها ويعزى من حرمها إنما هي سعدة للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً. فالعلو هو التكبر والفخر والأشر والبطر والفساد هو عمل المعاصي اللازمة[1]، والمتعدية من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم والإساءة إليهم وعدم النصح لهم ثم قال تعالى ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر لقوله فخسفنا به وبداره الأرض فإن الدار ظاهرة في البنيان وقد تكون بعد ذلك في التيه وتكون الدار عبارة عن المحلة التي تضرب فيها الخيام كما قال عنترة .

يـا دارَ عبلَة بـالجَـواءِ تكلّمي وعِمي صباحاً دارَ عبلةَ وأسلمي

والله أعلم . وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون في غير ما آية من القرآن . قال الله ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ﴾ [غافر : ٢٣ - ٢٤] وقال تعالى في سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وثمود . وقارون وفرعون وهامان ﴿ ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [العنكبوت : ٣٩ - ٤٠][2] فالذي خسف به الأرض قارون كما تقدم والذي أغرق فرعون وهامان وجنودهما أنهم كانوا خاطئين . وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا سعيد ، حدثنا كعب بن علقمة ، عن عيسى بن هلال الصدفي ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف »[3] . انفرد به أحمد رحمه الله .

---

(١) في نسخة القاصرة . واللازمة هي المعاصي التي يقتصر ضررها على فاعلها دون تعديه للغير .

(٢) وفيها : ولقد جاءهم موسى بالبينات .

(٣) مسند أحمد ٢ / ١٦٩ .

باب [ذكر][1] فضائل موسى عليه السلام وشمائله وصفاته ووفاته

قال الله تعالى ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ [مريم : ٥١ - ٥٣] وقال تعالى ﴿ قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ [الأعراف : ١٤٤]. وتقدم في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تفضلوني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش فلا أدري أصعق فأفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور »[2] وقدمنا أنه من رسول الله ﷺ من باب الهضم والتواضع وإلّا فهو صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة قطعاً جزماً لا يحتمل النقيض . وقال تعالى ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ﴾ [النساء : ١٦٣] إلى أن قال ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ﴾ [النساء : ١٦٤] وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾ [الأحزاب : ٦٩].

قال الامام أبو عبد الله البخاري : حدثنا اسحق بن ابراهيم بن روح بن عبادة ، عن عوف ، عن الحسن . ومحمد وخلاس ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى كان رجلًا حيياً ستيراً لا يرى جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا ما يستتر هذا التستر إلّا من عيب بجلده ، إما برص أو أدرة[3] وإما آفة ، وأن الله عز وجل أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ ، أقبل على ثيابه ليأخذها ، وأن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني اسرائيل ، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ، وبرأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً قال فذلك قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾ [الأحزاب : ٦٩][4] . وقد رواه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن

---

(١) سقطت من النسخ المطبوعة . واستدركت من قصص الأنبياء لابن كثير .

(٢) تقدم تخريجه قريباً في هذا الجزء فليراجع .

(٣) أدرة : فتق في إحدى الخصيتين (قاموس) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ ٢٠ ، ٦٠/ ٢٨ وأخرجه مسلم في صحيحه ٤٣/ ١٥٥/ ١٥٦ والترمذي في سننه ٤٤/ ٣٣ وأحمد في مسنده ٢/ ٣١٥ - ٣٢٤ - ٣٩٢ - ٥٣٥ .

شقيق وهمام بن منبه عن أبي هريرة به وهو في الصحيحين من حديث عبدالرزاق عن معمر عن همام عنه به ورواه مسلم من حديث عبد الله بن شقيق العقيلي عنه .

قال بعض السلف كان من وجاهته أنه شفع في أخيه عند الله وطلب منه أن يكون معه وزيراً فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبياً كما قال ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً ﴾ ثم قال البخاري : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة ، حدثنا الأعمش . سالت أبا وائل قال : سمعت عبد الله قال : قسم رسول الله ﷺ قسماً فقال رجل إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأتيت النبي ﷺ فغضب ، حتى رأيت الغضب في وجهه ثم قال : « يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[1] وكذا رواه مسلم من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش به . وقال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن حجاج ، سمعت إسرائيل بن يونس ، عن الوليد بن أبي هاشم - مولى لهمدان بن عن زيد بن أبي زائد ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر »[2]. قال وأتى رسول الله ﷺ مال فقسمه قال : فمررت برجلين ، وأحدهما يقول لصاحبه ؛ والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ، ولا الدار الآخرة فثبتّ حتى سمعت ما قالا . ثم أتيت رسول الله ، فقلت : يا رسول الله ، إنك قلت لنا : « لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً » وإني مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا فاحمر وجه رسول الله ﷺ وشق عليه . ثم قال : « دعنا منك فقد أوذي موسى أكثر من ذلك فصبر ». وهكذا رواه أبو داود والترمذي من حديث إسرائيل ، عن الوليد بن أبي هاشم به ، وفي رواية للترمذي ولأبي داود من طريق ابن عبد عن إسرائيل عن السدي ، عن الوليد به ، وقال الترمذي غريب من هذا الوجه . وقد ثبت في الصحيحين في أحاديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلي في قبره . ورواه مسلم عن أنس . وفي الصحيحين من رواية قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ أنه مر ليلة أسري به بموسى في السماء السادسة فقال له جبريل : هذا موسى ، فسلم عليه ، قال : « فسلمت عليه » فقال : مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح . « فلما تجاوزت » بكى . قيل له : ما يبكيك قال : أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي[3]. وذكر إبراهيم في السماء السابعة . وهذا هو المحفوظ وما وقع في حديث شريك ابن أبي نمر عن أنس من أن ابراهيم في السادسة وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله فقد ذكر غير واحد من الحفاظ أن الذي عليه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٨٠/١٩/٦٣٣٦ فتح الباري وأخرجه مسلم في صحيحه ١٢/٤٦/١٤٠ .

(٢) مسند أحمد ج ١/٣٩٦ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في رواية طويلة في ١٨/١/٣٤٩ فتح الباري . وأخرجه مسلم في صحيحه ١ كتاب الإيمان / ٢٥٩ والنسائي في سننه في (٥) كتاب الصلاة (١) باب فرض الصلاة في رواية طويلة .

الجادة أن موسى في السادسة وإبراهيم في السابعة وأنه مسند ظهره إلى البيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم . واتفقت الروايات كلها على أن الله تعالى لما فرض على محمد ﷺ وأمته خمسين صلاة في اليوم والليلة فمر بموسى قال : ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك ، فإني قد عالجت بني إسرائيل قبلك أشد المعالجة وإن أمتك أضعف إسماعاً وأبصاراً وأفئدة فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل ويخفف عنه في كل مرة حتى صارت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة . وقال الله تعالى هي خمس وهي خمسون[1] أي بالمضاعفة فجزى الله عنا محمداً ﷺ خيراً وجزى الله عنا موسى عليه السلام خيراً . وقال البخاري : حدثنا مسدد ، حدثنا حصين بن نمير ، عن حُصين بن عبد الرحمن ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : خرج علينا رسول الله ﷺ : يوماً فقال : « عرضت عليّ الأمم ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق فقيل هذا موسى في قومه » . هكذا روى البخاري هذا الحديث ههنا مختصراً . وقد رواه الإمام أحمد مطولاً فقال : حدثنا شريح ، حدثنا هشام ، حدثنا حصين بن عبد الرحمن . قال : كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة قلت : أنا ثم قلت : إني لم أكن في صلاة ولكن لدغت . قال وكيف فعلت قلت استرقيت . قال وما حملك على ذلك ؟ قال : قلت : حديث حدثناه الشعبي عن بريدة الأسلمي أنه قال : لا رقية إلَّا من عين أو حمة فقال سعيد ـ يعني ابن جبير ـ قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ثم قال : حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ : قال : عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي معه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم فقلت : هذه أمتي فقيل هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فإذا سواد عظيم * ثم قيل انظر إلى هذا الجانب فإذا سواد عظيم فقيل : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ، ولا عذاب ثم نهض رسول الله ﷺ فدخل فخاض القوم في ذلك فقالوا : من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ؟ فقال بعضهم لعلهم الذين صحبوا النبي ﷺ . وقال بعضهم لعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً قط وذكروا أشياء فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه ؟ » فأخبروه بمقالتهم فقال : « هم الذين لا يكنون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » فقام عكاشة بن محيصن الأسدي فقال : أنا منهم يا رسول الله ؟ قال : « أنت منهم » * ثم قام آخر فقال : أنا منهم يا رسول الله ؟ فقال : « سبقك بها عكاشة »[2]. وهذا الحديث له طرق كثيرة جداً وهو في الصحاح والحسان وغيرها وسنوردها إن شاء الله تعالى في باب صفة الجنة عند ذكر أحوال القيامة وأهوالها .

وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السلام في القرآن كثيراً ، وأثنى عليه ، وأورد قصته في كتابه

---

(١) قال السيوطي في شرح سنن النسائي ١/٢٢١ : المراد خمس عدداً باعتبار الفعل وخمسون اعتداد باعتبار الثواب .

(٢) مسند الإمام أحمد ج ١/٢٧١ ـ ٤٠١ ـ ٤٠٣ ـ ٤٢٠ ـ ٤٥٤ ، ٢/٣٠٢ ـ ٣٥١ ـ ٤٥٦ ، ٤/٤٣٦ .

العزيز مراراً وكررها كثيراً ، مطولة ومبسوطة ومختصرة ، وأثنى عليه بليغاً . وكثيراً ما يقرنه الله ويذكره ويذكر كتابه مع محمد ﷺ وكتابه كما قال في سورة البقرة ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾ [البقرة : ١٠١] وقال تعالى ﴿ آلم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وانزل الفرقان أن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴾ [آل عمران : ١ - ٤] وقال تعالى في سورة الأنعام ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباءكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون . وهذا كتاب انزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ [الأنعام : ٩١ - ٩٢] فأثنى تعالى على التوراة ، ثم مدح القرآن العظيم مدحاً عظيماً وقال تعالى في آخرها ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون . وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ﴾ [الأنعام : ١٥٤] وقال تعالى في سورة المائدة ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ [المائدة : ٤٤] إلى أن قال : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون . وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه الآية ﴾ [المائدة : ٤٧ - ٤٨] فجعل القرآن حاكماً على سائر الكتب غيره وجعله مصدقاً لها ومبيناً ما وقع فيها من التحريف والتبديل فإن أهل الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من الكتب ، فلم يقدروا على حفظها ، ولا على ضبطها ، وصونها ، فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم لسوء فهو مهم وقصورهم في علومهم ورداءة قصودهم ، وخيانتهم لمعبودهم ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البين على الله وعلى رسوله ما لا يحد ولا يوصف وما لا يوجد مثله ولا يعرف .

وقال تعالى في سورة الأنبياء ﴿ ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون . وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾ [الأنبياء : ٤٨ - ٥٠] وقال الله تعالى في سورة القصص . ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون . قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ [القصص : ٤٨ - ٤٩]. فأثنى الله على الكتابين وعلى الرسولين عليهما السلام . وقالت الجن

لقومهم إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى . وقال ورقة بن نوفل لما قص عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأى من أول الوحي وتلا عليه ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] قال سبوح سبوح هذا الناموس الذي انزل على موسى بن عمران . وبالجملة فشريعة موسى عليه السلام كانت عظيمة وأمته كانت أمة كثيرة ووجد فيها أنبياء ، وعلماء ، وعباد ، وزهاد ، وألباء ، وملوك ، وأمراء ، وسادات ، وكبراء . لكنهم كانوا فبادوا ، وتبدلوا ، كما بدلت شريعتهم ومسخوا قردة وخنازير ، ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم ، وجرت عليهم خطوب ، وأمور يطول ذكرها ، ولكن سنورد ما فيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله * وبه الثقة وعليه التكلان .

[ذكر حجه][1] عليه السلام الى البيت العتيق [وصفته][1]

قال الإمام أحمد : حدثنا هشام[2]، حدثنا داود بن أبي هند ، عن أبي العالية ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادي الأزرق فقال : أيّ وادٍ هذا ؟ ». قالوا وادي الأزرق . قال : « كأني أنظر الى موسى وهو هابط من الثنية وله جؤار إلى الله عز وجل بالتلبية ».حتى أتى على ثنية هرشاء . فقال : « أي ثنية هذه ؟ » قالوا هذه ثنية هرشاء . قال : « كأني أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء عليه جبة من صوف خطام ناقته خلبة »[3]. قال هشيم يعني ليفاً وهو يلبي . أخرجه مسلم من حديث داود بن أبي هند به . وروى الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً إن موسى حج على ثور أحمر وهذا غريب جداً . وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدي ، عن ابن عون ، عن مجاهد قال كنا عند ابن عباس فذكروا الدجال فقال إنه مكتوب بين عينيه (ك ف ر) قال ما يقولون قال يقولون مكتوب بين عينيه (ك ف ر) فقال ابن عباس لم أسمعه قال ذلك ولكن . قال : أما ابراهيم فانظروا إلى صاحبكم . وأما موسى : فرجل آدم جعد الشعر على جمل أحمر مخطوم بخلبة كأني أنظر إليه وقد انحدر من الوادي يلبي »[4]قال هشيم الخلبة الليف * ثم رواه الإمام أحمد : عن أسود ، عن إسرائيل ، عن عثمان بن المغيرة ، عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال

---

(١) سقطت من النسخ المطبوعة ، وفي نسخة : حجته بدل حجة .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ج ١/ ٢١٥ ـ ٢١٦ وفيه : عن هُشيم وقد ورد صحيحاً في نهاية الحديث . وأخرجه مسلم في صحيحه (١) كتاب الإيمان ٧٤/ ٢٦٨ وابن ماجة في سننه ٢٥/ ٤/ ٢٨٩١ .

(٣) في الحديث :

ـ وادي الأزرق : خلف أمج إلى مكة بميل . وقد يجمع فيقال الأزارق معجم ما استعجم ١/ ١٤٦ .

ـ جؤار : قال ابن الأثير في النهاية : الجؤار رفع الصوت والاستغاثة .

ـ ثنية هرشاء : جبل على طريق الشام والمدينة قريب من الجحفة .

ـ خطام : حبل يجعل على خطم البعير ، ويقاد به .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ج ١/ ٢١٥ ـ ٢١٦ والبخاري في صحيحه ٦٠/ ٨/ ٣٣٥٥ فتح الباري .

رسول الله ﷺ : « رأيت عيسى بن مريم وموسى وإبراهيم ، فأما عيسى : فأبيض جعد عريض الصدر . وأما موسى فآدم جسيم » . قالوا فإبراهيم ؟ قال : « أنظروا إلى صاحبكم »[1]. وقال الإمام أحمد حدثنا يونس ، حدثنا شيبان ، قال : حدث قتادة عن أبي العالية ، حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس قال : قال نبي الله ﷺ : « رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس»[1]. وأخرجاه من حديث قتادة به . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، قال الزهري وأخبرني سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة قال : قال : قال رسول الله ﷺ : « حين أسري به لقيت موسى فنعته . فقال رجل : قال : حسبته - قال : مضطرب رجل الرأس ، كأنه من رجال شنوءة ، [قال] : ولقيت عيسى . فنعته رسول الله ﷺ فقال : « ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس يعني حماماً قال ورأيت إبراهيم وأنا أشبه [ولده] به الحديث[3]. وقد تقدم غالب هذه الأحاديث في ترجمة الخليل .

ذكر وفاته عليه السّلام

قال البخاري في صحيحه : « وفاة موسى عليه السلام » : حدثنا يحيى بن موسى ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن إبن طاووس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام ، فلما جاءه صكه[4] فرجع إلى ربه عز وجل ، فقال : أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت ، قال : ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور ، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة . قال : أي رب ثم ماذا ؟ قال : ثم الموت ، قال : فالآن . قال : فسأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر . قال أبو هريرة فقال رسول الله ﷺ : « فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر »[5]. قال :[6] وأنبأنا معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه . وقد روى مسلم الطريق الأول من حديث عبد الرزاق به ورواه الإمام أحمد من حديث

---

(١) أحد المصدر السابق وأخرجه البخاري في ٦٠/٤٨/٣٤٣٨ .

(٢) أخرجه مسلم في ١/كتاب الإيمان ٧٤ باب الإسراء برسول الله ﷺ حـ ٢٦٧ ص ١/١٥١ والبخاري في أحاديث الأنبياء ، ومسلم في كتاب الإيمان ح ٢٧٢ كلاهما من حديث شعبة عن قتادة مختصراً .
وأخرجاه عن أبي هريرة بنحوه . وأخرجه الترمذي في أول تفسير سورة الإسراء عن محمود بن غيلان .

(٣) تقدم تخريجه - راجع الحاشية رقم ٦ القسم الأخير منها .

(٤) صكه : لطمه .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب (٦٠) ٣١ باب /٣٤٠٧ فتح الباري . وأخرجه مسلم في صحيحه في ٤٣ كتاب الفضائل ١٥٧/٤٢ والنسائي في سننه ٢١/١٢٠ ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢/٢٦٩ - ٣١٥ - ٣٥١ - ٥٢٢ .

(٦) قال : أي البخاري .

حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار عن أبي هريرة مرفوعاً وسيأتي . وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا أبو يونس - يعني سليم بن جبير - عن أبي هريرة ، قال الإمام أحمد : لم يرفعه . قال جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال : أجب ربك فلطم موسى عين ملك الموت . ففقأها . فرجع الملك إلى الله فقال إنك بعثتني إلى عبد لك لا يريد الموت . قال : وقد فقأ عيني قال : فرد الله عينه ، وقال : ارجع إلى عبدي فقل له الحياة تريد فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما وارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنة . قال : ثم مه ؟ قال : ثم الموت قال : فالآن يا رب من قريب » . تفرد به أحمد وهو موقوف بهذا اللفظ . وقد رواه ابن حبان في صحيحه من طريق معمر عن ابن طاووس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، قال معمر : وأخبرني من سمع الحسن عن رسول الله فذكره . ثم استشكله ابن حبان وأجاب عنه بما حاصله : أن ملك الموت لما قال له هذا لم يعرفه لمجيئه له على غير صورة يعرفها موسى عليه السلام ، كما جاء جبريل في صورة أعرابي وكما وردت الملائكة على إبراهيم ولوط في صورة شباب فلم يعرفهم ابراهيم ولا لوط أولاً ، وكذلك موسى لعله لم يعرفه ، لذلك ولطمه ففقأ عينه لأنه دخل داره بغير أذنه ، وهذا موافق لشريعتنا في جواز فقء عين من نظر إليك في دارك بغير إذن * ثم أورد الحديث من طريق عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « جاء ملك الموت إلى موسى ليقبض روحه ، قال له : أجب ربك ، فلطم موسى عين ملك الموت ففقأ عينه وذكر تمام الحديث . كما أشار اليه البخاري ثم تأوله على أنه لما رفع يده ليلطمه ، قال له أجب ربك ، وهذا التأويل لا يتمشى على ما ورد به اللفظ من تعقيب قوله أجب ربك بلطمه ولو أستمر على الجواب الأول لتمشى له ، وكأنه لم يعرفه في تلك الصورة ، ولم يحمل قوله هذا على أنه مطابق ، إذ لم يتحقق في الساعة الراهنة أنه ملك كريم ، لأنه كان يرجو أموراً كثيرة ، كان يحب وقوعها في حياته من خروجه من التيه ، ودخولهم الأرض المقدسة ، وكان قد سبق في قدرة الله أنه عليه السلام يموت في التيه بعد هرون أخيه ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى . وقد زعم بعضهم أن موسى عليه السلام هو الذي خرج بهم من التيه ودخل بهم الأرض المقدسة . وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين . ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت : رب أدنني إلى الأرض المقدسة رمية حجر . ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك ، ولكن لما كان مع قومه بالتيه ، وحانت وفاته عليه السلام أحب أن يتقرب إلى الأرض التي هاجر إليها ، وحث قومه عليها ، ولكن حال بينهم وبينها القدر رمية بحجر . ولهذا قال سيد البشر ، ورسول الله إلى أهل الوبر والمدر : « فلو كنت ثمّ لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر » . وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، حدثنا ثابت ، وسليمان التيمي ، عن أنس بن مالك ، إن رسول الله ﷺ قال : « لما أسري بي مررت بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر »[1] ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به وقال السدي ، عن

---

(١) مسند أحمد ج ١٤٨/٣ - ٢٤٨ وأخرجه مسلم في ٤٣ كتاب الفضائل حديث / ١٦٤ ، والنسائي في قيام الليل .

أبي مالك ، وأبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قالوا : ثم إن الله تعالى أوحى إلى موسى إني متوفٍ هرون فائت به جبل كذا وكذا فانطلق موسى وهرون نحو ذلك الجبل فإذا هم بشجرة ، لم تر شجرة مثلها ، وإذا هم ببيت مبني وإذا هم بسرير عليه فرش ، وإذا فيه ريح طيبة ، فلما نظر هرون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه ، قال : يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير قال له موسى : فنم عليه قال : إني أخاف أن يأتي رب هذا البيت فيغضب عليّ قال : له : لا ترهب أنا أكفيك رب هذا البيت فنم . قال : يا موسى نم معي ، فإن جاء رب هذا البيت غضب عليّ وعليك جميعاً . فلما ناما أخذ هرون الموت فلما وجد حسه قال : يا موسى خدعتني فلما قبض رفع ذلك البيت ، وذهبت تلك الشجرة ، ورفع السرير به إلى السماء ، فلما رجع موسى إلى قومه وليس معه هرون قالوا: فإن موسى قتل هرون وحسده حب بني إسرائيل له ، وكان هرون أكف عنهم وألين لهم من موسى ، وكان في موسى بعض الغلظة عليهم ، فلما بلغه ذلك قال لهم : ويحكم كان أخي أفتروني أقتله . فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا الله فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض . ثم إن موسى عليه السلام بينما هو يمشي ويوشع فتاه إذ أقبلت ريح سوداء ، فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة فالتزم موسى وقال : تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبي الله فاستل موسى عليه السلام من تحت القميص وترك القميص في يدي يوشع . فلما جاء يوشع بالقميص آخذته بنو إسرائيل وقالوا : قتلت نبي الله . فقال : لا والله ما قتلته ولكنه أستل مني فلم يصدقوه وأرادوا قتله . قال : فإذا لم تصدقوني فأخروني ثلاثة أيام ، فدعا الله فأتى كل رجل ممن كان يحرسه في المنام فأخبر أن يوشع لم يقتل موسى وإنا قد رفعناه إلينا فتركوه ، ولم يبق أحد ممن أبى أن يدخل قرية الجبارين مع موسى إلاّ مات ، ولم يشهد الفتح وفي بعض هذا السياق نكارة وغرابة والله أعلم . وقد قدمنا أنه لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى سوى يوشع بن نون وكالب بن يوقنا وهو زوج مريم أخت موسى وهرون وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم ، اللذان أشارا على ملأ بني إسرائيل بالدخول عليهم وذكر وهب بن منبه أن موسى عليه السلام مر بملأ من الملائكة يحفرون قبراً فلم ير أحسن منه ، ولا أنضر ، ولا أبهج ، فقال : يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر ، فقالوا لعبد من عباد الله كريم ، فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر ، وتمدد فيه وتوجه إلى ربك ، وتنفس أسهل تنفس ففعل ذلك فمات صلوات الله وسلامه عليه فصلت عليه الملائكة ودفنوه * وذكر أهل الكتاب وغيرهم أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة . وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أمية بن خالد ويونس قالا : حدثنا حماد بن سلمة ، عن عمار بن أبي عمار[1] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ - قال يونس رفع هذا الحديث الى النبي ﷺ - قال : كان ملك الموت يأتي الناس عياناً قال فأتى موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه

= وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة ج ٢ /٣٨٧ .

(١) عمار هذا مولى بني هاشم .

فأتى ربه فقال يا رب عبدك موسى فقأ عيني ولولا كرامته عليك لعتبت عليه . وقال يونس لشققت عليه . قال له : اذهب إلى عبدي . فقل له : فليضع يده على جلد (أو) مَسْك ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة ، فأتاه فقال له فقال ما بعد هذا قال الموت قال فالان قال فشمه شمة فقبض روحه . قال يونس فرد الله عليه عينه وكان يأتي الناس خفية * وكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن مصعب بن المقدام عن حماد بن سلمة به فرفعه أيضاً[1].

[ذكر][2] نبوّة يوشع وقيامه باعباء بني اسرائيل بعد موسى وهرون [عليهما السلام][2]

هو يوشع بن نون بن أفرائيم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبرهيم الخليل عليهم السلام وأهل الكتاب يقولون يوشع ابن عم هود .

وقد ذكره الله تعالى في القرآن غير مصرح باسمه في قصة الخضر كما تقدم من قوله ﴿ وإذ قال موسى لفتاه ﴾ [الكهف : ٦٠]* ﴿ فلما جاوزا قال لفتاه ﴾ [الكهف : ٦٢] وقدمنا ما ثبت في الصحيح من رواية أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ من أنه يوشع بن نون وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب فان طائفة منهم وهم السامرة لا يقرون بنبوة أحد بعد موسى إلا يوشع بن نون لانه مصرح به في التوراة ويكفرون بما وراءه وهو الحق [مصدقاً لما معهم][4] من ربهم فعليهم لعائن الله المتتابعة الى يوم القيامة .

وأما ما حكاه ابن جرير وغيره من المفسرين عن محمد بن اسحق من أن النبوة حولت[3] من موسى إلى يوشع في آخر عمر موسى فكان موسى يلقى يوشع فيسأله ما أحدث الله [إليه][4] من الأوامر والنواهي حتى قال له يا كليم الله إني كنت لا أسألك عما يوحي الله اليك حتى تخبرني أنت ابتداء من تلقاء نفسك فعند ذلك كره موسى الحياة وأحبّ الموت ، ففي هذا نظر لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر والوحي والتشريع والكلام من الله إليه من جميع أحواله حتى توفاه الله عز وجل ولم يزل معززاً مكرماً مدللاً وجيهاً عند الله كما قدمنا في الصحيح من قصة فقئه عين ملك الموت ، ثم بعثه الله إليه ان كان يريد الحياة فليضع يده على جلد ثور ، فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها ، قال : ثم ماذا ؟ قال : الموت . قال : فالآن يا رب وسأل الله أن يدنيه إلى بيت المقدس رمية بحجر . وقد أجيب الى ذلك صلوات الله وسلامه عليه فهذا الذي ذكره محمد بن اسحق إن كان إنما يقوله من كتب أهل الكتاب ففي كتابهم الذي يسمونه التوراة : أن الوحي لم يزل ينزل على

---

(١) تاريخ الطبري ج ١/٢٢٤ .
(٢) ما بين معكوفين سقط من النسخ المطبوعة .
(٣) في نسخة : تحولت ، وفي الطبري : فحولت .
(٤) ما بين معكوفين سقط من نسخ البداية والنهاية المطبوعة ؛ واستدرك من نسخة قصص الأنبياء لابن كثير المطبوعة .

موسى في كل حين يحتاجون إليه الى آخر مدة موسى كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة في قبة الزملن . وقد ذكروا في السفر الثالث أن الله أمر موسى وهارون أن يعدّا بني اسرائيل على أسباطهم ، وأن يجعلا على كل سبط من الاثني عشر أميراً ، وهو النقيب وما ذاك إلاّ ليتأهبوا للقتال قتال الجبارين عند الخروج من التيه وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنة . ولهذا قال بعضهم إنما فقأ موسى عليه السلام عين ملك الموت لانه لم يعرفه في صورته تلك ، ولأنه كان قد أمر بأمر كان يرتجي وقوعه في زمانه ، ولم يكن في قدر الله أن يقع ذلك في زمانه ، بل في زمان فتاه يوشع بن نون عليه السلام : كما أن رسول الله ﷺ كان قد أراد غزو الروم بالشام فوصل إلى تبوك ، ثم رجع عامه ذلك في سنة تسع . ثم حج في سنة عشر ، ثم رجع فجهز جيش أسامة إلى الشام ، طليعة بين يديه ، ثم كان على عزم الخروج إليهم امتثالاً لقوله تعالى ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ [التوبة : ٢٩] ولما جهز رسول الله جيش أسامة توفي عليه الصلاة والسلام ، وأسامة مخيم بالجرف(١)، فنفذه صديقه وخليفته أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، ثم لما لَمّ شعث جزيرة العرب وما كان دهى من أمر أهلها ، وعاد الحق إلى نصابه ، جهز الجيوش يمنة ويسرة إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس ، وإلى الشام أصحاب قيصر ملك الروم ، ففتح الله لهم ومكّن لهم وبهم ، وملكهم نواصي اعدائهم كما سنورده عليك في موضعه . إذا انتهينا اليه مفصلاً إن شاء الله بعونه وتوفيقه وحسن ارشاده * وهكذا موسى عليه السلام كان الله قد أمره أن يجند بني إسرائيل وأن يجعل عليهم نقباء كما قال تعالى ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم أثني عشر نقيباً ، وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعززتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيآتكم ولادخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ [المائدة : ١٢] يقول لهم : لئن قمتم بما أوجبت عليكم ، ولم تنكلوا عن القتال كما نكلتم أول مرة ، لأجعلن ثواب هذه مكفراً لما وقع عليكم من عقاب تلك ، كما قال تعالى لمن تخلف من الأعراب عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون الى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فان تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ [الفتح : ١٦]. وهكذا قال تعالى لبني إسرائيل ﴿ فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ ثم ذمهم تعالى على سوء صنيعهم ونقضهم مواثيقهم كما ذم من بعدهم من النصارى على اختلافهم في دينهم وأديانهم . وقد ذكرنا ذلك في التفسير مستقصى ولله الحمد .

والمقصود أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بني إسرائيل ممن

(١) الجرف : موضع عن ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام ، وبه كانت أموال لعمر بن الخطاب ولأهل المدينة وفيه بئر جشم وبئر جمل ياقوت ٢ / ١٢٨ .

يحمل السلاح ويقاتل ممن بلغ عشرين سنة فصاعداً وأن يجعل على كل سبط نقيباً منهم . السبط الأول سبط روبيل لأنه بكر يعقوب كان عدة المقاتلة منهم ستة وأربعين ألفاً وخمسمائة . ونقيبهم منهم وهو اليصور بن شديثورا . السبط الثاني سبط شمعون وكانوا تسعة وخمسين ألفاً وثلاثمائة . ونقيبهم شلوميئيل بن هوريشداي . السبط الثالث سبط يهوذا وكانوا أربعة وسبعين ألفاً وستمائة . ونقيبهم نحشون بن عميناداب . السبط الرابع سبط ايساخر وكانوا أربعة وخمسين ألفاً وأربعمائة ونقيبهم نشائيل بن صوغر . السبط الخامس سبط يوسف عليه السلام وكانوا أربعين ألفاً وخمسمائة ونقيبهم يوشع بن نون . السبط السادس سبط ميشا وكانوا أحداً وثلاثين ألفاً ومائتين[1] ونقيبهم جمليئيل بن فدهصور . السبط السابع سبط بنيامين وكانوا خمسة وثلاثين ألفاً وأربعمائة ونقيبهم أبيدن بن جدعون . السبط الثامن سبط حاد وكانوا خمسة وأربعة ألفاً وستمائة وخمسين رجلاً ونقيبهم الياساف بن رعوئيل . السبط التاسع سبط أشير وكانوا أحدا وأربعين ألفاً وخمسمائة ونقيبهم فجعيئيل بن عكرن . السبط العاشر سبط دان وكانوا إثنين وستين ألفاً وسبعمائة ونقيبهم أخيعزر بن عمشداي . السبط الحادي عشر سبط نفتالي وكانوا ثلاثة وخمسين الفاً وأربعمائة . ونقيبهم أخيرع بن عين السبط الثاني عشر سبط زبولون وكانوا سبعة وخمسين ألفاً وأربعمائة ونقيبهم الباب بن حيلون . هذا نص كتابهم الذي بأيديهم والله أعلم .

وليس منهم بنو لاوي فأمر الله موسى أن لا يعدهم معهم ، لأنهم موكلون بحمل قبة الشهادة وضربها [وخزنها][2] ونصبها وحملها إذا ارتحلوا وهم سبط موسى وهرون عليهما السلام وكانوا اثنين وعشرين ألفاً من ابن شهر فما فوق ذلك * وهم في أنفسهم قبائل من كل قبيلة طائفة من قبة الزمان يحرسونها ويحفظونها ويقومون بمصالحها ونصبها وحملها ، وهم كلهم حولها ، ينزلون ويرتحلون أمامها ويمنتها وشمالها ووراءها . وجملة ما ذكر من المقاتلة غير بني لاوي خمسمائة ألف وأحد وسبعون ألفاً وستمائة وستة وخمسون . لكن قالوا : فكان عدد بني إسرائيل ممن عمره عشرون سنة فما فوق ذلك ، ممن حمل السلاح ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وخمسين رجلاً سوى بني لاوي وفي هذا نظر . فإن جميع الجمل المتقدمة إن كانت كما وجدنا في كتابهم لا تطابق الجملة التي ذكروها والله أعلم . فكان بنو لاوي الموكلون بحفظ قبة الزمان يسيرون في وسط بني إسرائيل ، وهم القلب ، ورأس الميمنة بنو روبيل ، ورأس الميسرة بنودان[3] وبنو نفتالي يكونون ساقة * وقرر موسى عليه السلام - بأمر الله تعالى له - الكهانة في بني هرون كما كانت لأبيهم من قبلهم ، وهم ناداب وهو بكره ، وأبيهو ، والعازر ، ويثمر . والمقصود أن بني إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل

(١) في نسخة : ومائة ، وفي نسخة وأربعمائة .
(٢) سقطت من النسخ المطبوعة .
(٣) في نسخة ران .

عن دخـول مدينـة الجبارين الـذين قالـوا ﴿ فاذهب أنت وربـك فقاتـلا إنـا ههنـا قـاعـدون ﴾ [المائدة : ٢٤] قاله الثوري عن أبي سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس . وقاله قتادة وعكرمة . ورواه السدي ، عن ابن عباس . وابن مسعود وناس من الصحابة ، حتى قال ابن عباس وغيـره من علماء السلف والخلف ومات موسى وهرون قبله كلاهما في التيه جميعاً[١]. وقد زعم ابن اسحق أن الذي فتح بيت المقدس هو موسى وإنما كان يوشـع على مقـدمته وذكـر في مروره[٢]إليهـا قصة بلعام بن باعور الذي قال تعالى فيه ﴿ وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكـان من الغاوين * ولـو شئنا لـرفعناه بهـا ولـكنـه أخلد إلى الأرض واتبـع هـواه فمثله كمثـل الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ذلـك مثل القـوم الـذين كذبـوا بآيـاتنا فـاقصص القصص لعلهم يتفكـرون . ساء مثـلاً القوم الـذين كذبـوا بآيـاتنا وأنفسهم كـانوا يـظلمون ﴾ [الأعراف : ١٧٥ ـ ١٧٧] وقد ذكرنا قصته في التفسير وأنه كان فيما قاله ابن عباس وغيره يعلم الاسم الأعظم ، وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى وقومه ، فـامتنع عليهم ولما ألحوا عليه ركب حمارة له ؛ ثم سار نحو معسكر بني إسرائيـل فلما أشرف عليهم ربضت بـه حمارتـه فضربهـا حتى قامت ، فسارت غير بعيد وربضت ، فضربها ضرباً أشد من الأول ، فقامت ثم ربضت ، فضربها فقالت له يا بلعام أين تذهب ، أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم ، فلم ينزع عنها فضربها حتى سارت به ، حتى أشرف عليهم من رأس جبل حُسبان . ونظر إلى معسكر موسى وبني إسرائيل فأخذ يدعو عليهم فجعل لسانه لا يطيعـه إلا أن يدعو لموسى وقومه ، ويدعو على قوم نفسه فلاموه على ذلك ، فاعتذر إليهم بأنه لا يجري على لسانه إلا هذا ، واندلع لسانه حتى وقع على صدره ، وقال لقومه : ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة . ثم أمر قومه أن يزينوا النساء ويبعثوهن بالأمتعة يبعن عليهم ويتعرضن لهم حتى لعلهم يقعون في الزنا ، فإنه متى زنى رجل منهم كفيتموهم ، ففعلوا وزينوا نساءهم ، وبعثوهن إلى المعسكر فمرت إمرأة منهم[٣]اسمها كستى برجل من عظماء بني إسرائيل وهو زمري بن شلوم . يقال إنه كان رأس سبط بني شمعون بن يعقوب فدخل بها قبته ، فلما خلا بها أرسل الله الطاعون على بني إسرائيل ، فجعل يجوس فيهم ، فلما بلغ الخبر إلى فنحاص بن العزار بن هرون[٤]أخذ حربته ، وكانت من حديد ، فدخل عليها القبة فانتظمهما جميعاً فيها ، ثم خرج بهما على الناس والحربة في يده ، وقد اعتمد على خاصرته وأسندها إلى لحيته ورفعها نحو السماء وجعل يقول : اللهم هكذا

---

(١) انظر الطبري ج ١/٢٢٥ .

(٢) نقل الخبر الطبري ج ١/٣٢٢ وفيه : ان موسى نزل أرض بني كنعان من أرض الشام وكـان بلعم ببالعـة قريـة من قرى البلقاء .

(٣) في الطبري : من الكنعانيين واسمها : كسبى ابنة صور .

(٤) في الطبري : فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى .

تفعل بمن يعصيك ، ورفع الطاعون فكان جملة من مات في تلك الساعة سبعين ألفاً والمقلل يقول عشرين ألفاً وكان فنحاص بكر أبيه العزار بن هرون فلهذا يجعل بنو اسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة اللية[1] والذراع واللحي ولهم البكر من كل أموالهم وأنفسهم . وهذا الذي ذكره ابن اسحق من قصة بلعام صحيح قد ذكره غير واحد من علماء السلف لكن لعله لما أراد موسى دخول بيت المقدس أول مقدمه من الديار المصرية ولعله مراد بن اسحاق ، ولكنه ما فهمه بعض الناقلين عنه وقد قدمنا عن نص التوراة ما يشهد لبعض هذا والله أعلم . ولعل هذه قصة أخرى كانت في خلال سيرهم في التيه فإن في هذا السياق ذكر حسبان وهي بعيدة عن أرض بيت المقدس أو لعله كان هذا لجيش موسى الذين عليهم يوشع بن نون حين خرج بهم من التيه قاصداً بيت المقدس كما صرح به السدي . والله أعلم . وعلى كل تقدير فالذي عليه الجمهور أن هرون توفي بالتيه قبل موسى أخيه بنحو من سنتين . وبعده موسى في التيه أيضاً كما قدمنا وأنه سأل ربه أن يقرب إلى بيت المقدس فأجيب إلى ذلك فكان الذي خرج بهم من التيه وقصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ أنه قطع بني اسرائيل نهر الأردن وانتهى إلى أريحا وكانت من أحصن المدائن سوراً وأعلاها قصوراً وأكثرها أهلاً فحاصرها ستة أشهر . ثم إنهم أحاطوا بها يوماً وضربوا بالقرون يعني الأبواق وكبروا تكبيرة رجل واحد فتفسخ سورها وسقط وجبة واحدة فدخلوها وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم ، وقتلوا إثني عشر ألفاً من الرجال والنساء ، وحاربوا ملوكاً كثيرة . ويقال إن يوشع ظهر على أحد وثلاثين ملكاً من ملوك الشام . وذكروا أنه انتهى محاصرته لها إلى يوم جمعة بعد العصر . فلما غربت الشمس أو كادت تغرب ويدخل عليهم السبت الذي جعل عليهم وشرع لهم ذلك الزمان قال لها إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها عليّ فحبسها الله عليه حتى تمكن من فتح البلد ، وأمر القمر فوقف عند الطلوع ، وهذا يقتضي أن هذه الليلة كانت الليلة الرابعة عشرة من الشهر الأول ، وهو قصة الشمس المذكورة في الحديث الذي سأذكره . وأما قصة القمر فمن عند أهل الكتاب ولا ينافي الحديث بل فيه زيادة تستفاد فلا تصدق ولا تكذب ولكن ذكرهم أن هذا في فتح اريحا فيه نظر ، والأشبه والله أعلم أن هذا كان في فتح بيت المقدس الذي هو المقصود الأعظم وفتح اريحا كان وسيلة إليه والله أعلم .

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا أبو بكر ، عن هشام ، عن ابن سيرين ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس »[2]. انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخاري . وفيه دلالة على أن الذي فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام لا موسى ، وأن حبس الشمس كان في فتح بيت

---

(١) في الطبري : القِبَة.

(٢) مسند أحمد ج ٢/٣٢٥ .

المقدس لا أريحا[1] كما قلنا . وفيه أن هذا كان من خصائص يوشع عليه السلام ، فيدل على ضعف الحديث الذي رويناه أن الشمس رجعت حتى صلى علي بن أبي طالب صلاة العصر بعدما فاتته بسبب نوم النبي ﷺ على ركبته فسأل رسول الله أن يردها عليه حتى يصلي العصر فرجعت . وقد صححه علي بن صالح المصري ولكنه منكر ليس في شيء من الصحاح ولا الحسان وهو مما تتوفر الدواعي على نقله وتفردت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يعرف حالها والله أعلم . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه : لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة ، وهو يريد أن يبني بها ولّما يبن . ولا آخر قد بنى بنياناً ، ولم يرفع سقفها ، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خلفات[2] وهو ينتظر أولادها ، فغزا فدنا من القرية حين صُلي العصر أو قريباً من ذلك ، فقال للشمس : أنت مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها عليّ شيئاً[3]، فحبست عليه حتى فتح الله عليه ، فجمعوا ما غنموا ، فأتت النار لتأكله فأبت أن تطعمه ، فقال فيكم غلول ، فليبايعني من كل قبيلة رجل ، فبايعوه فلصقت يد رجل بيده ، فقال فيكم الغلول ولتبايعني قبيلتك ، فبايعته قبيلته ، فلصق بيد رجلين أو ثلاثة فقال فيكم الغلول أنتم غللتم . فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب ، قال فوضعوه بالمال وهو بالصعيد ، فأقبلت النار فأكلته ، فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا»[4]. انفرد به مسلم من هذا الوجه . وقد روى البزار من طريق مبارك بن فضالة ، عن عبيد الله عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه . قال ورواه محمد بن عجلان ، عن سعيد المقبري ، قال ورواه قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . والمقصود أنه لما دخل بهم باب المدينة أمروا أن يدخلوها سجداً أي ركعاً متواضعين شاكرين لله عز وجل على ما من به عليهم من الفتح العظيم الذي كان الله وعدهم إياه وأن يقولوا حال دخولهم « حطة أي حط عنا خطايانا التي سلفت من نكولنا الذي تقدم منا . ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها دخلها وهو راكب ناقته ، وهو متواضع حامد شاكر ، حتى أن عثنونه ـ وهو طرف لحيته ـ ليمس مورك رحله ، مما يطأطىء رأسه خضعاناً لله عز وجل ومعه الجنود والجيوش ممن لا يرى منه إلا الحدق ، ولا سيما الكتيبة الخضراء التي فيها رسول الله ﷺ

---

(١) روى الطبري الخبر وفيه أن يوشع مات [وهو يقاتل سائر ملوك الشام] ودفن في جبل افراييم وقام بعده سبط يهوذا وسبط شمعون بحرب الكنعانيين ودخلوا أورشليم وحارب بنو يهوذا سائر الكنعانيين واستولوا على أرضهم ج ١/ ٢٢٩ .

(٢) خلفات : جمع خلفة ؛ وهي الحامل من الإبل .

(٣) قال القاضي : اختلف في حبس الشمس المذكور هنا . فقيل ردت على أدراجها . وقيل وقفت ولم ترد . وقيل أبطىء بحركتها .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢ / ٣١٨ وأخرجه مسلم في صحيحه في ٣٢ كتاب الجهاد (١١) باب تحليل الغنائم لهذه الأمة ٣٢/ ١٧٤٧ وأخرجه البخاري في صحيحه ٦٧/ ٥٨/ ٥١٥٧ فتح الباري ـ مختصراً .

ثم لما دخلها اغتسل وصلى ثماني ركعات ، وهي صلاة الشكر على النصر ، على المشهور من قولي العلماء . وقيل إنها صلاة الضحى ، وما حمل هذا القائل على قوله هذا إلاّ لأنها وقعت وقت الضحى .

وأما بنو اسرائيل فإنهم خالفوا ما أمروا به قولاً وفعلاً دخلوا الباب يزحفون على أستاههم يقولون : حبة في شعرة ، وفي رواية : حنطة في شعرة . وحاصله أنهم بدلوا ما أمروا به ، واستهزؤا به ، كما قال تعالى حاكياً عنهم في سورة الأعراف وهي مكية ﴿ وإذا قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فارسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون ﴾ [الأعراف : ١٦١ - ١٦٢] وقال في سورة البقرة وهي مدنية مخاطباً لهم ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ [البقرة : ٥٨ - ٥٩]. وقال الثوري عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ﴿ وادخلوا الباب سجداً ﴾ قال : ركعاً من باب صغير . رواه الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم . وكذا روى العوفي عن ابن عباس ، وكذا روى الثوري عن ابن اسحاق ، عن البراء . قال مجاهد والسدي والضحاك والباب هو باب حطة من بيت إيلياء ببيت المقدس . قال ابن مسعود فدخلوا مقنعي رؤوسهم ضد ما أمروا به وهذا لا ينافي قول ابن عباس : أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم . وهكذا في الحديث الذي سنورده بعد فإنهم دخلوا يزحفون وهم مقنعوا رؤوسهم. وقوله : وقولوا : « حطة » الواو هنا حالية لا عاطفة أي ادخلوا سجداً في حال قولكم حطة . قال ابن عباس وعطاء والحسن وقتادة والربيع أمروا أن يستغفروا * قال البخاري : حدثنا محمد ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن ابن المبارك ، عن معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قيل لبني اسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فدخلوا يزحفون على استاههم فبدلوا وقالوا حطة حبة في شعرة »[(1)]. وكذا رواه النسائي من حديث ابن المبارك ببعضه ، ورواه عن محمد بن اسماعيل بن إبراهيم ، عن ابن مهدي به موقوفاً . وقد قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن همام بن منبه ، أنه سمع أبا هريرة يقول ، قال رسول الله ﷺ : « قال الله لبني اسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم فقالوا : حبة في شعرة »[(2)]. ورواه البخاري

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/٢/٣ ، ٨/١٢٥/٢٢٨ فتح الباري . وأخرجه أحمد في مسنده ج ٢/٣١٨ .

(٢) أخرجه مسلم في ٥٤ كتاب التفسير ١/٣٠١٥ والبخاري حديث رقم ١٦٠٢ .

وأخرجه الترمذي في ٤٨ كتاب تفسير القرآن ٣ باب من سورة البقرة حديث ٢٩٥٦ وفيه قال : « دخلوا متزحفين على أوراكهم » .

ومسلم والترمذي من حديث عبد الرزاق وقال الترمذي حسن صحيح . وقال محمد بن اسحاق : كان تبديلهم كما حدثني صالح بن كيسان ، عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة وعمن لا أتهم ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً يزحفون على أستاهم وهم يقولون حنطة في شعيرة » . وقال اسباط عن السدي عن مرة عن ابن مسعود قال في قوله ﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ﴾ قال قالوا : « هطى سقانا ازمة مزيا » فهي في العربية : « حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء » . وقد ذكر الله تعالى أنه عاقبهم على هذه المخالفة ، بإرسال الرجز الذي أنزله عليهم ، وهو الطاعون ، كما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري عن عامر بن سعد ، ومن حديث مالك عن محمد بن المنكدر وسالم أبي النضر ، عن عامر بن سعد ، عن أسامة بن زيد ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن هذا الوجع (أو) السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم »[1]. وروى النسائي وابن أبي حاتم وهذا لفظه من حديث الثوري عن حبيب بن أبي ثابت ، عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه ، وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت قالوا : قال رسول الله ﷺ : « الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم » وقال الضحاك عن ابن عباس : الرجز العذاب . وكذا قال مجاهد وأبو مالك والسدي والحسن وقتادة . وقال أبو العالية ؛ هو الغضب . وقال الشعبي : الرجز إما الطاعون وإما البرد . وقال سعيد بن جبير هو الطاعون . ولما أستقرت يد بني إسرائيل على بيت المقدس أستمروا فيه، وبين أظهرهم نبي الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتى قبضه الله إليه وهو ابن مائة وسبع وعشرين[2]سنة فكان مدة حياته بعد موسى سبعاً وعشرين سنة[3].

[ذكر قصتي][4]الخضر والياس عليهما السلام

أما الخضر : فقد تقدم أن موسى عليه السلام رحل إليه في طلب ما عنده من العلم اللدني ، وقص الله من خبرهما في كتابه العزيز في سورة الكهف ، وذكرنا في تفسير ذلك هنالك ، وأوردنا هنا ذكر الحديث المصرح بذكر الخضر عليه السلام وأن الذي رحل إليه هو موسى بن عمران نبي بني إسرائيل عليه السلام الذي أنزلت عليه التوراة .

وقد اختلف في الخضر في اسمه ونسبه ونبوته وحياته ، إلى الآن ـ على أقوال ـ سأذكرها لك

---

(١) اخرجه أحمد في مسنده ج ١/ ١٩٣ والبخاري في صحيحه ٩٠/ ١٣/ ٦٩٧٤ فتح الباري .

(٢) في الطبري : مائة وست وعشرون سنة ، وفيه : انه مات قبل فتح بيت المقدس ، مات وهو يقاتل ملوك الشام ؛ وأما من فتح بيت المقدس .
وذكر المسعودي : كان عمره مائة وعشرون سنة .

(٣) ذكر المسعودي ١/ ٤٨ : بقي بعد موسى تسعاً وعشرين سنة ، وأما الطبري فكالأصل .

(٤) في النسخ المطبوعة : قصتا .

ههنا إن شاء الله وبحوله وقوته . قال الحافظ ابن عساكر : يقال إنه الخضر بن آدم عليه السلام لصلبه ، ثم روى من طريق الدارقطني : حدثنا محمد بن الفتح القلانسي ، حدثنا العباس بن عبدالله الرومي ، حدثنا رواد بن الجراح ، حدثنا مقاتل بن سليمان ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : الخضر بن آدم لصلبه ونسيء له في أجله حتى يكذب الدجال . وهذا منقطع وغريب . وقال أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني : سمعت مشيختنا منهم أبو عبيدة وغيره قالوا : إن أطول بني آدم عمراً الخضر ، واسمه خضرون بن قابيل بن آدم . قال : وذكر ابن إسحق : أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة أخبر بنيه أن الطوفان سيقع بالناس ، وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم في السفينة ، وأن يدفنوه [معهم][1] في مكان عينه لهم . فلما كان الطوفان حملوه معهم ، فلما هبطوا إلى الأرض أمر نوح بنيه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى . فقالوا إن الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة فحرضهم وحثهم على ذلك . وقال إن آدم دعا لمن يلي دفنه بطول العمر ، فهابوا المسير إلى ذلك الموضع في ذلك الوقت ، فلم يزل جسده عندهم حتى كان الخضر هو الذي تولى دفنه ، وأنجز الله ما وعده فهو يحيى إلى ما شاء الله له أن يحيي . وذكر ابن قتيبة في المعارف[2] عن وهب بن منبه أن اسم الخضر « بليا » * ويقال ايليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام . وقال إسماعيل بن أبي أويس اسم الخضر فيما بلغنا والله أعلم : المعمر بن مالك بن عبدالله بن نصر بن لازد . وقال غيره هو خضرون بن عمياييل بن اليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل . ويقال هو أرميا[3] بن خلقيا فالله أعلم . وقيل إنه كان ابن فرعون صاحب موسى ملك مصر وهذا غريب جداً . قال ابن الجوزي رواه محمد بن أيوب ، عن ابن لهيعة وهما ضعيفان . وقيل إنه ابن مالك . وهو أخو الياس قاله السدي كما سيأتي . وقيل أنه كان على مقدمة ذي القرنين . وقيل كان ابن بعض من آمن بإبراهيم الخليل وهاجر معه وقيل كان نبياً في زمن بشتاسب بن لهراسب .

قال ابن جرير والصحيح أنه كان متقدماً في زمن أفريدون ابن اثفيان حتى أدركه موسى عليهما السلام . وروى الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب أنه قال الخضر أمه رومية وأبوه فارسي .

وقد ورد ما يدل على أنه كان من بني إسرائيل في زمان فرعون أيضاً . قال أبو زرعة في

---

(١) سقطت من نسخ البداية والنهاية المطبوعة .

(٢) المعارف ص ١٩ : وزاد وكان أبوه ملكاً .

(٣) علق الطبري ج ١٩٤/١ قال : ويدل على خطأ قول من قال انه أورميا بن خلقيا (قال بنو إسرائيل انه أورميا - الكامل في التاريخ) لأن أورميا كان في أيام بختنصر وبين عهد موسى وبختنصر من المدة لا يشكل قدرها على أهل العلم ؛ أكثر من ألف عام كما في الكامل لابن الأثير . ج ١٦٠/١ - ١٦٣ .

« دلائل النبوة » : حدثنا صفوان بن صالح الدمشقي ، حدثنا الوليد ، حدثنا سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه ليلة أسرى به وجد رائحة طيبة فقال : « يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة ؟ » قال : هذه ريح قبر الماشطة وابنتها وزوجها . وقال وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشراف بني إسرائيل وكان ممره براهب في صومعته فتطلع عليه الراهب فعلمه الإسلام فلما بلغ الخضر زوجه أبوه امرأة فعلمها الإسلام ، وأخذ عليها أن لا تعلم أحداً ، وكان لا يقرب النساء ، ثم طلقها ثم زوجه أبوه بأخرى فعلمها الإسلام ، وأخذ عليها أن لا تعلم أحداً ثم طلقها ، فكتمت إحداهما وأفشت عليه الأخرى ، فانطلق هارباً حتى أتى جزيرة في البحر فأقبل رجلان يحتطبان ، فرأياه فكتم أحدهما وأفشى عليه الأخر ، قال : قد رأيت العزقيل ومن رآه معك قال : فلان ، فسئل فكتم ، وكان من دينهم أنه من كذب قتل ، فقتل وكان قد تزوج الكاتم المرأة الكاتمة ، قال : فبينما هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها فقالت تعس فرعون فأخبرت أباها وكان للمرأة ابنان وزوج ، فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما فأبيا فقال : إني قاتلكما ، فقالا : احسان منك إلينا إن أنت قتلتنا أن تجعلنا في قبر واحد فجعلهما في قبر واحد ، فقال : وما وجدت ريحاً أطيب منهما ، وقد دخلت الجنة وقد تقدمت قصة ماثلة بنت فرعون وهذا المشط في أمر الخضر قد يكون مدرجاً من كلام أبيّ بن كعب أو عبدالله بن عباس والله أعلم . وقال بعضهم كنيته أبو العباس ، والأشبه والله أعلم أن الخضر لقب غلب عليه . قال البخاري ـ رحمه الله : حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني ، حدثنا ابن المبارك ، عن معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه ، خضراء »[1] تفرد به البخاري وكذلك رواه عبد الرزاق عن معمر به . ثم قال عبد الرزاق الفروة : الحشيش الأبيض وما أشبهه يعني : الهشيم اليابس ، وقال الخطابي وقال أبو عمر الفروة : الأرض البيضاء التي لا نبات فيها ، وقال غيره هو الهشيم اليابس شبهه بالفروة ومنه قيل فروة الرأس وهي جلدته بما عليها من الشعر كما قال الراعي :

ولقد ترى الحبشيّ حولَ بيوتنا ... جَذِلاً إذا ما نالَ يوماً ماكلا
صعلاً أصكَّ كأنَّ فروةَ رأسه ... بُذِرَت فأنبتَ جانباهُ فُلفُلا[2]

قال الخطابي : إنما سمي الخضر خضراً لحسنه وإشراق وجهه . قلت : هذا لا ينافي ما ثبت في الصحيح فإن كان ولا بد من التعليل بأحدهما فما ثبت في الصحيح أولى ، وأقوى بل لا يلتفت

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٦٠ كتاب المناقب ٢٧ / ٣٤٠٢ فتح الباري . وأحمد في مسنده ج ٢ / ٣١٢ - ٣١٨ . والترمذي في سننه .

(٢) في نسخة : جعداً أصك . والصعل : الصغير الرأس . والأصك : المعوج الركبتين والعقبين .

إلى ما عداه وقد روى الحافظ ابن عساكر هذا الحديث أيضاً من طريق إسماعيل بن حفص بن عمر الايلي ، حدثنا عثمان وأبو جزي وهمام بن يحيى ، عن قتادة ، عن عبدالله بن الحارث بن نوفل ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « إنما سمي الخضر خضراً لأنه صلى على فروة بيضاء فاهتزت خضراء » . وهذا غريب من هذا الوجه . وقال قبيصة عن الثوري عن منصور عن مجاهد قال إنما سمي الخضر لأنه كان إذا صلى اخضرّ ما حوله وتقدم أن موسى ويوشع عليهما السلام رجعا يقصان الأثر وجداه على طنفسة خضراء على كبد البحر ، وهو مسجى بثوب ، قد جعل طرفاه من تحت رأسه وقدميه ، فسلم عليه السلام فكشف عن وجهه فرد وقال : أنّي بأرضك السلام ؟ من أنت ؟ قال : أنا موسى . قال : موسى [نبي][1] بني إسرائيل . قال : نعم فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه عنهما .

وقد دل سياق القصة على نبوته من وجوه .

أحدها : قوله تعالى ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من من لدنا علماً ﴾ [الكهف: ٦٥] .

الثاني : قول موسى له ﴿ هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً . قال إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا . قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمراً . قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ [الكهف : ٦٦ - ٧٠] فلو كان ولياً وليس بنبي لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة ، ولم يرد على موسى هذا الرد ، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله به دونه ، فلو كان غير نبي لم يكن معصوماً ، ولم تكن لموسى ، وهو نبي عظيم ورسوله كريم ، واجب العصمة ، كبير رغبة ولا عظيم طلبة ، في علم ولي غير واجب العصمة ، ولما عزم على الذهاب إليه والتفتيش عليه ، ولو أنه يمضي حقباً من الزمان قيل ثمانين سنة ، ثم لما اجتمع به تواضع له وعظمه واتبعه في صورة مستفيد منه ، دل على أنه نبي مثله يوحى إليه كما يوحى إليه ، وقد خص من العلوم اللدنية ، والأسرار النبوية ، بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم نبي بني إسرائيل الكريم ، وقد احتج بهذا المسلك بعينه الرماني[2] على نبوة الخضر عليه السلام .

الثالث: أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلام . وهذا دليل مستقل على نبوته . وبرهان ظاهر على عصمته لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس ، بمجرد ما يلقي في خلده ، لأن خاطره ليس بواجب العصمة إذ يجوز عليه الخطأ بالإتفاق . ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام ، الذي لم يبلغ الحلم علماً منه بأنه إذا بلغ يكفر ،

---

(١) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

(٢) في نسخة البلقاني .

ويحمل أبويه عن الكفر لشدة محبتهما له فيتابعانه عليه ، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته ، صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته ، دل ذلك على نبوته وانه مؤيد من الله بعصمته . وقد رأيت الشيخ أبا الفرج ابن الجوزي طرق هذا المسلك بعينه في الإحتجاج على نبوة الخضر وصححه . وحكى الإحتجاج عليه الرماني أيضاً .

الرابع : أنه لما فسر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى ، ووضح له عن حقيقة أمره وجلى ، قال بعد ذلك كله ﴿ رحمة من ربك وما فعلته من أمري ﴾ [الكهف : ٨٢] يعني ما فعلته من تلقاء نفسي ، بل [أمر][1] بل أمرت به وأوحى إليّ فيه . فدلت هذه الوجوه على نبوته . ولا ينافي ذلك حصول ولايته ، بل ولا رسالته كما قاله آخرون . وأما كونه ملكاً من الملائكة [فقول][2] غريب جداً . وإذا ثبتت نبوته كما ذكرناه لم يبق لمن قال بولايته وإن الولي قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر ، مستند يستندون إليه ، ولا معتمد يعتمدون عليه .

وأما الخلاف في وجوده إلى زماننا هذا ، فالجمهور على أنه باق إلى اليوم . قيل لانه دفن آدم بعد خروجهم من الطوفان فنالته دعوة أبيه آدم بطول الحياة . وقيل لأنه شرب من عين الحياة فحيي[3] .

وذكروا أخباراً استشهدوا بها على بقائه إلى الآن وسنوردها [مع غيرها][4] إن شاء الله تعالى وبه الثقة . وهذه وصيته لموسى حين ﴿ قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئكم بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴾ [الكهف : ٧٨] روي في ذلك آثار منقطعة كثيرة . قال البيهقي : أنبانا أبو سعيد بن أبي عمرو ، وحدثنا أبو عبدالله الصفار ، حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا ، حدثنا إسحاق بن إسماعيل ، حدثنا جرير ، حدثني أبو عبدالله [illegible]طي قال : لما أراد موسى أن يفارق الخضر ، قال له موسى : أوصني قال : كن نفاعاً ولا تكن ضراراً . كن بشاشاً ولا تكن غضبان . ارجع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة . وفي رواية من طريق أخرى زيادة : (ولا تضحك إلا من عجب) . وقال وهب بن منبه : قال الخضر : يا مـ ـى إن الناس معذبون في الدنيا على قدر همومهم بها ، وقال بشر بن الحارث الحافي : قال موسى للخضر : أوصني ، فقال : يسر الله عليك طاعته . وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه ابن عساكر من طريق زكريا بن يحيى الوقاد إلا أنه من الكذابين الكبار . قال قرىء على عبدالله بن وهب وأنا أسمع قال الثوري : قال مجالد : قال أبو الوداك : قال أبو سعيد الخدري ، قال عمر بن الخطاب ، قال قال رسول الله ﷺ : « قال أخي موسى يا

---

(١) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

(٢) سقطت من نسخ المطبوعة .

(٣) تناول الرازي في التفسير موضوعة الخضر بتفاصيل واسعة ومسائل كثيرة . انظر ج ١٥٨/٢١ وما بعدها .

(٤) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

رب ـ وذكر كلمته ـ فأتاه الخضر وهو فتى طيب الريح حسن بياض الثياب ، مشمرها فقال : السلام عليك ورحمة الله يا موسى بن عمران ، إن ربك يقرأ عليك السلام . قال موسى : هو السلام وإليه السلام ، والحمد لله رب العالمين ، الذي لا أحصي نعمه ، ولا أقدر على أداء شكره إلا بمعونته . ثم قال موسى : أريد أن توصيني بوصية ينفعني الله بها بعدك . فقال الخضر : يا طالب العلم إن القائل أقل ملالة[1] من المستمع ، فلا تمل جلساءك إذا حدثتهم ، وأعلم أن قلبك وعاء فانظر ماذا تحشوبه وعاءك . واعزف[2] عن الدنيا وانبذها وراءك . فإنها ليست لك بدار ولا لك فيها محل قرار . وإنما جعلت بلغة للعباد والتزود منها ليوم المعاد ، ورض نفسك على الصبر تخلص من الاثم . يا موسى تفرغ للعلم إن كنت تريده ، فإنما العلم لمن تفرغ له . ولا تكن مكثاراً للعلم مهذاراً فإن كثرة المنطق تشين العلماء وتبدي مساوي السخفاء . ولكن عليك بالإقتصاد فإن ذلك من التوفيق والسداد . وأعرض عن الجهال وماطلهم ، واحلم عن السفهاء ، فإن ذلك فعل الحكماء وزين العلماء ، وإذ شتمك الجاهل فاسكت عنه حلماً . وجانبه حزماً . فإن ما بقي من جهله عليك وسبه إياك أكثر وأعظم . يا ابن عمران ولا ترى أنك أوتيت من العلم إلا قليلاً . فإن الاندلاث والتعسف من الاقتحام والتكلف . يا ابن عمران لا تفتحن باباً لا تدري ما غلقه ، ولا تغلقن باباً لا تدري ما فتحه . يا ابن عمران من لا ينتهي من الدنيا نهمته ، ولا تنقضي منها رغبته ومن يحقر حاله ، ويتهم الله فيما قضى له كيف يكون زاهداً[3] . هل يكف عن الشهوات من غلب عليه هواه ؟ أو ينفعه طلب العلم والجهل قد حواه ؟ لأن سعيه إلى آخرته وهو مقبل على دنياه . يا موسى تعلم ما تعلمت لتعمل به ، ولا تعلمه لتحدث به ، فيكون عليك بواره ، ولغيرك نوره . يا موسى بن عمران ، اجعل الزهد والتقوى لباسك ، والعلم والذكر كلامك ، واستكثر من الحسنات فإنك مصيب السيئات ، وزعزع بالخوف قلبك فإن ذلك يرضي ربك واعمل خيراً فإنك لا بد عامل سوء . قد وعظتُ إن حفظتَ » قال فتولى وبقي موسى محزوناً مكروبا يبكي .

لا يصح هذا الحديث وأظنه من صنعة زكريا بن يحيى الوقاد المصري كذبه غير واحد من الأئمة والعجب أن الحافظ بن عساكر سكت عنه » وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني : حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ، ثنا عمرو بن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الحمصي ، حدثنا محمد بن الفضل بن عمران الكندي ، حدثنا بقية بن الوليد[4] عن محمد بن زياد ، عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « ألا أحدثكم عن الخضر ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله قال :

---

(١) في نسخ البداية المطبوعة : ملامة : وهو تحريف .

(٢) في نسخ البداية المطبوعة : واغرق من الدنيا وهو تحريف .

(٣) في نسخة : عابداً .

(٤) بقية بن الوليد بن صائد بن كعب الكلاعي ؛ أبو يحمد صدوق كثير التدليس عن الضعفاء من الثامنة مات سنة سبع وتسعين وله سبع وثمانون . تقريب التهذيب ١/١٠٥ .

« بينما هو ذات يوم يمشي في سوق بني إسرائيل أبصره رجل مكاتب فقال : تصدق عليّ بارك الله فيك فقال الخضر : آمنت بالله ما شاء من أمر يكون ما عندي من شيء أعطيكه فقال المسكين أسألك بوجه الله لما تصدقت عليّ فإني نظرت إلى السماء في وجهك ورجوت البركة عندك فقال الخضر : آمنت بالله ما عندي من شيء أعطيكه إلا أن تأخذني فتبيعني فقال المسكين : وهي يستقيم هذا ؟ قال : نعم الحق لك لقد سألتني بأمر عظيم أما أني لا أخيبك بوجه ربي بعني قال : فقدمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم فمكث عند المشتري زماناً لا يستعمله في شيء. فقال له : إنك ابتعتني التماس خير عندي فأوصني بعمل قال : أكره أن أشق عليك إنك شيخ كبير ضعيف . قال ليس يشق عليّ . قال فانقل هذه الحجارة وكان لا ينقلها دون ستة نفر في يوم فخرج الرجل لبعض حاجاته ثم انصرف وقد نقل الحجارة في ساعة . فقال : أحسنت وأجملت وأطقت ما لم أرك تطيقه . ثم عرض للرجل سفر فقال إني أحسبك أميناً فاخلفني في أهلي خلافة حسنة قال : فأوصني بعمل قال : إني أكره أن أشق عليك قال : ليس تشق عليّ قال : فاضرب من اللبن لبيتي حتى أقدم عليك ، فمضى الرجل لسفره فرجع وقد شيد بناؤه فقال أسألك بوجه الله ما سبيلك ؟ وما أمرك ؟ فقال : سألتني بوجه الله والسؤال بوجه الله أوقعني في العبودية سأخبرك من أنا ، أنا الخضر الذي سمعت به سألني مسكين صدقة فلم يكن عندي من شيء أعطيه ، فسألني بوجه الله فأمكنته من رقبتي ، فباعني وأخبرك أنه من سئل بوجه الله فرد سائله وهو يقدر ، وقف يوم القيامة جلده لا لحم له ، ولا عظم يتقعقع . فقال الرجل آمنت بالله ، شققت عليك يا نبي الله ولم أعلم ، فقال لا بأس أحسنت وأبقيت . فقال الرجل بأبي وأمي يا نبي الله أحكم في أهلي ومالي بما أراك الله أو أخيرك فأخلي سبيلك فقال : أحب أن تخلي سبيلي فأعبد ربي فخلى سبيله . فقال الخضر الحمد لله الذي أوقعني في العبودية ثم نجاني منها » . وهذا حديث رفعه خطأ والأشبه أن يكون موقوفاً وفي رجاله من لا يعرف فالله أعلم .

وقد رواه ابن الجوزي في كتابه « عجالة المنتظر في شرح حال الخضر » من طريق عبد الوهاب بن الضحاك وهو متروك عن بقية . وقد روى الحافظ ابن عساكر بإسناده إلى السدي : أن الخضر وإلياس كانا أخوين وكان أبوهما ملكاً فقال إلياس لأبيه : إن أخي الخضر لا رغبة له في الملك ، فلو أنك زوجته لعله يجيء منه ولد يكون الملك له فزوجه أبوه بامرأة حسناء بكر ، فقال لها الخضر : إنه لا حاجة لي في النساء فإن شئت أطلقت سراحك وإن شئت أقمت معي تعبدين الله عز وجل وتكتمين عليّ سري ؟ فقال : نعم وأقامت معه سنة . فلما مضت السنة دعاها الملك فقال إنك شابة وابني شاب فأين الولد فقالت : إنما الولد من عند الله إن شاء كان وإن لم يشأ لم يكن . فأمره أبوه فطلقها وزوجه بأخرى ثيباً قد ولد لها فلما زفت إليه قال لها كما قال للتي قبلها فأجابت إلى الإقامة عنده . فلما مضت السنة سألها الملك عن الولد فقال إن ابنك لا حاجة له بالنساء فتطلبه أبوه فهرب ، فأرسل وراءه فلم يقدروا عليه . فيقال إنه قتل المرأة الثانية لكونها

أفشت سره فهرب من أجل ذلك ، وأطلق سراح الأخرى ، فأقامت تعبد الله في بعض نواحي تلك المدينة ، فمر بها رجل يوماً فسمعته يقول بسم الله فقالت له : أنى لك هذا الاسم فقال إني من أصحاب الخضر فتزوجته فولدت له أولاداً . ثم صار من أمرها ماشطة بنت فرعون فبينما هي تمشطها إذ وقع المشط من يدها فقالت : بسم الله فقالت إبنة فرعون : أبي ؟ فقالت : لا ربي وربك ورب أبيك الله فاعلمت أباها فأمر بنقرة من نحاس ، فأحميت ثم أمر بها فألقيت فيه ، فلما عاينت ذلك تقاعست أن تقع فيها فقال لها ابن معها صغير يا أمه أصبري فإنك على الحق فألقت نفسها في النار فماتت رحمها الله . وقد روى ابن عساكر عن أبي داود الأعمى نفيع وهو كذاب وضاع عن أنس بن مالك ، ومن طريق كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف وهو كذاب أيضاً عن أبيه عن جده أن الخضر جاء ليلة فسمع النبي ﷺ وهو يدعو ويقول : « اللهم أعني على ما ينجيني مما خوفتني وارزقني شوق الصالحين إلى ما شوقتهم إليه فبعث إليه رسول الله أنس بن مالك فسلم عليه فرد عليه السلام وقال : قل له : إن الله فضلك على الأنبياء كما فضل شهر رمضان على سائر الشهور وفضل أمتك على الأمم كما فضل يوم الجمعة على غيره . الحديث[1] وهو مكذوب لا يصح سنداً ولا متناً كيف لا يتمثل بين يدي رسول الله ﷺ ويجيء بنفسه مسلماً ومتعلماً وهم يذكرون في حكاياتهم وما يسندونه عن بعض مشايخهم أن الخضر يأتي إليهم ويسلم عليهم ويعرف أسماءهم ومنازلهم ومحالهم وهو مع هذا لا يعرف موسى بن عمران كليم الله الذي اصطفاه الله في ذلك الزمان على من سواه حتى يتعرف إليه بأنه موسى بني إسرائيل . وقد قال الحافظ أبو الحسين بن المنادي بعد إيراده حديث أنس هذا وأهل الحديث متفقون على أنه حديث منكر الإسناد ، سقيم المتن يتبين فيه أثر الصنعة . فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي[2] قائلاً : أخبرنا أبو عبدالله

---

(١) رواه البيهقي في الدلائل ج ٤٢٣/٥ ولفظه : أن رسول الله ﷺ كان في المسجد فسمع كلاماً من زاوية وإذا هو بقائل يقول : اللهم أعني على ما ينجيني مما خوفتني ، فقال رسول الله ﷺ حين سمع ذلك : ألا تضم إليها أختها ؟ فقال : اللهم ارزقني شوق الصادقين إلى ما شوقتهم إليه . قال رسول الله لانس بن مالك وكان معه : اذهب يا أنس فقل له : يقول لك رسول الله ﷺ استغفر لي ؛ فجاء أنس فبلّغه فقال له الرجل : يا أنس أنت رسول الله إليّ ؟ فقال كما انت فرجع فاستثبته ، فقال رسول الله ﷺ قل له : نعم فقال : نعم فقال له : اذهب فقل له فضلك الله . . . الحديث . وتمامه على سائر الايام فذهبوا ينظرون فإذا هو الخضر عليه السلام .

رواه ابن عدي عن كثير بن عبد الله بن عمر بن عوف ، عن أبيه عن جده ، ورواه الطبراني في الاوسط واورده جلال الدين السيوطي في اللالىء المصنوعة ١٦٤/١ وختمه بقوله : عبد الله بن نافع ليس بشيء متروك .

وفي المجروحين ٢٢١/٢ كثير هذا : منكر الحديث جداً . وقال الشافعي عنه : ركن من أركان الكذب .

(٢) دلائل النبوة ج ٢٦٩/٧ وفيه عباد بن عبد الصمد ابن معمر البصري .

الحافظ ، [قال] أخبرنا أبو بكر بن بالويه ، [قال] حدثنا محمد بن بشر بن مطر ، [قال] حدثنا كامل بن طلحة ، [قال] حدثنا عباد بن عبد الصمد ، عن أنس بن مالك قال لما قبض رسول الله ﷺ أحدق به أصحابه ، فبكوا حوله ، واجتمعوا فدخل رجل أشهب اللحية ، جسيم صبيح ، فتخطى رقابهم ، فبكى ثم التفت إلى أصحاب رسول الله ﷺ فقال إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل فائت ، وخلفاً من كل هالك ، فإلى الله فانيبوا وإليه فارغبوا ، ونظر إليكم في البلاء فانظروا فإن المصاب من لم يجبر وانصرف فقال بعضهم لبعض ، تعرفون الرجل ؟ فقال أبو بكر وعلي نعم هو أخو رسول الله ﷺ الخضر عليه السلام . وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن كامل بن طلحة به وفي متنه مخالفة لسياق البيهقي ثم قال البيهقي : عباد بن عبد الصمد ضعيف ، وهذا منكر بمرة . قلت : عباد بن عبد الصمد هذا هو ابن معمر البصري . روى عن أنس نسخة قال ابن حبان والعقيلي أكثرها موضوع . وقال البخاري منكر الحديث . وقال أبو حاتم ضعيف الحديث جداً منكره . وقال ابن عدي : عامة ما يرويه في فضائل علي وهو ضعيف غال في التشيع . وقال الشافعي في مسنده : أخبرنا القاسم بن عبدالله بن عمر ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه عن جده علي بن الحسين قال : لما توفي رسول الله ﷺ وجاءت التعزية سمعوا قائلاً يقول : إن في الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفاً من كل هالك ودركاً من كل فائت ، فبالله فثقوا وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حرم الثواب . قال علي بن الحسين أتدرون من هذا . هذا الخضر . شيخ الشافعي القاسم العمري متروك . قال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يكذب . زاد أحمد ويضع الحديث ثم هو مرسل ومثله لا يعتمد عليه ههنا والله أعلم . وقد روي من وجه آخر ضعيف عن جعفر بن محمد ، عن أبيه عن جده ، عن أبيه عن علي . ولا يصح . وقد روى عبدالله بن وهب عمن حدثه ، عن محمد بن عجلان ، عن محمد بن المنكدر ، أن عمر بن الخطاب بينما هو يصلي على جنازة إذ سمع هاتفاً وهو يقول لا تسبقنا يرحمك الله ، فانتظره حتى لحق بالصف ، فذكر دعاءه للميت إن تعذبه فكثيراً عصاك وإن تغفر له ففقير إلى رحمتك . ولما دفن قال طوبى لك يا صاحب القبر ، إن لم تكن عريفاً أو جابياً أو خازناً أو كاتباً أو شرطياً فقال عمر خذوا الرجل نسأله عن صلاته وكلامه عمن هو . قال فتوارى عنهم فنظروا فإذا أثر قدمه ذراع . فقال عمر هذا والله الخضر الذي حدثنا عنه رسول الله ﷺ . وهذا الأثر فيه مبهم وفيه انقطاع ولا يصح مثله .

وروى الحافظ ابن عساكر عن الثوري ، عن عبدالله بن محرز[1] عن يزيد بن الأصم ، عن علي بن أبي طالب قال : دخلت الطواف في بعض الليل فإذا أنا برجل متعلق بأستار الكعبة وهو

---

(١) في قصص الأنبياء : ابن المحرر ، قال في الهامش : « في المطبوعة ابن محرز وقد صححه محقق الأولى (من قصص الأنبياء) من ميزان الاعتدال ٢ / ٥٠٠ وانظر الكنى والأسماء للدولابي ٢٥٨ » قلت : ولم أجد فيها الذي من مراجع عبدالله بن المحرز .

يقول : يا من لا يمنعه سمع من سمع ويا من لا تغلطه المسائل ، ويا من لا يبرمه إلحاح الملحين ، ولا مسألة السائلين ارزقني برد عفوك ، وحلاوة رحمتك ، قال : فقلت أعد عليّ ما قلت : فقال لي : أو سمعته ؟ قلت : نعم فقال لي : الذي نفس الخضر بيده ، قال : وكان هو الخضر . لا يقولها عبد خلف صلاة مكتوبة إلا غفر الله له ذنوبه ، ولو كانت مثل زبد البحر وورق الشجر وعدد النجوم لغفرها الله له . وهذا ضعيف من جهة عبدالله بن المحرز فإنه متروك الحديث ويزيد بن الأصم لم يدرك علياً ؛ ومثل هذا لا يصح ، والله أعلم . وقد رواه أبو إسماعيل الترمذي : حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا صالح بن أبي الأسود ، عن محفوظ بن عبدالله الحضرمي ، عن محمد بن يحيى قال : بينما علي بن أبي طالب يطوف بالكعبة إذا هو برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ويا من لا يغلطه السائلون ، ويا من لا يتبرم بإلحاح الملحين ، أرزقني برد عفوك ، وحلاوة رحمتك ، قال : فقال له علي : يا عبدالله أعد دعاءك هذا قال : وقد سمعته ؟ قال : نعم قال : فادع به في دبر كل صلاة فوالذي نفس الخضر بيده ، لو كان عليك من الذنوب عدد نجوم السماء ومطرها ، وحصباء الأرض وترابها لغفر لك أسرع من طرفة عين . وهذا أيضاً منقطع وفي اسناده من لا يعرف والله أعلم .

وقد أورد ابن الجوزي من طريق أبي بكر بن أبي الدنيا : حدثنا يعقوب بن يوسف ، حدثنا مالك بن إسماعيل فذكر نحوه . ثم قال وهذا إسناد مجهول منقطع وليس فيه ما يدل على أن الرجل الخضر . وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر : أنبأنا أبو القاسم بن الحصين ، أنبأنا أبو طالب محمد بن محمد ، أنبأنا أبو إسحق المزكي ، حدثنا محمد بن إسحق بن خزيمة ، حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد ، أملاه علينا بعبادان ، أنبأنا عمرو بن عاصم ، حدثنا الحسن بن رزين عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : ولا أعلمه إلا مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال : « يلتقي الخضر وإلياس كل عام في الموسم[1] ، فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه ، ويتفرقان عن هؤلاء الكلمات : بسم الله ما شاء الله ، لا يسوق الخير إلا الله ما شاء الله ، لا يصرف الشر إلا الله ما شاء الله ، ما كان من نعمة فمن الله ما شاء الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله . وقال ابن عباس : من قالهن حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات ، آمنه الله من الغرق والحرق والسرق . قال : وأحسبه قال : ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب .

قال الدارقطني في الافراد هذا حديث غريب من حديث ابن جريج لم يحدث به غير هذا الشيخ يعني الحسن بن رزين هذا . وقد روى عنه محمد بن كثير العبدي أيضاً ومع هذا قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدي ليس بمعروف . وقال الحافظ أبو جعفر العقيلي مجهول وحديثه غير

---

(١) ذكر الخبر الطبري في تاريخه دون تعليق قال : عن محمد بن المتوكل عن ضمرة بن ربيعة عن عبدالله بن شوذب قال : الخضر من ولد فارس والياس من بني إسرائيل يلتقيان في كل عام بالموسم . ١/ ١٨٨ .

محفوظ . وقال أبو الحسن بن المنادي هـو حديث واهٍ بـالحسن بن رزين[1] . وقد روى ابن عسـاكر نحوه من طريق عـلي بن الحسن الجهضمي وهو كـذاب عن ضمرة بن حبيب المقـدسي عن أبيه عن العـلاء بن زياد القشـيري عن عبدالله بن الحسن ، عن أبيـه ، عن جده ، عن عـلي بن أبي طـالب مرفوعاً قال : يجتمع كل يوم عرفـة بعرفـات جبريـل وميكائيـل وإسرافيل * والخضر وذكـر حديثـاً طويلاً موضوعاً تركنا إيراده قصدا ولله الحمد . وروى ابن عساكر من طريق هشام ابن خالد ، عن الحسن بن يحيى الخشني ، عن ابن أبي رواد ، قـال اليـاس والخضر يصـومـان شهـر رمضـان ببيت المقدس ، ويحجان في كل سنة ، ويشربان من ماء زمزم شربة واحدة تكفيهما إلى مثلهـا من قابـل . وروى ابن عساكر أن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، باني جامـع دمشق ، أحب أن يتعبد ليلة في المسجـد ، فأمـر القومـة أن يخلوه له ففعلوا ، فلما كـان من الليل جـاء من باب السـاعات فـدخل الجامع ، فإذا رجل قائم يصلي فيما بينه وبين باب الخضراء ، فقـال للقومـة : ألم آمركم أن تخلوه ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين هذا الخضر يجيء كل ليلة يصلي ههنا . وقال ابن عساكر أيضـاً : أنبأنـا أبو القاسم بن إسماعيل بن أحمد ، أنبأنا أبـو بكر بن الـطبري ، أنبأنـا أبو الحسـين بن الفضل ، أنبـأنا عبدالله بن جعفر، حدثنا يعقوب ـ هو ابن سفيان الفسوي ـ حـدثني محمد بن عبـدالعزيـز، حدثنـا ضمـرة[2] ، عن السري بن يحيى ، عن ربـاح بن عبيـدة ، قـال : رأيت رجـلاً يمـاشي عمـر بن عبـد العزيـز معتمداً عـلى يديـه ، فقلت في نفسي : إن هذا الـرجل حـافٍ ، قال فلما انصرف من الصلاة ـ قلت : من الرجل الذي كان معتمداً على يدك آنفاً ؟ قال : وهل رأيته يـا رباح ؟ قلت : نعم . قال : ما أحسبك إلاّ رجلاً صالحاً ذاك أخي الخضر بشرني أني سألي وأعدل . قال الشيخ أبو الفـرج بن الجوزي : الـرملي مجـروح عند العلماء * وقـد قـدح أبـو الحسـين بن المنـادي في ضمـرة والسري ورباح . ثم أورد من طرق أخر عن عمر بن عبـد العزيـز أنه اجتمـع بالخضر ، وضعفهـا كلهـا . وروى ابن عساكـر أيضاً أنـه اجتمع بـإبراهيم التيمي وبسفيـان بن عيينة وجمـاعـة يـطول ذكرهم . وهذه الروايات والحكايات هي عمـدة من ذهب إلى حياتـه إلى اليوم وكـل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جداً ، لا يقوم بمثلهـا حجة في الـدين ، والحكايـات لا يخلو أكثرهـا عن ضعف في الإسناد ، وقصاراها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم من صحابي أو غيره ، لأنه يجوز عليه الخـطأ والله أعلم . وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري أخبرني عبيدالله بن عبدالله بن عتبة، أن أبا سعيد قال : حدثنا رسول الله ﷺ [يوماً] حديثاً طويلاً عن الدجال . وقال فيـما يحدثنـا : « يأتي ـ الدجال ـ وهـو محرم عليـه أن يدخـل نقاب المـدينة ـ [فينتهي إلى بعض السبـاخ التي تلي المـدينة] فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس ، أو من خيرهم ، فيقول [له] : أشهد أنك أنت الدجـال الـذي حدثنـا عنك رسـول الله ﷺ بحديثـه فيقول الـدجـال : أرايتم إن قتلت هـذا ثم أحييتـه ،

(١) في النسخ المطبوعة : زريق ، والصواب ما أثبتناه من ميزان الاعتدال .

(٢) في النسخ المطبوعة : جمرة وفي نسخة حمزة وهو تحريف . والصواب ما أثبتناه .

أتشكون في الأمر ؟ فيقولون : لا . فيقتله ثم يحييه فيقول حين يحيي والله ما كنت أشد بصيرة فيك مني الآن قال : فيريد قتله الثانية فلا يسلط عليه[1] قال معمر بلغني أنه يجعل على حلقه صحيفة من نحاس وبلغني أنه الخضر الذي يقتله الدجال ثم يحييه وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري به . وقال أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الراوي عن مسلم الصحيح أن يقال : إن هذا الرجل الخضر . وقول معمر وغيره بلغني ليس فيه حجة وقد ورد في بعض ألفاظ الحديث فيأتي بشاب ممتلىء شباباً فيقتله وقوله الذي حدثنا عنه رسول الله ﷺ لا يقتضي المشافهة بل يكفي التواتر .

وقد تصدى الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في كتابه : « عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر » للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات فبين أنها موضوعة ، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها ، وجهالة رجالها ، وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد * وأما الذين ذهبوا إلى أنه قد مات ومنهم البخاري وإبراهيم الحربي وأبو الحسين بن المنادي والشيخ أبو الفرج بن الجوزي وقد انتصر لذلك وألف فيه كتاباً سماه « عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر » فيحتج لهم بأشياء كثيرة * منها قوله [تعالى] ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ [الأنبياء : ٣٤] فالخضر إن كان بشراً فقد دخل في هذا العموم لا محالة ، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح انتهى . والأصل عدمه حتى يثبت . ولم يذكر ما فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله . ومنها أن الله تعالى قال ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول الله مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ [آل عمران : ٨١] قال ابن عباس ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه . وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق ، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به وينصرنه . ذكره البخاري عنه . فالخضر إن كان نبياً أو ولياً ، فقد دخل في هذا الميثاق ، فلو كان حياً في زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله ، أن يكون بين يديه ، يؤمن بما أنزل الله عليه ، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه ، لأنه إن كان ولياً فالصديق أفضل منه ، وإن كان نبياً فموسى أفضل منه . وقد روى الإمام أحمد في مسنده : حدثنا شريح بن النعمان ، حدثنا هشيم ، أنبأنا مجالد ،

(١) صحيح البخاري ٢٩/٩ ، ٧٦/٣٠ ، ٩٧/٣١ ومسلم في ٤٨٥/١٥ و٥٢ كتاب الفتن ٢١ باب في صفة الدجال ١١٢ (٢٩٣٨) ص ٢٢٥٦/٤ ورواه مالك في الموطأ، وأخرجه أحمد في مسنده ج ١٨٣/١ ، ٢ /٢٣٧ - ٣٣٠ - ٤٨٣ ، ٢٠٢/٣ - ٢٧٧ - ٣٩٣ ، ٨١/٥ - ٢٠٧ .

- نقاب المدينة : أي طرقها وفجاجها ، وهو جمع نقب ، وهو الطريق بين الجبلين .

- ما بين معكوفين في الحديث زيادة اقتضاها السياق من صحيح مسلم .

- أبو سعيد يعني الخدري .

عن الشعبي ، عن جابر بن عبدالله ، أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني »[1] . وهذا الذي يقطع به ويعلم من الدين علم الضرورة . وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء مكلفون في زمن رسول الله ﷺ لكانوا كلهم أتباعاً له ، وتحت أوامره ، وفي عموم شرعه . كما أنه صلوات وسلامه عليه لما اجتمع معهم ليلة الإسراء ، رفع فوقهم كلهم ، ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس وحانت الصلاة ، أمره جبريل عن أمر الله أن يؤمهم ، فصلى بهم في محل ولايتهم ودار إقامتهم فدل على أنه الإمام الأعظم ، والرسول الخاتم المبجل المقدم ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . فإذا علم هذا - وهو معلوم عند كل مؤمن - علم أنه لو كان الخضر حياً لكان من جملة أمة محمد ﷺ وممن يقتدي بشرعه لا يسعه إلا ذلك « هذا عيسى بن مريم عليه السلام إذا نزل في آخر الزمان بحكم بهذه الشريعة المطهرة ، لا يخرج منها ولا يحيد عنها ، وهو أحد أولى العزم الخمسة[2] المرسلين وخاتم أنبياء بني إسرائيل والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه ، أنه اجتمع برسول الله ﷺ في يوم واحد ، ولم يشهد معه قتالاً في مشهد من المشاهد . وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق فيما دعا به لربه عز وجل ، واستنصره واستفتحه على من كفره : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض »[3] وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ ، وسادة الملائكة حتى جبريل عليه السلام ، كما قال حسان بن ثابت في قصيدة له في بيت يقال إنه أفخر بيت قالته العرب :

وبِبِئرِ بَدرٍ إذْ يَرد وُجوهَهم ... جِبريلُ تحتَ لِوائِنا ومُحمَّدُ[4]

فلو كان الخضر حياً لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته . قال القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي : سئل بعض أصحابنا عن الخضر هل مات ؟ فقال : نعم . قال : وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر بن الغباري قال : وكان يحتج بأنه لو كان حياً لجاء إلى رسول الله ﷺ . نقله ابن الجوزي في العجالة . فإن قيل : فهل يقال إنه كان حاضراً في هذه المواطن كلها ولكن لم يكن أحد يراه . فالجواب أن الأصل عدم هذا الإحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العموميات بمجرد التوهمات . ثم ما الحامل له على هذا الاختفاء وظهوره أعظم لأجره وأعلى في مرتبته وأظهر بمعجزته . ثم لو كان باقياً بعده لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة والروايات المقلوبة والآراء البدعية

---

(١) مسند أحمد ج ٣٨٧/٣ .

(٢) وهم - صلوات الله عليهم - نوح ، وإبراهيم - وموسى ، وعيسى ومحمد عليهم السلام .

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري ، في تفسير سورة الأنفال ، وابن المنذر ، وابن مردويه ونقله عنهم السيوطي في الدر المنثور ١٦٩/٣ .

(٤) في نسخ البداية المطبوعة : وتبير بدل « وبئر » وهو تحريف .

والأهواء العصبية وقتاله مع المسلمين في غزواتهم وشهوده جمعهم ، وجماعاتهم ، ونفعه إياهم ، ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم وتسديده العلماء ، والحكام وتقريره الأدلة ، والأحكام أفضل ما يقال عنه من كنونه[1] في الأمصار . وجوبه الفيافي والأقطار . واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم ، وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم . وهذا الذي ذكرناه لا يتوقف أحد فيه بعد التفهيم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين[2] وغيرهما عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ صلى ليلة العشاء ثم قال : « أرأيتم ليلتكم هذه فإنه إلى مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض اليوم أحد » . وفي رواية « عين تطرف » . قال ابن عمر : فَوُهِلَ الناس في مقالة رسول الله ﷺ هذه وإنما أراد انخرام قرنه . قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن الزهري ، قال : أخبرني سالم بن عبدالله وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة أن عبدالله بن عمر قال : صلى رسول الله ﷺ ذات ليلة العشاء في آخر حياته فلما سلم قام فقال : « أرأيتم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن على ظهر الأرض أحد»[3]. وأخرجه البخاري ومسلم من حديث الزهري * وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدي ، عن سليمان التيمي ، عن أبي نضرة ، عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ قبل موته بقليل أو بشهر : « ما من نفس منفوسة أو ما منكم من نفس اليوم منفوسة يأتي عليها مائة سنة وهي يومئذ حية »[4] وقال أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن لهيعة ، عن أبي الزبير ، عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال قبل أن يموت بشهر : « يسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله أقسم بالله ما على الأرض نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة »[5] . وهكذا رواه مسلم من طريق أبي نضرة وأبي الزبير كل منهما عن جابر بن عبدالله به نحوه . وقال الترمذي : حدثنا عباد ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش عن أبي سفيان ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما على الأرض من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة » . وهذا أيضاً على شرط مسلم * قال ابن الجوزي فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر . قالوا : فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذي يترقى في القوة إلى القطع فلا إشكال . وإن كان قد أدرك زمانه فهذا الحديث يقتضي أنه لم يعش بعد مائة سنة فيكون الآن مفقوداً لا موجوداً لانه داخل في هذا العموم والأصل عدم المخصص له

---

(١) كنون من كن ، كنّ الشيء إذا ستره . وكنونه : تستره وتخفيه .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/٤١/١١٦ فتح الباري ومسلم في صحيحه ٤٤/٥٣/٢١٧ .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ج ٢/٨٨ .

(٤) مسند الإمام أحمد ٣/٣٠٥ ـ ٣٠٦ ومسلم في صحيحه ٤٤/٥٣/٢١٨ .

(٥) مسند الإمام أحمد ج ٣/٣٤٥ .

حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله والله أعلم .

وقد حكى الحافظ أبو القاسم السهيلي في كتابه « التعريف والاعلام » عن البخاري وشيخه أبي بكر بن العربي أنه أدرك حياة النبي ﷺ . ولكن مات بعده لهذا الحديث وفي كون البخاري رحمه الله يقول بهذا وأنه بقي إلى زمان النبي ﷺ نظر * ورجح السهيلي بقاءه وحكاه عن الأكثرين . قال وأما إجتماعه مع النبي ﷺ وتعزيته لأهل البيت بعده فمروي من طرق صحاح ثم ذكر ما تقدم مما ضعفناه ولم يورد أسانيدها والله أعلم .

وأما[1] الياس عليه السلام

فقال الله تعالى بعد قصة موسى وهرون من سورة الصافات ﴿وإن الياس لمن المرسلين. إذ قال لقومه ألا تتقون. أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين. الله ربكم ورب آباءكم الأولين. فكذبوه فإنهم لمحضرون . إلا عباد الله المخلصين . وتركنا عليه في الآخرين . سلام على الياسين . إنا كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ [الصافات : ١٢٣ ـ ١٣٢] قال علماء النسب هو الياس التشبي * ويقال ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هرون * وقيل الياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران . قالوا وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربي دمشق[1] فدعاهم إلى الله عز وجل وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه بعلاً . وقيل كانت امرأة اسمها بعل والأول أصح . ولهذا قال لهم ﴿ ألا تتقون . أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آباءكم الأولين ﴾ [الصافات : ١٢٤ ـ ١٢٦] فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله فيقال إنه هرب منهم واختفي عنهم * قال أبو يعقوب الأذرعي ، عن يزيد بن عبد الصمد ، عن هشام بن عمار قال : وسمعت من يذكر عن كعب الأحبار أنه قال : إن إلياس اختفى من ملك قومه في الغار الذي تحت الدم عشر سنين ، حتى أهلك الله الملك وولي غيره ، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام ، فأسلم ، وأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف منهم ، فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم . وقال ابن أبي الدنيا حدثني أبو محمد القاسم بن هاشم ، حدثنا عمر بن سعيد الدمشقي ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشق قال : أقام إلياس عليه السلام هارباً من قومه في كهف جبل عشرين ليلة . أو قال أربعين ليلة ـ تأتيه الغربان برزقه . وقال محمد بن سعد كاتب الواقدي : أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، عن أبيه قال : أول نبي

---

(١) قال الطبري ج ٢٣٩/١ : كان سائر بني إسرائيل قد اتخذوا صنماً يعبدونه من دون الله يقال له بعل. وقال ابن قتيبة في المعارف :إلياس من سبط يوشع بن نون بعثه الله في أهل بعلبك وكانوا يعبدون صنماً يقال له بعل وملكهم اسمه أحب وامرأته أزبيل . أما الطبري فيقول أن أحاب أحد ملوك بني إسرائيل واسم امرأته ازبل فقد كان يسمع منه ويصدقه ـ دون سائر ملوك بني إسرائيل الذين عبدوا بعل .

بعث إدريس ، ثم نوح ثم إبراهيم ، ثم إسماعيل وإسحق ثم يعقوب ثم يوسف ثم لوط ثم هود ثم صالح ثم شعيب ، ثم موسى وهارون ابنا عمران ، ثم إلياس التشبي بن العازر بن هارون بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام هكذا قال وفي هذا الترتيب . وقال مكحول عن كعب أربعة أنبياء أحياء اثنان في الأرض إلياس والخضر ، واثنان في السماء إدريس وعيسى [عليهم السلام] . وقد قدمنا قول من ذكر أن إلياس والخضر يجتمعان في كل عام في شهر رمضان ببيت المقدس ، وأنهما يحجان كل سنة ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل * وأوردنا الحديث الذي فيه انهما يجتمعان بعرفات كل سنة . وبيّنا أنه لم يصح شيء من ذلك وأن الذي يقوم عليه الدليل : أن الخضر مات ، وكذلك إلياس عليهما السلام . وما ذكره وهب بن منبه وغيره : أنه لما دعا ربه عز وجل أن يقبضه إليه لما كذبوه وآذوه ، فجاءته دابة لونها لون النار فركبها وجعل الله له ريشاً وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وصار ملكياً بشرياً سماوياً أرضياً وأوصى إلى اليسع بن أخطوب[1] ففي هذا نظر وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب بل الظاهر أن صحتها بعيدة والله أعلم .

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي[2] : أخبرنا أبو عبدالله الحافظ ، حدثني أبو العباس أحمد بن سعيد المعداني[3] ببخارا حدثنا عبدالله بن محمود ، حدثنا عبدان بن سنان ، حدثني أحمد بن عبدالله البرقي ، حدثنا يزيد بن يزيد البلوي ، حدثنا أبو إسحاق الفزاري ، عن الأوزاعي عن مكحول ، عن أنس بن مالك قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلا فإذا رجل في الوادي يقول : اللهم اجعلني من أمة محمد ﷺ المرحومة المغفورة المثاب لها قال : فأشرفت على الوادي فإذا رجل طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع فقال لي : من أنت ؟ فقلت : أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ قال : فأين هو ؟ قلت : هو ذا يسمع كلامك قال فأته فأقرئه السلام وقل له أخوك إلياس يقرئك السلام . قال : فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فجاء حتى لقيه فعانقه وسلم [عليه] * ثم قعدا يتحادثان فقال له يا رسول الله إني ما آكل في [السنة] إلا يوماً وهذا يوم فطري فآكل أنا وأنت قال : فنزلت عليهما مائدة من السماء عليها خبز وحوت وكرفس فأكلا وأطعماني وصلينا العصر ، ثم ودعه [ثم رأيته] مر في السحاب نحو السماء . فقد كفانا البيهقي[4]

---

(١) روى الخبر ابن الأثير في الكامل ج ١/٢١٤ .

(٢) دلائل النبوة ج ٥/٤٢١ .

(٣) كذا في الأصول : وفي دلائل البيهقي : البغدادي .

البرقي ـ في الدلائل الرقي .

يزيد بن يزيد البلوي : في الدلائل : يزيد العلوي .

(٤) ما بين معكوفين في الحديث من دلائل البيهقي .

عقب البيهقي بعد تمام الحديث قال : قلت : هذا الذي روي في هذا الحديث في قدرة الله تعالى جائز وبما خص الله

أمره وقال : هـذا حديث ضعيف بمرة والعجب أن الحاكم أبا عبدالله النيسابوري أخرجه في مستدركه على الصحيحين وهـذا مما يستدرك به على المستدرك[1] فإنه حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه . ومعناه لا يصح أيضاً فقد تقدم في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً في السماء إلى أن قال - « ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » وفيه أنه لم يأت إلى رسول الله ﷺ حتى كان هو الذي ذهب إليه . وهـذا لا يصح لأنه كان أحق بالسعي إلى بين يدي خاتم الأنبياء . وفيه أنه يأكل في السنة مرة وقد تقدم عن وهب أنه سلبه الله لذة المطعم والمشرب وفيما تقدم عن بعضهم أنه يشرب من زمزم كل سنة شربة تكفيه إلى مثلها من الحول الآخر . وهذه أشياء متعارضة وكلها باطلة لا يصح شيء منها . وقد ساق ابن عساكر هذا الحديث من طريق أخرى واعترف بضعفها وهـذا عجب منه كيف تكلم عليه فإنه أورده من طريق حسين بن عرفة ، عن هانىء بن الحسن ، عن بقية ، عن الأوزاعي ، عن مكحول ، عن واثلة ، عن ابن الأسقع فذكر نحو هذا مطولاً وفيه أن ذلك كان في غزوة تبوك وأنه بعث إليه رسول الله ﷺ أنس بن مالك وحذيفة بن اليمان قالا : فإذا هو أعلى جسماً بذراعين أو ثلاثة واعتذر بعدم قدرته لئلا تنفر الإبل وفيه أنه لما اجتمع به رسول الله ﷺ أكلا من طعام الجنة وقال : إن لي في كل أربعين يوماً أكلة وفي المائدة خبز ورمان وعنب وموز ورطب وبقل ما عدا الكراث وفيه أن رسول الله ﷺ سأله : عن الخضر فقال : عهدي به عام أول وقال لي إنك ستلقاه قبلي فأقرئه مني السلام . وهذا يدل على أن الخضر وإلياس بتقدير وجودهما وصحة هـذا الحديث لم يجتمعا به إلى سنة تسع من الهجرة وهذا لا يسوغ شرعاً وهذا موضوع أيضاً . وقد أورد ابن عساكر طرقاً فيمن اجتمع بالياس من العباد وكلها لا يفرح بها لضعف إسنادها أو لجهالة المسند إليه فيها * ومن أحسنها ما قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثني بشر بن معاذ حدثنا حماد بن واقد عن ثابت قال : كنا مع مصعب بن الزبير بسواد الكوفة فدخلت حائطاً أصلي فيه ركعتين فافتتحت ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول ﴾ [غافر : ١ - ٢] . فإذا رجل من خلفي على بغلة شهباء ، عليه مقطعات يمنية ، فقال لي إذا قلت غافر الذنب فقل : يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي . وإذا قلت قابل التوب فقل : يا قابل التوب تقبل توبتي . وإذا قلت شديد العقاب فقل : يا شديد العقاب لا تعاقبني . وإذا قلت ذي الطول فقل : يا ذا الطول تطول عليّ برحمة فالتفت فإذا لا أحد وخرجت فسألت : مر بكم رجل على بغلة شهباء عليه

= عز وجل به رسوله من المعجزات يشبه ، إلا أن إسناد هذا الحديث ضعيف بمرة .

(١) قال الذهبي في الميزان ٤٤١/٤ عن يزيد بن يزيد عن أبي إسحاق الفزاري بحديث باطل أخرجه الحاكم في مستدركه . . . فما استحي الحاكم من الله يصحح مثل هذا ثم قال الذهبي في تلخيص المستدرك : هذا موضوع ، قبح الله من وضعه ، وما كنت أحسب أن الجهل يبلغ بالحاكم إلى أن يصحح هذا .
ورواه ابن الجوزي في الموضوعات ٢٠٠/١ وقال : حديث موضوع لا أصل له .

مقطعات يمنية ؟ فقالوا ما مر بنا أحد فكانوا لا يرون إلا أنه الياس . وقوله تعالى . ﴿ فكذبوه فإنهم لمحضرون ﴾ [الصافات : ١٢٧] أي للعذاب إما في الدنيا والآخرة أو في الآخرة . والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون . ﴿ وقوله إلا عباد الله المخلصين ﴾ [الصافات : ١٢٨] أي إلا من آمن منهم وقوله ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ [الصافات : ١٢٩] أي ابقينا بعده ذكراً حسناً له في العالمين فلا يذكر إلا بخير ولهذا قال ﴿ سلام على الياسين ﴾ [الصافات : ١٣٠] أي سلام على الياس . العرب تلحق النون في أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها كما قالوا إسماعيل وإسماعين وإسرائيل وإسرائين والياس والياسين . ومن قرأ سلام على آل ياسين أي على آل محمد وقرأ ابن مسعود وغيره سلام على ادراسين . ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود انه قال : الياس هو إدريس وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق والصحيح أنه غيره كما تقدم والله أعلم .